موسوعة

القرآن في مواجهة الشبهات والأباطيل

الجزء الثاني

شبهات حول ما تُوهّم من أخطاء لغويّة في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

• الشبهة الأولى ١

توهُّم اضطراب القرآن في استخدام أسماء الإشارة ١

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ ثمَّة تعارضًا بين قوله ﷻ: ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة: ١: ٢)، وقوله ﷻ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ (الأنعام: ٩٢)؛ حيث أشار ﷻ في الآية الأولى إلى القرآن بإشارة البعيد ذلك، وفي الثانية بإشارة القريب هذا. ١

• الشبهة الثانية ٧

توهُّم مخالفة القرآن الكريم لقواعد العربية في عَوْد الضمير جمعًا على المفرد ٧

يزعم بعض المدعين أن القرآن الكريم لم يراعِ المطابقة بين الضمير والعائد عليه في العدد؛ فقد أعاد ضمير الجمع على المفرد، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧)؛ حيث عاد الضمير في قوله **بنورهم** جمعًا على المفرد **الذي**، والصواب في ظنِّهم أن يُقال: "ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِ أو يقال: (مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارًا). ٧

• الشبهة الثالثة ٢٠

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد العربية في مجيء جمع الكثرة موضعَ جمعِ القلَّة ٢٠

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠) مخالفة لقواعد اللغة العربية؛ حيث استخدم جمع الكثرة **معدودة** في موضع جمع القلة، والصواب في زعمهم أن يُقال: **أيامًا معدودات**. ٢٠

• الشبهة الرابعة ٢٦

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في نصب الفاعل ورفع المفعول به ٢٦

زعم بعض المشككين أنَّ القرآن الكريم خالف قواعد اللغة بنصب الفاعل ورفع المفعول به في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٢٤)، فإبراهيم في زعمهم فاعل منصوب، و ربُّه مفعول به مرفوع، وهذا مخالف لقواعد اللغة. ٢٦

• الشبهة الخامسة ٣٢

الادِّعاء أنَّ القرآن خالف قواعد اللغة ونَصب الفاعل ٣٢

يتوهَّم بعض المدعين أنَّ القرآن خالف قواعد اللغة ونصب الفاعل: ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ في قوله ﷺ: ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(**) (البقرة: ١٢٤)، والصواب في ظنهم أن يُقال: **الظالمون** بالرفع. ٣٢

• الشبهة السادسة ٣٧

توهُّم اضطراب القرآن الكريم في الإتيان باسم الموصول في مكان المصدر ٣٧

يتوهم بعض المدَّعين أن في القرآن الكريم اضطرابًا؛ حيث جاء بالموصول في مكان المصدر وذلك في قوله ﷺ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ إذ الصواب في ظنهم أن يقال: ولكن البر أن تؤمنوا بالله، أن يُقال: "ولكنَّ البرَّ مَنْ آمن"؛ لأن البر هو الإيمان لا المؤمن". ٣٧

• الشبهة السابعة ٤٢

توهُّم مخالفة القرآن قواعد اللغة في نصب المعطوف على مرفوع ٤٢

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في قوله ﷺ: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء ﴾ (البقرة: ١٧٧)، مخالفة لقواعد اللغة؛ حيث جاء المعطوف **الصابرين** منصوبًا، مع أنَّ المعطوف عليه **الموفون** مرفوع، والصواب في زعمهم أن يُقال: **والصابرون** بالرفع عطفًا على ما قبلها. ٤٢

• الشبهة الثامنة ٤٨

ادِّعاء اضطراب القرآن الكريم في تذكير العدد وتأنيثه ٤٨

يزعم بعض المتوهمين أنَّ القرآن الكريم لم يُصِبْ في تذكير العدد وتأنيثه، ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، والصواب في ظنهم أن يقول: **تلك عشر كاملة**. ٤٨

• الشبهة التاسعة ٥٣

الزَّعم أنَّ القرآن الكريم يأتي بتوضيح ما لا يحتاج إلى توضيح ٥٣

يزعم بعض المشككين أنَّ القرآن الكريم يأتي بكلمات لا فائدة منها، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، فكلمة **كاملة** لا لزوم لها؛ لأنها في زعمهم توضيح ما لا يحتاج إلى توضيح. ٥٣

• الشبهة العاشرة ٦١

ادّعاء عدم المطابقة بين الفعل والفاعل فى التذكير والتأنيث ٦١

يدَّعى بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يطابق في النوع (التذكير والتأنيث) بين الفعل وفاعله، واستدلوا على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، والصواب - فى ظنهم - أن يقال: **جاءته موعظة** بتأنيث الفعل **جاء** لا تذكيره كما في الآية. ٦١

• الشبهة الحادية عشرة ٦٤

توهم أن التشابه في القرآن ينافي إعجازه وبلاغته، ولا فائدة منه ٦٤

يتوهم بعض المشككين أن المتشابهات في القرآن تُنافي بلاغته، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٧). ويتساءلون: ألا يُعدُّ وجود هذه المتشابهات نقصًا في البلاغة والإحكام؟ ٦٤

• الشبهة الثانية عشرة ٧٦

توهُّم عدم المطابقة بين الصِّفة والموصوف فى العدد ٧٦

يزعم بعض المتوهمين أنَّ فى قوله ﷻ: ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (آل عمران: ١٥) خطأً؛ حيث جاء الوصف مطهَّرة: مفردًا مع أنَّ الموصوف أزواج: جمع، والصواب فى ظنِّهم أن يقال: مُطهَّرات، حتى تحصل المطابقة بين الصِّفة والموصوف فى العدد ٧٦

• الشبهة الثالثة عشرة ٨٠

توهم أن القرآن الكريم وضع أدوات ربط في غير موضعها ٨٠

يتوهم بعض المتخرصين خروج القرآن الكريم عن المألوف في وضع أدوات الربط في غير موضعها، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ

وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء: ٣)؛ حيث استخدم القرآن أداة الربط "الواو" بدلاً من "أو"، وهي حرف يدل على مطلق الجمع، وعليه فلابد أن تجمع الأعداد الثلاثة هكذا: مثنى + ثُلاث + رُباع = تسع نساء؛ وفي جواز الجمع؛ دليل على جواز التعدُّد بتسع نساء. ٨٠

• الشبهة الرابعة عشرة ٩٤

توهُّم اضطراب القرآن في نصب ما حقُّه الرفعُ في باب العطف ٩٤

يدَّعي بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يوافق اللغة العربية؛ حيث ونصب ما حقُّه الرفع في قوله ﷻ: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: ١٦٢)؛ حيث يرون أنه يجب رفع **المقيمين**؛ لأنها معطوفة على الأسماء المرفوعة قبلها **الراسخون، المؤتون، المؤمنون**. ٩٤

• الشبهة الخامسة عشرة ١٠٣

توهُّم اضطراب القرآن الكريم في رفع المعطوف على المنصوب ١٠٣

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن الكريم خالف قواعد اللغة؛ فعطف المرفوع على المنصوب في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩)، فكلمة **الصابئون** مرفوعة وهي معطوفة على اسم **إنَّ الذين**، وهو اسم موصول في محل نصب، والصواب في زعمهم أن يقال: **والصابئين** كما في سورة البقرة والحج. ١٠٣.

• الشبهة السادسة عشرة ١١٠

توهُّم مخالفة القرآن قواعد اللغة في إسناد المضارع إلى المتكلم المفرد بدلا من الجمع ١١٠

يتوهم بعض المدعين أن بالقرآن الكريم اضطرابًا في إسناد المضارع للضمائر، ويستدلون على ذلك: بقراءةٍ خاطئة للفعل **أَشْهَدْ** بهمزة القطع على أنه مضارع في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: ١١١). إذ قرأوه أشْهد بهمزة قطع،

ومن ثَمَّ كان الصواب في ظنِّهم أن يقال: **ونَشْهد** بإسناد الفعل المضارع للجمع، بدلا من **وأشهد** بإسناد المضارع للمفرد. ١١٠

• الشبهة السابعة عشرة ١١٣

توهُّم اضطراب القرآن في تذكير الحال مع تأنيث صاحبها ١١٣

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم جانب المألوف فى قوله ﷻ: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٦) ؛ حيث جاءت كلمة مدرارًا مذكَّرة - وهي الحال - رغم أن صاحبها السماء مؤنثة، والصواب في ظنهم أن يقال: مدرارة. ١١٢

• الشبهة الثامنة عشرة ١٢٠

توهم مجانبة القرآن للصواب في تسمية والد سيدنا إبراهيم عليه السلام ١٢٠

يتوهم بعض المشككين أن القرآن لم يوافق الصواب في ذكر اسم والد إبراهيم عليه السلام، حيث قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (الأنعام: ٧٤)، والتاريخ يقول: إن والد إبراهيم اسمه **تارح**، وليس **آزر**، كما جاء في سفر التكوين ١١ : ٢٧. . . . . ١٢٠

• الشبهة التاسعة عشرة ١٢٧

توهُّم اضطراب القرآن في استخدام حروف الجر ١٢٧

يتوهم بعض المغالطين أن هناك اضطرابًا في استخدام حروف الجر، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقوله ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فتارةً يستخدم الكَسْب مع **على** وتارةً مع **اللام**، وعليه فإن الكَسْب في الآية الأولى على النَّفس، وفي الثانية لها، وهذا في ظنهم تناقض. ١٢٧

• الشبهة العشرون ١٣٣

توهُّم مجيء الفعل مذكَّرًا مرة ومؤنَّثًا أخرى مع فاعل واحد ١٣٣

زعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم لم يراعِ المطابقة بين الفعل وفاعله في التذكير والتأنيث، ويستدلون على ذلك بمجيء الفعل **حقَّ** مذكَّرًا مرة، ومؤنَّثًا أخرى، مع أن الفاعل واحد

...not repeat ...

Previous | Next | Back to Messages

Copyright © 1994-2002 Yahoo! Inc. All rights reserved. Terms of Service
NOTICE: We collect personal information
...Learn about how we use your information...

في الموضعين وهو: **الضَّلالة**، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (الأعراف: ٣٠)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل:٣٦). . . . . ١٣٣.

• الشبهة الحادية والعشرون ١٣٧

ادّعاء اضطراب القرآن في الإخبار بالمذكر عن المؤنث ١٣٧

يدّعي بعض المشككين أنّ القرآن الكريم لم يراع المطابقة بين المبتدأ وخبره؛ فأخبر بالمذكر عن المؤنث، وهذا يخالف قواعد اللغة التي توجب المطابقة بين المبتدأ والخبر في التذكير والتأنيث، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: ١٧)، فكلمة قريب في الآيتين خبر لـ إنَّ ولـ لعلَّ على الترتيب، وقد جاءت مذكرة مع أنها خبر لمبتدأ مؤنث، والصواب في ظنّهم أن يُقال: إنّ رحمة الله قريبة، ويُقال: لعلّ الساعة قريبة بالتاء المربوطة. . . . . ١٣٧.

• الشبهة الثانية والعشرون ١٥٠

توهم اضطراب القرآن في تأنيث العدد وجمع المعدود(*) ١٥١

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن جانب الصواب في تمييز العدد في قوله ﷻ: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٠)، ويرون أن الصواب تذكير العدد اثني عشر، وليس تأنيثه اثنتي عشرة، وإفراد التمييز سبطًا وليس جمعه أسباطًا؛ فيُقال: اثني عشر سبطًا بدلاً من اثنتي عشر أسباطًا(**). . . . . ١٥١.

• الشبهة الثالثة والعشرون ١٥٦

توهُّم اعتراف القرآن بخَبَل الرسول ﷺ وجنونه ١٥٦

يدّعي بعض المغرضين أن القرآن اعترف بخَبَل النبي ﷺ وجنونه في قوله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٨٤، ١٨٥)؛ حيث يفسّرون هذه الآية بقولهم: هل نسوا ما بصاحبهم من جنَّة، كما نسَوْا أن يتفكروا في ملكوت السموات والأرض؟! . . . . ١٥٦.

• الشبهة الرابعة والعشرون ١٦٢

توهُّم مجانبة القرآن الكريم للصواب في إعادة الضمير المفرد إلى الجمع ١٦٢

يتوهم بعض المشككين أن في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ (التوبة: ٣٦) مخالفة لقواعد اللغة؛ حيث عاد الضمير المفرد في **منها** على الجمع **اثنا عشر**، ويظنون أن الصواب: أن يقال: **منهنَّ** وليس **منها**؛ للتوافق مع قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦). . . . . ١٦٢.

• الشبهة الخامسة والعشرون ١٦٨

توهُّم الخلاف اللفظي بين الآيات المتشابهة ١٦٨

يتوهم بعض المشككين أن هناك خلافًا لفظيًّا بين الآيات المتشابهة في القرآن، ويتساءلون عن الفرق بين قوله ﷻ: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥) وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٨٥). . . . . ١٦٨.

• الشبهة السادسة والعشرون ١٧٧

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في مجيء الضمير مفردًا مع عودته على مثنى ١٧٧

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن لم يطابق بين الضمير وما يعود عليه في العدد، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة: ٦٢)؛ حيث جعل الضمير في كلمة يرضوه مفردًا رغم أنه عائد على المثنَّى (الله ورسوله)، والصواب في ظنهم أن يُقال: يرضوهما(**). . . . . ١٧٧.

• الشبهة السابعة والعشرون ١٨٦

توهُّم اضطراب القرآن في الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى ١٨٦

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم قد جانب المألوف في اللغة العربية في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ (يونس:٢٢)؛ حيث وقع

الالتفات من المخاطَب كنتم إلى الغيبة بهم قبل تمام المعنى، والصواب فى ظنِّهم أن يستمر على المخاطب، فيقال: (وجرين بكم ... وفرحتم بها). ١٨٦

• الشبهة الثامنة والعشرون ١٩١

توهُّم اضطراب القرآن في نَصْب المضاف إليه ١٩١

يتوهم بعض المشككين أن القرآن خالف قواعد اللغة حين نصب المضاف إليه ضَرَّاءَ في قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ (هود: ١٠)، والصواب في ظنِّهم أن يُجرَّ المضاف إليه ويُقال: ضَرَّاءٍ بكسر الهمزة ١٩١

• الشبهة التاسعة والعشرون ١٩٥

الزَّعم بأنَّ القرآن الكريم تحدّى الضُّعفاءَ فقط ١٩٥

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم قد تحدّى الجاهلين والضعفاء ومن لا قدرة لهم على التحدى فقط ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود: ١٣)، والتحدى لا يكون للضعيف المغلوب، بل للأقران الأكفاء، ويشككون بذلك فى كون القرآن الكريم كلام الله تعالى، وكونه معجزًا. ١٩٥

• الشبهة الثلاثون ٢٠٧

توهُّم اضطراب القرآن الكريم في تذكير الفعل مرَّة وتأنيثه أخرى مع فاعل واحد ٢٠٧

يزعم بعض المتوهمين أن بالقرآن اضطرابًا، يتمثل فى تذكير الفعل تارة، وتأنيثه تارة أخرى، والفاعل مؤنث في الحالتين، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ (هود: ٩٤)، فقد جاء الفعل أخذت مؤنثًا، والفاعل الصيحة مؤنثا أيضًا. أما في قوله ﷻ: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ (هود: ٦٧). فقد جاء الفعل أخذ مذكرًا والفاعل الصيحة مؤنثا ٢٠٧

• الشبهة الحادية والثلاثون ٢١٠

دعوى اضطراب القرآن في مجئ جمع القلة في موضع جمع الكثرة........................ ٢١٠

يتوهم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم لم يوافق اللغة العربية فى قوله ﷻ: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف: ٤٣)؛ حيث جيء بجمع القلة **سنبلات** موضع جمع الكثرة **سنابل**، والصواب فى زعمهم أن يُقال: سبع سنابل خُضْر. ٢١٠

• الشبهة الثانية والثلاثون ٢١٧

توهُّم مخالفة القرآن الكريم قواعد اللغة في عدم مطابقة الخبر للمبتدأ في العدد ٢١٧

يتوهم بعض المدعين أن القرآن خالف قواعد اللغة العربية في عدم المطابقة بين الخبر والمبتدأ في العدد، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ (الحجر: ٦٨)، حيث جاء المبتدأ اسم إشارة هؤلاء يدل على الجمع، بينما جاء الخبر ضيفي مفردًا، والصواب في ظنهم أن يقال: هؤلاء ضيوفى، بجمع الخبر. ٢١٧

• الشبهة الثالثة والثلاثون.. ٢٢٠

توهُّم اشتمال القرآن الكريم على كلمات زائدة لا فائدة منها ٢٢٠

يدعى بعض المتوهمين أن القرآن محشوٌّ ببعض الكلمات التى ليس لها فائدة مثل قوله ﷻ: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)، ويتساءلون: ألم يكن مناسبًا للعبارة أن يُقال: "ولبثوا فى كهفهم ثلاثَ مائةٍ وتسعَ سنين"؟ ولماذا لم يوضِّح التقويم الذى قاس به، هل هو التقويم الميلادى (٣٠٠) أم القمرى العربى (٣٠٩) سنة؟. ٢٢٠

• الشبهة الرابعة والثلاثون ٢٢٥

الزَّعم بأن المجاز في القرآن الكريم من قبيل الكذب ٢٢٥

يتوهَّمُ بعض المشككين أنَّ المجاز في القرآن من قبيل الكذب، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٧)، وقوله ﷻ أيضًا: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢)؛ حيث يرون أن **الجدار** لا يُريد، و**القرية** لا تُسأل. ٢٢٥

• الشبهة الخامسة والثلاثون ٢٣٥

ادعاء خلط القرآن بين مريم أخت موسى، ومريم أم المسيح.............................. ٢٣٥

يدعي بعض المشككين أن القرآن خلط بين **مريم** أخت موسى، **ومريم** أم المسيح؛ حيث قال: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم: ٢٨)، قاصداً أم المسيح - عليها السلام - ، ولم يكن لمريم أم المسيح أخ اسمه هارون، وإنما كان هارون أخًا لموسى ﷺ ولهما أخت اسمها مريم. ٢٣٥

• الشبهة السادسة والثلاثون ٢٤٠

الادِّعاء بأنّ القرآن يقضي بدخول الناس جميعًا النار حتى المؤمنين.......................... ٢٤٠

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم نصَّ على دخول الناس جميعًا النار وحتَّى المؤمنين، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١)، والمقصود من هذا الآية في زعمهم هو: **"ما من أحد من الناس إلا وارد جهنم"**، أي: داخل فيها، حتى الذين آمنوا داخلون. ولأن الرسول ﷺ داخلٌ في هذا العموم، فإنَّ هذا الحُكْمَ منطبقٌ عليه كذلك. . . ٢٤٠

• الشبهة السابعة والثلاثون ٢٤٧

ادِّعاء المخالفة بين النعت والمنعوت في الإفراد والجمع ٢٤٧

يزعم بعض المشككين أن القرآن جانب الصواب في عدم المطابقة بين النعت والمنعوت في قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (طه: ٥١)؛ حيث جاءت كلمة **الأولى** - مؤنث الأول - وصفًا لكلمة **القرون** الجمع، ويتساءلون: ألا يُعَدّ ذلك خطأً في المطابقة بين النعت ومنعوته؟! . . ٢٤٧

• الشبهة الثامنة والثلاثون ٢٥١

توهم اضطراب القرآن في مجيء اسم (إنّ) مرفوعًا ٢٥١

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم جانب الصواب، ورفع اسم "إنّ"، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (طه: ٦٣)، والصواب في ظنهم أن يقال: إن هذين لساحران؛ لأن اسم إنَّ حقه النصب. ٢٥١

• الشبهة التاسعة والثلاثون ٢٦١

توهُم إسناد القرآن الكريم فاعلين لفعل واحد ٢٦١

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم قد خرج عن المألوف في قوله ﷻ: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (الأنبياء: ٣)؛ حيث أسند الفعل **أسرَّ** إلى فاعلين **واو الجماعة** و **الذين**، والصواب في ظنهم حذف **الواو** من **أسروا** فيُقال: وأسرَّ النجوى الذين ظلموا. . . . . ٢٦١.

• الشبهة الأربعون ٢٦٦

توهُّم عدم مطابقة الحال لصاحبها في العدد في القرآن الكريم ٢٦٦

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن خالف قواعد اللغة في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (الحج: ٥)؛حيث وردت لفظة طفلا حالا بصيغة المفرد "طفلًا"، لا بصيغة الجمع: **أطفالًا** المناسبة لضمير الجمع العائد على المخاطبين في **نخرجكم**. . . . . ٢٦٦.

• الشبهة الحادية والأربعون ٢٧٢

توهُّم مجانبة القرآن الكريم في جمع الضمير العائد على المثنى ٢٧٢

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم جانب الصواب، فأعاد ضمير الجمع على المثنى، وذلك في قوله ﷻ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (الحج:١٩)، والصواب في زعمهم أن يقال: هذان خصمان اختصما، وليس (اختصموا). . . . . ٢٧٢.

• الشبهة الثانية والأربعون ٢٧٨

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في وصف المفرد باسم موصول للجمع ٢٧٨

يزعم بعض المشككين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (النور: ٣١) خروج عن اللغة العربية؛ حيث استُعمل المفرد طفل ووصفه باسم موصول للجمع هو الذين، والصواب في زعمهم أن يقال: الأطفال بصيغة الجمع؛ لأنَّ اسم الموصول الذين يختص بالجمع. . . . . ٢٧٨.

• الشبهة الثالثة والأربعون ٢٨٣

توهم وقوع الكلام الأعجمي والغريب في القرآن الكريم ٢٨٣

يتوهم بعض المشككين أن في القرآن الكريم كلامًا أعجميًّا وغريبًا عن لغة العرب، ويمثلون للأعجمي بكلمات مثل: القرآن؛ فهي من أصل سرياني، والفرقان؛ فهي من أصل

عبري، وللغريب بكلمة: أبًا، وغير ذلك من الكلمات، وهذا يتنافى مع قوله ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٥). ويتساءلون: كيف يكون القرآن نزل بلسان عربي مبين، وبه مثل هذه الكلمات الأعجمية والغريبة؟ ويذهبون من وراء ذلك إلى الطعن في لغة القرآن الكريم. ٢٨٤

• الشبهة الرابعة والأربعون ٣٠١

توهُّم اشتمال القرآن الكريم على كلام زائد لا معنى له ٣٠١

ادَّعى المشككون أنه قد جاء في فواتح بعض سور بالقرآن الكريم ألفاظ لا معنى لها، فمثلاً قوله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ١)، ليس بمعجز، ولا هو بالمبين كما يُفهم من الآية، بل بالعكس هو شيء مُبْهَم، فأين البيان فيه؟! ويزعمون أن فواتح السور بالحروف المقطَّعة ليست من القرآن، وأنها رموز لمجموعات الصحف، التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يُوجد المصحف العثماني، فمثلاً حرف الميم كان يُرمز لصحف المغيرة، والنون لصحف عثمان، والصاد لصحف سعد بن أبي وقّاص، والهاء لصحف أبي هريرة، وهكذا.

ويقولون: إن الحروف المقطَّعة في القرآن قد أخذها سيدنا عثمان ﷺ من كلمات كان المسيحيون يستخدمونها باعتبارها لغةً سريَّة للفرار من بطش الرُّومان بهم، وهذه الكلمات هي: (أبجد هوز حطي كلمن) ٣٠٢

• الشبهة الخامسة والأربعون ٣٠٨

الادّعاء باضطراب القرآن في التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل ٣٠٨

يزعم بعض المشككين أن القرآن قد جانب الصواب حين أتى بلفظ الفعل **أرى** الدال على الاستقبال، وهو يريد الماضي، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات:١٠٢) وكان الأولى في ظنهم أن يقول: (رأيتُ). ٣٠٨

• الشبهة السادسة والأربعون ٣١٢

دعوى أن القرآن الكريم جَمَعَ اسم عَلَم يجب إفراده........................ ٣١٢

يدّعي بعض الواهمين أن القرآن الكريم قد خالف الصواب في استعمال **إلياسين** بدلاً من **إلياس** في قوله عز وجل: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠)، بعد قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وذلك للسجع المُتكلَّف؛ لأن **إلياسين** جمع مذكر لـ **إلياس**. . . . . ٣١٢.

• الشبهة السابعة والأربعون ٣١٧

الادعاء باضطراب القرآن الكريم في استخدام الضمائر ٣١٧

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في القرآن الكريم اضطرابًا في استخدام الضمائر، ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح: ٨، ٩)؛ حيث يرون أن في الآية اضطرابًا في استخدام الضمير من وجهين: الأول: في قوله أرسلناك الذي خاطب فيه الرسولَ ﷺ، ثم عدل إلى مخاطبة المؤمنين في قوله: لتؤمنوا، الثاني: أن الضمير المنصوب في "تعزّروه" و"توقّروه" عائد على الرسول المذكور آخرًا، وفي تسبّحوه عائد على لفظ الجلالة المذكور أولاً رغم تأخره. . . . . . . ٣١٧.

• الشبهة الثامنة والأربعون ٣٢٤

توهُّم اضطراب القرآن في ذِكْر اسم مكة ٣٢٤

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن مُضْطربٌ في ذكر اسم مكة؛ حيث يقول عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (الفتح: ٢٤)، ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦)، فهل هي مكة أم بَكّة؟! . . . . . ٣٢٤.

• الشبهة التاسعة والأربعون........ ٣٣١

توهم عدم مطابقة القرآن الكريم بين النعت والمنعوت في التذكير ٣٣١

يزعم بعض المشككين أن القرآن خرج عن المألوف في اللغة، فلم يطابق بين النعت ومنعوته في النوع (التذكير والتأنيث)، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (ق: ١١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة: ٦)؛ حيث وصف **بلدة** وهي

منعوت مؤنث بالنعت **ميتا** وهو مذكر، ووصف **الريح** وهي منعوت مؤنث بالنعت **صرصر** وهو مذكر، والصواب في ظنهم أن يقال: **بلدة ميتة** و **ريح صرصرة**. ٣٣١

• الشبهة الخمسون ٣٣٧

توهم اضطراب موقف القرآن الكريم من العرب مدحًا وذمًا ٣٣٧

يدَّعى بعض المتوهمين أن القرآن يناقض بعضُه بعضًا؛ حيث مدح العرب في قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة:٢)، وذمَّهم في قوله عز وجل: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ (التوبة: ٩٧)، فكيف يكون هذا ؟! ٣٣٧

• الشبهة الواحدة والخمسون ٣٤٥

توهم مخالفة القرآن بين المبتدأ والخبر في الإفراد والجمع ٣٤٥

يدّعى بعض المشككين أن القرآن قد خرج عن المألوف في عدم المطابقة بين المبتدأ والخبر في قوله عز وجل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ (المنافقون: ٤)، حيث جاء الخبر **العدو** مفردًا ومبتدؤه **هم** ضمير منفصل للجمع، والصواب في زعمهم أن يُقال: هم الأعداء. ٣٤٥

• الشبهة الثانية والخمسون ٣٥٠

توهُّم مخالفة القرآن الكريم في جزم الفعل المعطوف على المنصوب ٣٥٠

يتوهم بعض المغالطين أن القرآن جانب الصواب في عود المعطوف على ما قبله؛ حيث جَزم الفعل المعطوف على المنصوب، ويستدلون بقوله عز وجل: ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون:١٠)، ويتساءلون: كيف يُجزم الفعل أكنْ وهو معطوف على الفعل المنصوب؟! والأَوْلى في ظنِّهم أن يُقَال: وأكونَ؛ لأن الفعل معطوف على منصوب. ٣٥٠

• الشبهة الثالثة والخمسون ٣٥٥

توهم أن القرآن الكريم وضع الجمع موضع المثنى ٣٥٥

يتوهَّم بعض المدَّعين أنَّ القرآن قد خالف قواعد اللغة؛ حيث جاء بلفظ الجمع بدلاً من المثنى، وهو "قلوبكما" في قوله عز وجل: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم: ٤)، والصواب في ظنِّهم أن يقال: (صغى قلباكما)؛ لأنه يتحدث عن حفصة وعائشة - رضي الله عنهما. . ٣٥٥

• الشبهة الرابعة والخمسون ٣٦٢
توهم مخالفة القرآن الكريم لقواعد الإملاء ٣٦٢
يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم خالف قواعد الإملاء، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ (التحريم: ١٠)، حيث جاءت كلمة **امرأت** بالتاء المفتوحة، والصواب في ظنهم أن تكون بالتاء المربوطة **امرأة**. ٣٦٢

• الشبهة الخامسة والخمسون ٣٧٠
الزّعم أن القرآن الكريم به ألفاظ لا تعرفها لغة العرب ٣٧٠
يدّعى بعض المتوهمين أنّ القرآن الكريم يأتى بألفاظ لا يعرفها العرب، وذلك في قوله ﷻ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم: ١٦)؛ حيث يقولون: إنه لم يرد أى ذكر - ولو على سبيل الفكاهة - على أنّ أنف الإنسان كان يُسمّى **الخرطوم** عند العرب. ٣٧٠

• الشبهة السادسة والخمسون ٣٧٧
الزّعم أنّ القرآن الكريم به ألفاظ تجرح الحياء ٣٧٧
يدّعى بعض المتوهمين أنّ القرآن الكريم به ألفاظ قبيحة تجرح الحياء؛ وذلك كلفظ **المَنِىّ** فى قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (القيامة: ٣٧، ٣٦)، ولفظ **الفروج** فى قوله ﷻ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١)، ولفظ **الحور العين** فى قوله ﷻ: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الطور: ٢٠)، ولفظ **الترائب** فى قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٧)، إلى غير ذلك من الألفاظ ٣٧٧

• الشبهة السابعة والخمسون ٣٩٤
الزّعم أنّ القرآن الكريم استعمل سينين بدلاً من سيناء (*) ٣٩٤
يزعم بعض المتقولين أنّ القرآن الكريم قد جانب الصواب، فاستعمل **سينين** بدلا من **سيناء** في قوله ﷻ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢، ١)، وتوهّموا أنّ كلمة سينين اسم جمع، ومنهم من توهّم أنها جمع مذكر سالم، ويذكرون أنّ القرآن حرّفها من أجل السجع فقط. . . ٣٩٤

• الشبهة الثامنة والخمسون ٤٠١

الادعاء بأن الرواة انتحلوا الشعر الجاهلي لإثبات الأصالة العربية للقرآن ٤٠١

يدعي بعض المغرضين أن المفسرين والمحدِّثين لما أرادوا أن يدللوا على عروبة القرآن الكريم، والحديث الشريف، لجأوا إلى نظم الشعر، ونحلوه لشعراء جاهليين، بل توهموا أسماء لشعراء ادعوا أنهم جاهليون، وفي واقع الأمر لا وجود لهم إلا في الخيال. ٤٠١

• الشبهة التاسعة والخمسون ٤٠٧

دعوى اضطراب القرآن الكريم وخلوه من الإعجاز اللغوي ٤٠٧

يَدَّعي بعضُ المشككين أن القرآن مشتَّت في موضوعاته وأخباره مضطرب في مضمونه؛ لاهتمامه بالموسيقا اللفظية على حساب المعنى المراد، من ثَمَّ فهو مليء بالتشبيهات والعبارات الخلَّابة التي تجعله قريبًا من الشعر وأسلوب الكهانة، ويحتوي على كثير من الأبيات الشعرية، وهذه خصائص لا تناسب الذوق العربي، الأمر الذي يبطل القول بأن هذا القرآن كتاب للناس كافَّةً، وإن كان معجزًا كما يقول المسلمون ففي نظمه فقط. ٤٠٧

• الشبهة الستون ٤١٧

استنكار التّكرار في القرآن الكريم ٤١٧

يستنكر بعض المشككين من التكرار في القرآن الكريم، كما في سورة الرحمن، سورة التكاثر، وكذلك قصص الأنبياء في كثير من السور: مثل: قصة آدم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء. ويزعم هؤلاء أنه لو تُخفّف من التّكرار في القرآن؛ فلن يتبقى منه الكثير، وأن ثروة القرآن المُعجمية ضئيلة؛ مما أدى إلى ضعف بناء الجملة، واللجوء إلى الحشو، ومزج الخيال بالواقع خاصة في قصة موسى عليه السلام، وهذا مُخالف للعقل والمنطق. ٤١٧

• الشبهة الواحدة والستون ٤٢٦

التشكيك في إعجاز القرآن عن الإتيان بمثله ٤٢٦

يزعم بعض المشككين أن القرآن ليس معجزة لغوية؛ فمن مارس شيئًا من صناعة الشعر أو الكتابة، وآنس من نفسه اقتدارًا فى البيان يستطيع أن يأتى بمثل القرآن. ٤٢٦

• الشبهة الثانية والستون ٤٤٧

الزعم أن اختلاف القراءات القرآنية يؤدى إلى اختلاف فى ألفاظ القرآن الكريم ٤٤٧

يزعم بعض المتوهمين أنَّ اختلاف القراءات القرآنية يُغيِّر ألفاظ القرآن، ويتناقض مع ما فى اللوح المحفوظ من تأكيد الله ﷻ على عدم وجود اختلاف فيه. ٤٤٧

- **المصادر والمراجع** ٤٦١

الشبهة الأولى

توهُّم اضطراب القرآن في استخدام أسماء الإشارة (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ ثمَّة تعارضًا بين قوله ﷻ: ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة: ١: ٢)، وقوله ﷻ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ (الأنعام: ٩٢)؛ حيث أشار ﷻ فى الآية الأولى إلى القرآن بإشارة البعيد ذلك، وفى الثانية بإشارة القريب هذا (**).

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، محمد أبو النور الحديدى، دار الأمانة، القاهرة.

(**) يقول ابن كثير في تفسير قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ : أي هذا الكتاب.. فذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة؛ فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم. و ﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، ومن قال: إن المراد بـ ذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع، وتكلَّف ما لا علم له به. والريب: الشك، ومعنى الكلام: أن هذا القرآن لا شك في أنه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (السجدة: ١:٢)، وقيل : هذا خبر ومعناه النهي: أي لا ترتابوا فيه.

ويقول الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تعليقه على هذه الآية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ : ومن أين يكون ريب أو شك ؟ ودلالة الصدق واليقين كامنة في هذا المطلع، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله مِنْ مثل هذه الأحرف المتداولة بينهم، المعروفة لهم من لغتهم! ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته.. ولكن لمن ؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدىً ونورًا ودليلاً ناصحًا مبينًا؟.. للمتقين.. فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب، وهي التي تفتح مغاليق القلب له؛ فيدخل ويؤدي دوره هناك، وهي التي تهيء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقَّى وأن يستجيب. فلا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقَّى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة، وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقيا، خائفا، حساسًا، مهيأ

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى اسم الإشارة أن يُطابق المُشار إليه فى نوعه: (التذكير أو التأنيث)، وفى عدده: (المفرد أو المثنى أو الجمع)، ويوافقه قُرْبًا أو بُعْدًا.

وهذا ما نجده في إشارات القرآن الكريم، أمَّا ما يتوهَّمه بعضهم من أن في القرآن اضطرابًا في استخدام أسماء الإشارة، فوَهْمٌ باطل من وجوه:

١) الإشارة **للكتاب** بإشارة **القريب**؛ للدلالة على أن هذا القرآن قريب حاضر في الأسماع، والألسنة، والقلوب، ووجه الإشارة إليه بإشارة **البعيد**: بُعد مكانته ومنزلته من مُشابهة كلام الخلق، وعمَّا يزعمه الكفار من أنه سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين.

٢) **ذلك** إشارة إلى ما تضمَّنه قوله: **الم**، وإنما أشار إليه **إشارة البعيد**؛ لأن الكلام المشار إليه منقضٍ، ومعناه في الحقيقة: **القريب**؛ لقرب انقضائه.

٣) أن العرب ربما أشارت إلى القريب إشارة البعيد، فتكون الآية على أسلوب من أساليب العرب

التفصيل:

أولاً. أن الإشارة إلى القرآن بإشارة **القريب**: تفيد أن هذا القرآن قريب حاضر في الأسماع، والألسنة، والقلوب، وفيه ترغيب في العكوف عليه والاتعاظ بأوامره

للتلقي.. ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أُبي بن كعب عن التقوى؟ فقال له:أما سلكتَ طريقًا ذا شوك ؟ قال بلى قال:فما عملتَ؟ قال: شمَّرتُ واجتهدت، قال:فذلك التقوى..

فذلك التقوى.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق ـ طريق الحياة ـ الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وعشرات غيرها من الأشواك (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧، جـ١، ص ٣٨).

ونواهيه، ووجه الإشارة إليه بإشارة **البعيد**: بُعْد مكانته ومَنْزلته عن مشابهة كلام الخلق، وَعَمَّا يزعمه الكفار من أنه سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين.

فإن قال قائل: لما صحت الإشارة بـ **ذلك** إلى ما ليس ببعيد؟ قلنا: لأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبُعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه، كما يقطعون بـ **ثُمَّ** للإشعار بتراخي المراتب، وقد يكون المعطوف سابقًا في الوجود على المعطوف عليه[1].

ثانيًا. إن **ذلك** إشارة إلى ما تضمَّنه قوله: ﴿الم﴾، وإنما أشار إليه **إشارة البعيد**؛ لأن الكلام المشار إليه منقضٍ، ومعناه في الحقيقة القريب: لقرب انقضائه، ونضرب له مثلاً بالرجل يحدِّث الرجل فيقول له مرة: "والله إن **ذلك** لكما قلت" ومرة يقول: "والله إن **هذا** لكما قلت" **فإشارة البعيد**؛ نظرًا إلى أن الكلام مضى وانقضى، وإشارة **القريب**؛ نظرًا لقرب انقضائه، ونحوه قوله ﷻ: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ، فالإشارة إلى فارض وبكر إنما أشير إليهما بصيغة البعد لتقضِّي ذكرهما، ومثله.

ثالثًا. أن العرب ربما أشارت إلى القريب **إشارة البعيد** فتكون الآية على أسلوب من أساليب العرب: يقول ﷻ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ والمعنى: هذا الكتاب، **وذلك** قد يستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعًا للإشارة إلى غائب ـ كما قال في الإخبار عن نفسه ﷻ: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (السجدة: ٦)، ومنه قول خفاف بن ندبة السلمي:

أَقُولُ لَهُ وَالرُّمحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ   تَأَمَّلْ خُفافاً أَنَّني أَنا ذَلِكا

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، ج١، ص ١٠٨، حاشية ابن المنير.

أي: أنا هذا. فـ **ذلك** إشارة إلى القرآن، موضوع موضع **هذا**، تلخيصه: **الم هذا الكتاب لا ريب فيه**، وهذا قول أبي عبيدة وعكرمة وغيرهما، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: هذه؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيل: **تلك**، وفي البخاري وقال معمر: ذلك الكتاب: **هذا القرآن**.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- السرُّ فى استخدام الإشارة بالبعيد عن الكتاب القريب في قوله تعالي: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ للإيذان بعلو شأنه، وبُعد مرتبته في الكمال؛ فَنُزِّل بُعد المرتبة منزلة البَعد الحسِّي[1]، والإشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه؛ إشارة إلى أن الله تعالى مُنْجِزٌ وعده للنبي ﷺ بإكمال الكتاب كله، والبُعدُ والقرب في الخطاب الإلهي، إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين، ولا يقال: إن شيئًا بعيدًا عنه ﷻ، أو قريبًا منه في المكان الحسِّي؛ لأن كل الأشياء بالنسبة إليه ﷻ سواء.

- السرُّ البلاغي في تعريف الكتاب بالألف واللام: عُرِّف **الكتاب** بالألف واللام تفخيمًا لأمره، وهو في الأصل مصدر، قال ﷻ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[2]، ودُكِّر اسم الإشارة مراعاة لتذكير **الكتاب** سواء أكان الكتاب خبرًا، أم بدلاً، فإن اُعتبر خبرًا؛ فهذه مراعاة لشيوع اعتبار أحوال الأخبار في التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع كقول امرئ القيس:

وَبُـــدِّلْتُ قَرحـــاً دامِيـــاً بَعـــدَ صِـــحَّةٍ فَيـا لَـكِ مِـن نُعمـى تَحَـوَّلنَ أَبؤُسـا

---

١. صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، مصر، ج١، ص ١٦.

٢. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محى الدين الدرويش، دار الإرشاد، حمص، سورية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ج١، صـ٢٥.

فالضمير في **تحولن** عائد على **نعمى**، وإنما جُمِع مراعاة للخبر وهو **أبؤس**، وإن عُدَّ بدلاً فالتذكير أوضح؛ لأن الإشارة واقعة على الكتاب.

وكونه **خبرًا**: فالتعريف للجنس، ويستفاد من التركيب قَصْر حقيقة الكتاب على القرآن لما فيه من تعريف المُسْنَد، والمُسْنَد إليه، وهو داخل فيما يسمَّى بالقَصْر الادعائي، ويراد أنه الكتاب الجامع للصفات الكمالية في جنس الكتب؛ حتى صار ما عداه بجانبه في حكم العدم، ومثله شائع في الكلام العربي، كقولهم: محمد هو الرجل، ويراد به أنه اجتمعت فيه صفات الرجولة حتى كأن من عداه لم يَعُد لهم شيء منها، ومن هذا الباب قول الشاعر:

وإنَّ الـــذي حانـــت بفلـــج دمـــاؤهم هـــم القـــومُ كـــلُّ القـــوم يـــا أمَّ خالـــدِ

وكونه **بدلاً**: فالتعريف للعهد، ويراد به الكتاب المنزَّل على الرسول ﷺ المرموز إليه بفاتحة هذه السورة، ولا يضير كونه لم يكتمل إنزاله عندما نزلت الآية؛ لأن للبعض حكم الكل، وما نزل قبلها جانب عظيم منه؛ فإن أغلبه كان نزوله بمكة، ومع ذلك يمكن أن تكون في هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن الله ﷻ سيُنْجِز وعده لرسوله ﷺ بإنزال جميع الكتاب عليه فيما بعد.[1]

- السرُّ البلاغي في التعبير بلفظ: **الريب**، وإيثاره على لفظ **الشك**، وتقديمه على الجار والمجرور: أن ﴿لَا رَيْبَ﴾ مجاز بمعنى: أنه ليس فيه ما يوجب ارتيابًا في صحته، أي: ليس فيه اضطراب ولا اختلاف فيكون **الريب** هنا مجازًا في سببه.وقُدِّمَ **الريب** على الجار والمجرور؛ لأنه أولى بالذكر استعدادًا لصورته، حتى تتجسَّد أمام السامع.

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ج١، ص ١٢٣، ١٢٤ بتصرف.

والريب والريبة: الشك والظنة والتهمة والمعنى: أن ذلك الكتاب مُبرًّأ من وصمات العيب، فلا شك فيه ولا ريبة تعتريه، لا من جهة كونه من عند الله تعالى، ولا في كونه هاديًا مرشدًا.

- قوله ﷻ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه إسناد الهداية للقرآن، وهو من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله رب العالمين، ففيه مجاز عقلي[1]، وهذا المجاز علاقته اعتبار ما يؤول إليه: أي الصائرين إلى التقوى، في ذكر المتقين فيه إيجاز؛ لأن الوقاية اسم جامع لكل ما تجب الوقاية منه.

وعليه فقد ثبت لنا بالحجة الدافعة وبالبرهان القاطع أن الآيتين خاليتين من الخطأ والتعارض.

---

١ . صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، مرجع سابق، ج١، ص ١٦.

الشبهة الثانية

توهُّم مخالفة القرآن الكريم لقواعد العربية في عَوْد الضمير جمعًا على المفرد(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المدعين أن القرآن الكريم لم يراعِ المطابقة بين الضمير والعائد عليه في العدد؛ فقد أعاد ضمير الجمع على المفرد، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧)؛ حيث عاد الضمير في قوله **بنورهم** جمعًا على المفرد **الذي**، والصواب في ظنِّهم أن يُقال: "ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ أو يقال: (مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارًا)(**).

*. عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م.

**. بعد أن ذكر سبحانه بعض صفات المنافقين، أراد أن يُمثِّل لحالهم وواقعهم بمثل يُبيِّن حقيقة موقفهم، ويكشف عن طبيعة أمرهم، فضرب لذلك مثلاً محسوسًا ومشاهدًا؛ ليكون أقرب إلى الأذهان، وأصدق في التعبير عن المراد، فقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧)، وقد مثّل سبحانه بهذه الآية حال المنافقين بحال شخص أشعل نارًا في مكان شديد الظلمة، فلما أنارت ما حوله، وأخذ يستضيء بها ويستدفئ، إذ بتلك النار تنطفئ فجأة وتخمد، وإذا بالمكان يتحول إلى ظلام دامس، لا يستطيع معه الشخص حراكًا، مع ما ينتابه من خوف وهلع.

وهذا هو حال المنافقين الذين استبدلوا الضلالة بالهدى، واختاروا طريق الغي بديلاً عن طريق الرشاد، وصاروا بعد البصيرة إلى العمى؛ فقد كانوا في ظلمة الشرك والكفر، ثم أسلموا فأنار الله لهم الطريق، وعرفوا الحلال من الحرام، والخير من الشر، واستضاؤوا بكلمة الإسلام، وأمِنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولكنهم استبدلوا الكفر بالإيمان، واختاروا النفاق بعد الإسلام، فذهب الله بنورهم، وطبع على قلوبهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، لا يعرفون إلى الحق طريقًا، ولا يهتدون إلى الهدى سبيلاً، فهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الهدي، و ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتجرؤون على النطق بكلمة الحق، و ﴿عُمْيٌ﴾ عن

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الضمير أن يطابق الاسم الذي يعود عليه في نوعه: (التذكير أو التأنيث)، وعدده (الإفراد أو التثنية أو الجمع).

ومن لا يتأمل قوله ﷻ: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾، يتوهم أن في الآية مخالفة بين الضمير والاسم الموصول الذي يعود عليه، وذلك في قوله: **بنورهم، وتركهم** حيث جاء الضمير جمعًا مع عودته على مفرد، والصواب في زعمهم أن يقال: " مثلهم كمثل **الذي** استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب **بنوره** وتركه في ظلمات **لا يبصر**؛ ليطابق الضمير الاسم الذي يعود عليه في عدده، ولكن النظم المعجز فى الآية الكريمة جاء على خلاف هذا الظاهر، ويمكن الرد على مثل هذا الادعاء بما يلي:

١) إن **الذي** هنا مفردٌ في اللفظ، ومعناه على الجمع؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ، فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع.

الانتفاع بنور الهداية والإيمان ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يعودون إلى الهدى بعد أن استبدلوا الكفر بالإيمان، ورضوا بحالة النفاق بديلاً عن الإسلام.

وعبارة ابن كثير في تقرير معنى هذا المثل من العبارات الرصينة حيث قال: "وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طُفِئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.

والتقدير: مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارًا، فلما أضاءت ما حولهم، ذهب الله بنورهم.

٢) إن اسم الموصول **الذي** فى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي﴾، اسم ناقص يُعبَّر به - كما يقول أهل اللغة والبيان - عن المفرد والجمع.

٣) وقيل إنما وُحِّدَ **الذي** وما بعده (أي جاء على لفظ المفرد)؛ لأن المستوقد كان واحدًا - من جماعة - تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء، رجع الظلام عليهم جميعًا.

٤) ووجه آخر ذكره ابن عاشور مؤداه أن جمع الضمير في قوله ﷻ: (**بنورهم**) إنما كان مراعاة للحال المُشَبَّهة - وهي حال المنافقين - لا للحال المُشَبَّه بها - وهي حال المستوقد للنار - على وجه بديع فى الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم؛ فالضمير فى الآية عائد إلى المنافقين، لا إلى اسم الموصول (**الذي**) [1].

٥) ويجوز أن نقول: إن المقصود بـ **بالذي** فى الآية ليس شخصًا، وإنما المقصود: الفريق، ولهذا يُقال: الفريق الذي فعل كذا، ولا يُقال: الفريق الذين.

٦) إن الضمير قد يكون عائدًا على محذوف يُفْهم من سياق الآية، والمعنى: مَثَل أولئك المنافقين كمَثَل الذي استوقد نارًا (لرفاقه) فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم - أي بنور أولئك الرفاق -، فيكون الضمير عائدًا على محذوف دلَّ عليه سياق الآية، وهم الرفاق، وهو مثل يُضْرب لإعراض المنافقين عن رسول الله ﷺ الذي جاء بالنور والهداية من الله.

وبهذا يتبين أنه لا وجه لما تعلق به أصحاب هذه الشبهة، سوى الزعم الواهى وَهْيَ بيت العنكبوت.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، جـ١، صـ٣٠٩.

التفصيل:

أولاً. إن **الذي** في الآية منفرد في اللفظ، ومعناه على الجمع؛ ولذلك قال تعالى: **﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾**، فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. والتقدير: مثلهم كمثل **الذين** استوقدوا نارًا، فلما أضاءت ما حولهم، ذهب **الله بنورهم**.

فلفظة **الذي** مفرد، ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الأسماء الموصولة كلها من صيغ العموم، فإذا حَقَقْتَ ذلك فاعلم أن إفراد الضمير باعتبار لفظة **الذي** وجمعه باعتبار معناها، ولهذا المعنى جرى على ألسنة العلماء أن **الذي** تأتي بمعنى **الذين** ومن أمثلة ذلك في القرآن هذه الآية الكريمة، فقوله **كمثل الذي استوقد** أي: كمثل الذين استوقدوا: بدليل قوله: **﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾** الآية. وقوله: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** (الزمر: ٣٣)، وقوله: **﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾** (البقرة: ٢٦٤). وقوله: **﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾** بناء على الصحيح من أن الذي فيها موصولة لا مصدرية ونظير هذا من كلام العرب قول الراجز:

يــا رب عــبسٍ لا تبــاركْ في أحــدْ   في قــائم مــنهم ولا في مــن قَعــدْ
إلا الذي قاموا بأطراف المسدْ

يقصد: الذين قاموا بأطراف المسد.

ثانيًا. إن اسم الموصول **الذي** في الآية **﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾** اسم ناقص يعبَّر به عن المفرد والجمع، وهذا الذي أقره أهل اللغة والبيان ومنه قول الشاعر:

وإن الــذي حانــت بفلــج دمــاؤهم   هــم القــوم كــل القــوم يــا أم خالــد

ووجه الدلالة في البيت، عود ضمير الجمع في قوله: **دماؤهم** على اسم الموصول **الذي** فدل ذلك على أن اسم الموصول **الذي** يعبر به في الاستعمال اللغوي عن المفرد والجمع. وقال ابن جرير الطبري في تفسيره[1]: وصحَّ ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال تعالى: ﴿ **رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾(الأحزاب: ١٩)؛ فَمثَّل حال المنافقين، وما هم فيه من خوف وفزع، بحال الذي يُعاني سكرات الموت وشدائده.

جاء في البحر المحيط: ونقل عن أبي عليٍّ أنه مُبْهم يجري مَجرى مَنْ الموصولة في الوقوع على الواحد والجمع، وقال الأخفش: وهو مفرد ويكون في معنى الجمع[2].

ثالثًا. إنما وُحِّد **الذي**، وما بعده؛ لأن المُستَوْقِد كان واحدًا من جماعة، تَولَّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء، رجع عليهم جميعًا، فقال: **بنورهم** فقد وحَّد الضمير في **استوقد** ثم **حوله** بعدها؛ نظرًا لجانب اللفظ؛ لأن المنافقين كلهم على قول واحد وعلى فعل واحد، ونَظَرًا إلى جانب المعنى وذلك في **بنورهم، وتركهم** فلكون المقام تقبيحٌ لأحوالهم، وبيان ذاتهم وضلالهم، فإثبات الحكم لكل فرد منهم واقع، وقد رُوْعِي في **استوقد** لفظه، وفي **ذهب الله بنورهم** معناه، والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولاً ومراعاة المعنى آخرًا، كما أن استوقد النار أي طلب وقودها لفعله أو فعل غيره.

رابعًا. جَمْعُ الضمير في قوله ﷻ: **بنورهم** إنما كان مراعاة للحال المُشَبَّهةِ، وهي حال المنافقين، لا للحال المشبَّه بها، وهي حال المُستوقِد للنار، على وجه بديع في

١. جامع البيان عن تأويل آى القرآن، ابن جرير الطبرى، عند تفسير هذه الآية.

٢. البحر المحيط، لأبى حيان الأندلسي، عند تفسير هذه الآية.

الرجوع إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان منهم؛ فالضمير في الآية عائد إلى المنافقين، لا إلى اسم الموصول **الذي**[1].

ويؤيد هذا، ما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى الآية، قال: نزلت هذه الآية في المنافقين، يقول: مثلهم في نفاقهم، كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبَيْنَا هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة حائرًا متخوفًا؛ فكذلك حال المنافقين، أظهروا كلمة الإيمان وأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

ويقوي هذا، أن التمثيل في الآية جمع بين ذكر المشبَّه وذكر المشبَّه به، فالمتكلم بالخيار في مراعاة أي الأمرين شاء؛ لأن الوصف لهما، فيكون ذلك الوضع نوعًا واحدًا في المشبَّه والمشبَّه به.

وبناء على ما تقدم، يكون ما في هذه الآية، موافقًا لما في الآية بعدها، من قوله تعالى: ﴿**جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**﴾ (البقرة: ١٩).

خامسًا. إن لفظة **الذي** في الآية ليس المقصود بها الشخص، وإنما تدل على الفريق؛ ولهذا يقال: الفريق الذي فعل كذا، ولا يقال: **الفريق الذين**.

فالأَوْلَى أن يقال: إن لفظة **الذي** وقعت وصفًا لشيء يُفهِم الجمع، ثم حُذف ذلك الموصوف للدلالة عليه، والتقدير: ومثلهم كمثل الفريق الذي استوقد، أو **الجمع** الذي **استوقد**؛ فيكون قد رُوعِي الوصف مرة (فعاد الضمير عليه مفردًا) في قوله: ﴿**اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾، و﴿**حَوْلَهُ**﴾ والموصوفُ مرة أخرى (فعاد الضمير عليه مجموعًا) في قوله: ﴿**بِنُورِهِمْ**﴾، و ﴿**وَتَرَكَهُمْ**﴾.

---

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور جـ١، صـ٣٠٩، مرجع سابق.

وقيل: إن المنافقين ذاتهم لم يُشبَّهوا بذات المستوقد، وإنما شُبِّهت قصتهم بقصة المستوقد، ومِثْله قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ (الجمعة: ٥)، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠). وقيل المعنى: ومثل كل واحد منهم، كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (غافر: ٦٧) أي: يخرج كل واحد منكم.

سادسًا. وآخر الوجوه التي تبطل بها هذه الشبهة، هو أن يكون الضمير عائدًا على محذوف يُفهم من سياق الآية، والمعنى: مثل أولئك المنافقين كمثل الذي استوقد نارًا (لرفاقه) فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنور أولئك الرفاق، فيكون الضمير عائدًا على محذوف دل عليه سياق الآية، وهم الرفاق، وهو مَثَلُ يُضرب لإعراض المنافقين عن رسول الله ﷺ الذي جاء بالنور والهداية من الله.

ويؤيد هذا الوجه ما ذهب إليه بعض العلماء من تأويل هذا **الذي استوقد نارا:** أنه كان واحدًا في جماعة معه، استُدْعى لإيقاد النار. أي: طلبه، وسعى في تحصيله، فلما أُوْقِدت له النار، وأضاءت ما حوله، واجتمع القوم على ضوئها، ذهب الله بنور طائفة مخصوصة منهم.

كذلك كان شأن المنافقين وحالهم - مع رسول الله ﷺ - كذبًا ونفاقًا وخداعًا، وإفسادًا، واستهزاءً، فكان أن وقعوا في ضلالتهم، التي اشتروها بالهدى، وتخبَّطوا في مُستنقع الحيرة التي أدهشتهم، ولهذا كذبهم الله تعالى بادِّعائهم الإيمان، وذمَّهم بأنهم دخلوا في الإيمان، ثم خرجوا منه بقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ١ : ٣).

وبذلك يكون الغرض من هذا التمثيل: تشبيه مَثل المنافقين مع رسول الله ﷺ بمثل القوم مع الذي استوقد نارًا، وما حصل لهم من إذهاب نورهم؛ لأنهم آثروا الظلمة على النور.

وتقدير الكلام: مثل المنافقين مع رسول الله ﷺ كمثل قوم اجتمعوا مع غيرهم على ضوء نار، استوقدها رجل منهم فلما أضاءت ما حوله وحصل لهم نور من ضوء هذه النار، ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون. فحذف من المشبه ما أثبت نظيره في المشبه به، وحذف من المشبه به ما أثبت نظيره في المشبه. وقد طوى ذكر كل منهما اعتمادًا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج ما بين المشبه والمشبه به من المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه وأتمه. وهذا من ألطف أنواع البديع.

وبهذا الفهم لمعنى الآية الكريمة يكون قوله تعالى: ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ مثلاً لرسول الله ﷺ ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مثلاً للمنافقين، ويدل على ذلك ما رواه الشيخان في الصحيحين عن رسول الله ﷺ من قوله: إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي؛ كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب، وهذه الفراش يَقَعْن فيها، فأنا آخذ بحُجُزِكم، وأنتم تُقْحَمُون فيها، فمثَّل ﷺ نفسه برجل استوقد نارًا، ومثَّل الناس الذين لم ينتفعوا بضوء النار بالفراش والدواب، التي تقع في النار.

فليس بعد هذا البيان لمدعٍ أن يَدَّعي أن الذي استوقد نارًا مثلٌ للمنافق، وأن ناره التي استوقدها خمدت، وكيف يكون منافقًا من أضاء بناره الوجود من حوله، ثم يؤخذ بجرم المنافقين؟ وكيف يحكم على ناره، التي استوقدها لهداية الناس بالخمود والانطفاء.. هذه النار التي أوقدها الله تعالى، ليهتدي بنور ضوئها كل موجود في هذا الوجود؟!

وعليه فلا نجد عذراً لمن يدعى هذا الادعاء على القرآن إلا ألَّا لوم على ضرير فى تهمته لضوء الشمس.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- روعة الإعجاز البياني في القرآن الكريم في جمع الضمير في قوله ﴿بِنُورِهِمْ﴾مع كونه مفردًا في قوله: ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ وذلك مراعاة للحال المشبهة (وهي حال المنافقين) لا للحال المشبه به (وهي حال المستوقد الواحد) على وجهٍ بديع، في الرجوع إلى الغرض الأصلي، فهذا إيجاز بديع. وكأنه قال: ‘فلما أضاءت ذهب الله بناره، فكذلك يذهب الله بنورهم أي ببصرهم وهي أسلوب لا عهد للعرب بمثله، فهو من أساليب الإعجاز[1].

يقول الطبري: فأما تمثيل الجماعة من المنافقين بالمستوقد الواحد، فإنما جاز لأن المراد من الخبر عن مَثَل المنافقين، الخبر عن مثل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار، وهم لغيره مستبطنون ـ من اعتقاداتهم الرديئة، وخلطهم نفاقهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر.

- والاستضاءة ـ وإن اختلفت أشخاص أهلها ـ معنى واحد، لا معانٍ مختلفة. فالمثل لها في معنى المثل للشخص الواحد، من الأشياء المختلفة الأشخاص، وتأويل ذلك: مثل استضاءة المنافقين ـ بما أظهروا من الإقرار بالله تعالي وبمحمد ﷺ وبما جاء به، قولاً وهم به مكذبون اعتقادًا ـ كمثل استضاءة الموقد نارًا، ثم أُسقط ذِكْرُ الاستضاءة، وأُضيف المثل إليهم، كما قال نابغة بني جعدة:

وَكَيْفَ تُواصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ خِلاَلَتُهُ كَأَبي مَرْحَبِ

---

١ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص٣٠٩.

يريد: كخلالة أبي مرحب، فأسقط **خلالة**، إذ كان فيما أُظهر من الكلام، دلالة لسامعيه على ما حُذف منه، فكذلك القول في قوله: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾ لما كان معلومًا عند سامعيه بما أُظهر من الكلام، أن المثل إنما ضرب لاستضاءة القوم بالإقرار دون أعيان أجسامهم حَسُن حذف ذكر الاستضاءة، وإضافة المثل إلى أهله.

- والمقصود بالمثل ما ذكرنا، فلما وصفنا جاز وحسُن قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾ ويشبه مثل الجماعة في اللفظ بالواحد، إذ كان المراد بالمثل الواحد في المعنى.
- وأما المراد من الفعل **استوقد** فتبين فيه حال رجل، قد أحاطت به حلكة الظلام، فهو يطلب جاهدًا نارًا تضيء له مسالك السبيل، و **السين والتاء** يدلان على هذا البحث القوي، والطلب الجاد.
- وفي كلمة **أضاءت**، ما يدل على أنه قد أوتى أكثر مما يطمح إليه، فلقد كان يبحث عن نار، أيًّا كانت، فأوتى نارًا قوية أضاءت ما حوله، غير أن ذلك لم يلبث أن مضى وزال.
- واستخدام **ذهب بالنور** أقوى من ذهب النور؛ لأن في التعبير الأول دلالة على أن آخذًا أخذ النور، ومضى به، فكيف إذا كان الذاهب به هو الله ﷻ، وفي إضافة النور إليهم، ما يشعر بأنهم كانوا قد اطمأنوا إلى النور، وفرحوا به، فيكون الذهاب به أشد إيلامًا وأنكى.
- وجمع **ظلمة**، ليشير إلى هذا الظلام المتكاثف، والحلكة المتراكمة بعضها فوق بعض، وتأمّل بعدئذٍ هذه الصفات التى خرجوا بها عن أن يكونوا من البشر،

بل عن أن يكونوا من الحيوان، ما داموا قد عطلوا مواهبهم، ولم ينتفعوا بها، وكان لنسق هذه الصفات على وزن واحد أثر موسيقى مؤثر[1].

- السر البياني في أنه قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل (أذهب الله نورهم) أو (ذهب نورهم): وهنا تشرق علينا لمحة أخرى من لمحات الإعجاز البياني؛ حيث كان الظاهر أن يقال: أذهب الله نورهم ، أو يقال: ذهب الله بنارهم، أو بضوئهم. ولكنَّ الله تعالى، لم يقل هذا ولا ذاك؛ وإنما قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فأسند سبحانه الذهاب إليه حقيقة، لا مجازًا، واختار النور على النار وضوئها.

- أما إسناد الذهاب إليه سبحانه فللدلالة على **المبالغة**؛ ولذلك عُدِّي الفعل بالباء، دون الهمزة؛ لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك، وبيان ذلك: أنه إذا قيل: ذهب الشيء، فمعناه: مضى إلي رجعة، أو إلي رجعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: ٩٩). وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٧٤). وإذا قيل: أَذْهبَ فلانٌ الشيءَ، فمعناه: أزاله من الوجود، وجعله ذاهبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٩)، فإذا قيل: ذهبَ فلانٌ بالشيء، يفهم منه: أنه استصحبه معه، وأمسكه عن الرجوع إلى الحالة الأولى التي كان عليها، وكأنه التصق به التصاقًا وليس كذلك: أذهبه، ومنه قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ (يوسف: ١٥).

---

١. من بلاغة القرآن: د. أحمد بدوي، ط٢، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٢م.

فثبت بذلك: أن **ذهب بالشيء** أبلغ من **أذهب الشيء**؛ لأن في التعبير الأول دلالة على أن آخذًا أخذ النور، ومضى به، فكيف إذا كان الذاهب به هو الله، وأصلهما جميعًا الذهاب الذي هو المضي، وكلاهما متعدٍ إلى المفعول الأول بنفسه، والثاني بوساطة البناء؛ ولهذا لا يجوز القول بزيادة هذه الباء، أو أن المعنى معها وبدونها سواء.

- وأما السر في أنه قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ، ولم يقل: **بضوئهم، أو بنارهم**: فلقد اختار النور على النار وضوئها؛ لأنه المراد من استيقاد النار؛ إذ هو أعظم منافعها، ولكونه الأنسب بحال المنافقين، الذين حُرموا الانتفاع والإضاءة، بما جاء من عند الله.

فقد استخدم أضاءت ثم نورهم ولم يقل بضوئهم؛ لأن هذا من مراعاة النظير، أو من التناسب والائتلاف، مع اقتضاء السياق للفظة ضوئهم: فإن السر في ذكر النور أن الضوء فيه دلالة على الزيادة، ولو قال بضوئهم لَأَوْهَم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نورًا، والغرض هو إزالة النور عنهم رأسًا وطمسه أصلاً.

- عطف: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ على: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: وقد استُفيد من هذا العطف التأكيد والتقرير لانتفاء النور عنهم بالكلية، تبعًا لما فيه من ذكر الظلمة المنافية للنور، ثم إيراد ما يدل على أنها ظلمة، لا يتراءى فيه شبحان. والقصد من هذا التأكيد والتقرير زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها.

- أما قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ فهو للإشارة إلى تحقيرهم وعدم المبالاة بهم، لما فيه من معنى الطرح للمتروك.

- ومن اللطائف البديعة أن **الظلمة** حيثما وقعت في القرآن وقعت مجموعة، وأن النور حيثما وقع وقع مفردًا، ولعل السبب هو أن الظلمة- وإن قلَّت - تُستَكثر،

وأن النور- وإن كثُر- يُسْتقل ما لم يضر. وأيضًا فكثيرًا ما يشار بهما إلى نحو الكفر والإيمان. والقليل من الكفر كثير، والكثير من الإيمان قليلٌ، فلا ينبغي الركونُ إلى قليل من ذاك، ولا الاكتفاء بكثير من هذا.

وفي ذلك تأكيد على أن الظلمات المذكورة هي ظلمة واحدة لا متعددة، ولكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة.

وبهذا يتبين أنه لا وجه لما تعلق به أصحاب هذه الشبهة، وأن الكلام مستقيم من أوله إلى آخره، ويأخذ بعضه برقاب بعض؛ فليس بعد هذا البيان لمدَّع أن يدَّعي، أو متوهمٍ أن يتوهم خطأً في القرآن.

الشبهة الثالثة

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد العربية في مجيء جمع الكثرة موضعَ جمعِ القلَّة(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعى بعض المشككين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ (البقرة: ٨٠) مخالفة لقواعد اللغة العربية؛ حيث استخدم جمع الكثرة معدودة في موضع جمع القلة، والصواب في زعمهم أن يُقال: أياما معدودات(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يَدُلَّ جمع التكسير على قلة أو على كثرة، ولكل نوعٍ صيَغُه وأوزانُه.

وقد زعم من لا يتأمل القرآن الكريم أنه خالف قواعد اللغة العربية فى استخدام هذين النوعين؛ فاستخدم جمع الكثرة مكان جمع القلة، وذلك فى قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ (البقرة: ٨٠)؛ فظنوا أن كلمة معدودة

---

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، د.إبراهيم عوض، الأخطاء اللغوية فى القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر.

**. يقول تعالى إخبارًا عن اليهود، فيما نقلوه وادَّعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسَّهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يَنْجُون منها، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهدٌ فهو لا يُخلف عَهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان؛ ولهذا أتى بـأَمْ التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. في سبب نزول الآية يقول ابن عباس ﷺ: إن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّب بكل ألف سنة يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ إلى قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٢). تفسير ابن كثير، دار الفكر، دمشق، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ (البقرة: ٨٠).

جمع كثرة واستُخدمت في غير موضعها، والصواب في زعمهم أن يقال: أياماً **معدودات**؛ ليدل الجمع على القلة.

وقد ردَّ اللغويون على هذا الزعم بوجوه منها:

١) إن لفظة **معدودة**: ليست جمعًا بل مفردًا، فهي ليست جمع كثرة ولا جمع قلة.

٢) إن لفظة **معدودات**: التي يزعمون أنها الصواب - ظانّين أنها جمع قلة - ليست جمع قِلّة؛ فهي على وزن **مفعولات** وهو من أوزان جموع الكثرة.

٣) صفة جمع التكسير المذكر الذى لا يَعْقِل يجوز جعلها صفة للاسم المؤنث المفرد تارة، وصفة لجمع المؤنث السالم تارة أخرى؛ فيقال: جبال راسية، وجبال راسيات.

التفصيل:

أولاً. إن **معدودة** ليست جمعًا بل مفردًا، فهي ليست جمع كثرة ولا جمع قلة، وهؤلاء المُتعالمين جعلوها جمع كثرة بسبب جهلهم باللغة العربية - لغة الإعجاز - وعليه فإن ما زعموا من أن **معدودة**: جمع كثرة، و **معدودات**: جمع قلة، فهو كلام غير محرَّر ولو طولبوا بالدليل عليه لعجزوا؛ لأن **معدودة**: مفردٌ وليست جمع كثرة ولا قلة، فكيف يكون المفرد أكثر من الجمع؟! ومن ثَمَّ فلا معنى للقول بأن القرآن استعمل جمع الكثرة مكان جمع القلة فى هذه الآية الكريمة.

ثانيًا. إن كلمة **معدودات** التي يزعمون أنها الصواب، وكان حق القرآن أن يُعبَّر بها فى هذه الآية بدلاً من **معدودة**، ظانين أن **معدودات** جمع قلة وهى ليست كذلك؛ فهى على وزن **مفعولات** وهو من أوزان جموع الكثرة ولا ينفعهم قولهم إن اليهود أرادوا بقولهم هذا القلة؛ لأن هذه القلة يدل عليها سياق الكلام لا المفردات المستعملة فى هذا التركيب.

ثالثًا. صفة جمع التكسير المذكر الذى لا يعقل يجوز جعلها كصفة الاسم المؤنث المفرد تارة، وكصفة جمع المؤنث السالم تارة أخرى؛ فيقال: جبال راسية، وجبال راسيات؛ وعلى هذا حتى لو سلمنا ـ جدلاً ـ بأن **معدودة** جمعٌ للكثرة، فإن معنى الكثرة وما فى معناه يُستعمل مكان جمع القلة وهو أمر معروف فى العربية قررّه علماؤها.

وكان الأولَى بهؤلاء بدلا من التشكيك في الجمع أن يقفوا على جانب بليغ ليس في ذرعهم إدراكه، وهو: **معاملة غير العاقل معاملة العاقل أو عدم معاملته**، ووصف الأيام بـ **معدودة** في ما حكاه الله عن اليهود هو وصف لها بما هو لائق بها؛ لأن الأيام لا تعقل فأجرى عليها الوصف الذى لغير العقلاء، وما جاء على الأصل فلا يُسَأل عنه.

أما معاملة غير العاقل معاملة العاقل ـ وهي في النظم القرآنى من الكثرة بمكان ـ فلها دواعٍ بلاغية، ولا يعامل غير العاقل معاملة العاقل إلا بتنزيله منزلة العاقل؛ لداع بلاغي يقتضيه ذلك التنزيل.

وإذا كان القرآن قد عبَّر فى وصف **أيامًا** في آية البقرة هذه بـ **معدودة** ـ وهو وصف لغير العاقل ـ جارٍ به على الأصل، فإنه عبَّر عن وصفها بـ **معدودات** في موضع آخر هو قوله ﷻ: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ (آل عمران: ٢٤).

وإذا قارنَّا بين الآيتين وجدنا آية البقرة مبنية على الإيجاز هكذا: ﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً** ﴾، ووجدنا آية آل عمران مبنية على الإطناب هكذا: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ** ﴾.

وإذا وازنت بين صدر آية البقرة: **وقالوا**، وبين صدر آية آل عمران: **ذلك بأنهم قالوا**، تجد أن عبارة **ذلك بأنهم** اشتملت على اسم الإشارة الموضوع للبعيد، الرابط بين الكلامين: السابق عليه، واللاحق به، ثم تجد **الباء** الداخلة على **أن** في **بأنهم**، ثم **أن** التي تفيد التوكيد، ثم ضمير الجماعة **هم**.

هذه الأدوات لم يقابلها فى آية البقرة إلا واو العطف: **وقالوا**؛ ومن ثَمَّ فالمقامان مختلفان؛ **أحدهما**: إيجاز، **والثانى**: إطناب. وهذا يُبيِّن بكل قوة ووضوح لماذا كانت **معدودة**. في آية البقرة؟! **ومعدودات** في آية آل عمران؟!

ومن ثم يظهر بجلاء عدم وجود الخطأ اللغوى فى القرآن الكريم؛ فهو الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الأسرار البلاغية في الآية:

- وهنا نتساءل: لِمَ عبَّر القرآن الكريم بلفظ المس، دون غيره مما قد يؤدي معناه كاللمس مثلا؟! وهنا تتجلى روعة التعبير القرآني، وجلال النظم الإلهي المعجز؛ فالمس: اتصال أحد الشيئين بالآخر على وجه الإحساس والإصابة، وذَكَر الراغبُ أنه كاللَّمس، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء، وإن لم يوجد كقوله: وألمسه فلا أجده. [1]

يقول الشيخ الشعراوي: هنا يكشف الله ﷻ فكر هؤلاء الناس، فلقد زين لهم الشيطانُ الباطلَ، فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلاً وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوي وفازوا به؛ لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عذابًا خفيفًا قصيرًا ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ .

---

١. تفسير روح المعاني، للآلوسي عند تفسير هذه الآية ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.

فالمس: يعني اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء، ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسًا خفيفًا، فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أناملك على يده يقال مسسته، ولكنّك بهذا المس لم تستطع أن تحس بحرارة يده، أو نعومة جلده، ولكن اللمس يعطيك إحساسًا بما تلمس: **﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾**، وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب، ثم أقل الأقل في الزمن فقالوا: أيامًا معدودة، فالشيء إذا قيل عنه معدود فهو قليل، أما الشيء الذي لا يحصى فهو الكثير، ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول ﷻ: **﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾** (النحل: ١٨)، فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه، فإن لم يكن ممكنًا لا يقبل أحد على عَدِّه، ولا نرى من حاول عَدَّ حبات الرمال أو ذرات الماء، فنعم الله ﷻ ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى؛ ولذلك لا يُقْبِل أحد على إحصائها، وإذا سمعت عبارة **أيامًا معدودة** فاعلم أنها أياماً قليلة، ولذلك نرى في سورة يوسف قول الله ﷻ: **﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾** (يوسف: ٢٠).

- لكن، أليس قولهم: **﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾** مما ينافي مقتضى اللمس، فهو لا يتجاوز اللحظة؟! والجواب: أنها أدل على غبائهم، وأبلغ في التعبير عن مطامعهم وأمانيهم التي وضعها الشيطان في عقولهم، ليأتي الرد من الله في قوله ﷻ: **﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾**، أي: إذا كان ذلك وعدًا من الله، فالله لا يخلف وعده، والله يأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم، لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله ﷻ بكم، بل هو جل جلاله الذي يحكم، فإن كان قد أعطاكم عهدًا فالله لا يخلف وعده[1].

١. تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة، جـ١، ص ٤٢٣، ٤٢٤، بتصرف يسير.

• أمّا قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ فيه لمحة بلاغية أخرى تبرز إعجاز النص القرآني، على عكس ما يتوهم هؤلاء الذين ضعفت سليقتهم اللغوية عن استيعابه، فالمعدودة أي: المحصورة القليلة، وكنّى بالمعدودة عن القليلة؛ لأن العرب ـ الذين خاطبهم القرآن ـ لعدم علمهم بالحساب وقوانينه، يتصورون القليل مُتَيسِّر العدد والكثير متعسر، فقالوا: شيء معدود أي: قليل وغير معدود أي كثير، والقول بأن القلة تستفاد من الزمان ذلك أنه إذا كثر لا يُعَدُّ بالأيام بل بالشهور، والسنين والقرون.

وبذا يتضح لنا ـ ولهم إن فطنوا ـ فساد ما ذهبوا إليه واشتملت عقولهم عليه من حسبان القرآن قد اخطأ في أمر بَدَهي كهذا.

الشبهة الرابعة

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في نصب الفاعل ورفع المفعول به(*)

مضمون الشبهة:

زعم بعض المشككين أنَّ القرآن الكريم خالف قواعد اللغة بنصب الفاعل ورفع المفعول به في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٢٤) (**)، فـ إبراهيم في زعمهم فاعل منصوب، و ربُّه مفعول به مرفوع، وهذا مخالف لقواعد اللغة.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في ترتيب مكونات الجملة الفعلية أن يأتي الفعل أولا ثم الفاعل ثم المفعول به.

(*) رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت سنة١٩٨٥م.

(**) يقول الشيخ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤): يقول تعالى للنبي ﷺ: اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهنَّ وفاءً وقضاءً، وقد شهد الله لإبراهيم بالوفاء ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وهو مقام عظيم، ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم، وهو مقام الوفاء بشهادة الله ﷻ، وعندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أي: إماما يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعا، وتكون له فيهم قيادة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعًا، وعندئذ تُدركُ إبراهيمَ فطرةُ البشر: الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وجاء الرد من ربه ـ الذي ابتلاه واصطفاه ـ مقررًا هذه القاعدة الكبرى: أن الإمامة لمن يستحقونها بالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، قال: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ فالتصور الإسلامي لا يعترف بالقربى، ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل. (تفسير الظلال: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، جـ١، ص ١١٢، ١١٣) بتصرف يسير.

وغير المتأمل لقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قد يتوهَّم أن القرآن الكريم قد نصب الفاعل، ورفع المفعول به في الآية؛ بناء على الترتيب الأصلي لعناصر الجملة الفعلية، وبهذا أُثيرت هذه الشبهة، وكان الصواب في زعمهم أن يقال: وإذ ابتلى إبراهيمُ ربَّه، برفع **إبراهيم** ونصب **ربَّه**، ولكن التعبير القرآني جاء مخالفا لتوهمهم، فنصب **إبراهيم**، ورفع **ربه**.

والحقيقة أنه لا توجد أيُّ مخالفة للاستعمال اللغوي، ولا للقواعد النحوية في نصب لفظة **إبراهيم** ورفع لفظة **ربه** في الآية الكريمة، بل ذلك هو الواجب الذي توجبه قواعد اللغة والنحو، كما أن المعنى لا يقتضي إلا ذلك؛ إذ:

١) أن **إبراهيم** في الآية منصوب بالفتحة؛ لأنه مفعول به مُقَدَّمٌ، أمَّا **ربه** فقد رُفِعَ بالضمة؛ لأنه فاعل مُؤَخَّر وهذا الإعراب يؤكده المعنى، بل إن المعنى لا يحتمل غيره؛ لأن الخالق هو الذي يختبر عبده ويبتليه.

٢) إن القواعد النحوية توجب تقديم المفعول على الفاعل، إذا كان الفاعل مضافًا إلى ضمير يعود على المفعول به، كما في الآية الكريمة؛ لئلا يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة؛ مما يعد إخلالاً بقواعد اللغة العربية.

التفصيل :

أولاً. أن ما جاء في الآية الكريمة من نصب **إبراهيم** بالفتحة ورفع **ربه** بالضمة، موافق للاستعمال اللغوي، والقواعد النحوية؛ وذلك لأن الإعراب الصحيح هو أن **إبراهيم** مفعول به مُقدَّم، وليس فاعلاً كما يظنون؛ لهذا استحق النصب بالفتحة، أمَّا **ربه** ففاعل مُؤخَّر، وليس مفعولاً به كما يظنون؛ لهذا استحق الرفع بالضمة، والهاء ضمير مضاف إلى **رب**؛ ومن ثم فلا يوجد أي خطأ في القرآن الكريم، ويؤكد هذا ويعززه سياق الآية نفسه، فهو تتحدث عن ابتلاء الله لإبراهيم

بأوامر ونواهي "والابتلاء هو الامتحان والاختبار ومعناه أمر وتعبد"[1]، ومعلوم بالضرورة أن الخالق هو الذي يختبر ويأمر عبده وليس العكس؛ ومن ثم يبطل الزعم بخطأ القرآن الكريم ومخالفته للقواعد النحوية.

ثانيًا. إن من القواعد النحوية المشهورة والمسلَّم بها: وجوب تقدم المفعول به على الفاعل، إذا اتصل بالفاعل ضمير يرجع على المفعول به؛ وذلك لئلا يعود الضميرُ على متأخر لفظا ورتبة[2]، وهذا الحتم اللغوي عند جمهور النحاة هو ما راعته الآية الكريمة في تقديم المفعول به **إبراهيم** على الفاعل **رب**؛ إذ إن قول: **إذ ابتلى ربُّه إبراهيمَ** غير جائز في العربية، كما أن تقديم المفعول به على الفاعل في هذه الآية فيه سرٌّ بياني بديع، وهو أن تقديم المفعول به هنا يفيد الاهتمام بالمقدم؛ وذلك لأن المقصود من ذكر القصة هو تشريف إبراهيم عليه السلام بإضافة اسم الرب إلى اسمه، مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل: **وإذا ابتلى اللهُ إبراهيمَ**[3]؛ لأن القصة مسوقة أساسًا لدفع المخاطبين "اليهود ومشركي العرب" إلى اتباع إبراهيم عليه السلام في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

من النظرة الإجمالية لهذه الآية الكريمة يتضح لنا فن طريف من الفنون البلاغية لدى العرب يقال له: فن المراجعة، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور، أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م، جـ٢، ص ٩٦.
2. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص ٢٠٤.
3. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، جـ١، ص ٧٠٢.

محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته، وسهولة السبك، فانظر إلى هذه الآية كيف جمعت معاني الكلام من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد.[1]

- إذا نظرنا لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ نجد أنه حذف متعلق **إذ** الظرفية؛ لأنه معلوم من السياق، والتقدير: اذكر يا محمد لأهل الكتاب ولقومك، والإيجاز بالحذف من الأساليب البلاغية البديعة عند العرب، وكذلك إذا نظرنا للتعبير عن البلاء بـ **الابتلاء** بصيغة **الافتعال**، وهي صيغة تدل على المبالغة في البلاء والاختبار، وهذا ما يليق بمقام الأنبياء عليهم السلام.

- أما تقديم **إبراهيم** وهي مفعول به، فكما قلنا؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه[2]، ولبيان الاهتمام به عليه السلام؛ لأن القصة مسوقة أساسًا لدفع الناس للاقتداء به.

- أما إيثار لفظة **رب** على ألفاظ أخرى تدل على الذات الإلهية؛ فهذا لأن الرب معناه المربِّي الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه[3]. ولا يمكن إيصال هذا المعنى إلا بهذا اللفظ.

- أمَّا قوله: ﴿بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فقد عبرت **كلمات** على كل الأوامر والنواهي التي كُلِّفَ بها إبراهيم عليه السلام، وهذا أسلوب دقيق؛ إذ ليس الغرض هنا تفصيل شريعة إبراهيم، وإنما الغرض بيان فضل إبراهيم عليه السلام[1]

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، جـ١، ص ١٧٩.
٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، جـ١، ص ٧٠٠، ٧٠١، بتصرف، سابق.
٣. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج١، ص ٥٧٠.

- أما قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فقد جيء به بالفاء للدلالة على الفورية في الإمتثال؛ وذلك من شدة العزم، ونظرنا لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقد ذكر الله تعالى في وعده لإبراهيم قوله: ﴿جَاعِلُكَ﴾ اسم الفاعل، ولم يذكر **سأجعلك**؛ لأن هذا الوعد من الله القادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، فكأنه قد جعله إمامًا بالفعل؛ حيث لم يربط هذا الوعد بزمن.
- والمراد بـ**الإمام** هنا **الرسول** وإنما عدل إلى استخدام كلمة **إمام**؛ ليدل على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فإن إبراهيم عليه السلام رحل إلى آفاق كثيرة، فتنقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، والحجاز، ومصر، وكان في جميع منازله محل التبجيل، ولا شك أن التبجيل يبعث على الاقتداء[١]، ولعل هذا السبب هو السر في ذكره لفظة **الناس**، ولم يقل أمتك أو ذريتك[٢].
- أما قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ففيه ملمح إعجازي آخر يضاف إلى غيره من الملامح البلاغية، فقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ، وهذا أدب منه عليه السلام؛ لأنه لم يسأل ما هو مستحيل عادة؛ لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجرِ بأن يكون جميع نَسْلُ مَن يصلح أن يُقتَدَي به أئمةً وأنبياءَ.
- أما قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ففيه سر بياني عجيب؛ حيث ذكر تعالى الصنف الذي لا تتحقق فيه الدعوة **الظالمين**، ولم يذكر الصنف الآخر الذي تتحقق

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، جـ١، ص ٧٠٢، بتصرف، يسير.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، جـ١، ص ٧٠٣.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١، ص ٧٠٤.

فيه الدعوة، وذلك إيجاز بليغ؛ لأن المقصد من ذكر هذا الصنف هو التعريض بأهل الكتاب، ومشركي العرب، الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى؛ لأن الله تعالى يقصد التحذير من المفاسد قبل الحث على المصالح؛ فبيان الذين لا تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان الآخرين[1].

هذه بعض الملاح البلاغية في الآية الكريمة، والتي لم يزل فيها العديد والعديد من الملامح البلاغية والأسرار البيانية، ما لم نذكره، وما لم نعطه حقه من البيان؛ لأننا نتحدث عن كتاب لا يبلى جديده، ولا تنتهي عجائبه، والعجب كل العجب، فيمن يلقون بالشبهات جُزافًا دون عِلم أو رَوِيَّة أو استفهام عما يجهلون، فيتهمون القرآن بالخطأ، وهو أبعد ما يكون عن هذا التوهم كما رأينا.

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١، ص ٧٠٦، بتصرف يسير.

الشبهة الخامسة

الادعاء أن القرآن خالف قواعد اللغة ونصب الفاعل (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المدعين أن القرآن خالف قواعد اللغة ونصب الفاعل: ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(**)(البقرة: ١٢٤)، والصواب في ظنهم أن يُقال: **الظالمون** بالرفع.

(*) عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م. رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٥م.
www.islameyat.com, www.arabic vaaio.com, www.ebnmaryam.com .

(**) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول ﷻ منبهًا على شرف إبراهيم خليله ﷺ وأن الله ﷻ جعله إمامًا للناس يُقتدي به في التوحيد؛ حيث قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ، أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين، وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين. اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ، أي: قام بهن كلهن كما قال ﷻ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٧)، أي: وفّي جميع ما شُرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقوله: "بكلمات" أي: بشرائع وأوامر ونواه، قال ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ، أي: جزاء ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله للناس إمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه. (تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية). قال أبو السعود:﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ شروع في تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبي ﷺ من التوحيد والإسلام الذي هو ملة إبراهيم ﷺ، وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة، وإنما الحق ما كان على ملة إبراهيم ﷺ من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقيقة التوحيد والإسلام، وبطلان الشرك، وبصحة نبوة النبي ﷺ وبكونه ذلك النبي الذي استدعاه إبراهيم، وإسماعيل - عليهما السلام - بقولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (تفسير أبي السعود عند هذه الآية). بتصرف

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يأتى الفاعل مرفوعا وعلامة رفعه قد تكون أصلية أو فرعية، وهذا ما نلحظه في لغة القرآن الكريم، أمَّا ما يتوهمه بعضهم من أن القرآن نصب الفاعل، فوهم باطل من وجهين:

١) ﴿يَنَالُ﴾ فعل متعدٍ بمعنى: (يشمل أو يعم أو ينفع) كما في الآية، أي: لا يشمل عهدي الظالمين، فعهدي هنا: فاعل، والظالمين مفعول به مثال ذلك: أن يقول الوالد لأبنائه: لا ينال رضاي العاقين، والفعل: ﴿يَنَالُ﴾ يأتي أيضًا بمعنى "يصل لـ"، فيكون معنى الآية (لا يصل عهدي للظالمين)؛ وعليه فلفظة: "الظالمين" منصوبة على نزع الخافض أو (لا يصل الظالمين عهدي) إذا قدمنا المفعول وأخرنا الفاعل.

٢) الفعل: ﴿يَنَالُ﴾ يسند في اللغة إلى من يعقل وإلى ما لا يعقل، وكلا الاستعمالين صحيح فصيح.

التفصيل:

إن فيما ادَّعاه هؤلاء من نَصْب القرآن للفاعل في الآية التى نحن بصددها - لأدَلُّ دليل على جهلهم بأبسط قواعد اللغة، وعجيب أن يتصيدوا للقرآن شبهات فى لغته متناسين أن هذا القرآن نزل أول ما نزل على قوم كانت صناعتهم الفصاحة والبيان، وفنون القول وأساليبه، وقد نزل القرآن بلسانهم متحديًا لهم - وهم ألد أعدائه حينذاك - في أخص ما يمتازون به، وأعظم ما يتباهون به؛ فعجزوا عن مجاوزته، أو حتى الإتيان بسورة مثله، فلو كان في القرآن خطأ لما سكت عنه أولئك المعاندون للنبي ﷺ، المحاربون للقرآن ، ولاستغلوا أي خطأ في القرآن للطعن في الإسلام وأهله، ولكنهم - رغم فصاحتهم وبيانهم - لم يأتوا بخطأ واحد في القرآن، بل شهدوا له بالحلاوة والطَّلاوة، وكانوا يتلصَّصُون من بعض لسماع القرآن،

وكانوا يخشون على أنفسهم أن ينفذ أسلوب القرآن البليغ إلى قلوبهم؛ فيخترق الحجب السوداء التي رانت عليها فيؤمنوا به؛ فأصدروا بيانًا مضمونه: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

وفي إعراب هذه الآية و بيان موقع الفعل **ينال** في اللغة العربية، وجهان نفصلهما لنقف على حقيقة بطلان هذا الزعم:

أولاً. الفعل **نال** فعل متعد لمفعول واحد، قال الله ﷻ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ (الأحزاب: ٢٥). فالفاعل **واو الجماعة** والمفعول **خيرًا**.

أما في هذه الآية ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ، فالفاعل **عهدي** مرفوع بضمة مقدرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة لـ **ياء المتكلم**، والمفعول به هو **الظالمين**، وعلامة نصبه **الياء**؛ لأنه جمع مذكر سالم، ينصب ويجر بـ **الياء**، والمعنى: لا ينفع عهدي الظالمين، وليس في مجيء **الظالمين** منصوبًا على المفعول به خلاف بين العلماء.

وقد جاء قوله ﷻ: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج: ٣٧). على خلاف نسق آية البقرة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ حيث جاءت على الترتيب الطبيعي: الفعل **ينال** ثم الفاعل **عهدى** ثم المفعول **الظالمين**. أما في آية الحج: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ﴾، فإن الذي ولى الفعل هو المفعول (**لفظ الجلالة**)، وما بعده لحومها هو الفاعل والمعنى: لن يصل اللهَ لحومُها ولا دماؤها، وكذلك قوله: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ فالضمير في **يناله** هو المفعول به، أما **التقوى** فهي الفاعل [1].

---

١. حقائق القرآن وأباطيل خصومه، أ. د. عبد العظيم المطعني، دراسات إسلامية ـ سلسلة تصدر كل شهر عربي، العدد ١٠٨، القاهرة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، القسم الثالث، ص ٢٠.

ثانيًا. ربما التبس الأمر على هؤلاء المتوهمين حين زعموا هذا الزعم؛ لأنهم توهموا أن الفعل (**ينال**) لا يسند إلا لمن يعقل، وأنه إذا اجتمع عاقل وغير عاقل، فلا بد من إسناد الفعل (**ينال**) إلى العاقل؛ فيكون هو الفاعل، وهذا توهم خاطئ؛ لأن الفعل (**ينال**) له استعمالان صحيحان في اللغة العربية:

١. أن يسند إلى من يعقل! فيكون بمعنى إدراك الشيء، والحصول عليه كما في قوله ﷻ: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** (آل عمران: ٩٢).

٢. أن يسند إلى ما لا يعقل، أو إلى معنى من المعاني؛ فيكون بمعنى وصوله إلى المفعول به، كما في قول ﷻ: **﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾** (الحج: ٣٧)، وقوله ﷻ: **﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾** (الأعراف: ٣٧). والملاحظ أن الاستعمالين معناهما واحد؛ ولذا قال العلماء: إن كل ما نالك فقد نلته، والعكس صحيح.

وبهذا يتضح أن الآية الكريمة: **﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** تخلو من الخطأ النحوي ومن غيره خلو الشمس من السواد، و قد يكون معروفًا هذا لخصوم القرآن، ولكن الحقد الدفين هو أعماهم وطبع على قلوبهم؛ فلم يروا الحق إلا باطلًا، ولم يروا الصواب إلا خطأ، وهكذا سولت لهم أنفسهم، وما دروا أنهم المخطئون[1].

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- العلة البلاغية من تقديم المفعول على الفاعل في قوله: **﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾**: هي العناية والاهتمام، فقد علل الموجهون ذلك بقاعدة نحوية تقرر وجوب

١. حقائق الإسلام وأباطيل الخصوم، أ. د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، القسم الثالث، ص٢٠.

تقدُّم المفعول على الفاعل إذا اتصل به ضمير يرجع إلى المفعول؛ لئلا يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة، ويبيِّن ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ) بلاغة ذلك فيقول: إن المفعول ههنا قد قُدِّم على الفاعل للاهتمام؛ إذ كون الرب مبتلِّيا معلوم، فإنما **(يهتم)** السامع بمن ابْتُلِيَ (الذي وقع عليه البلاء)، وكون ضمير المفعول موجب تقديم المفعول، فإنما بني الكلام على هذا الاهتمام. ومعلوم أن القاعدة توظف فى السياق تقديمًا وتأخيرًا، فيختار لها الموضع المناسب والمعرض الحسن[1].

• مبلغ الفصاحة وقوة البيان في هذه العبارة الموجزة **﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾**، أي قال: واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله إلا في القرآن.

• ثم قال ﷻ: **﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** ، أي: إنني أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس، ولكن عهدي بالإمامة لا ينال الظالمين؛ لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدي بهم؛ ففي العبارة من الإيجاز ما يناسب ما قبلها، وإنما اكتفي في الجواب بذكر المانع من منصب الإمامة مطلقًا وهو الظلم لتنفير ذرية إبراهيم منه؛ لكيلا يقعوا فيه فيحرموا هذا المنصب العظيم، [2] فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل[3].

---

١. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد، مكتبة الآداب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ، جـ١، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

٣. تفسير الرازى عند تفسير قوله ﴿ :ﷻ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ (البقرة : ١٢٤).

الشبهة السادسة

توهُّم اضطراب القرآن الكريم في الإتيان باسم الموصول في مكان المصدر(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المدَّعين أن في القرآن الكريم اضطرابًا؛ حيث جاء بالموصول في مكان المصدر وذلك في قوله ﷻ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ إذ الصواب في ظنهم أن يقال: ولكن البر أن تؤمنوا بالله، أن يُقال: "ولكنَّ البرَّ مَنْ آمن"؛ لأن البر هو الإيمان لا المؤمن"(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أنه لا يُخبَرُ عن المعنى باسم ذات وقد زعم المشككون أن القرآن قد خالف ذلك فأتى بخبر يدل على ذات ليخبر به عن معنى، وهذا تحقق في قوله

(*) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، دار زهراء الشرق، مصر ٢٠٠٤م. الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، دار زهراء الشرق، مصر ٢٠٠٤م.

(**) يقول الشعراوي في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾: أي لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه، إنما المسألة هي الامتثال لأمر الآمر، فالبر إذن ليس في الأمور السهلة التالي لا مشقة فيها، وإنما هو في الخير الواسع الكثير، وكل وجوه الخيرية تدخل في كلمة البر، فالبر معناه كبير واسع، وما دام معناه متسعًا هكذا، فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة، فمتعلق البر هو أن يختبر صدق الإيمان، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة، ويتطلب من المؤمن أن يُقبل على الطاعة، وإن شقت عليه، وأن يمتنع عن المعاصي، وأن يعرف أن المعاصي لذة عاجلة، ولكن عقابها كبير. (تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، قطاع الثقافة، ج٢، ص ٧٢٨، ٧٢٩).

تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ..﴾، فقد أخبر عن اسم المعنى **البر** باسم ذات اسم الموصول **من**، وهذا في زعمهم مخالفٌ لأصول اللغة، وكان الصواب في زعمهم أن يقال: **ولكن البِّر أن تؤمنوا؛** ليكون الإخبار عن اسم المعنى **البر** وهو مصدر باسم معنى مثله وهو المصدر المؤول **أن تؤمنوا**.

وقد رد النحويون وعلماء اللغة على هذه الشبهة بما يلي :

- للعلماء توجيهات في وقوع ﴿مَنْ آمَنَ﴾ خبرًا عن ﴿الْبِرَّ﴾ وهو خلاف الأصل؛ لأن ﴿الْبِرَّ﴾ معنى ذهني، و ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ذات، والذوات لا يخبر بها عن المعاني الذهنية، ومؤدي هذه التوجيهات وأهمها أن يكون المصدر **البر** موضوع موضع اسم الفاعل للمبالغة، أو أن في الكلام مضافًا محذوفًا، وهو إما أن يكون قبل البر، وتقديره: **لكن والبر**، أو بعدها وتقديره: **لكن البرَّ برُّ**، وأيًا ما كان الأمر فلا اضطراب في الآية، بل هو جهل عند أنفسهم دفعهم أن يقولوا بأن الآية أتت باسم الفاعل بَدَل المصدر، وليس الأمر كذلك، بل هو اسم موصول لا اسم فاعل.

التفصيل:

توجيه وقعت ﴿مَنْ آمَنَ﴾ خبرًا عن ﴿الْبِرَّ﴾ وهو خلاف الأصل؛ لأن البر معنى ذهني ومن آمن ذات، والذوات لا يخبر بها عن المعاني الذهنية، وللعلماء في هذه المسألة ستة توجيهات، نذكر أقواها فيما يلي:

وقد أورد الإمام الزمخشري منها ثلاثة توجيهات:

١. أن في الكلام مضافًا محذوفًا، والتقدير **وَلَكِنَّ الْبِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ**، وهذا التوجيه اشتهر بين جمهور العلماء وردَّده كثير منهم.

٢. تأويل ﴿الْبِرَّ﴾ بـ'ذو البر يعني أن في الكلام حذف مضاف، موضعه قبل 'البر' أما التوجيه الأول فكان تقدير المضاف المحذوف قبل ﴿مَنْ آمَنَ﴾ وهذا المضاف خبر ﴿الْبِرَّ﴾ الأولى التي هي اسم ليس.

٣. أن يكون المصدر، وهو **البر** موضوعٌ موضع اسم الفاعل للمبالغة، كما في قول الخنساء: تصف موت أخيها صخر:

تَرتَـعُ مـا رَتَعَـت حَتّـى إِذا اِدَّكَـرَت ... فَإِنَّمـا هِـيَ إِقبـالٌ وَإِدبـارُ

وإقبال وإدبار مصدران حلاًّ محل اسم الفاعل، والتقدير؛ هي مقبلة مدبرة، وقد سَبق الزمخشري إلى الرأي الأول **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ** شيخ النحاة سيبويه.

وقد اختار سيبويه هذا الرأي ورجَّحه لاعتبارٍ قَويٍّ فَحْوَاه أن السابق عليه هو نفي كون البر هو تولية وجوه المخاطبين نحو المشرق والمغرب، ثم قال: والذي يستدرك ينبغي أن يكون من جنس ما وقع عليه النفي وهو هنا ـ البر ـ يريد شيخ النحاة أن يقول: إن 'لكنْ' أداة استدراك في المعنى، وإن طرفي الاستدراك ينبغي أن يكونا متجانسين، والاستدراك، إما إثبات بعد نفي، أو نفي بعد إثبات، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ما قبل أداة الاستدراك 'لكنْ' هو الإيمان والتقوى، وما بعدها هو التكذيب، فبين ما قبلها وما بعدها تجانس ظاهر؛ لأنهما سلوكيات قلبية وخلقية، وكذلك ما قبل 'لكنْ' في الآية موضع الدراسة هو البر الظاهري المنفي، وما بعدها ينبغي أن

يكون هو البر الحقيقي المثبت، وهذه لمحة طيبة من شيخ النحاة، ولها صلة وثيقة بالتوجيه البلاغي لهذه المسألة[1].

الأسرار البلاغية فى الآية الكريمة :

- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ فيه إيجاز بحذف المضاف، إذ المعنى: "ولكن البر برُّ من آمنْ" والإيجاز بالحذف هنا من البلاغة القرآنية والدقة في آي القرآن الكريم[2].
- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ من الآراء التي طرحت فيه أن ﴿الْبِرَّ﴾ هنا وقع موقع اسم الفاعل لإرادة المبالغة على وزن قول العرب "رجل عدل" حيث عدلوا عن "رجل عادل" إلى الإخبار عنه بالمصدر، على اعتبار أن هذا الرجل لما كان كثير العدل صار كأنه العدل نفسه لا فرق بينهما، وهذا رأي نحاة الكوفة[3].
- قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيه "مجاز مرسل علاقته الجزئية، فذكر الجزء وأراد الكل"[4].
- قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾فيه من البيان ما يسمى بالتتميم، فقوله تعالى: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ تتميم لأن المعنى قد تمّ قبلها، ولكن ليس

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص ٢١٩، ٢٢٠.

٢. إعراب القرآن الكريم وبيانه: أ. د. محى الدين الدرويش، ج١، دار ابن كثير، ص ٢٥١.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: أ. د. حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ٢٢١.

٤. إعراب القرآن الكريم وبيانه: أ. د. محى الدين الدرويش، ص ٢٥١، مرجع سابق.

هذا من باب الزيادة التي بلا فائدة، ولكن ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ تفيد التأكيد وزيادة تمام المعنى[1].

- قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فيه من البيان ما فيه من المخالفة الإعرابية، فَعُدِل بالصابرين عن نسقه نصبًا على المدح أو الاختصاص، تنبيهًا على فضيلة الصبر في الشدائد ومواضع القتال، وإظهارًا لمزيته على سائر الأعمال.

- جعل بعض البلاغيين قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ ثم قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ من الالتفاف، وقد عدُّوه من الالتفات بسبب المخالفة في البناء النحوي للجملة، وهو رأي بعض البلاغيين[2].

١. المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٦٤.

٢. أسلوب الالتفات: د. حسين طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٢٤.

الشبهة السابعة

توهُّم مخالفة القرآن قواعد اللغة في نصب المعطوف على مرفوع(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، مخالفة لقواعد اللغة؛ حيث جاء المعطوف **الصابرين** منصوبًا، مع أنَّ المعطوف عليه **الموفون** مرفوع، والصواب في زعمهم أن يُقال: **والصابرون** بالرفع عطفًا على ما قبلها(**).

(*) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، د. إبراهيم عوض، دار الزهراء، مصر. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(**) يقول صاحب الظلال في تفسير الآية الكريمة: إنها تتضمن قيمًا إيمانية تنتظم تحت مفهوم العقيدة وهي الإيمان بالله، الذي هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى إلى العبودية لله وحده، والإيمان باليوم الآخر، بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست فوضى بغير ميزان، والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان والحيوان، والإيمان بالكتاب والنبيين، وهو الإيمان بالرسل أجمعين، والإيمان بوحدة البشرية، ووحدة إلهها، ووحدة دينها، إيتاء الزكاة هو الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقًّا في أموال الأغنياء للفقراء؛ فإيتاء المال قيمة إنسانية في محيط الجماعة، وصلة لذوي القربى تتحقق فيها مروءة النفس، وكرامة الأسرة، والمال مع إعطائه لليتامى يحقق التكافل بين كبار الجماعة وصغارها، والمال يُعطَى لابن السبيل المنقطع عن ماله وأهله؛ لنجدته في ساعة العسرة، وأما إقامة الصلاة فهي شيء غير التولي قبل المشرق والمغرب، إنها تُوجه الإنسان بكليته إلى ربه، ظاهرًا وباطنًا، جسمًا وعقلا وروحًا. وأما الوفاء بالعهد فهو سمة يحرص عليها الإسلام، ويكررها القرآن كثيرًا، ويعدها آية الإيمان والآدمية والإنسان، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس؛ تربية للنفوس كي لا تطير شعاعًا مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعًا أمام الشدة، ثم تُعقِّب الآية على مَن هذه صفاتهم بأنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، والحق أن الآية خلاصة لمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل. (تفسير الظلال: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ج١، ص ١٥٩-١٦١ بتصرف).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى المعطوف أن يتبع المعطوف عليه فى الإعراب، ولكن جاء النظم المعجز على خلاف هذا الظاهر، والمتأمل لكلام ربنا جل وعلا في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ...﴾ ليجد كلمة **الصابرين** منصوبة، وكان الظاهر أن تكون مرفوعة عطفًا على ما قبلها، وللنحاة والمفسرين **أقوالٌ** في توجيه ذلك، ومنها:

١) الظاهر من سياق الكلام أن تكون كلمة **الصابرين** مرفوعة؛ لأنها معطوفة على مرفوع، ولكنها قُطعت عن العطف ونُصبت على المدح بفعل محذوف تقديره **أمدح** إشعارًا بفضل الصبر، وتنويهًا بذلك الفضل.

٢) المخالفة الظاهرة فى مثل هذا المقام أبلغ من جريان الكلام على نمط واحد، وهذا أسلوب جارٍ على سنن العربية وطريقة أهلها فى الكلام.

التفصيل:

أولاً. جاءت كلمة**الصابرين** منصوبة على الاختصاص بالمدح إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال على سائر الأعمال.

فإن قال قائل: إذا كان السياق القرآني جاء بـ ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ مرفوعة، فلماذا جاء **بالصابرين** منصوبة؟ وماذا يعني **اختلاف** الإعراب؟ قلنا: إن الأُذُن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح، فإذا كان الكلام على خلاف قواعد الإعراب، فلم يختلف الإعراب إلا لينبهنا إلى أن شيئًا يجب أن يُفهم.

ومن ثَمَّ فكسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئًا جديدًا استحق أن يُخَالَف عنده الإعراب؛ لأن الصبر مطية كل هذه الأفعال.

فالذي يستطيع الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء المال على حبه، هو الذي فاز وظفر، إذن كل ذلك امتحان للصبر، ومن هنا خص الله **الصابرين** بما لهم من فضل بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص[1].

وجاء في تفسير القرطبي يكون **الموفون** عطفًا على **مَن**؛ لأن مَنْ في موضع جمع ومحل رفع؛ كأنه قال: ولكن البرَّ المؤمنون والموفون، قاله الفراء والأخفش: **والصابرين** نُصب على المدح، أو بإضمار فعل. والعرب تنصب على المدح وعلى الذم، كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام، وينصبونه[2].

فأما المدح فقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ وأنشد الكسائي:

وكلُّ قومٍ أطاعوا أَمْرَ مُرْشِدِهم ... إلا نُميرا أطاعت أمر غاويها

الطاعنين ولمَّا يُظْعِنوا أحدًا ... والقائلون لِمَنْ دار نُخَلِّيها

وأنشد أبو عبيدة:

لا يَبعَدَن قَومي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وَآفَةُ الجُزرِ

النازِلونَ بِكُلِّ مُعتَرَكٍ ... وَالطَيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزرِ

وقال آخر: نَحنُ بَني ضَبَّةَ أَصحابُ الجَمَل

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٢، ص ٧٤٠، ٧٤١.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢، ص ٢٣٩.

فنصب على المدح كما نصبت العرب على الذم كما في قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾، وقال عروة بن الورد:

سقونى الخمر ثم تكنَّفوني عُداة الله من كذب ووزر

وهذا مَهْيَع **واضح** في النعوت، لا مطعن فيه من جهة الإعراب، موجود في كلام العرب(١).

ثانيًا. المخالفة الإعرابية فى مثل هذا المقام أبلغ من جريان الكلام على نمط واحد، وهذا أسلوب جار على سنن العربية وطريقة أهلها فى الكلام، وبيانه أن العرب تعترض من صفات الواحد إذا تطاولت بالمدح أو الذم، فيرفعون إذا كان الاسم رفعًا، وينصبون بعضها على المدح، فكأنهم ينوون إخراج المنصوب بمدح مجدد غير متبع لأول الكلام، ومن ذلك قول الشاعرة خِرْنِق بنت هِفَّان:

لا يَبْعَدَنْ قَومِي الذين هُمُ سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النَّازلين بكل مُعْتَرَكٍ والطَّيبون مَعَاقِدَ الأُزْرِ

فالمخالفة الإعرابية بمجردها هى التى أوحت بإفراد هذه الصفات بمدح مجدَّد، فَعُدل **بالصابرين** عن نسقه نصبًا على المدح أو الاختصاص؛ تنبيهًا على فضيلة الصبر فى الشدائد ومواضع القتال، وإظهاراً لمزيته من سائر الأعمال.

والمخالفة الإعرابية ـ كذلك ـ فى مثل هذا المقام أبلغ من جريان الكلام على نمط واحد؛ يقول أبو على الفارسى: " إذا ذُكِرَتْ الصفات الكثيرة فى معرض المدح أوالذم، فالأحسن أن يُخَالفَ فى إعرابها، ولا تُجعل كلها جارية على موصوفها؛

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٣٩، ٢٤٠، مرجع سابق.

لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب فى الوصف، والإبلاغ فى القول، فإذا خُولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل؛ لأن الكلام عند الاختلاف يصير كأنه أنواع من الكلام، وضروب من البيان، وعند الاتحاد فى الإعراب يكون وجهًا واحدًا، وجملة واحدة.

ذلك لأن الموصوف عند تغير سبكه يصير جملة برأسه مما يوحى بتفخيم مقامه، بالإضافة إلى الافتنان فى التعبير، وما يشي به تغيير المألوف من دلالة على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه.

ومن هنا يتبين أن دعوى تخطئة نصب **الصابرين** ووجوب رفعه على العطف دعوى لا يصح قبولها؛ لأن الأسلوب ليس عطفًا، وإنما هو أسلوب قطع للمدح أو الاختصاص والتقدير: أمدح الصابرين، أو أخص الصابرين بالمدح، وعليه فكلمة الصابرين مفعول به لفعل محذوف تقديره: أمدح أو أخص، وهو ما يسمى النصب على المدح أو الاختصاص.

وقد جاء في قوله تعالى: **﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾** أكثر من قراءة فقد قرأ الجمهور **الصابرين** بالنصب، وقراءة الحسن والأعمش ويعقوب **الصابرون** بالرفع، [1]وعلى هذه القراءة التي بالرفع لا يكون هناك لَبْسٌ ولا مجال لإثارة الشبهة.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- قطع التابع عن المتبوع، وضابطه أنه إذا ذكرت صفات المدح، أو الذم خُولف في الإعراب تفننًا في الكلام واجتلابًا للانتباه، بأن ما وصف به الموصوف،

---

١. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد، مكتبة الآداب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١١٠: ١١٢.

أو ما أسند إليه من صفات، جدير بأن يستوجب الاهتمام؛ لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور، والآية التي بين أيدينا مثال لقطع التابع عن المتبوع في حال المدح، ومثاله في حال الذم قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤) فقد نصب **حمالة** على الذم، وهي في الحقيقة وصف لامرأته[1].

- المخالفة في البناء النحوي للجملة يعد التفاتًا، ويُستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [2]، والالتفات له فائدتان ـ كما حددهما الزمخشري: عامة وخاصة، فالعامة: هي إمتاع المتلقى، وجذب انتباهه بتلك النتوءات أو التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير، أما الخاصة فتتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور ـ في موقع من السياق الذي ترد فيه ـ من إيحاءات خاصة.

- لماذا خص الله الصابرين بالمدح؟ وجوابه: أن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس، ولا يستطيع تَحَمُّل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر، وما دام قد قدر على الصبر، فكل ذلك يهون، ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة.[3]

---

١. إعراب القرآن الكريم، محى الدين درويش، دار ابن كثير، اليمامة، دمشق، بيروت، ج١، ص ٢٥٢.

٢. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، الدكتور حسن طبل، دار الفكر العربي، ص ٢٤.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٢، ص ٧٤١.

الشبهة الثامنة

ادّعاء اضطراب القرآن الكريم فى تذكير العدد وتأنيثه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أنَّ القرآن الكريم لم يُصبْ فى تذكير العدد وتأنيثه، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦)(**)، والصواب فى ظنهم أن يقول: تلك عشر كاملة.

---

* .www.ebnmaryam.com. www.answering_islam.org .

**. لقد بدأ الله ﷻ في كتابه الكريم بذكر الصيام وأحكامه، ثم بعد ذلك ذكر مواقيت الحج، وذكر فيها الشهر الحرام الذي حرّم الله فيه القتال، ثم عاد وتكلم عن إتمام الحج، فقال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾أي: ائتوا بهما تامين كاملين، بمناسكهما، وشرائطهما لوجه الله من غير توانٍ ولا نقصان يقع منكم فيهما.

قال ذو الرمة:

تَمامُ الحَجِّ أن تَقِفَ المَطايا عَلى خَرقاءَ واضِعَةِ اللِّثامِ

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يَتمُّ إلا به، وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك. ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ ، يقال أحصر فلان: إذا منعه أمر من خوف، أو مرض، أو عجز؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، حُصِر إذا حبسه عدوٌّ عن المضي أو عن سعيه. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستعصب، والهدْي جمع هَدْيَة وهَدِيَّة، ويعني أنكم إذا مُنعتم من المُضي إلى البيت، وأنتم مُحْرِمون لحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحللَ ما استيسر من الهدْي من بعير، أو بقرة، أو شاة. ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ ، الخطاب للمحصر أي: لا تُحلُّوا حتى تعلموا أن الهدْي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ ﴿مَحِلَّهُ﴾ ، أي: مكانه الذي يجب نحرُه فيه، ومحل الدَّين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فإن قلت: إن النبي ﷺ نحر هَدْيه حيث أُحْصِرَ: قيل إنه كان مَحْصَره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة، وهو من الحرم. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ ، فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق، ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ ، وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا حلق فِدْيَة ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام، أو ﴿صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ أو ﴿نُسُكٍ﴾ شاة، ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾

وجه إبطال الشبهة:

الأصل في العدد أن له أحكامًا تختلف باختلاف حالاته؛ فالعدد المفرد (٣: ١٠) يخالف معدوده في نوعه (التذكير أو التأنيث).

ومن يقرأ قوله ﷻ: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ دون تأمل يظُنُّ أن فيه مخالفة لأحكام العدد، وليس الأمر كذلك؛ إذ لا يوجد في تأنيث العدد عشرة ـ في الآية ـ أية مخالفة للقواعد النحوية، بل إنها تُحتِّم مخالفة العدد لمعدوده في التذكير

الإحصار، أي: فإذا لم تُحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ أي: استمتع ﴿بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾، واستمتاع العمرة إلى وقت الحج، انتفاعًا بالتقرب بها إلى الله ﷻ قبل الانتفاع بتقربه لحج، وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان مُحرَّمًا عليه إلى أن يُحرم بالحج. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، هو هدي المتعة وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه، وعند الشافعي يجري مجرى الجنايات، ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النَّحر. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ : الهدْي ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي: في وقته وهو أشهره ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ والأفضل أن يصوم يوم التَّرْوِيَة وعرفة ويوما قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يُجزئه إلا الدَّم، وعند الشافعي: لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج، تمسكًا بظاهر قوله: ﴿فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ بمعنى: إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: هو الرجوع إلى أهاليهم، وقرأ ابن أبي عبلة: وسبعةً بالنصب عطفًا على محل ثلاثة أيام، كأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام كقوله: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ (البلد : ١٤). ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة وأصحابه لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم، أو قرن كان عليه دم، وهو دم جناية لا يأكل منه، وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمها دم نسك يأكلان منه، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على حدوده، وما أمركم ونهاكم عنه في الحج وفي غيره: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه. (الكشاف: الزمخشري: الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، جـ١، صـ ٣٤٣، ٣٤٥ ، بتصرف يسير).

والتأنيث إذا كان العدد مفردًا، ولو علم هؤلاء المدعون أن تقدير الكلام: **تلك عشرة أيام كاملة**؛ لتبيَّنوا أنه لا يوجد أي خطأ في الآية الكريمة.

التفصيل:

إن المتأمل في قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ إن كان له أدنى صلة بلغة العرب؛ يتبيَّن له من أول وهلة أن الصورة التي جاء عليها العدد في الآية الكريمة هي الموافِقَة لقواعد النحو العربي، التي استخلصها النحاة من لغة العرب؛ حيث تقول هذه القواعد بوجوب مخالفة العدد **عشرة** المفرد لمعدوده في التذكير والتأنيث، وعلى هذا جاء العدد في هذه الآية الكريمة **مؤنثًا**؛ لأن معدوده مذكر؛ إذ إن تقدير الكلام: تلك عشرة أيام كاملة، وقد حُذف المعدود **أيام** لدلالة السياق عليه؛ حيث سَبق ذكرُه في الكلام السابق في قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لدلالة المعنى عليه؛ حيث لا يُصام إلا الأيام، وهذا من بليغ أساليب العرب في الكلام؛ إذ يحذفون من الكلام ما هو معلوم بالضرورة، ومن ثم فلا وجود لهذا الخطأ الذي توهمه بعضهم.

ولعل السبب في توهمهم هذا: أنهم ظنُّوا أن كلمة **كاملة** هي تمييز العدد **عشرة**، وهذا خطأ كبير منهم؛ لأنهم وإن زعموا حرصهم على الحفاظ على قواعد النحو، فقد خالفوا هذه القواعد بظنِّهم هذا؛ لأن كلمة **كاملة** لو كانت تمييزًا للعدد عشرة لكان ينبغي أن تأتي جمعًا مضافًا فتكون: **كاملات**، وليس مفردًا مرفوعًا: **كاملةٌ**، فمجيئها مفردة مرفوعة؛ دل على أنها نعتٌ لـ **عشرة**، وليس تمييزًا لها ـ كما توهموا ـ وعليه فتمييز **عشرة** هو كلمة **أيام** المحذوفة ـ كما سبق أن قلنا ـ وبهذا لا يوجد اضطراب في صوغ العدد في هذه الآية الكريمة، ولا في غيرها من آيات القرآن

- وقوله: ﴿اسْتَيْسَرَ﴾ فيه معنى دقيق؛ حيث جاء بصيغة **استفعل** للدلالة على حثِّهم على طلب الأيسر لهم، وعدم تكلفهم للمشقة.

- أما قوله **كاملة** بعد **عشرة**؛ فقد أفادت التحريض على الإتيان بصيام الأيام كلها لا يُنقص منها شيءٌ، مع التنويه بذلك الصوم، وأنه طريقُ كمالٍ لصائمه، فالكمال هنا مستعمل في حقيقته ومجازه.

- أما السرُّ في ختم الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مناسبةُ الأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام التي لا تخلو من مشقة؛ وذلك للتحذير من التهاون بها، أمَّا قوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ فقد افتتح بها الكلام اهتمامًا بالخبر؛ لأن العلم يحصل من الخبر ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ، ولكن أراد تحقيق الخبر؛ فافتتح الأمر بالعلم[1].

وبعد هذا العرض المختصر لبعض الأسرار البيانية في هذه الآية الكريمة، فإننا لم نكن نقصد بذلك استقصاء كل الأسرار بها؛ لأن هذا الكتاب الكريم لا يَبلى جديده، ولا ينضُب معينُه، ولا تنتهي عجائبُه، ولكننا فقط أردنا التمثيل على دقة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، ممَّا يُنزِّهه عن الوقوع في أي خطأ لغوي، قد يتوهمه المدَّعون نتيجة النظرة العجلى، والحكم غير المنصف على كتاب الله الذي عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٢٥ : ٢٣٠.

الشبهة التاسعة

الزّعم أنّ القرآن الكريم يأتي بتوضيح ما لا يحتاج إلى توضيح(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أنَّ القرآن الكريم يأتي بكلمات لا فائدة منها، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦) (**)، فكلمة **كاملة** لا لزوم لها؛ لأنها في زعمهم توضيح ما لا يحتاج إلى توضيح.

وجوه إبطال الشبهة:

من البلاغة في أساليب اللغة العربية إيثار الإيجاز، والبعد عن الحشو الذي لا يفيد؛ ولذلك كان الإطناب بلا فائدة تُرجَى أمرًا غير مستحبٍّ، كما كان الحشو لَغْوًا ممقوتًا، وقد زعم بعض المتوهمين أن قوله ﷻ: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾، فيه حشو باستخدام كلمة **كاملة**، حيث جاءت لتوضيح ما لا يحتاج إلي توضيح، والصواب في زعمهم أن لا يُؤتى بالوصف **كاملة** بعد كلمة **عشرة** التي تمَّ بها المعني.

(*) عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(**) يقول صاحب تفسير المنار في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦): إن الله ﷻ يقول لنا: إن من لم يجد الهدي في الحج لعدمه أو عدم المال، فعليه أن يستعيض عنه بصيام ثلاثة أيام في الحج، وتمتد إلى يوم النحر، ثم يصوم سبعة إذا رجع إلى بلاده، وبهذه الثلاثة مع السبعة يتبين العدد الواجب صيامه، وهو عشرة أيام، ومزيل لوهم مَن عساه يتوهم أن الواو العاطفة للسبعة للتخيير، ثم أكدها بقوله: كاملة. (تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣).

وهذا زعم باطل من وجوه:

١) إن العدد **عشرة** من الأعداد التي يجوز وصفها بالكمال، فهو ليس بمركب ولا مكسور.[١]

٢) إن المراد بكلمة **كاملة** التأكيد على عدم إفادة التخيير بين **ثلاثة** و**سبعة** بل إفادة مجموعهما معًا وهو **عشرة** [٢].

٣) قيل: معنى **كاملة**: الأمر بإكمالها وإتمامها، فهي خبر في معنى الأمر[٣].

٤) وقيل المراد من **كاملة**: الدلالة على كمال هذه العبادة، وأنها لن تنقص بترك الهَدْي والاستعاضة عنه بالصيام[٤].

٥) قيل: **كاملة** ذُكرت على وجه التأكيد؛ لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب، فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان[٥]، والتوكيد أسلوب عربي يفيد تقرير الحكم في الذهن مرتين[٦].

٦) قيل: **كاملة**؛ لإزالة توهم أن المراد سبعة أيام، على أن يُحسب من هذه السبعة تلك الثلاثة المتقدمة، حتى يكون الباقي عليه بعد الحج أربعة[٧].

التفصيل:

---

١. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٢، ص ٨٤٢.

٣. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بتصرف.

٤. لباب النقول، أبو الفضل السيوطي، دار إحياء التراث، بيروت.

٥. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة.

٦. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس، المجلد الثاني، جـ٢، ص ٢٢٨.

٧. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، مرجع سابق.

أولاً. إن العدد **عشرة** من الأعداد الموصوفة بالكمال، فمراتب الأعداد أربعة: آحاد، وعشرات، ومئات، وألوف، وما وراء ذلك فإمَّا أن يكون مركبًا أو مكسورًا.

وكون **العشرة** عددًا موصوفًا بالكمال أمر يحتاج إلى التعريف، الذي مفاده أن العدد **عشرة** من الأعداد الكاملة، التي تخلو من الكسر والتركيب. ومن ثَمَّ فإن إضافة **كاملة** ليست إضافة لا لزوم لها؛ بل تزيد في موضعها المعنى توكيدًا.

ثانيًا. إن المراد بكلمة **كاملة** التأكيد على عدم إفادة التخيير؛ فمعروف أن **ثلاثة** و **سبعة** تساوي **عشرة**؛ وذلك حتى لا يظن الناس أن المقصود: إما صوم ثلاثة أيام، وإما سبعة أيام، لذلك قال: **عشرة كاملة** حتى لا يلتبس الفهم[1]؛ لأن الواو قد تقوم مقام أو، ومنه ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)، فأزال احتمال التخيير، وهذا إنما يتمشى عند الكوفيين فإنهم يقيمون الواو مقام أو.

وقال الزمخشري: "الواو قد تجيء للإباحة في قولك: "جالس الحسن وابن سيرين"، ألا ترى أنه لو جالسهما معًا، أو أحدهما كان ممتثلاً، فجمع نفيًا لتوهم الإباحة". [2]

قال الزجاج: لما جاز أن يتوهم متوهِّم التخيير بين ثلاثة أيام في الحج، أو سبعة إذا رجع بدلاً منها؛ لأنه لم يقل وسبعة أخرى - أُزيل ذلك بالجملة - من قوله **تلك عشرة** ثم قال **كاملة**؛[3] لئلا يتوهم أن السبعة مع الثلاثة مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ

1. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص ٨٤٢.
2. لباب النقول، للسيوطي، عند تفسير هذه الآية.
3. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٠٢.

﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠)، أي مع اليومين اللذين بعدها في قوله ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1].

ومن هنا يتبين أن **كاملة** أفادت تأكيدًا بعد تأكيد على كون العدد المراد هو مجموع العددين **ثلاثة** و **سبعة**، وهو **عشرة**؛ ومن ثَمَّ فقد أفادت معنى جديدًا، وأزالت شبهة إفراد أحدهما عن الآخر.

ثالثًا. قيل في معنى **كاملة**: إن المقصود الأمر بإكمالها وإتمامها، فاللفظ وإن كان خبرًا، فإن المعنى أمر. والتقدير: فلتكن تلك الصيامات صيامات كاملة؛ لأن الحج المأمور به الحج التام على ما قال ﷻ: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ . وهذا جبران للخلل الواقع في ذلك الحج، فليكن هذا الصوم صيامًا كاملاً؛ حتى يكون جابرًا للخلل الواقع في ذلك الحج، الذي يجب أن يكون تامًا كاملاً[2]، ومن ثَمَّ فإن وجود **كاملة** في الجملة له غرض مستقل هو الأمر بإكمالها، مما ينفي تمامًا وجود كلمة غير مرادة في القرآن.

رابعًا. قيل: **كاملة** وردت للدلالة على كمال هذه العبادة؛ حيث إن الله تعالى لما أمر بصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة بعد الرجوع، فليس فيه بيان أنه طاعة عظيمة كاملة، فلما قال بعده: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ، دلَّ ذلك على أن هذه الطاعة في غاية الكمال، فلمَّا أوجب الله صيام هذه الأيام العشرة، شهد سبحانه على أنها عبادة كاملة في غاية الكمال، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي: وإنها كاملة[3].

---

١. البحر المحيط، لأبي حيان، مرجع سابق.

٢. التفسير الكبير، الرازي، عند تفسير هذه الآية، مرجع سابق.

٣. لباب النقول، السيوطي، عند تفسير هذه الآية، مرجع سابق.

فَذِكْر **كاملة** يزيل اللبس في الفهم، فلا يظن فاقد الهَدْي[1] المتحمل لكلفة الصوم أن صيامه أقل شأنًا من الهَدْي، وليطمئن أن حجَّه كَمُلَ، ولا ينقص ذلك من أجره شيئًا.[2] وكما قيل إنها: **كاملة** في الثواب كمن أهدى. وقيل أيضًا: **كاملة** في البدل عن الهَدْي. وقيل **كاملة** في الثواب كمن لم يتمتع[3].

ونخلص مما سبق أن كلمة **كاملة** في الآية الكريمة لم تأت زيادة أو حشوًا؛ إنما جاءت لتضيف معنى جديدًا هو كمال العبادة، وكمال الثواب الحاصل منها، والأجر الراجع على صاحبها.

خامسًا. قيل: إن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ جاءت على وجه التأكيد؛ لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب، فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان[4]، فبيَّن الله تعالى ذلك بيانًا قاطعًا للشك والرَّيب، وهذا كما رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: "الشهر هكذا وهكذا"، وأشار بيديه ثلاثا، وأشار مرة أخرى، وأمسك إبهامه في الثالثة؛ منبهًا بالإشارة الأولى على ثلاثين، وبالثانية على تسعة وعشرين[5].

قال ابن عرفة: وإنما تفعل ذلك العرب لقلة معرفتهم بالحساب، وقد جاء في الحديث: "نحن أُمَّة أُميَّة لا نحسب ولا نكتب".

وورد ذلك في كثير من أشعارهم، قال النابغة:

---

١. الهَدْي: ما يُهدي إلي الحرم من النَّعم. (المعجم الوسيط، مادة: هدي).
٢. التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق، بتصرف.
٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٢، ٤٠٣، ١٩٨٥م.
٤. معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق.
٥. التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق.

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا   لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا العَامُ سَابِعُ

وقال الأعشى:

ثَلاثٌ بالغَدَاةِ فَهُنَّ حَسْبِي   وسِتٌّ حِيْنَ يُدْرِكني العِشَاءُ

فَذلك تِسْعَةٌ في اليومِ رِيِّي   وشُرب الماءِ فوقَ الرِّيِّ دَاءُ

قال الآخر:

ثَلاثٌ واثنَتَانِ فَهُنَّ خَمْسٌ   وسَادِسَةٌ تَمِيلُ إلى شِمَامِي[1]

فوجود **كاملة** هنا معلل بعلة منطقية؛ حيث إن الحاجة إليها شديدة لإبراز معنى التمام في العدد، والتأكيد عليه، ومن ثمَّ لا نستطيع القول أنها لا لزوم لها.

سادسًا. قيل: إن **كاملة** ذُكرت لإزالة التوهم بأن المراد سبعة أيام، على أن يُحسب من هذه السبعة تلك الثلاثة المتقدمة، حتى يكون الباقي عليه بعد الحج أربعة.

فهذا وجه محتمل، ويحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع سبعة سوى تلك الثلاثة المتقدمة، فهذا الكلام محتمل لهذين الوجهين، فإذا قال بعده: **تلك عشرة كاملة**، زال هذا الإشكال، وتبيَّن أن الواجب بعد الرجوع سبعة سوى الثلاثة المتقدمة[2].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٣.

٢. التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق.

وقال ابن عرفة: مذهب العرب إذا ذكروا عددين أن يجملوهما. وقال الزمخشري: فائدة الفذلكة[1] في كل حساب: أن يعلم العدد جملة كما عُلم تفصيلاً؛ ليحاط به من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم.

الأسرار البلاغية في الآية:

- قوله تعالى: ﴿كَامِلَةٌ﴾ قيل: بمعنى الأمر بإكمالها وإتمامها، فورد الكلام في صيغة الأسلوب الخبري، والمراد منه الأسلوب الإنشائي، والتقدير: فلتكن تلك الصيامات صيامات كاملة؛ لأن الحج المأمور به تام على ما قال ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ، وهذه الصيامات جبرانات للخلل الواقع في ذلك الحج.
- وقيل جاءت كلمة: **كاملة** للتوكيد، والتوكيد طريقة مشهورة في كلام العرب، كقوله ﷻ: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨).

والفائدة فيه: أن الكلام الذي يُعبَّر عنه بالعبارات الكثيرة، ويُعرَّف بالصفات الكثيرة، أبعد عن السهو والنسيان من الكلام الذي يُعبَّر عنه بالعبارة الواحدة، فالتعبير بالعبارات الكثيرة يدل على كونه في نفسه مشتملاً على مصالح كثيرة، ولا يجوز الإخلال بها.

---

١. الفذلكة: أي جامعته، وهي مأخوذة من "فذلك" - أي المعدود - كذا، فأضيفت لهذا القول صيغة نحت مثل: بسمل إذا قال بسم الله، وحوقل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله، فحروف "فذلكة" مجتمعة من حروف "فذلك". (التحرير التنوير، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٢٨).

• وجاء ذكر **كاملة** في هذا الموضع دلالة على أن رعاية العدد في هذا الصوم من المهمات التي لا يجوز إهمالها.

الشبهة العاشرة

ادّعاء عدم المطابقة بين الفعل والفاعل فى التذكير والتأنيث(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعى بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يطابق في النوع (التذكير والتأنيث) بين الفعل وفاعله، واستدلوا على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، والصواب - فى ظنهم - أن يقال: **جاءته موعظة** بتأنيث الفعل **جاء لا** تذكيره كما في الآية.(**)

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى اللغة أن يُطابق الفعل فاعله فى النوع (التذكير والتأنيث)، فيأتى مذكرا مع الفاعل المذكر، ومؤنثا مع الفاعل المؤنث.

وغير المتدبر لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يظن أن فى الآية مخالفة لقاعدة مطابقة الفعل للفاعل فى التذكير والتأنيث، وكان الصواب في زعم هؤلاء المشككين أن يقال: فمن جاءته موعظة.

(*) www.alkalema.us

(**) جاء في تفسير المنار أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ...﴾ قد نزل في تحريم الربا، فمن بلغه تحريم الله للربا، ونهيه عنه، فترك الربا فورًا بلا تراخٍ ولا تردد؛ انتهاءً عمَّا نهى الله عنه، فله ما كان أخذه فيما سلف (أي فيما مضى) من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم، بل يُكتفَى منه بألَّا يضاعِفَ عليهم بعد البلاغ شيئًا، (وأمره إلى الله) يحكم فيه بعدله، ومن العدل أن لا يُؤاخذ بما أكل من الربا قبل التحريم، وبلوغه الموعظة من ربه (تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ص ٩٧، ٩٨، جـ٣).

ويمكن الردُّ على هذه الشبهة فنقول: إن كلمة موعظة مؤنث مجازي، وما كان مؤنثًا مجازيًا في اللغة العربية جاز تأنيث فعله وتذكيره على حد سواء، ومن ثم فلا إشكال في الآية.

التفصيل:

أن كلمة موعظة مؤنث مجازي، وما كان مؤنثًا مجازيًا في اللغة العربية، جاز تأنيث فعله وتذكيره على حد سواء، ومن ثم فلا إشكال في الآية.

فمن المسلم به في اللغة العربية جواز تذكير الفعل، وتأنيثه مع فاعله المؤنث في حالات ثلاث:

١. أن يكون الفاعل مجازي التأنيث ظاهرًا، مثل: طلعت الشمس، ويجوز طلع الشمس.

٢. أن يكون الفاعل جمع تكسير، مثل: حضر جيوش الإسلام إلى ميدان المعركة، ويجوز حضرت جيوش.

٣. إذا فُصِل بين الفعل وفاعله بفاصل، مثل: ذهبتْ إلى المدرسة هند، ويجوز ذهبَ إلى المدرسة هند؛ وعلى هذا فلا إشكال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ .

هذا وقد أوجب النحاة مطابقة الفعل لفاعله فى التأنيث فى حالتين هما:

الأولي: إذا كان الفاعل ضميرًا متصلاً سواء أكان عائدًا على مؤنث حقيقي، مثل: قامت هند، أم على مؤنث مجازي التأنيث، مثل الشمس طلعت.

الأخري: إذا كان الفاعل مؤنثًا حقيقيًا متصلاً بالفعل، مثل: قامت امرأة.

فإن فقد أحد الشرطين جاز في الفعل التأنيث والتذكير، كما هو الحال فى الآية ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ . وبهذا يتضح صواب ما ذكره القرآن الكريم.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- التشبيه التمثيلي في تشبيه آكلي الربا عند خروجهم من أجداثهم بمن أصابه مس فاختل طبعه، وانتكست حاله، وصار يتهافت في مشيته ويتكاوس في خطوته، ويترنح ترنح الشارب السكران، ثم يهوي مكبًا على وجهه من سوء الطالع، وقبح المنقلب، وشناعة المصير، والجزاء عادة وعقلاً من جنس العمل[1]، وذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .

- والتشبيه المقلوب في قوله: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ غرضه عكس الكلام للمبالغة، وهم يريدون القول بأن الربا مثل البيع ـ وهذا هو الأصل ـ ليصلوا إلى غرضهم وهو تحليل ما حرمه الله، فعكسوا الكلام للمبالغة، وهو في البلاغة مرتبة عليا يصبح المشبه به قائمًا بالمشبه وتابعًا له، ومنه في الشعر قول البحتري:

كأنَّهـا حـينَ لَجَّـت في تَـدَفُّقِها ... يَـدُ الخَليفَـةِ لَمَّـا سـالَ واديهـا

والأصل تشبيه يدُ الخليفة بالبركة، فقلب الكلام للمبالغة[2].

والعدول عن الأصل للمبالغة "فقلبوا التشبيه مبالغة فيه زعمًا أن الربا أولى بالحل من البيع، قال الفخر الرازي في تفسيره: إنه لما تساوى عندهم البيع، والربا كان البيع مثل الربا، وعكسه سواء[3]".

---

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، ج١، ص ٤٢٩، ١٩٨٨م.

٢. إعراب القرآن الكريم الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، مرجع سابق، ج١، ص ٤٢٩.

٣. القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

توهم أن التشابه في القرآن ينافي إعجازه وبلاغته، ولا فائدة منه(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن المتشابهات في القرآن تُنافي بلاغته، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٧). ويتساءلون: ألا يُعدُّ وجود هذه المتشابهات نقصًا في البلاغة والإحكام(**)؟

وجوه إبطال الشبهة:

من أصول البلاغة أن يكون الكلام محكما، موجزا بعيدا عن التكرير والإعادة، حتى يصيب معانيه في قوة ورصانة.

ويتوهم بعض أصحاب الشبهات أن المتشابهات من آيات القرآن تُقلل من بلاغته وإحكامه، وتبعد به عن القوة والرصانة، ويدَّعون بأن قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا

(*) www.islameyat.com

(**) يقول صاحب صفوة التفاسير في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ : إنها تعني: فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال؛ فيتبع المتشابه منه ويفسره على هواه: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: طلباً لفتنة الناس في دينهم، وإيهامًا للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله. (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، طبعة السيد حسن عباس الشربتلي، ج١، ص١٦٩، ١٦٨). ويقول القاسمي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: طلب الإيقاع في الشبهات واللبس، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون المتمكنون ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائغة، هو تذييل سيق منه تعالى مدحًا للراسخين، لجودة الذهن وحسن النظر.(محاسن التأويل: جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٣).

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ دليلا على أن المتشابهات لا فائدة منها، ولا تحقق فهمًا دقيقًا مُحْكمًا لمعانى القرآن كما يتوهمون.

وقد ردَّ اللغويون وعلماء البلاغة على هذه الشبهة بالوجوه الآتية:

١) آيات القرآن إما مُحْكَمة للعمل بها وبيان الأحكام المطلوبة من الخلق، وإما مُتَشابهة يجب الإيمانُ بها وردُّها إلى المُحكمات.

٢) الحكمة من إنزال المتشابه في القرآن، أن القرآن نزل بلغة العرب وتبعًا لمعانيها ومذاهبها، وهي لغة فيها الإيجاز والتطويل، والاختصار، والإطالة، والتوكيد، والتلميح، والتصريح، والخفي والجلي.

٣) القول إن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، غلطٌ من متأوليه في اللغة والمعنى.

٤) القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإعجازُه ظاهر في مُحْكمه ومُتشابه، وفيه الهدايةُ لمن أرادَها وطلَبها، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

التفصيل:

أولا. آيات القرآن، إمَّا محكمة للعمل بها، وبيان الأحكام المطلوبة من الخلق، وإمّا متشابهةٌ يجب الإيمانُ بها وردُّها إلى المُحكمات.

المُحكم والمُتشابه في القرآن:

يُوصف القرآنُ كلُّه بأنه محكمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، والمراد بالإحكام هنا: اتفاقُه وعدم تطرُّق النقص والاختلال إليه.

ويُوصف كذلك بأنه كلّه مُتشابه، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣).ومعنى متشابه: أنه يشبه بعضه بعضًا في صدق أخباره، وعدالة أحكامه، وسمو بلاغته، وروعة نَظْمه، ونُصُوع حقائقه، وتصديق بعضه لبعض؛ فلا تناقض فيه ولا تضارب.

ويوصف القرآن أيضًا بأن بعضه محكم، وبعضه متشابه، وهو ما جاء في قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ فقسَّمت الآية الكريمة آيات الكتاب إلى قسمين: محكماتٌ هُنَّ أم الكتاب وأساسُه ومُعظمُه، وأخرى متشابهات، والمراد بالمحكم هنا: البيِّن بنفسه، الدَّالّ على معناه بوضوح، فلا يَعْرِضُ له شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى، كما قال الرَّاغبُ في (مُفْرداته).

معنى المتشابه ومظاهر تشابهه وأسبابه:

والمراد بالمتشابه هنا: ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إمّا من حيث اللفظ وإمّا من حيث المعنى؛ فلذا قيل المتشابه: ما لا يُنبِئ ظاهرُه عن مُراده، أو ما لا يستقلُّ بنفسه إلا بِرَدِّه إلى غيره.

قال الراغب: وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب:

١. محكم على الإطلاق.

٢. مُتشابه على الإطلاق.

٣. محكم من وجه ومتشابه من وجه آخر[١].

والمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب:

١. متشابه من جهة اللفظ فقط.

٢. متشابه من جهة المعنى فقط.

٣. متشابه من جهتيهما.

وبَيَّنَ الراغب أن المتشابه من جهة اللفظ ضربان، منه ما يرجع إلى غرابة اللفظ أو اشتراكه، ومنه ما يرجع إلى جملة الكلام المركب.. إلخ.

والمتشابه من جهة المعنى: ما يتعلق بأوصاف الله تعالى، وأوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تُتصور لنا؛ إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما نحسه.

ثم ذكر الإمام الراغب المتشابه من جهة اللفظ والمعنى جميعًا بأضربه الخمسة، ومثَّل لها من جهة الكمية كالعموم، والخصوص، أو من جهة الكيفية كالوجوب والندب، أو من جهة الزمان، كالناسخ والمنسوخ، أو من جهة المكان كالأمور المتصلة بعادات الجاهلية، وما كان عليه العرب، أو من جهة الشروط التي يصلح بها العمل أو يفسد. قال: ثم جمع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١. ضربٌ لا سبيل للوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج دابّة الأرض، وكيفية الدابة ونحو ذلك.

٢. وضربٌ للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام الغَلِقة.

---

١. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ٢٦٧، ص ٢٦٨.

٣. وضربٌ متردد بين الأمرين، يجوز أن يختصَّ بمعرفة حقيقتِه بعضُ الراسخين في العلم. ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في قوله ﷺ لابن عباس: "اللهم فقِّهه في الدين وعَلِّمه التأويل".

قال: وإذا عَرفت هذه الجملة عُلم أن الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأن لكل واحد منهم وجهًا، حسبما دل عليه التفصيل المتقدم.

وخلاصة هذا الكلام: أن في القرآن آيات محكمات واضحات الدلالة، بينات المعنى لا تحتاج إلى غيرها لبيان مفهومها ومضمونها وهذه هي أم الكتاب[1]، وأصله الذي يجب أن يُردَّ إليه ما سواه ليُفهم في ضوئه.

وهناك آيات متشابهات ـ تشابهًا كليًّا حقيقيًّا ـ فلا يمكن أن يعلمها إلا الله، ولا يحاول أن يعرف حقيقتها إلا الذين في قلوبهم زيغٌ وانحرافٌ ـ أو تشابهًا جزئيًّا إضافيًّا ـ وهذا هو أكثر المتشابه، وهو الذي يعلمه الراسخون بردّه إلى المحكمات، التي هي الأصل[2].

يقول العلامة ابن الحصَّار فيما نقله عنه السّيوطي في (**الإتقان**): "قسَّم الله آيات القرآن إلى مُحكم ومُتشابه، وأخبر عن المحكمات أنها أمُّ الكتاب؛ لأن إليها تُرد المتشابهات، وهي التي تعتمد في فهم مُراد الله، في كل مَا تعبَّدهم به من معرفته، وتصديق رسله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبهذا الاعتبار كانت **أمهات**. ثم أخبر عن الذين في قلوبهم زيغٌ أنهم هم الذين يتبعون ما تشابه منه.

١. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٢. المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٠٧.

ومعنى ذلك: أن من لم يكن على يقين من المحكمات، وفي قلبه شك واسترابة، كانت راحته في تتبع المُشكلات المُتشابهات. ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات، وتقديم الأمهات، حتى إذا حصل اليقين ورسخ العلم، لم تُبال بما أُشكل عليك.

ومُراد هذا الذي في قلبه زيغٌ: التقدم إلى المشكلات، وفهم المُتشابه قبل فهم الأُمَّهات، وهو عكس المعقول والمعتاد والمشروع.

وهذا كما يوجد في كتاب الله يوجد في حديث رسول الله ﷺ؛ لأنه من لوازم الكلام، ومقتضيات الخطاب، فإذا وجد في كلام الله المعجز؛ فلأن يوجد في كلام رسوله من باب أولى[1].

ثانيًا. ربما يسأل أحدهم: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن من أراد لعباده الهدى والتبيان؟

والجواب: أن القرآن نزل بلغة العرب ومعانيها ومذاهبها فلا حرج من المتشابه في القرآن.

فالقرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني؛ حتى لا يظهر عليه إلا اللقين (سريع الفهم) وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خَفِي.

ولو كان القرآن كله ظاهرًا مكشوفًا؛ حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس.

وكل باب من أبواب العلم: من الفقه، والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يَجِلُّ ومنه مَا يدِقُّ؛ ليرتقي المتعلم فيه رُتبة بعد رُتبة، حتى يبلغ منتهاه ويدرك

1. المرجع السابق، نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

أقصاه؛ ولتكوَن للعالم فضيلة النظر وحسن الاستخراج؛ ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية.

ولو كان كل فن من العلوم شيئا واحدًا لم يكن عالمٌ ومتعلم، ولا خفي ولا جلي؛ لأن فضائل الأشياء تُعرف بأضدادها؛ فالخير يعرف بالشر، والنفع بالضر، والحلو بالمر، والقليل بالكثير، والصغير بالكبير، والباطن بالظاهر.

وعلى هذا المثال كلام رسول الله ﷺ وكلام صحابته والتابعين، وأشعار الشعراء، وكلام الخطباء، ليس منه شيء إلا وقد يأتي فيه المعنى اللطيف، الذي يتحير فيه العالم المتقدم، ويُقر بالقصور عنه النَّقَّاب المبِّرز.[1]

ثالثًا. القول بأن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، غلطٌ من متأوليه في اللغة والمعنى.

فإن الله ﷻ لم ينزل شيئًا من القرآن إلا لينفَع به عباده، ويدل به على معنى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، وتعلق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟!

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته؛ فقد عَلَّم عليًّا التفسير، ودعا لابن عباس فقال: "اللهم علّمه التأويل، وفقّه في الدين" ورُوي عن ابن عباس أنه قال: "كل القرآن أعلم إلا أربعًا: غِسلين، وحنانًا، والأوّاه، والرّقيم" وكان هذا من ابن عباس في وقت، ثم عَلِم ذلك بعدُ، ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ

---

1. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، ط٣، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، المكتبة العلمية، بيروت، ص٨٧.

عِنْدِ رَبِّنَا﴾ لم يكن للراسخين فضلٌ على المتعلمين، بل على جهلة المسلمين؛ لأنهم جميعًا يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾[1].

إن المفسرين لم يتوقفوا عن شيء من القرآن؛ فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أعملوا فيه العقل والفكر وراموا تفسيره كلَّه، حتى فسَّروا الحروف المقطعة في أوائل السور، مثل: آلر، حم، طه، فإن قال قائل: كيف يجوز لنا القول بأن الراسخين في العلم ممن يعلمون تأويله؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ وأنت إذا أشركت الراسخين في العلم انقطعوا عن (يقولون)، وليست هنا واو نسق توجب للراسخين فِعْلين؟وهذا مذهبُ كثيرٍ من النحويين في هذه الآية.

قلنا له: إنّ "يقولونَ" ها هنا في معنى الحال؛ كأنه قال: الراسخون في العلم قائلين آمنا به. ومثله في الكلام: لا يأتيك إلا عبد الله، وزيد يقول: أنا مَسْرور بزيارتك، يريد: لا يأتيك إلا عبد الله وزيد قائلاً: أنا مسرور بزيارتك، ومثله لابن مفرغ الحميري يرثي رجلاً في قصيدة أولها:

أَصَرمتَ حَبْلَكَ مِن أُمَامَه ... من بعد أيام برامَهْ

والريحُ تبكي شَجْوها ... والبرقُ يلمعُ في غَمَامَه

أراد: والبرق لامعًا في غمامة، تبكي شجوه أيضًا، ولو لم يكن البرقُ يشرك الريح في البكاء. لم يكن لذكره البرق ولمعه معنى.

١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص ١٠١، بتصرف.

وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان؛ قال الله ﷻ في وصف ثمر الجنة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي: متفق المناظر، مختلف الطعوم، وقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: يشبه بعضها بعضًا في الكفر والقسوة.

ومنه يقال: اشتبه عليّ الأمر، إذا أشبه غيره؛ فلم تكد تفرق بينهما، وشبّهت عليّ: إذا لبست الحق بالباطل، ومنه قيل لأصحاب المخاريق: أصحاب الشُّبه؛ لأنهم يشبهون الحق بالباطل.

ثم قد يقال لكل ما غمض ودق: متشابه، وإن لم تقع الحَيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور: متشابه، وليس الشك فيها، والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها[1].

رابعًا. القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإعجازه ظاهر في محكمه ومتشابهه، وفيه الهداية لمن أرادها وطلبها ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ففي قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

دلت هذه الآية على أن من القرآن محكما ومتشابها، ودلت آيات أخر على أن القرآن كله محكم، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ والمراد أنه أُحكم وأُتقن في بلاغته، كما دلت آيات على أن القرآن كله متشابه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ والمعنى أنه تشابه في الحسن والبلاغة والحقّية، وهو معنى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فلا

1. تأويل مشكل القرآن، مرجع سابق، ابن قتيبة، ص ١٠٠ ـ ١٠٣.

لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب فى الوصف، والإبلاغ فى القول، فإذا خُولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل؛ لأن الكلام عند الاختلاف يصير كأنه أنواع من الكلام، وضروب من البيان، وعند الاتحاد فى الإعراب يكون وجهًا واحدًا، وجملة واحدة.

ذلك لأن الموصوف عند تغير سبكه يصير جملة برأسه مما يوحى بتفخيم مقامه، بالإضافة إلى الافتنان فى التعبير، وما يشي به تغيير المألوف من دلالة على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه.

ومن هنا يتبين أن دعوى تخطئة نصب **الصابرين** ووجوب رفعه على العطف دعوى لا يصح قبولها؛ لأن الأسلوب ليس عطفًا، وإنما هو أسلوب قطع للمدح أو الاختصاص والتقدير: أمدح الصابرين، أو أخص الصابرين بالمدح، وعليه فكلمة الصابرين مفعول به لفعل محذوف تقديره: أمدح أو أخص، وهو ما يسمى النصب على المدح أو الاختصاص.

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾ أكثر من قراءة فقد قرأ الجمهور **الصابرين** بالنصب، وقراءة الحسن والأعمش ويعقوب **الصابرون** بالرفع، [1]وعلى هذه القراءة التي بالرفع لا يكون هناك لَبْسٌ ولا مجال لإثارة الشبهة.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- قطع التابع عن المتبوع، وضابطه أنه إذا ذكرت صفات المدح، أو الذم خُولف في الإعراب تفننًا في الكلام واجتلابًا للانتباه، بأن ما وصف به الموصوف،

١. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد، مكتبة الآداب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١١٠: ١١٢.

تعارض بين هذه الآيات؛ لاختلاف المراد بالإحكام والتشابه في مواضعها، بحسب ما تقتضيه المقامات.

وسبب وقوع المتشابهات في القرآن: هو كونه دعوة وموعظة، وتعليما، وتشريعا باقيا، ومعجزة. وخوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والتشريع؛ فجاء على أسلوب مناسب لجميع هذه الأمور، بحسب حال المخاطبين الذين لم يعتادوا الأساليب التدريسية، أو الأمالي العلمية، وإنما كانت هِجِّيراهم[1] الخطابة والمقاولة؛ فأسلوب المواعظ والدعوة قريب من أسلوب الخطابة. وإعجاز القرآن منه إعجاز نظمي ومنه إعجاز علمي، وهو فن جليل من الإعجاز؛ فلمَّا تعرض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها، فيما تعرض إليه، جاء به محكيا بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربما إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولا لأقوام، فيعدون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه، فإذا جاء من بعدهم علموا أن ما عده الذين قبلهم متشابها ما هو إلا محكم[2].

على أن من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدهما: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين؛ حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

والآخر: تعويد حَمَلة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة بالتنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة ـ في كل زمان ـ لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على

---

١. هِجِّيراه: ما يولعُ بذكره. المعجم الوسيط/ ج٢ صـ١٠١٢.

٢. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دارسحنون للنشر والتوزيع، تونس، مجلد ٣، ج٣، ص ١٥٦، ١٥٧.

استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة؛ من أجل هذا كانت صالحة لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم، تبعا لاختلاف مراتب العصور.

فإذا علمنا هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمى بالمتشابه في القرآن، وإعجاز القرآن في محكمه ومتشابهه[1].

الأسرار البيانية والبلاغية:

- في قوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة، والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله، فهي بمنزلة الأم له، وكأن سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها، كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في سهمه[2].

- ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هذه استعارة، والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهًا برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوارة، وهو أن أبلغ من قوله والثابتون في العلم[3].

- في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ زيدت كلمة "عند" للدلالة على أن من هنا للابتداء الحقيقي دون المجازي، أي هو منزل من وحي الله تعالى وكلامه، وليس كقوله: "ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك"[4].

---

١. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، مجلد ٣، ج٣، ص ١٥٨.

٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، طبعة السيد حسن عباس الشربتلي، ج١، ص ١٦٩.

٣. المرجع السابق، ص ١٧٠.

٤. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، المجلد ٣، ص ١٦٨، ص ١٦٨.

- جملة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ تذييل، ليس من كلام الراسخين، مسوق مساق الثناء عليهم في اهتدائهم إلى صحيح الفهم[1].

١. المرجع السابق.

الشبهة الثانية عشرة

توهُّم عدم المطابقة بين الصِّفة والموصوف في العدد(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (آل عمران: ١٥) خطأ؛ حيث جاء الوصف مطهَّرة: مفردًا مع أنّ الموصوف أزواج: جمع، والصواب في ظنِّهم أن يقال: مُطهَّرات، حتى تحصل المطابقة بين الصِّفة والموصوف في العدد .(**)

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الصفة أن تطابق موصوفها في عدده (المفرد أو المثنى أو الجمع)، وغير المتأمل لقوله ﷻ:﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ يظُنُّ فيه تناقضًا واضطرابًا؛ حيث جاءت الصفة مفردة مع الموصوف الجمع، وهذا ـ في زعمهم ـ مخالف لقواعد اللغة، وكان الصواب في زعمهم أن يقال : " **وأزواج مطهرات**"، وهذا الزعم باطل مردود عليه بالقاعدة التالية:

(*) www.thegodway.com

(**) يقول الشيخ الشعراوي في تفسير قوله: ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ : متاع الجنة الزوجة، وهي من متاع الإنسان في الدنيا إذا كانت صالحة، والمنغصة عليه إذا كانت غير صالحة. وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة في حياة زوجها، حيث تجعله شقيًّا في حياته. كأن تكون سليطة اللسان، أو دائمة الشجار، ولكن في الآخرة تزول كل هذه المنغصات، وتزول بأمر الله، فالزوجة في الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها، وما لم يحبه في الدنيا يختفي، فالمؤمنون في الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا، ومتاعبها وأولها: الغل والحقد وقد أخبر ﷻ عن هذه الحال فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٧). (تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة، ج١، ص ٢٠٩). بتصرف

جمع التكسير يجوز وصفه والإخبار عنه بالمفرد والجمع، فتقول القرون الأولى، والقرون الأوليات، والقرون الأُوَلْ؛ وعلى أساس هذه القاعدة فإن كلمة أزواج جمع تكسير للمؤنث العاقل فيجوز في وصفه الإفراد والجمع، فنقول أزواج مطهرة و أزواج مطهرات وكلا الاستعمالين صحيح فصيح ولكن التعبير القرآني آثر لفظ مطهرة لأنه أبلغ.

التفصيل:

جمع التكسير يجوز وصفه والإخبار عنه بالمفرد والجمع فنقول: القرون الأولى، والقرون الأوليات، والقرون الأُوَل؛ وعلى أساس هذه القاعدة فإن لفظ أزواج جمع تكسير يجوز وصفه بالمفرد فنقول: أزواج مطهرة ويجوز وصفه بالجمع فنقول: أزواج مطهرات، ولكن القرآن آثر لفظ مطهرة؛ لأنه أبلغ في وصف الجمع وأكمل.

وقد جاء في التحرير والتنوير: وقوله مطهرة، وكان الظاهر أن يقال: مطهرات، ـ كما قرئ بذلك ـ، ولكن العرب تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيرًا لثقلهما؛ لأن التأنيث خلاف المألوف، والجمع كذلك، فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد، وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج للاستشهاد[1].

وجمع التكسير الدال على العقلاء يجوز وصفه أيضًا بالمفرد المؤنث، ويجوز وصفه بالجمع، كما في الآية: ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ، ويجوز في غير القرآن: **مطهرات**[2]، وقال القرطبي: مطهرة نعت للأزواج، ومطهرة في اللغة أصح من طاهرة وأبلغ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات [3]

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج١، ص ٣٥٧.

٢. إعراب القرآن الكريم، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، الجزء الأول، ص ٦٦.

٣ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٩٨٩٥م، ج١، ص ٢٤١.

إذن: هاتان الطريقتان في جمع وإفراد الصفة، إذا كان الموصوف جمع تكسير لغتان فصيحتان.

وقد قرأ زيد بن علي **مطهرات** بناءً على: طَهُرن لا طَهُرَت ـ كما في الأولى ـ، ولعلها أولى استعمالاً، وإن كان الكل فصيحًا؛ لأنهم قالوا: جميع ما لا يعقل إما أن يكون جمع قلة أو كثرة، فإن كان جمع كثرة فمجيء الضمير على حد ضمير الواحدة أولى من مجيئه على حد ضمير الغائبات، وإن كان جمع القلة فالعكس[1].

وأكد ذلك الزمخشري قائلاً: فهلا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت: هما لغتان فصيحتان، يقال: النساء فعلن، وهن فاعلات وفواعل، والنساء فعلت، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة:

وإذا العــذارى بالــدخان تقنعــت ... واستعجلت نصب القـدور فملـت

والمعنى: وجماعة أزواج مطهرة....، فإن قلت: هلا قيل طاهرة؟ فلوعبر القرآن بـ **مطهرة** بدلاً من **طاهرة** لأن في **مطهرة** فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مُطَهِّرًا طَهَّرهنَّ [2]

الأسرار البلاغية في الآية:

- في الآية الكريمة استئناف بياني، نشأ عن قوله ﷻ: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (آل عمران : ١٤)، فالمقتضى أن الكلام

١. روح المعاني للألوسي، عند تفسير الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥).
٢. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية الجزء الأول، ص ٢٦٢.

مسوقٌ مساقَ الغض من هذه الشهوات، وقد افتُتحت الآية بكلمة: **قل** للاهتمام بالمقول، والمخاطب بـ قل هو النبي ﷺ، والاستفهام في هذه الآية ليس المراد منه الاستفهام الحقيقي وإنما المقصود به التشويق[1]، حيث أراد ﷻ تهيئة نفوس المخاطبين إلى تلقّي ما سيقص عليهم.

وبعد هذا البيان الشافي يتأكد لنا أن ما توهمه هؤلاء الزاعمون باطل مردود عليهم وأن استخدام كلمة **مطهرة** نعتًا لـ **أزواج** موافق للغة العرب الفصحاء، وليس في ذلك أدنى إشكال؛ فلم تزدد الآية في النفوس إلا رسوخًا، ولم تزدد القلوب إلا إيمانًا وتصديقًا، بأن هذا الكلام : كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب خير المرسلين؛ ليكون هداية ورحمة ونورًا للعالمين.

---

١. المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ص ١٢٥.

الشبهة الثالثة عشرة

توهم أن القرآن الكريم وضع أدوات ربط في غير موضعها(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المتخرصين خروج القرآن الكريم عن المألوف في وضع أدوات الربط في غير موضعها، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣)(**)؛ **حيث استخدم القرآن أداة الربط "الواو" بدلاً من "أو"، وهي حرف يدل على مطلق الجمع، وعليه فلابد أن تجمع الأعداد الثلاثة هكذا: مثنى + ثلاث + رُباع = تسع نساء: وفي جواز الجمع؛ دليل على جواز التعدُّد بتسع نساء.**

وجوه إبطال الشبهة:

(*) دلالات كلمات السِّلم والسَّلْم والسَّلَم في القرآن.

(**) بعد أن استهل الله السورة الكريمة بأمر الناس جميعًا في صدر الآية الأولى وفي عجزها بتقوى الله، ذكر تعالى اليتامى وأوصى بهم خيرًا، وأمر بالمحافظة على أموالهم؛ لأن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية؛ لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، ثم خصَّ الله اليتيمة بالذكر؛ لأن المرأة ضعيفة بطبيعتها ـ ناهيك عن كونها يتيمة ومُعَرَّضه للغبن من وصيِّها، وهذا ما قالته عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما سألها عروة بن الزبير عن هذ الآية فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها بغير أن يُقْسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى نسبتهن في الصداق، فامروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٢٧) (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٥، ص ١٥، بتصرف).

إن الأصل أن لكل حرف من حروف العطف معنىً يفيده في سياق الجملة، ومن معاني الواو: الجمع والمشاركة.

ومن لم يتدبَّر قراءة قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً....﴾ ظنَّ أن القرآن الكريم قد استخدم الواو في غير معناها؛حيث استخدمها بمعنى (أو) التي للتخيير، وهذا يخالف الأصل في معنى الواو، وكان أحرى على حَدِّ وهمهم أن يقول: مثنى أو ثلاث أو رباع. ودلّلوا على ذلك بأن الحد الأعلى للجمع بين الزوجات أربع زوجات، والواو تفيد الجمع ليصبح العدد تسع زوجات.

وبعد النظر فيما قاله المدعون يتبين لنا بطلان دعواهم من وجوه:

١) الأمر في قوله: ﴿فَانْكِحُوا﴾: للجميع، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، ومعلوم أن الخطاب للجماعة بمنزلة الخطاب لكل فرد على حدة كما في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، وعليه فقوله: مثنى: أي اثنين، وثلاث: أي ثلاثة، ورباع: أي أربعة؛ ولما لم يتوفر هذا الجمع، قال: "فواحدة"، ولم يقل: فأحاد، أو فمَوْحد على نحو ما في "مثنى وثلاث ورباع".

٢) من الأعداد ما يأتي على أصله من غير عَدْل، وتسمى (الأصول)، ولا يفاد منها أكثر من حصر الكمية المعدودة - ليس إلا - ، ويصح فيها أن تجمع، ويضم بعضها إلى بعض، بخلاف الأعداد التي تُعْدل عن هذا الأصل، وتسمى: الأعداد العدول، وتضيف إلى العدد معنى الهيئة وترتيب الحدوث، وتأتي على وزني: "مَفْعَل"، مثل: مثنى ومثلث ومربع، و"فُعَال" ومثل: ثُناء، وثلاث، ورباع. وتلك لا يصحُّ جمعها كما يحدث في الأصول، ولا يستعمل المعدول مكان الأصلي؛ وإلا فَقَدَ العدد من المعنى ما يضيفه العَدْل له.

٣) الواو تخدم المعنى في هذا السياق؛ إذ هي بمعنى "بدل" أي: فانكحوا ثلاثًا بدلًا من مثنى، ورباعًا بدلًا من ثلاث.. إلخ، ولو جاء بأو؛ لجاز ألا يكون لصاحب المثنى: ثلاثٌ، ولا لصاحب الثلاث: رباعٌ، وليس هذا المراد.

ويخطئ سر العربية من لا يميز بين مثنى، وثلاث، ورباع، بما تفيد من إباحة التعدد بحسب الظروف، والأحوال، وبينّ مثنى أو ثلاث أو رباع" بما تفيد من دلالة التخيير التي يُقْتَصر فيها إما على مثنى، أو ثلاث، أو رباع.

٤) إذا كان هؤلاء قد وجدوا لتوهم الجمع في ٢ + ٣ + ٤ = ٩ في حياة النبي ﷺ مستندًا ومتكئًا، غافلين عن خصوصيته ﷺ فماذا لو علموا أن الأصل في المعدول أن يكون مثنى مثنى، وثلاث ثلاث، وهكذا ليصل العدد إلى ثمانية عشرة، فهل يجدون سلفًا في ذلك؟!

التفصيل:

أولاً. الأمر في قوله: ﴿فَانكِحُوا﴾ للجماعة فإن قال مدرس لتلاميذه: افتحوا كتبكم، أيعني هذا الأمر أن يأتي واحد ليفتح كل الكتب؟! إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه؛ وعليه فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا[١].

وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ معناه: ثنتين ثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، فتلك الألفاظ المفردة معدولة عن هذه الأعداد المكررة. ولما كان الخطاب للجمع حسن اختيار الألفاظ المعدولة الدالة على العدد المكرر، وكانت من الإيجاز ليصيب كل من يريد الجمع من أفراد المخاطبين ثنتين فقط، أو ثلاثًا فقط، أو أربعًا فقط، وليس بعد ذلك غاية في التعدد بشرطه[٢].

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم التجارية، ج٤، ص٢٠٠٠، ٢٠٠١.

٢. تفسير المنار، الإمام محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، جـ٤، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

ومعلوم أنه إذا قال القائل: جاءني القوم مثنى وهم مائة ألف، كان المعنى، أنهم جاؤوه اثنين اثنين، وهكذا جاءني القوم ثلاث ورباع، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، كما في قوله ﷻ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ، وقوله ﷻ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ونحوهما[1].

وليس أدل على ما ذهبنا إليه من أن الله ﷻ لما استثنى مظنة الخوف من الحيف ـ قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ وإنما لم يقل فأُحَاد أو فَمَوْحِد؛ لأن وزن مفعل، وفعال في العدد لا يأتي إلا بعد جمع، ولم يَجرِ جمع هنا[2]، على نحو ما سبق في قوله: ﴿مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ولا يجوز هذا حتى يتقدم قبله جمع؛ لأن هذا الباب جعل بيانًا لترتيب الفعل[3].

ثانيًا. الأعداد في اللغة على نوعين:

١. الأعداد المعدولة: ما كانت على وزن "مَفْعَل" و "فُعَال" وهي ـ كما في الآية:- ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ تأتي لتبين هيئة الفاعل أو المفعول به[4]. وهي منصوبة على الحالية، وقد كثر كلام أهل العربية حول العدد المعدول، هل هو من الواحد إلى العشرة؟ أم هو ما نطق به القرآن فقط؟ وقد ورد "عُشَار" في شعر "الكميت بن زيد" ـ وهو حجة ـ :

---

١. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ج٣، ص ٢٠، ٢١.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مج٣، جـ٤، ص ٢٢٦.

٣. إعراب القرآن الكريم، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص ١٥٧، .

٤. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٥،

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الجبال خصالاً عشارا[1]

وعلى كلٍّ فالأعداد المعدولة لا تستعمل في موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدولة؛ لأن هذا الباب ـ المعدول ـ جعل بيانًا لترتيب الفعل، فإذا قال: جاءني القوم مثنى، أفاد أن ترتيب مجيئهم وقع اثنين اثنين[2].

٢. **الأعداد غير المعدولة**: الغرض منها الإخبار عن مقدار المعدود دون غيره[3]. تقول: جاءني ثلاثة، لتفيد المستمع علمًا بعددهم، لا بحال مجيئهم بخلاف قولك: جاؤوني ثلاثَ ؛ فقد بَيَّنت كيف كان مجيؤهم[4].

وبعد هذا التعريف الموجز لهذين النوعين، لن يختلف أحد على أن العدد في الآية ـ التي نحن بصددها ـ من قبيل (المعدول)، وكونه معدولًا عن معناه: أنه لا يُسْتعمل في موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدولة، تقول: جاءني اثنان وثلاثة، ولا يجوز أن تقول: مثنى وثلاث، حتى يتقدم قبله جمع، مثل: جاءني القوم أُحاد، وثُناء ورُباع من غير تكرار. وهي في موضع الحال في الآية.

قد تكون صفة: ومثال هذه الأعداد قول ساعدة بن جؤية:

ولكنّما أهلٌ بوَادٍ أنيسُهُ * ذئاب تَبَقّى الناس مَثْنى ومَوْحَدُ

فوصف ذئابًا وهي نكرة بمثنى وموحد. وقول الفراء:

قتلنا به من بين مثنى وموحد * بأربعة منكم وآخر خامس

---

١. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٦، ١٥٧.

٢. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٧.

٣. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٨.

٤. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٥.

أي: قتلنا به ناسًا[1].

والشواهد في هذا كثيرة، قليلها يغني عن كثيرها لمن وعى. واللغة دقيقة في استعمالاتها وتراكيبها لمن فطن استعمالاتها وتذوق تراكيبها؛ إذ للمعدول سياق يُذكر فيه، ولغير المعدول كذلك شروطه، كما يقال للجماعة: اقتسموا هذا المال، وهو ألف درهم، أو هذا المال الذي في البدرة: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وهذا مسلَّم إذا كان المقسوم قد ذكر جملته، أو عين مكانه، أما لو كان مطلقًا، كما يقال: اقتسموا الدراهم، ويراد بها ما كسبوه، فليس المعنى هكذا. والآية من الباب الآخر ـ لا من الباب الأول ـ محدد الجملة معين المكان .

على أن من قال لقوم يقتسمون مالاً معينًا كبيرًا: اقتسموه مثنى وثلاث ورباع؛ فقسموا بعضه بينهم: درهمين درهمين، وبعضه: ثلاثة ثلاثة، وبعضه: أربعة أربعة، كان هذا هو المعنى العربي[2].

ومن دقة اللغة أيضًا أن للعرب في العدد المعدول زيادة معنى ليست في الأصل (غير المعدول)؛ لأنك إذا قلت: جاءني قوم ثلاثة ثلاثة، فقد حَصَرتَ عدة القوم بقولك ثلاثة، أما إن قلت: جاؤوني رباع وثناء، فلم تحصر عدتهم، وإنما تريد أنهم جاؤوك أربعة أربعة، أو اثنين اثنين، وسواء كثر عددهم، أو قلَّ في هذا الباب، فقصرهم كل صيغة على أقل ما تقتضيه بزعمه تحكم[3].

واعلموا أن الأعداد التي تجمع، قسمان:

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٥، ص ١٦، ١٩٨٥م.
٢. محاسن التأويل، للقاسمي، دار الحديث، ١٤٢٤هـ مرجع سابق، جـ٣، ص ٢٠، ٢١.
٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، جـ٥، ص١٨.

قسم يؤتى به ليُضم بعضه إلى بعض، وهذه هي الأعداد الأصول نحو: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦)، ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢)، ولم يقولوا: ثلاث وخماس، ويريدون ثمانية، كما قال ﷻ: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

ومنها العدول ـ كالآية التي نحن بصددها ـ ونستأنس لفهمها بغيرها، ولعل التوهم فيها يَحُول بين العقول فهمها. يقول ﷻ في سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (فاطر: ١): ففي دلالة الواو في هذا السياق تفيد بأن الملائكة ليسوا جميعًا سواء أولي أجنحة مثنى، أو ثلاث، أو رباع، بل منهم أولو أجنحة مثنى، ومنهم أولو ثلاث، ومنهم أولو أربع.

وفي سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ (سبأ: ٤٦) يجوز لهم أن يقوموا لله مثنى، وأن يقوموا فرادى، أي: وحُدْانًا ومجتمعين، ولو كان القول مثنى أو فرادى، للزم أن يقوموا جميعًا، إما مثنى وإما فرادى، ويخطئ سرَّ العربية من لا يفرق بين: مثنى وثلاث ورباع، وبين اثنتين وثلاث وأربع، مجموعها تسع، فالأعداد لا تجمع إلا إذا جاءت على أصلها غير معدول بها إلى: مثنى، وثلاث، ورباع[1].

ثالثًا. أداة الربط (الواو) تتيح للسياق من المعاني ما تقصر عنه أداة الربط (أو) في هذه الآية، ولا توقع في توهم كما قال متوهمو الجمع: إذ الواو في هذا الموضع بمعنى بدل، أي: فانكحوا ثلاثًا بدلاً من مثنى، ورباعًا بَدَلًا من ثلاث؛

---

١. الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

ولذلك عطف بالواو ولم يعطف بـ"أو"؛ ولو جاء بأو؛ لجاز ألا يكون لصاحب المثنى ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رُبَاع[1].

ويخطئ سر العربية من لا يميز بين "مثنى، وثلاث، ورباع" بما تفيد من إباحة التعدد، بحسب الظروف والأحوال، وبين مثنى أو ثلاث أو رباع، بما تفيد من دلالة التخيير التي يقتصر فيها إما على مثنى، أو ثلاث، أو رباع[2].

وجملة القول هنا: أن التوزيع باعتبار اختلاف المخاطبين في السَّعة والطول؛ فكما أن لطائفة من الملائكة جناحين، ولطائفة ثلاثة، ولطائفة أربعة ـ في آية فاطر ـ فإن هنا ـ في آية النساء ـ فريق يستطيع أن يتزوج اثنتين؛ فهؤلاء تكون أزواجهم اثنتين اثنتين، وفريق يستطيع أن يتزوج ثلاثة، فهؤلاء تكون أزواجهم ثلاث ثلاث، وهلُمَّ جَرًّا[3].

رابعًا. أن توهم الجمع في (مثنى وثلاث ورباع)، وهو العدد تسعة من الزوجات، بما فعله النبي ﷺ لم يقل به أحد من سلف الأمة وخلفها تحت تَعِلَّة الإقتداء بسنته، بل أجمعوا على أنه أمر خاص به ﷺ.

قال الشافعي: "وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة". وهذا الذي قاله الشافعي ـ رحمه الله ـ مُجْمَع عليه بين العلماء، وقد جمع ﷺ بين أكثر من أربع نسوة كما ثبت في الصحيحين، وقد علقه البخاري قائلا: وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج

---

1. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، جـ٥، ص ١٧، مرجع سابق.
2. الإعجاز البياني للقرآن الكريم: د. عائشة عبد الرحمن، مرجع سابق ط٢، ص ٢٠٧.
3. التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٤، ص ٢٢٥، بتصرف يسير جدًا، .

بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع.

فهذا عند العلماء من خصائص رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة والأدلة على ذلك كثيرة نكتفي بذكر واحدة هي ما رُوِيَ عن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وتحته عشرة نسوة، فقال له النبي ﷺ: أختر منهن أربعًا، وطلّق سائرهُنّ. فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لأجاز له رسول الله ﷺ بقاء العشرة، وقد أسلمن معه، فلما أمره بإمساك أربع، وفراق سائرهن، دلَّ على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال.

فماذا لو علم هؤلاء أن الأعداد الواردة في الآية الكريمة ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ سميت بالأعداد المعدولة؛ لأنها عدلت مرتين:

- مرة عن الأصل وهو (اثنان وثلاثة وأربعة) فجاءت على: **مفعل، وفعال.**
- ثم عدلت عن التكرار:

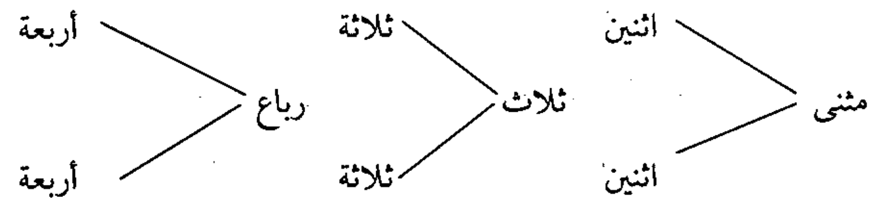

وفي قول شيخ شعراء العربية أبى الطيب المتنبي شاهد على هذا إذ يقول:

أحـــاد أم ســـداس في أحـــاد لُيَيْلَتُنَـــا المنوطـــةُ بالتنـــادِ؟

أحاد وسداس فإنه استعمل الجزء وهو واحد وست، مفردين أي أنه لم يردها أحادَ: مكررة، ولا ستًّا مكررة، ـ كما هو مدلول العدد المعدول ـ، بـل أراد الإفـراد واستعمل فيه المعدول الدال على التكثير تجوزًا من اسم إطلاق الكـل، وهـو أحـاد

فخرج باللفظ عن معنى الخوف إلى اليقين، وهو من ألفاظ التضاد.وقولـه ﷻ ﴿تُقْسِطُوا﴾ معناه تعدلوا، وقد يتوهم فيها تعارض مع قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ يعني: الجائرون. بل لا يقف التعارض معها فحسب، فثمة حديث يقول فيه ﷺ: "المقسطون في الدين على منابر من نور يوم القيامة".

يعني العادلين[1]، لكن هذا التعارض الضدي المتوهم لا يمكث أن ينتفي تمامًا إذا علمنا أنه يُقال: أَقْسَطَ الرجل إذا عدل، وإذا جار وظلم صاحبه، وثمة قراءة لابن وثاب والنخعي (تَقْسِطُوا) بفتح التاء من قَسَطَ على تقدير زيادة "لا" كأنه قال: وإن خفتم أن تجوروا[2].

- وقوله ﷻ: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ فيه فن التغليب، فقد قال "ما"، ولم يقل "من" كما هو المتبادر في استعمال "من" للعاقل و "ما" لغير العاقل تغليبًا[3].

لكننا نعود فنتساءل: لماذا ذكرت "ما" هذه أصلًا؟! بل لماذا ذكرت جملة ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أليس من الممكن أن يكون الكلام على هذا النحو: "فانكحوا من النساء مثنى، وثلاث، ورباع" ويكون المعنى غير مبتور بل يمتاز بالاختصار المغني عن الإسهاب؟! بالطبع لا!! [4].

وذلك لسببين:

١. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، مرجع سابق، جـ٥، ص ١٢.

٢. المرجع السابق، جـ٥، ص ١٢.

٣. إعراب القرآن الكريم وبيانه: لمحي الدين الدرويش، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٥٤، ١٥٥.

٤. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، جـ٤، ص ٢٢٤،

أولهما: أن هذه الجملة ـ ما طاب لكم ـ تعني: ما أحلَّهُنَّ الله لكم، أي: غير المحرمات مما ذكر الله ﷻ، وقضية الحِلّ والحرمة في مسألة الأعراض من الضرورة بمكان، فليست تلك الجملة مما يستغنى عنه في هذا السياق.

ثانيهما: ـ وهو الأهم ـ: أن المدرك لحكمة التعدد المنوطة بها الآية الكريمة، وهي تحسين النسل لا تكثيره فسحب. ويذكر أن ـ فيلسوفين؛ ألماني وإنكليزي ـ اهتما بوجوب إصلاح الإنسان لنسل الإنسان بدلًا من اهتمامهم بإصلاح المواشي، وكانت أهم طريقة أبْدَيَاهَا هي طريقة تعدد الزوجات، وهي ما جاء به الإسلام قبلهما بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة[1].

يعلم أن هذا يتأتى لرجل من النوابغ بمجرد تعدد الزوجات؛ فإن الزوجة المتوسطة أو المنحطة يكون أولادهُا في الغالب أوساطًا أو منحطين، وإن كان أبوهم راقيًا، فلا تحصل الفائدة المطلوبة من تعدد الزوجات وفي إصلاح النسل، بل يجب للحصول على هذا المطلب الأسمى أن يقترن النابغون بالنابغات؛ ليكون أولادهم مثلهم نبوغًا أو أنبغ منهم بحكم الجينة الوراثية، وذلك إنما يتم إذا أحسن النابغون اختيار الأزواج، فنكحوا ما طاب لهم، والنابغة لا يطيب له أن يقترن إلا بمن جمعت نبوغًا مثل نبوغه، إلى حسن رائع؛ فإن معاشرة الحمقاء ليس مما يطيب للعاقل الراقي، وإن الخير يطلب عند وجوه الحسان، لذلك قال ﷻ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ولم يقل: فانكحوا من النساء[2].

---

١. تفسير محاسن التأويل، للقاسمي، مرجع سابق، جـ٣، ص ٢٤.

٢. محاسن التأويل: للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٦.

• ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فيها إحكام مبدع راعى الحكمة من التعدد أصلاً؛ إذ فيها إشارة إلى مراتب نبوغ الرجل الثلاث؛ فكأنه أراد ألا يتجاوز الذي قلَّ نبوغه الاقتران باثنتين، وألا يتجاوز الذي نبوغه متوسط: الاقتران بثلاث، وأن يحل للذي نبوغه أعلى من الأَوَّلَيْن: الاقتران بأربع.

وأما الخائفون ألا يعدلوا لقصور عقلهم في سياسة المنزل، وعدم نبوغهم؛ فيجب ألا يتجاوز الواحدة، ويبقى من فاق نبوغه كل نبوغ وهو محمد ﷺ ليختاره الله؛ لوفور حكمته، ويخصُّه بالاقتران بأكثر من أربع لقدرته على العدل بينهن[1].

• قوله ﷻ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لها وجهان تحتملهما الآية، هما:

١. أن يكون العطف على واحدة؛ وعليه فقد خيَّر بينه وبين الواحدة من الأزواج باعتبار التعدد.

٢. أن يكون العطف على قوله ﷻ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾؛وعليه يكون تخييرًا بين التزويج، والتسري بحسب أحوال الناس.

بقي أن نشير لمدى تناسق الآية كلها مع ما سبقها من آيات من جهة، ومدى تناسقها مع نفسها: صدرًا وعجزًا ـ شرطًا وجوابًا ـ لنرى اشتمال هذه الآية على كلمة **اليتامى** والذي يُؤْذن بمناسبتها للآية السابقة، بَيْد أن الأمر بنكاح النساء، وعددهن في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى، مما خفي على كثير من علماء سلف الأمة؛ إذ لا تظهر مناسبة أي ملازمة بين الشرط وجوابه. واعلم أن في الآية إيجازًا بديعًا إذ أطلق فيها لفظ اليتامى في الشرط، وقوبل بلفظ النساء في الجزاء؛ فعلم السامع أن اليتامى هنا جمع يتيمة، وهي صنف من اليتامى في قوله

١. المرجع السابق، جـ٣، ص٢٦.

السابق: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ ، وعُلم أن بين عدم القِسْط في يتامى النساء، وبين الأمر بنكاح النساء، ارتباطًا لا محالة وإلا لكان الشرط عبثًا[1].

١. التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ٣، ص ٢٢٢.

الشبهة الرابعة عشرة

توهُّم اضطراب القرآن في نصب ما حقُّه الرفعُ في باب العطف(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يوافق اللغة العربية؛ حيث ونصب ما حقُّه الرفع في قوله ﷻ: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ١٦٢)؛ حيث يرون أنه يجب رفع **المقيمين**؛ لأنها معطوفة على الأسماء المرفوعة قبلها **الراسخون، المؤتون، المؤمنون**. (**)

---

*. عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر. الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر. دفاع عن النحو والفصحى..

(**) جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الثابتون في العلم المستبصرون فيه، وهم في الحقيقة المستدلون؛ لأن المقلِّدَ يكون بحيث إذا شُكِّكَ يَشُكُّ، وأما المستدل فإنه لا يتشكك البتة، فـ**الراسخون** هم المستدلون **والمؤمنون** أي: من الأميين اللاحقين بهم في الرسوخ بصحبة رسول الله ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على سائر الأنبياء؛ لاطلاعهم على كمالات المُنَزَّل عليك، وأنه صدَّق ما أُنزل من قبلك، فلا بد من الإيمان به أيضا.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: المصدقون بوحدانية الله تعالى، وبالبعث بعد الموت، وبالثواب والعقاب، وإنما قُدِّم الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع؛ لأنه المقصود في هذا المقام؛ ولأنه بيانٌ لحال أهل الكتاب وإرشادهم، وهم كانوا يؤمنون ببعض ذلك ويتركون بعضه، فَبَيَّن لهم ما يلزمهم، ويجب عليهم ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة؛ لجمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح (تفسير القاسمي: المسمى: محاسن التأويل، دار الحديث، القاهرة، ج٣، ص ٤٤٩).

ويعلق الأستاذ سيد قطب على هذه الآية بقوله: فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله، كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يتبع المعطوفُ المعطوفَ عليه في إعرابه رفعا ونصبًا وجرًّا ويزعم بعض أصحاب الشبهات حول القرآن الكريم، أن هناك مخالفة لقواعد النحو فى

وذِكْر العلم الراسخ بوصفه طريقًا إلى المعرفة الصحيحة، كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتةٌ من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كان يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالفكر الجاحد، هما اللذان يَحُولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة.. ونحن نشهد هذا في كل زمان، فالذين يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية؛ أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن هذا الكون إلهًا واحدًا مسيطرًا مدبرًا متصرفًا، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد، وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى. أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان، أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحي ـ علامات الاستفهام، وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق، وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند ديَّان واحد، على أيدي موكب واحد متصل من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ورد في التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعني ـ أول ما تعني ـ أولئك النفر من اليهود، الذين استجابوا للرسول ﷺ، ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير، ويضم السياق القرآني هؤلاء وهؤلاء إلى موكب المؤمنين، الذين تُعيِّنهم صفاتهم. ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وهي صفات المسلمين التي تميزهم: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالله واليوم الآخر، وجزاء الجميع ما يقرره الله لهم. ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ونلاحظ أن المقيمين الصلاةَ تأخذ إعرابًا غير سائر ما عطفت عليه، وقد يكون ذلك لإبراز قيمة إقامة الصلاة في هذا الموضع على معنىً ـ وأخص المقيمين الصلاة ـ ولها نظائر في الأساليب العربية، وفي القرآن الكريم؛ لإبراز معنى خاص في السياق له مناسبة خاصة، وهي هكذا في سائر المصاحف، وإن كانت قد وردت مرفوعة. والمقيمون الصلاةَ في مصحف عبد الله بن مسعود. (في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧، جـ٢، ص٨٠٤.

قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾؛ حيث جاء المعطوف منصوبا، فى حين جاء المعطوف عليه مرفوعا، بل توسط المعطوف عليه في إعرابه، والصواب في زعمهم أن يقال: **والمقيمون الصلاة** حتى يستقيم الأمر ويتبع المعطوف المعطوف عليه في إعرابه.

وقد رد النحويون وعلماء اللغة على هذه الشبهة بما يلى:

١) قال سيبويه وجمهور المفسرين: إن **المقيمين** منصوبة على القطع، والتقدير **أعني المقيمين**[1]، وقد تبعه الزمخشري، وقال إنها منصوبة على الاختصاص[2]، المراد منه المدح، وهذا الرأي هو المشهور عند النحاة والمفسرين، والقُرَّاء.

٢) قيل: إنها وقعت مجرورة لا منصوبة، إما لأنها معطوفة على الضمير المجرور محلاً في **منهم** أو على **ما** في قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ﴾.

٣) إن الرواية الواردة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت في هذه الآية: "يا ابن أخي، الكُتَّاب أخطأوا"، رواية باطلة، وكذلك ما روي عن عثمان ﷺ من أنه قال: "إن في القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها واهية السند، وعليه فليس في الآية خطأ ولا لحن كما زعموا.

التفصيل:

---

١ . أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: د. حسن طبل، دار الفكر العربى، ط١، ١٩٩٨، ص ١٥٣.

٢ . الاختصاص: هو مخالفة إعراب كلمة لإعراب ما قبلها، بقصد المدح أو الذم، ويسمى القطع.

أولاً. إن أشهر الآراء في مجيء **المقيمين** بالياء خلافاً لنسق ما قبلها وما بعدها أنها جاءت منصوبة على الاختصاص، المراد منه المدح بدلالة المقام؛ لأن المؤدين للصلاة بكامل ما يجب لها من طهارة ومبادرة وخشوع، جديرون بأن يُمدحوا من الله ﷻ ومن والناس.

يقول الإمام الزمخشري: **والمقيمين** نصب على المدح، لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع، ولا يُلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان[1]، وقد أوردوا عليه شواهد عدة من الشعر العربي المحتج به لغويًا ونحويًا، ومن ذلك ما أورده سيبويه:

ويأوي إلى نسوة عُطَّل ... وشعثًا مراضيع مثل السَّعالى

ومنها قول الخِرْنِق بنت هِفَّان:

لا يَبْعَدَنْ قَومي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وَآفَةُ الجُزْرِ

النّازِلينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبونَ مَعاقِدُ الأُزْرِ

والشاهد في بيت سيبويه، نصب **شعثًا** في البيت الأول وهو معطوف على مجرور **عطل**، والشاهد في البيتين بيتي الخِرْنِق بنت هِفَّان نصب **النازلين** وهو معطوف على مرفوع، وهو **سمُّ العداة**.

١ . حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د محمود حمدي زقزوق، ط٢، ٢٠٠٤م، ص ١٧٤، ١٧٧.

هذا، وقد قلنا من قبل: إن القرآن غير مفتقر إلى شواهد من خارجه على صحة أساليبه، ومع هذا فإن ورود هذه الشواهد لا تقلل من شأنه[1].

ثانيًا. جَرَّ بعض العلماء **المقيمين** على سبيل العطف على الضمير المجرور محلاً في **منهم**، والمعنى على هذا:لكن الراسخون منهم والمقيمين الصلاة، ومنهم مَن جرها بالعطف على الكاف في **أنزل إليك**، ومنهم من عطف على **ما** في قوله: **بما أنزل إليك**، وقال بعضهم أو هي مجرورة بالعطف على **الكاف** في قبلك.

والراجح: إن الذي ينبغي الركون إليه ـ لقوته ـ هو الرأي الأول، المنسوب إلى سيبويه، والزمخشري، وابن عطية، وأبي البقاء العكبري، أما ما عداه من آراء فلا تخلو من التكلف أو الضعف.

فالنصب على الاختصاص لا مناص من قبوله؛ لأنه أسلوب شائع في الاستعمال اللغوي العربي، وفيه من البلاغة أمر زائد على مجرد التوجيه النحوي، الذي لا يتجاوز بيان عامل النصب أو الجر.

وأيًا ما كان الأمر، فليس لمثيري هذه الشبهات أية حجة يستندون إليها في مزاعمهم هذه، فهم كما جاء في المثل حاطبو ليل، لا يميزون بين حقائق الأشياء ولا ذواتها؛ لأنهم يحيط بهم الظلام من كل جهة، وهم في عماهم يعمهون[2].

ثالثًا. الاستدلال بما روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها سُئلت عن هذه الآية، وعن قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (طه: ٦٣)، وعن قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: مرجع سابق، صـ ١٧٨. والجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ج٦، صـ ١٣، ١٤.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ١٧٨، والجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، مرجع سابق، ج٦، صـ ١٣، ١٤.

(المائدة: ٦٩)، فقالت للسائل: يا ابن أخي، الكُتّاب أخطؤوا، استدلال باطل وكذلك استدلالهم بقول أبان بن عثمان: كان الكاتب يُمْلَى عليه فيكتب، فكتب ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ثم قال له: ما أكتب؟ فقيل له: اكتب **والمقيمين الصلاة** فمن ثم وقع هذا.

ومثله فى بطلانه ما استدلوا به مما روي عن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال: إن في القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها.

وبيان بطلان هذه الروايات ما يلى:

قال القشيري: وهذا مسلك باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة، فلا يُظَن بهم أنهم يُدرجون في القرآن ما لم ينزل[1].

قال الزمخشري: **والمقيمين** نُصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع، قد قَصَرَهُ سيبويه على أمثلة وشواهد، ولا يُلتفت إلى ما زعموا أن وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وغبى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة والإنجيل، كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وخرقًا يرفوه من يلحق بهم[2].

كما أن الرواية الواردة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ في ذلك ضعيفة لا تثبت، ففي سندها أبو معاوية، ومحمد بن خازم الضرير، عن هشام بن عروة، وقد

١. تفسير القرطبي، مرجع سابق، جـ٦، ص ١٥.

٢ ـ الكشاف، للزمخشري، الدار العالمية، جـ١، صـ ٥٨٢، مرجع سابق.

قال أبو داود: "قلت لأحمد كيف حديث أبي معاوية عن هشام بن عروة؟ قال: فيها أحاديث مضطربة، يرفع منها أحاديث إلى النبي ﷺ".

وقال الإمام أحمد: "أبو معاوية الضرير في غير حديث الأعمش مضطرب لا يحفظها حفظًا جيدًا"، وقال ابن خِراش: "صدوق فيه إرجاء، وهو في الأعمش ثقة، وفي غيره فيه اضطراب".

هناك علة أخرى وهي أن أبا معاوية الضرير مُدّلسُ، وقد وصفه بالتدليس ابن حجر، والمقدسي، والحلبي.

أما عن قول عثمان ﷺ "إن في القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها"، فكلها آثار لا تقوم بها حجة؛ لأنها منقطعة غير متصلة، قاله السيوطي، ثم زاد: "وما يشهد عقل بأن عثمان إمام الأمة، الذي هو إمام الناس في زمنه وقدوتهم، يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام، فيتبين فيه خللاً، ويشاهد في خطه زللاً فلا يصلحه.. ولم يكن عثمان ليؤخر فسادًا في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كَتْبٍ ولا نُطْقٍ، ومعلوم أنه كان مواصلاً لدرس القرآن متقنًا ألفاظه موافقًا على ما رُسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي.."[1].

قال الألوسي - رحمه الله -: "وأما ما روي أنه لمَّا فُرِغ من المصحف أُتى به إلى عثمان ﷺ فقال: "قد أحسنتم وأجملتم، وأرى لحنًا قليلا ستقيمه العرب بألسنتها، ولو كان المُمْلي من هُذَيل، والكاتب من قريش لم يوجد فيه هذا"، فقد قال السخاوي: إنه ضعيف، والإسناد فيه اضطراب وانقطاع فإن عثمان ﷺ جُعل للناس إمامًا يَقتدون به، فكيف يرى في القرآن لحنًا، ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها، وقد كتب

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج١، صـ١٨٢-١٨٣.

عدة مصاحف وليس فيها اختلاف أصلاً، إلا فيما هو من وجوه القراءات، وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع - وهم من هم - فكيف يقيمه غيرهم؟

وتأوَّلَ قوم اللحن في كلامه - على تقدير صحته عنه - بأن المراد الرمز والإيماء، كما في قول الشاعر:

منطـــق رائـــع وتلحـــن أحيـــا نـــا وخـير الكـلام مـا كـان لحنـًـا

أي المراد به الرمز بحذف بعض الحروف خَطًّا، مما يعرفه بعض القراء إذا رأوه، وكذا زيادة بعض الحروف[1].

الأسرار البلاغية فى الآية:

- فى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استدراك من قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ (النساء: ١٦١)، وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلاً وآجلاً، وقوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ : والسين لتوكيد الوعد، ونُكِّر الأجر للتفخيم، كما مر غير مرة، ولا يخفى ما في هذا من المناسبة التامة بين طرفي الاستدراك؛ حيث أوعد الأولين بالعذاب الأليم، ووعد الآخرين بالأجر العظيم[2].
- السر البياني في قطع **والمقيمين الصلاة** عمَّا قبلها وما بعدها؛ أنها نصبت على المدح بإضمار فعل لبيان فضل الصلاة على ما قاله سيبويه، والتقدير: أعني أو أخص المقيمين الصلاة، الذين يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان. والنصب على المدح هنا لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هنا هي ما ذكرنا آنفًا من مزية الصلا؛ حيث إن تغيير الإعراب في كلمة بين

---

١. روح المعاني، للألوسي، عند تفسير هذه الآية.

٢. المرجع السابق، بتصرف.

أمثالها ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها، ويهدي التفكير لاستخراج مزيتها، وهو من أركان البلاغة[1].

---

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيى الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، ج٢، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

الشبهة الخامسة عشرة

توهم اضطراب القرآن الكريم في رفع المعطوف على المنصوب(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن الكريم خالف قواعد اللغة؛ فعطف المرفوع على المنصوب في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩)، فكلمة الصابئون مرفوعة وهي معطوفة على اسم إنَّ الذين، وهو اسم موصول في محل نصب، والصواب في زعمهم أن يقال: والصابئين كما في سورة البقرة والحج(**).

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨١م. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م.

www.saiid.net. www.answering.islam.org. www.islameyat.ocm.

**. يقول صاحب الظلال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: الذين آمنوا هم المسلمون، والذين هادوا هم اليهود، والصابئون هم في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول ﷺ وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة، ومنهم من العرب أفراد معدودون، والنصارى هم أتباع المسيح ﷺ، والآية تقرر أنه أيًا كانت النحلة، فإن مَنْ آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا ـ ومفهوم ضمنا في هذا الموضع، وتصريحا في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير ـ فقد نجوا: ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات.. فالمهم هو العنوان الأخير.. وهذا الذي نقرر أنه مفهوم من الآية ضمنا يعتبر من المعلوم من الدين بالضرورة . فمن بديهيات هذه العقيدة، أن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه أُرسل إلي البشر كافة، وأن الناس جميعا ـ على

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في المعطوف أن يوافق المعطوف عليه في إعرابه، لكن الناظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يتوهم مخالفة القرآن للصواب في عطف المرفوع على المنصوب، وذلك في رفع كلمة **الصابئون** المعطوفة على اسم إن المنصوب، وكان الأولى في زعمهم أن تنصب، ونحن نردُّ عليهم بعدَّة وجوه نجملها فيما يأتي:

١) ﴿الصَّابِئُونَ﴾ مرفوعة على الابتداء وخبرها محذوف، والجملة معطوفة على نية التأخير. على موضع إن واسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا، والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصابئون كذلك.

وقيل: جاز الرفع في ﴿الصَّابِئُونَ﴾ لأن إنَّ هنا بمعنى نعم، وعليه فالصابئون مرفوعة بالابتداء، وحُذف الخبر لدلالة الثاني عليه.

٢) إن السرَّ في إيثار لفظة ﴿الصَّابِئُونَ﴾ بالرفع دون ما قبلها وما بعدها، هو الإشعار بمخالفة **الصابئين** لكل المذكورين معهم.

٣) إن الواو عاطفة، **والصابئون** معطوف على موضع اسم إنَّ؛ لأنه قبل دخول إنَّ كان في موضع رفع، ومن ثمَّ فلا وجود للخطأ اللغوي في الآية الكريمة.

التفصيل:

اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم - مدعوون إلى الإيمان بما جاء به، وفق ما جاء به في عمومه وفي تفصيلاته. وأن من لا يؤمن به رسولا، ولا يؤمن بما جاء به إجمالا وتفصيلا، فهو ضالٌّ لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين، ولا يدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ٢، ص ٩٤٢).

أولاً. ذهب سيبويه وجمهورٌ المفسرين إلى أن **الصابئون** مرفوعة على الابتداء وخبرها محذوف[1]؛ فالرفع في هذه الآية محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، و**الصابئون** والنصارى كذلك، وأنشد سيبويه نظيره قائلاً:

وَإِلّا فَاعلَموا أَنّا وَأَنتُم ... بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ[2]

وقال ضَابِئ البُرَجُمِيّ:

فَمَن يَكُ أَمسى بِالمَدينَةِ رَحلُهُ ... فَإِنّي وَقَيّارٌ بِها لَغَريبُ

وقيل: إن خبر **إنَّ** محذوف، أي: مأجورون أو آمنون أو فرحون، والصابئون مبتدأ وما بعدها خبر[3].

وقيل: **إنَّ** بمعنى **نعم**، وعليه **الصابئون** مرفوع بالابتداء، وحُذف الخبر لدلالة الثاني عليه، فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر، كقول قيس الرقيات:

بَكَرَت عَلَيَّ عَواذِلي ... يَلْمِنَني وَأَلومُهُنَّه

وَيَقُلنَ شَيبٌ قَد عَلا ... كَ وَقَد كَبِرتَ فَقُلتُ إِنَّه

قال الأخفش: **إنَّه** بمعنى **نعم** وهذه **الهاء** أدخلت للسكت[4].

---

١. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ص ١٥١.

٢. البيت لبشر بن أبي حازم، والبغاة: جمع باغٍ، وهو الساعي بالفساد. والشقاق: الخلاف.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٨٥م، جـ٦، ص ٢٤٦.

٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، جـ٦، ص ٢٤٧.

عظيم لا يضيق عن شمولهم، فهذا موجب التقديم مع الرفع، ولو لم يقدم ما حصل ذلك الاعتبار، كما أنه لو لم يرفع لصار معطوفًا على اسم **إنَّ**، فلم يكن عطفه عطف جملة[1] وإذن فهذه المخالفة في الآية الكريمة ملمح بلاغي وليس خطأً كما توهم بعضهم.

ثالثًا. يذهب الكسائي والفرَّاء إلى أن الواو هنا عاطفة، والصابئون معطوف على موضع اسم إن؛ لأنه قبل دخول **إن** كان في موضع رفع، ومن هنا جاز رفعها[2]، ويؤكد هذا أن اسم إن **الذين** هنا لا يتبين فيه الإعراب، فجرى على جهة واحدة الأمران، فجاز رفع **الصابئون** رجوعًا إلى أصل الكلام[3].

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم كتاب منزه عن أي خطأ لغوي أو غيره.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- إنَّ الحكمة من تقديم الصابئين على النصارى هنا، بالرغم من تقديم النصارى عليهم في آية البقرة، أن الترتيب في آية البقرة قد رُوعي فيه ترتيب نزول الكتب السماوية، ومن ثم قدَّم اليهود على النصارى؛ لأن نزول التوراة سابق على نزول الإنجيل، ولهذا أيضًا أخَّر ذكر **الصابئين** الذين لا كتاب لهم على الطائفتين، أما الترتيب في آية المائدة، فهو بحسب ترتيب الأزمنة، ومن ثم قدم **الصابئون** على النصارى في تلك الآية؛ لأنهم وإن تأخروا عن النصارى في كونهم لا كتاب لهم، فإنهم متقدمون عليهم زمانًا؛ لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام[4].

---

١. المرجع السابق.
٢. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين درويش، اليمامة، دمشق ، جـ٢، ص ٥٢٧.
٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، جـ٦، ص ٢٤٦.
٤. درة التنزيل، الخطيب الإسكافي، دار الآفاق العربية، بيروت.

وبالإضافة إلى هذا فهناك ملمح بلاغي آخر في تقديم **الصابئين** على **النصارى،** هو الإشعار بأن التقدم أو الفوز بالنعيم الأخروي ليس حكرًا على طائفة دون أخرى، بل هو لكل من صحت عقيدته، وصلح عمله في الدنيا، تقدم زمانه أو تأخر، كتابيًّا كان أم غير كتابي[1].

- أما تقديم ذكر **الذين آمنوا** في طالعة المعدودين. تنويهًا بالمسلمين في هذه المناسبة؛ لأن المسلمين هم المثال الصالح في كمال الإيمان والتحرز عن الغرور، وعن تسرب مسارب الشرك إلى عقائدهم، فكانوا هم الأوحدون في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ الأوَّلون في هذا الفضل[2].

- **وقد يتساءل أحدهم:** وما السر في الإخبار عن جميع المذكورين بقوله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إذ من جملة المذكورين المؤمنون؟ وهل الإيمان إلا بالله واليوم الآخر؟ والجواب على ذلك: أنه تعالى يريد بمن آمن من دام على إيمانه ولم يرتدَّ[3].

- وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بدون ذكر **من آمن منهم.** التي ذُكرت في آية البقرة - إيماءً إلى أن الوعد المذكور في الآيتين ليس مقصورًا على من آمن وعمل صالحًا من تلك الطوائف فحسب، بل هو وعد عام لكل مؤمن صالح في أي زمان أو مكان[4].

1. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، مرجع سابق، ص ١٥٣.
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، مجلد ٤، جـ٦، ص ٢٦٨، ٢٦٩، بتصرف يسير.
3. المرجع السابق.
4. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، مرجع سابق، د. حسن طبل، ص ١٥٣.

- وجاء **العمل الصالح** بعد **الإيمان** في الآية الكريمة؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب ولا فائدة فيه، والله سبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعلم الصالح[1].
- عطف سبحانه **﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** على **﴿فَلَا خَوْفٌ﴾** ؛ لأن الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل، أما كلمة الحزن فهي ضد السرور، ولا يكون إلا على ماض، والمعنى في الآية: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا[2].

وهكذا نلاحظ دقة ألفاظ القرآن الكريم ومناسبتها للمعنى، فكيف لهذا النظم المعجز أن يحتوى على خطأ من أى نوع؟!

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، جـ٦، ص ٣٢٩٨.
٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ١، ص ٢٢٩، مرجع سابق.

الشبهة السادسة عشرة

توهُّم مخالفة القرآن قواعد اللغة في إسناد المضارع إلى المتكلم المفرد بدلا من الجمع(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المدعين أن بالقرآن الكريم اضطرابًا في إسناد المضارع للضمائر، ويستدلون على ذلك: بقراءة خاطئة للفعل **أَشْهَدْ** بهمزة القطع على أنه مضارع في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة:١١١) (**). إذ قرأوه أشْهد بهمزة قطع، ومن ثَمَّ كان الصواب في ظنِّهم أن يقال: **ونَشْهد** بإسناد الفعل المضارع للجمع، بدلا من **وأشهد** بإسناد المضارع للمفرد.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يطابق الفعل فاعله المسند إليه في نوعه (تذكيرًا وتأنيثًا)، وعدده (إفرادًا وتثنية وجمعًا)، وهذا ما نلحظه في القرآن، أما ما توهمه بعضهم من مخالفة القرآن قواعد اللغة في إسناد المضارع إلى المتكلم المفرد بدلاً من الجمع فهو زعم باطل من وجوه:

١) أنهم أخطأوا في قراءة الفعل **اشهد** فقالوا: **وأَشْهَدَ** بهمزة القطع، وعليه اعتبروه فعلاً مضارعًا مسندًا للمتكلم، والصواب أنه **واشهد** بهمزة الوصل؛ لأنه

---

*. الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، دار السعادة للطباعة، مصر.

**. قال القرطبي: المقصود من قوله ﷻ: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ واشهد يا رب ـ وقيل: يا عيسى ـ بأننا مسلمون. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٦، ص ٣٦٣).

وجاء في صفوة التفاسير أنهم قالوا: صدَّقنا يا رب بما أمرتنا، واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن. (صفوة التفاسير، الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، جـ١، ص ٣٥٩).

فعل طلب مسند للمخاطب وهو لفظ الجلالة الله؛ حيث المقصود من الآية واشهد يا رب[1].

٢) ليس الفاعل الحواريين ولا الضمير العائد عليهم، وإلا قالوا: واشهدوا؛ وإنما فاعل الأمر ضمير مستتر تقديره أنت، عائد على الله ﷻ؛ لذلك قالوا: واشهد.

التفصيل:

أولاً. لقد أخطأ القوم في قراءة الفعل **واشهد**؛ فقرأوه: **وأَشْهَدُ**، بهمزة القطع؛ وعليه اعتبروه فعلاً مضارعًا مسندًا للمتكلم، والصواب أنه: **واشْهَدْ** بهمزة الوصل؛ لأنه فعل طلب **أمر** مسند للمخاطب، وهو لفظ الجلالة **الله**، والمقصود من الآية، كما في تفسير القرطبي[2]: "واشهد يا رب - وقيل: يا عيسى - بأننا مسلمون"، وجاء في صفوة التفاسير المعنى ذاته: أنهم قالوا: "صدقنا يا رب بما أمرتنا، واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان، خاضعون لأمر الوحي"[3]، فالفعل **واشهد** مسند لمخاطب مفرد، وهو إما **الله** وإما **عيسى**، وعلى أي فهو مفرد لا جمع كما توهم هؤلاء.

ثانيًا. فاعل الفعل الأمر ليس **الحواريين**، وإلا قالوا: **واشهدوا**، وإنما فاعله **ضمير مستتر تقديره عائد على الله ﷻ**؛ لذلك قالوا: **واشهد**، وهذه من "النعم التي آتاها الله عيسى بن مريم؛ لتكون له شهادة وبينة، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ، وتصوغ حولها الأضاليل، فها هو عيسى يواجه بها قومه؛ ليسمعوا قومه ويروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين"[4].

---

١. تفسير القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٦، ص ٣٦٣.
٢. المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣. صفوة التفاسير، الصابوني، جـ٢، ص ٣٥٩، مرجع سابق.
٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، القاهرة، ط شرعية ١٣، ١٩٨٧م، دار الشروق، جـ٢، صـ ٩٩٨.

والخطاب في قولهم: **واشهد** لله ﷻ؛ وإنما قالوا ذلك بكلام من لغتهم، فحكى الله معناه بما يؤديه[1].

الأسرار البلاغية:

- والسياق مركب من دلالتين: **إعلانهم الإيمان بالله وبرسوله، ثم طلبهم من الله تعالى أن يشهد على إسلامهم هذا الذي أعلنوه**، ونحن متفقون في النصف الأول من معنى الآية، ولكننا سنوضح الدلالة الثانية لمن غفل عنها، إذ الآية تتحدث عن إيحاء الله ﷻ إلى أصحاب المسيح ؈ بالإيمان بالله ورسوله، فقالوا: آمنا واشهد يا رب لنا بهذا الإيمان، حتى تكون شهادتك هي الدليل على رضاك عنا، والطريق إلى نجاتنا وسلامتنا من أهوال يوم القيامة، وبهذا يستقيم السياق، ويظهر إعجاز القرآن وبيانه، ومن ثم - أيضًا - لا داعي لتكرار القول؛ إذ إن قولهم: **آمنا** شهادة منهم على صدقهم، فلو قال: **نشهد** لكان تكرارًا لا فائدة منه؛ لذلك تحاشى القرآن ذلك.

ولو أخذنا بفهم الذين توهموا هذا الخطأ لصار السياق: **قالوا آمنا ونشهد بأنا مسلمون**، وبهذا يفقد السياق النصف الثاني منه؛ لأن المعنى: إعلانهم للإيمان بالله ورسوله، ثم إشهاد الله على إسلامهم هذا.

---

1. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مجلد ٤، جـ٧، صـ ١٠٤.

الشبهة السابعة عشرة

توهم اضطراب القرآن في تذكير الحال مع تأنيث صاحبها(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم جانب المألوف في قوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٦) (**)؛ حيث جاءت كلمة مدرارًا مذكّرة - وهي الحال - رغم أن صاحبها السماء مؤنثة، والصواب في ظنهم أن يقال: مدرارة.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الحال المفردة أن تطابق صاحبها وتوافقه في التذكير أو التأنيث، وغير المتمكن من اللغة وقواعدها إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ

(*) www.alkalema.us

(**) قال صاحب الظلال في تفسير هذه الآية: "ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة. وقد مكنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة، وأرسل المطر عليهم متتابعا ينشىء في حياتهم الخصب والنماء، ويُفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلا آخر، ورث الأرض من بعدهم، ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله، وما أهونهم على هذه الأرض أيضا! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء، إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان، ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء، ولقد نزلت هذه الآية للفلت أنظار المكذبين وقلوبهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم، فقد كانوا يعرفون بعضًا منها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر، وكان العرب يمرون على أطلالهم في رحلة الشتاء للجنوب، وفي رحلة الصيف للشمال! (في ظلال القرآن: للشيخ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٣، ١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ، ج٢، ص ١٠٣٧).

عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يظن فى الآية مخالفةً بين الحال وصاحبها فى النوع. التذكير أو التأنيث؛ حيث أتى بقوله: مدرارًا حالاً مذكرة للسماء وهى مؤنث، وكان الصواب فى زعمهم أن يأتى بحالٍ مؤنثة للاسم المؤنث فيقال : وأرسلنا السماء عليهم مدرارة؛ لتتحقق المطابقة بين الحال وصاحبها فى التأنيث.

وهذا الزعم مردود من وجوه:

١) إن كلمة السماء اسم من أسماء المطر، أو هي مجاز مرسل أريد به المطر الكثير، وعلاقته المحلية، وعلى هذا فقد جاء الحال مذكرًا؛ مراعاة لمعنى المطر، وهو مذكر.

٢) إن كلمة مدرارًا - على وزن مفعال - صيغة مبالغة تدل على الكثرة يستوي فيها المذكر والمؤنث.

٣) إن الآية على حذف مضاف، والتقدير: وأرسلنا مطر السماء عليهم مدرارًا ، والداعي للحذف هنا هو ما استقر في الأذهان من أن السماء لا تُرسَل.

التفصيل:

أولاً. أن المتأمل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يجد أنه اشتمل على مجاز لغوي، أو مجاز مرسل أريد به المطر الكثير، كما يقول د. عبد العظيم المطعني: "فقد اشتُهر عند علماء البيان أن السماء بمعنى المطر مجاز مرسل علاقته المجاورة: أما تأويله أرسلنا بأنزلنا، فهو مجاز لغوي استعاري شبه فيه الإرسال بالإنزال بجامع البلوغ في كل"[1].

١. المجاز في اللغة والقرآن، د. عبد العظيم المطعني، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ج١، ص ٤٣.

فقد قال ابن عاشور: والسماء من أسماء المطر، كما في حديث الموطأ من قول زيد بن خالد: صلَّى لنا رسول الله ﷺ على إثر سماء، أي: عقب مطر. وهو المراد هنا؛ لأنه المناسب لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بخلافه في نحو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾

وذكر محى الدين الدرويش أن الآية قد احتوت على مجاز مرسل علاقته المحلية، يريد المطر الكثير، عبَّر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل منها، وقد رمق هذا المجاز الشاعر بقوله:

إذا نَزَلَ السَّحابُ بِأَرضِ قَومٍ رَعَيناهُ وَإِن كانوا غِضابا[1]

وتقول العرب: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يريدون المطر[2]. وقد ذكر هذا جل المفسرين، وعليه فالسماء ما دامت بمعنى المطر فقد عبَّرت عن مذكر، فجاز أن يأتي الحال معها مذكرًا، ولا خطأ في ذلك.

ثانيًا. أن كلمة **مدرارًا** على وزن مفعال، صيغة مبالغة تدل على الكثرة يستوي فيها المذكر والمؤنث. يقول القرطبي في تفسيره: مدرارًا بناءٌ دالٌّ على التكثير؛ كمذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور، ومئناث للمرأة التي تلد الإناث، يقال: در اللبن يدرّ إذا أقبل على الحالب بكثرة. وانتُصب مدرارًا على الحال[3].

يقول الرازي: والمدرار الكثير الدر، وأصله من قولهم: در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير، فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب، ويجوز أن

1. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محى الدين الدرويش، ، دار اليمامة، ابن كثير، بيروت. ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج٣، ص ٦٧، ٦٨.
2. البحر المحيط، لأبي حيان التوحيدي عند تفسيره هذه الآية ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ .
3. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ج٦، ص ٣٩٢.

يكون من نعت المطر، يقال سحاب مدرار: إذا تتابعت أمطاره. ومفعال يجيء في نعت يراد المبالغة فيه. قال مقاتل: مدرارًا متتابعًا مرة بعد أخرى، ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث[1].

وقد جاء في البحر المحيط: ومدرارًا على هذا حال من نفس السماء، وقيل: السماء هنا السحاب ويوصف بالمدرار، فمدرارًا حال منه. ومدرارًا يوصف به المذكر والمؤنث وهو للمبالغة في اتصال المطر ودوامه وقت الحاجة؛ ولأن هذه الأوصاف إنما ذُكِرت لتعديد النعم عليهم ومقابلتها بالعصيان[2] وعليه فلا خطأ في وصف السماء بحال مذكرة.

ثالثًا. ذكر بعض العلماء أن الآية على حذف مضاف، والتقدير: وأرسلنا مطر السماء عليهم مدرارًا، والداعي إلى الحذف هنا هو ما استقر في الأذهان من أن السماء لا تُرْسل، والله أعلم.

وعليه فإن الحال وصفت الاسم المذكر المحذوف.

الأسرار البلاغية في الآية:

- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ (الأنعام: ٦): استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بما تقدم، وقيل شروع في توبيخهم ببذل النصح لهم، والأول أظهر[3].

---

١. مفاتيح الغيب، للرازي، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ .

٢. البحر المحيط، مرجع سابق.

٣. روح المعاني، للألوسي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ إلخ الآية، مرجع سابق.

- قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: ما كان حالهم؟ وقال أبو البقاء: إنه في موضع جر صفة قرن لأن الجمل بعد النكرات صفات لاحتياجها إلى التخصيص، وجمع الضمير باعتبار معناه.

- وجملة ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ صفة لـ قرن وروعي في الضمير معنى القرن؛ لأنه دال على جمع، وهي كناية عن الإقدار وإطلاق التصرف؛ لأن صاحب المكان يتصرف في مكانه وبيته، وقد شاع استعمال التمكين في معنى التثبيت أوالتقوية ككناية، حتى صار كالصريح أو كالحقيقة[1].

- قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ لكم خطاب للمكذبين المستهزئين، فهو التفات، والمعنى: أن القرون المهلَكة أعطوا من البسطة في الدنيا والسعة في الأموال ما لم يعط هؤلاء الذين حُضُّوا على الاعتبار بالأمم السالفة وما جرى لهم، وفي هذا الالتفات تعريض بقلة تمكين هؤلاء ونقصهم عن أحوال من سبق، ومع تمكين أولئك في الأرض فقد حل بهم الهلاك، فكيف لا يحل بكم على قلتكم وضيق خطتكم؟ فالهلاك إليكم أسرع من الهلاك إليهم.[2]

ويفيد الالتفات تخصيص المُرسَل إليهم الرسول ﷺ بالمواجهة، فضلاً عن تطرية نشاط السامع[3].

- قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: المطر، واستعمالها في ذلك مجاز مرسل، وقيل: هي على حقيقتها بمعنى المظلة، والمجاز في إسناد الإرسال إليها؛ لأن المُرْسل

١. التحرير والتنوير، م ٤، ص ١٣٨ مرجع سابق.

٢ . البحر المحيط، عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ الآية، مرجع سابق.

٣. إعراب القرآن الكريم وبيانه، مرجع سابق.

ماء المطر، وهي مبدأ له، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، والإرسال والإنزال متقاربان في المعنى؛ لأن اشتقاقه من رسل اللبن وهو ما ينزل من الضرع متتابعًا.

- قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي: غزيرًا كثير الصب، وهو صيغة مبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث، وهو حال من السماء والظرف متعلق بأرسلنا[1].

- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ مجاز عقلي علاقته المكانية، حيث أسند فعل الجريان إلى ضمير الأنهار - والنهر: اسم للوادي الذي يجري فيه الماء - وإنما يجري الماء لا الوادي، لكن لما كان الوادي مكانًا للجريان صح إسناد الفعل إليه لعلاقة المكانية[2].

- قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾: فيه إيجاز بالحذف، فالتقدير: أذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم على حد قوله تعالى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ الآية، أي: فضرب فانفجرت الخ.

- قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام: ٦)، فإن قيل: ما الفائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟ يُقال: إن الفائدة هي التنبيه على أنه تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنًا ويخلي بلاده منهم، فإنه جل جلاله قادر على أن ينشئ مكانهم قومًا آخرين، يعمر بهم البلاد، فهو كالتتميم لما قبله نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

١. روح المعاني، للآلوسي، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ الآية.

٢. المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٢م، ص ١٠٨.

يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١٥). وفيه إشارة إلى أنهم قُلعوا من أصلهم ولم يبق أحد من نسلهم لجعلهم آخرين، والله أعلم[1].

- وفي هذه الآية تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أُهلكَ من قبلهم[2].

١. مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ الآية، مرجع سابق.

٢. البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ ، مرجع سابق.

الشبهة الثامنة عشرة

توهم مجانبة القرآن للصواب في تسمية والد سيدنا إبراهيم عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن القرآن لم يوافق الصواب في ذكر اسم والد إبراهيم عليه السلام، حيث قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (الأنعام: ٧٤)، والتاريخ يقول: إن والد إبراهيم اسمه **تارح**، وليس **آزر**، كما جاء في سفر التكوين ١١ : ٢٧(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في نسب إبراهيم عليه السلام أنه: إبراهيم بنُ تارح بنِ ناحورَ بنِ سروج بن رَعو بنِ فالج بنِ عابر بن شالح بنِ افكشاذ بنِ سام بن نوحَ عليه السلام. فاسم أبيه تارح.

وقد زعم بعض المشككين في القرآن أن كتاب الله الذي "**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**" قد أخطأ في ذكر والد إبراهيم عليه السلام، فسماه **آزر**، وذلك في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ. . . ﴾ (الأنعام: ٧٤)، وهذا في زعمهم مخالف للصواب، والصواب لديهم أن يقال: **لأبيه تارح**، وحجتهم في هذه الشبهة الباطلة ورود اسم والد إبراهيم في سفر التكوين ١١:٢٧ أنه: **تارح**.

(*) www.islameyat.com – www.ebnmaryam.com

(**) يقول الألوسي: في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ ؛ أي: اذكر يا محمد لهؤلاء الكفار، بعد أن أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع ولا ضر، وحققت أن الهدى هو هدى الله تعالى، وما يتبعه من شؤونه تعالى ـ فاذكر ـ وقت قول إبراهيم عليه السلام موبخًا. لأبيه آزر على عبادة الأصنام، فإن ذلك مما يبكتهم، وينادي بفساد طريقتهم. (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، عند قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (الأنعام: ٧٤).

وهذا الزعم مردود من وجوه:

١) قيل: إن **آزر** اسمٌ لعم إبراهيم وليس اسمًا لوالده.

٢) وقيل: إن **آزر** لقبٌ لوالد إبراهيم، وليس اسمًا له.

٣) وقيل: إن **آزر** صفةٌ، وليس اسمًا على الإطلاق.

٤) وقيل: إن لوالد سيدنا إبراهيم اسمان علمان، أحدهما: **آزر**، والآخر: **تارح**، وعليه فلا خطأ أبدًا في إطلاق أحدهما عليه دون الآخر، وبهذا ينكشف الوهم عن المتوهمين وتتضح الرؤية لهم.

التفصيل:

أولاً. قيل: إن **آزر** اسم لعم إبراهيم، وليس اسمًا لأبيه؛ فكلمة **الأب** من المشترك اللفظي إذ تستخدم للوالد والعم والجد، فلو أطلق دون تقييد بعده؛ فهو للوالد فقط، ولو قيد بذكر اسم بعده لانصرف إلى العم أو الجد، ومما يقوي ذلك ما يسمى بالمجاز اللغوي، والذي يراد به استعمال لفظ مكان لفظ لعلاقة التشابه بينهما، فآزر يراد به العم على سبيل المجاز؛ لأن له من الفضل عليه ما للأب.

والقرآن صريح في أن الأبوه تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه، وتطلق على أخي الوالد، أي: العم، والدليل على ذلك أن القرآن قال في موضع آخر: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾** (البقرة: ١٣٣)[1].

فأطلق لفظة **آباء** وهي جمع أبٍ على **إبراهيم** وإسماعيل وإسحاق، وهو يعلم أن إبراهيم جده، وإسماعيل عمه، وإسحاق أبوه، ومن ثم نفهم أن أبوة إسماعيل

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٦، ص ٣٧٣٣، بتصرف يسير.

ليعقوب إنما هي أبوة عمومة؛ لأن يعقوب بن إسحاق، وإسحاق أخو إسماعيل، لذلك أطلق الأب وأريد به العم: ويدلنا الرسول ﷺ على ذلك حينما أخذ عمه العباس أسيرًا في **بدر** فقال: "ردوا علي **أبي**، وأراد عمه العباس".

فلو قال الحق في كل آيات القرآن بالنسبة لإبراهيم كلمة "لأبيه"؛ لانصرف الأمر إلى أبيه الحقيقي بيد أنه قيد ذكر أبيه بعلم، ولا يؤتي بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد العم[1].

إذن فلا وجه لاتهام القرآن بالخطأ في تسمية والد إبراهيم، إذا كان هذا الاسم وهو **آزر** يطلق على عمه وليس أبيه المباشر، فالعم كالأب في إمكان إطلاق اسم الأبوة عليه، وكذلك الجد، وليس هذا بكلام غريب على العربية.

ثانيًا. قيل إن آزر لقبٌ لوالد إبراهيم، وليس اسمًا له، فاسم أبي إبراهيم : **تارح**، وهذا لاختلاف بين النسابين فيه، وآزر لقبٌ لأبيه، مثل يعقوب الملقب بـ **إسرائيل** [2]، وجاء في قصص القرآن: اسم والد إبراهيم: تارح بن ناحور بن سروج بن راعو بن فالج بن عابر بن شالح بن افكشاد بن سام بن نوح ؛ ولقب تارح: **آزر** [3].

ومما يؤكد ذلك ما جاء في تفسير القرطبي: أن آزر أبو إبراهيم ، وهو **تارخ**، مثل إسرائيل ويعقوب؛ فيكون له اسمان، حيث قال **مقاتل**: آزر لقب، وتارح اسم،

---

١. قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار القدس، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ٨٢.

٢. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، م ٤، ج٧، ص ٣١١.

٣. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

ويجوز أن يكون العكس[1]، وعلى ذلك فإن الخطاب في الآية وجه للقب والد سيدنا إبراهيم.

هذا وقد رجَّح صاحب المنار أن تارح لقب، وآزر هو الاسم، يقول: وأقواه أن له اسمين: أحدهما علم، والآخر لقب، والظاهر حينئذٍ أن يكون تارح هو اللقب، وقد سوَّغ وجهة النظر تلك بقوله: تارح معناه: المتكاسل، وهو لقب قبيح قلما يطلقه أحد ابتداءً على ولده، وإنما يطلق مثله على المرء بعد ظهور معناه فيه[2].

ثالثًا. قيل إن آزر صفة وليس اسمًا على الإطلاق؛ ولهذا أطلقت الصفة على **تارح** والد سيدنا إبراهيم بدلاً من اسمه في الآية الكريمة:

وآزر: صفة بالفارسية **الخوارزمية**، بمعنى: الشيخ الهرم؛ كما جاء في التحرير والتنوير: أن **آزرْ** وصف، قيل معناه: الهرم بلغة خوارزم، وهي الفارسية الأصلية، وقيل: آزر: الشيخ، وعن **الضَّحاك** أن اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس **آزر**[3].

كما أن **آزر** صفة بمعنى: الأعوج، كما جاء في تفسير القرطبي: أن **آزر** كلمة سب وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج، وهي أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه، وقال الفراء: هي صفة ذم بلغتهم، كأنه قال يا مخطئ[4]، وجاء عن سليمان التيمي: **الآزر** كلمة سب في لغتهم، بمعنى المعوج، أي: المعوج عن طريق الخير[5].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥م، ج٧، ص ٢٢، بتصرف.

٢. تفسير القرآن الحكيم، الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج٧، ص ٥٣٦، بتصرف.

٣. التحرير والتنوير، ابن عاشور، م ٤، مرجع سابق، ج٧، ص٣١، بتصرف يسير.

٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص ٢٢، بتصرف يسير.

٥. الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج٧، ص ٢٢.

وقيل إن آزر مشتق من القوة؛ لأن الأزر بمعنى القوة؛ كما قال الجوهري: آزر اسم أعجمي، وهو مشتق من آزر فلان فلانًا. إذا عاونه، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام، وقيل مشتق من القوة، والأزر القوة.

ومما سبق نستخلص أن آزر إن كانت واردة بمعنى الصفة في القرآن الكريم، فليس في هذا الكلام خطأ في ذكر أبي إبراهيم بها.

رابعًا. حتى وإن قيل: إن آزر هو اسم لأبي إبراهيم، فما المانع أن يكون لأبيه اسمان علمان يطلقان عليه، وكلاهما صحيح، فقد جاء في قصص الأنبياء: أنه: "لعل لوالد إبراهيم ﷺ اسمان علمان: تارح وآزر"[1].

ومما يؤكد ذلك ما جاء في المنار: قال "البخاري في التاريخ الكبير" **إبراهيم بن آزر**، وهو في التوراة تارح، والله سماه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليُعرف بذلك، وعقَّب صاحب المنار على كلام البخاري قائلاً: "فقد اعتمد أن **آزر** هو اسمه عند الله، أي: في كتابه، والقرآن هو المهيمن على ما قبله، نصدِّق ما صدَّقه، ونكذِّب ما كذَّبه"[2]، وعلى هذا يكون له اسمان علمان هما تارح في التوراة وعند النسابين، وآزر كما جاء في القرآن.

وإطلاق اسمين علمين على شخص واحد أمرٌ شائع ومعروف ـ حتى ـ في عصرنا هذا نألفه ونعرفه عند كثير من الناس، ولا يستنكره أحد، فيطلق على الإنسان اسم في شهادة ميلاده، يعرف به رسميًّا، ويطلق عليه الآخر في التعامل المباشر مع الأهل والأصحاب.

---

١. قصص الأنبياء: للإمام الحافظ ابن كثير، تحقيق محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ص ١٠٤.

٢. تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٧، ص ٥٣٦، بتصرف.

وقد قيل كذلك: إن آزر اسم الصنم الذي كان يعبده: كما جاء عن **مجاهد**؛ قال: آزر لم يكن بأبيه، ولكنه اسم صنم، وقيل: اسم أبيه تارح، واسم الصنم آزر، وعن ابن عباس: آزر الصنم، وأبو إبراهيم: يازر[1].

وفي التحرير والتنوير: آزر اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلُقِّبَ به، وأظهر منه أن يقال: إنه الصنم الذي كان أبو إبراهيم سادن بيته[2].

وقيل كذلك: إنه من الممكن أن يكون أهل حارّان دعوه آزر حينما خرج مهاجرًا إلى هناك؛ لأنه جاء من صقع آزر.

وهذا هو الذي رجحه صاحب التحرير والتنوير، إذ قال: والذي يظهر لي أن تارح لُقِّب في بلد غربة بلقب **آزر** باسم البلد الذي جاء منه، ففي معجم ياقوت - آزر - بفتح الزاي وبالراء - ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز، وفي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة أن بلد تارح أبي إبراهيم هو **أورالكلدانيين**.

وفي معجم ياقوت **أور** بضم الهمزة، وسكون الواو - من أصقاع رامهرمز من خوزستان، ولعله هو أورالكلدانيين أو جزء منه أضيف إلى سكانه. وفي سفر التكوين أن **تارح** خرج هو وابنه إبراهيم من بلده أورالكلدانيين قاصدين أرض كنعان، وأنهما مرا في طريقهما ببلدة **حاران** وأقاما هناك، ومات تارح في حاران، فلعل أهل حاران دعوه آزر؛ لأنه جاء من صقع آزر[3].

إذن من كل ما سبق نستخلص أن إطلاق **آزر** على أبي إبراهيم ليس بخطأ على الإطلاق، سواء أكان المقصود عمه، أم كان اللفظ يراد به اللقب لأبيه، أو

---

١. تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق، ص ٥٣٦.

٢. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، م٤، ج٧، ص ٣١١.

٣. التحرير والتنوير، ابن عاشور، سابق، ص ٣١٢، ٤٢، ج ٧.

الوصف، أو حتى الاسم العلم الدال على أبيه، فهو اسم مع اسم ثانٍ له، ففي كل الأحوال لم يخطئ القرآن في وصف أبيه بآزر، ولا تناقض في ذلك مع ما ثبت تاريخيًا من أن اسم والد إبراهيم ﷺ هو تارح.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ دلالة حذف، حيث استخدم المولى لـ **إذا** الظرفية، وهي تدل على محذوف، والتقدير واذكر جيدا يا محمد الوقت الذي قال فيه إبراهيم لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ [1].

- الاستفهام في ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾، استفهام إنكار وتوبيخ، والظاهر أن المحكى في هذه الآية موقف من مواقف إبراهيم مع أبيه، وهو موقف غلظة، فتعيَّن أنه كان عندنا أظهر أبوه تصلبا في الشرك، وهو ما كان بعد أن قال له أبوه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾، وهو غير الموقف الذي خاطبه فيه بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾ (مريم: ٤٢) [2].

وقد تضمَّن ما حكى من كلام إبراهيم لأبيه أنه أنكر عليه شيئين:

- **أحدهما:** جعْله الصور آلهةً مع أنها ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية.
- **وثانيهما:** تعدد الآلهة ولذلك جعل مفعولي **تتخذ** جمْعَيْن، ولم يقل: أتتخذ الصنم إلها.[3] وجملة: ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ مبيِّنة للإنكار في جملة: ﴿

١ . تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، ص ٣٧٣٢، بتصرف.

٢ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج٤، ص ٣١٣.

٣ . المرجع السابق، ج٤، ص ٣١٣.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، وأكد الإخبار بحرف التأكيد، لما يتضمَّنه ذلك الإخبار من كون ضلالهم بيِّنا. (١)

١ . السابق، نفس الصفحة.

الشبهة التاسعة عشرة

توهُّم اضطراب القرآن في استخدام حروف الجر (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين أن هناك اضطرابًا في استخدام حروف الجر، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقوله ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فتارةً يستخدم الكَسْب مع **على** وتارةً مع **اللام**، وعليه فإن الكَسْب في الآية الأولى على النَّفس، وفي الثانية لها، وهذا في ظنهم تناقض. (**)

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في حروف المعاني أي: حروف الجر اختلاف معانيها لاختلاف دلالاتها وقد يأتي بعضها بمعنى بعض فيحلُّ محلها. وغير المتأمل في هاتين الآيتين قد يظن أن القرآن اضطرب في استخدام حرفي الجر **اللام** و**على** في الآيتين، ويمكن إبطال هذا التوهُّم من وجوه، منها:

١) أن الفعل **كسب** يأتي في سياق الخير، وأما الفعل **اكتسب** فيأتي في سياق الشر، واللام في **لها** تفيد الملكية والاختصاص؛ لأنها تكسب النفس ثوابًا؛ ولهذا جاءت **لها** مع كسب، وجاءت **عليها** مع اكتسبت في آية البقرة.

---

* البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، محمد أبو النور الحديدي، مكتبة الأمانة.

** يقول صاحب الصفوة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾: أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها. وفي معنى الآية الثانية: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾: أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر.

٢) أن الكسب أمر طبيعي لا يحتاج إلى جهد ومشقة، أما الاكتساب فيحتاج إلى جهد ومشقة؛ لأن **اكتسب** على وزن **افتعل**. أي: تكلّف فعل الشيء، وكما هو معلوم؛ فالزيادة فى المبنى تستتبع زيادةً في المعنى، وهكذا كل أفعال الشر تأتي اكتسابًا لا كسبًا.

التفصيل:

أولاً. أن الفعل **كسب** يأتي في سياق الخير والثواب، والفعل **اكتسب** يأتي في سياق الشر، وحرف الجر **اللام** في **لها** يفيد الملكية والاختصاص، أما حرف الجر **على** في **عليها** فيفيد الوزر[1]؛ ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. فعبر عن لفظ الحسنة **بكسب**؛ وذلك لاحتقار الحسنة إلى ثوابها، لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وجاء الفعل **اكتسبت** في السيئة تنفيرًا منها وتهويلاً وتشنيعًا بارتكابها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، فافهم هذا وابن عليه.

ثانيًا. أن **الكسْبَ** أمر طبيعي لا يحتاج إلى افتعال، أما **الاكتسابُ** فيحتاج إلى افتعال وتكلُّف وجهد؛ لأن **اكتسب** على وزن **افتعل** أي: تكلف فعل الشيء، وهكذا كل أفعال الشر تأتي اكتسابًا لا كسبًا، ومن هنا كانت أفعال الشر تحتاج إلى جهد و مشقة؛ ولهذا كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها، وهذا ما تؤكده بقية الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يؤاخذ إنسان بجريرة غيره.

١. تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٢ ص ١٢٤٤.

وهنا وقفة في الأسلوب؛ لأن الفعل **كسب** يعني أن هناك فرقًا في المعالجة الفعلية بينه وبين صيغة **اكتسبت؛** لأن **اكتسب** على وزن **افتعل** أي: تكلُّف فعل الشيء، وقام بفعل أَخَذَ منه علاجًا، أما **كسب** فهو أمر طبيعي. إذن **فكسب** غير **اكتسب** وكل أفعال الخير تأتي كسبًا لا اكتسابًا[1].

وقد وضَّح سيبويه[2] هذا المعنىحين اعتبر أن **كسب** بمعنى: أصاب. وأما **اكتسب** فهو التصرف والطلب، والاجتهاد بمنزلة الاضطراب؛ ومن ثم فقد عدلت الآية في التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف، والاجتهاد والتعمل والاضطراب، والتصرف لأجل تحصيل المعصية، ويناسب ذلك ما في المعصية من مخالفة للأعراف والفطر السليمة، مما يدعو العاصي إلى الاحتيال فيها.

قال جماعة من العلماء: **افتعل** يدل على شدة الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه. وقال الزمخشري: "فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال **(أي: تكلف)**، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه، وأمَّارة به، كانت في تحصيله أَعْمَلَ وأَجَدَّ؛ فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال، وهو **كسب**.

وجاءت العبارة في الحسنات بـ **لها** من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه، ويسر بها. فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ **عليها** من حيث هي أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول: لي مال وعليّ دين، وكما قال المتصدق باللقطة: "اللهم عن فلان فإن أَبى فلي وعليّ".

---

١. تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ٢/ ١٢٤٤.

٢. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

ويمكن التوفيق بين ما ذُكِرَ بحمل الفعل المجرد **كسب** في حق العاصي على معنى إلفه لارتكاب تلك المعاصي، فلم يعد يتكلفها.

أما **اكتسب** فلم تأت فى القرآن الكريم بمعنى كسب الحسنات؛ ومن ثَمَّ لم يرد في القرآن تعبير عن كَسْب الطاعة إلا بصيغة **فَعَلَ**، أما في المعصية فقد عبر: **بفعل** و**افتعل**؛ ليشمل كل معصية سواء ما كان باعتمال وتكلف، واجتهاد ومبالغة، أم ما كان بلا مبالاة ولا تكلف فيه.

ويؤيد ذلك ورود الفعل **كَسَبَ** المجرد؛ فأغلبه يأتي في وصف الكافرين أو الفاسقين الذين تجرأوا على المعصية فصاروا لا يبالون بها. أما الفعل **اكتسب** فلم يأت في القرآن إلا في أربعة مواضع: اثنان منها في آية واحدة يتحدثان عن اكتساب المال، وهما: قوله تعالى: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾**(النساء: ٣٢).

وواضح أن اختيار صيغة **افتعل** في هذا الموضع مناسب لاكتساب المال، وما يلزم له من تصرف واجتهاد وكلفة.

أما الموضعان الآخران: فهما آية البقرة: **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**، والحديث فيها في حق من يُفْتَرض فيه امتثاله للشرع، واستجابته لتكليفه بدليل ما قبلها **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾**، فهي في حق المؤمن بهذا التكليف؛ حيث لا يُقْدِم على المعصية إلا بتكلف ومراودة لنفسه التي تتأبى على العصيان، ولا يحملها عليه إلا غلبة الشهوة والهوى، فكأن نفس المؤمن لا تُقدم على المعصية إلا بنوع تردد وتكلف، بخلاف نفس الكافر والفاجر الذي جرؤ على المعاصي[1].

١. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، ص ١٣٢.

وأما الموضع الأخير فهو قوله تعالى في جزاء من خاض في عرض عائشة رضى الله عنها: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾(النور:١١)، وهؤلاء الذين خاضوا في عرضها ليسوا كفاراً؛ بل هم من المسلمين بدلالة قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾(النور:١١). وإن كان الذى تولى كبره منافقًا فإنه مسلم في الظاهر كذلك، والخطاب إنما يراعى فيه الأغلب وهم جماعة المؤمنين، ومن ثم جاء التعبير عن اكتساب المعصية هنا بصيغة: **افتعل**؛ مناسبةً لحال هؤلاء المسلمين الذين ضَعُف إيمانهم وزلّت ألسنتُهم، فخاضوا مع ذلك المنافق في عرض أم المؤمنين؛ فهم لم يقدموا على تلك القولة الشنيعة مع ما عندهم من إسلام وتعظيم لبيت النبوة إلا بقدر كبير من التكلف والتحرج والاعتمال. أما ذلك المنافق فقد أقدم عليها بملء فيه ملتويًا في قيلها متصرفًا فيها، مبالغًا فيها أشد المبالغة، ومن ثم فقد ناسب صيغة **افتعل** بدلالتها على التكلف والاعتمال والمبالغة والاجتهاد ـ حال الفريقين من المسلمين والمنافقين الخائضين في عرض أم المؤمنين ـ أتم المناسبة[1].

وإذا قال قائل: أناس يعتادون السيئات، ولم تعد تكلفهم شيئًا، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسبًا. قلنا: من الحمق أن تقول: هذا كسب؛ لأنه على النفس وليس لها[2].

١. الإعجاز الصرفي، مرجع سابق صـ ١٣٢.
٢. تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٢٤٥.

الشبهة العشرون

توهُّم مجيء الفعل مذكّرًا مرة ومؤنّثًا أخرى مع فاعل واحد(*)

مضمون الشبهة:

زعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم لم يراعِ المطابقة بين الفعل وفاعله في التذكير والتأنيث، ويستدلون على ذلك بمجيء الفعل **حَقَّ** مذكّرًا مرة، ومؤنّثًا أخرى، مع أن الفاعل واحد في الموضعين وهو: **الضَّلالة**، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (الأعراف: ٣٠)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل:٣٦)(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الفعل أن يوافق فاعله ويطابقه في التذكير والتأنيث.

وغير المتدبر في قواعد اللغة يظن في قوله ﷻ: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ تناقضًا؛ حيث جاء الفعل في الآية

*. www.quartos.org.lb

**. يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ، أي: ثبتت لهم الضلالة ولَزموها، ولم يُقلعوا عنها، وذلك أن المخاطبين كانوا مشركين كلهم، فلما أمروا أن يعبدوا الله مخلصين، افترقوا فريقين: فريقًا هداه الله إلى التوحيد، وفريقًا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد. (التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للتوزيع والنشر، تونس، م ٥، ج٧، ص ٩٠.

وليست الهداية والإضلال محض صدفة؛ فكما يقول صاحب الظلال:

ولقد هدى الله من جعل ولايته لله، وأضل من جعل ولايته للشيطان، وها هم أولاء عائدون فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ها هم أولاء عائدون في لمحة طرفي الرحلة، على طريقة القرآن، التي يتعذر أن تتحقق في غير أسلوب القرآن (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط الشرعية ١٣، سنة ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ ج٣، ص ١٢٨١).

الأولى مذكرًا ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾، وجاء في الآية الثانية مؤنثًا ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾، وقد حكم المدعون على الآية الأولى بالاضطراب؛ لتذكير فعلها مع الفاعل المؤنث، وقالوا: إن الصواب فيها: (فريقًا **حقت** عليهم الضلالة).

وهذا تازعم مردودٌ عليه من وجهين:

١) أن الفعل **حق** في قوله ﷻ: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠) مجردٌ من تاء التأنيث؛ لأن فاعله **الضلالة** غير حقيقي التأنيث، فالضلالة هنا بمعنى: العذاب، ومعلوم أن الفعل يجوز تأنيثه وتذكيره إذا كان الفاعل مؤنثًا مجازيًا.

٢) أن التاء لم تلحق الفعل **حق** للفصل بينه وبين فاعله، والكلام على تقدير مضاف عند بعض العلماء، أي حق عليهم كلمة الضلالة، وهي قوله ﷻ: ﴿ضُلُّوا﴾ .

التفصيل:

أولا. إن تذكير فِعْل الفاعل المؤنث ـ كما في قوله ﷻ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ـ له أكثر من سبب في القرآن الكريم، فإذا قصدنا باللفظ المؤنث معنى المذكر جاز تذكيره، وهو ما يُعرف بالحمل على المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦)، ولنا أن نلحظ في كل مرة أتى فيها الفعل **حق** مع الضلالة بالتذكير تكون الضلالة بمعنى العذاب؛ لأن الكلام في الآخرة، ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩)، وليس في الآخرة ضلالة بمعناها؛ لأن الأمور كلها تنكشف في الآخرة، وعندما تكون الضلالة بالتأنيث يكون الكلام في الدنيا، فلما كانت الضلالة بمعناها الحقيقي، أُنث الفعل **حق** مع فاعله **الضلالة** في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

ثانيًا. إن اللغة تقول بجواز المخالفة بين الفعل وفاعله تذكيرًا وتأنيثًا، إذا فُصل بينهما بفاصل، وذلك بخلاف إن باشر الفعل فاعله بدون فاصل، فالمطابقة هنا لا خلاف عليها، والآية التي نحن بصددها من قبيل الفصل والوصل.

وقد حكى الألوسي في تفسيره أن الفعل **حق** لم تلحق به تاء التأنيث في سورة الأعراف للفصل، والكلام على تقدير مضاف عند بعض : أي حق عليهم كلمة الضلالة، وهي قوله ﷻ: ﴿ضُلُّوا﴾ [1]، وعليه فنحن نلتمس العذر لمن توهم هذا الخطأ؛ لأنه خفي عليه أيسر قواعد العربية، وهو جواز تأنيث الفعل وتذكيره إذا كان الفاعل مؤنثًا مجازيًّا، أو فُصِل بين الفعل وفاعله بفاصل.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

لماذا جاءإسناد الهدى إلي الله، ولم يأت مقابله: وفريقًا أضلَّ؟

يرد صاحب البحر المحيط على هذا السؤال فيقول: جاء إسناد الهدى إلى الله، ولم يأت مقابله: **وفريقًا أضل**؛ لأن السياق سياق نهى عن أن يفتنه الشيطان، وإخبار أن الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، وأمر بالقسط

١. روح المعاني: تفسير الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، المكتبة الشاملة، عند تفسير قوله ﷻ: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠).

وإقامة الصلاة، فناسب هذا السياق أن لا يسند إليه ﷻ الضلال، وإن كان ﷻ هو الهادي وفاعل الضلالة، فكذلك عَدَلَ إلى قوله: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ .[1]

وفي الآية نكتة لطيفة، وهي أن الله ﷻ قدم في قوله ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩)، المشبه به على المشبه؛ لينبه العاقل على أن قضاء الشؤون لا يخالف القدر والعلم الأزلي مطلقًا.

١. البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، عند تفسير هذه الآية.

الشبهة الحادية والعشرون

ادّعاء اضطراب القرآن في الإخبار بالمذكر عن المؤنث(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المشككين أنَّ القرآن الكريم لم يراع المطابقة بين المبتدأ وخبره؛ فأخبر بالمذكر عن المؤنث، وهذا يخالف قواعد اللغة التى توجب المطابقة بين المبتدأ والخبر فى التذكير والتأنيث، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: ١٧)، فكلمة قريب فى الآيتين خبر لـ إنّ ولـ لعلّ على الترتيب، وقد جاءت مذكرة مع أنها خبر لمبتدأ مؤنث، والصواب في ظنّهم أن يُقال: إنّ رحمة الله قريبة، ويُقال: لعلّ الساعة قريبة بالتاء المربوطة (**).

---

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر. الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن، مجمع البحوث الإسلامية، دار السعادة للطباعة، مصر، ٢٠٠٣م. رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ.

www.ebnmareyam.com. www.islameyat.com.

**. يقول صاحب المنار في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: لا تفسدوا في الأرض بعمل ضائر، ولا بحكم جائر، مما ينافي صلاح الناس في أنفسهم، وعقولهم، وعقائدهم، وآدابهم الشخصية والاجتماعية، أو في معايشهم، بعد إصلاح الله ﷻ لها بما خلق فيها من المنافع، والإصلاح الأعظم: إصلاح حال البشر بهداية الدين، وإرسال الرسل: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: ادعوه خائفين، أو ذوي خوف من عقابه إياكم على مخالفتكم لشرعه؛ وطامعين في رحمته وإحسانه في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إن رحمته ﷻ الفعلية التي يعبر عنها بالإحسان قريبة من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن في العبادة، نال حسن الثواب، ومن أحسن في أمور الدنيا، نال حسن النجاح، ومن أحسن في

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الخبر المفرد أن يوافق المبتدأ ويطابقه في أمرين من خمسة:

النوع: التذكير أو التأنيث، العدد: الإفراد أو التثنية أو الجمع. كما في: "إن الشجرة مثمرة"، فقد توافق الخبر **مثمرة** مع المبتدأ اسم إن **الشجرة** في أمرين هما (النوع: التأنيث، والعدد: الإفراد) وبتطبيق هذه القاعدة على الآيتين الكريمتين، قد يُتصورَ بالنظرة العَجلى أن بالآيتين مخالفةً للقاعدة اللغوية المشروحة؛ حيث يُظن أن الخبر فيهما وهو كلمة **قريبٌ** قد خالف المبتدأ اسم إن **رحمت** في الآية الأولى، واسم لعل **الساعة** في الآية الثانية في النوع، والأَوْلى فى زعمهم أن يُقال: إن رحمت الله **قريبة**، ولعل الساعة **قريبة**، حتى يتم الاتفاق في النوع، ومن هنا توهم بعض المغالطين أن القرآن الكريم به أخطاء لغوية، ومثّلوا بهاتين الآيتين، وللغويين والبلاغيين وجوه فى توجيه هذه المخالفة وإزالة هذا اللبس، منها:

١) تأتي لفظة قريب للدلالة على قرابة النسب، أو قُرب المسافة. فإن وردت بمعنى قرابة النسب؛ تؤنث بلاخلاف، أما إن دلت على قُرب المسافة - كما في الآيتين -؛ فيجوز فيها التذكير والتأنيث.

٢) قريب صيغة مبالغة على وزن فعيل وهي تأتي على ضربين:

الدعاء استجيب له. (تفسير المنار، الإمام محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ج٨، ص ٤٦٠، ٤٦٢).

ويقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى:١٧): لقد بيَّن الله تعالى أن حُجَّة المشركين داحضة، ومن جملة مُحاجَّة المشركين في الله، وأشدها تشغيبًا - في زعمهم - محاجتهم بإنكار البعث؛ فبيَّن أن البعث حق، فكيف لا يقدِّره مدبر الكون ومنزِّل الكتاب والميزان؟! (التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، م١٢، جـ ٢٥، صـ ٦٧، بتصرف).

أحدهما: بمعنى فاعل كقدير، وسميع، وعليم.

والثاني: بمعنى مفعول كقتيل، وجريح، وكحيل.

فإذا أتت بمعنى **فاعل**، فحقُّها إلحاق تاء التأنيث مع المؤنث دون المذكر؛ كجميل وجميلة، وشريف وشريفة، وصبيح وصبيحة، وصبي وصبية، ومليح ومليحة، وطويل وطويلة ونحو ذلك.

وإذا أتت بمعنى **مفعول** فلا تخرج عن حالين:

- إما أن تكون الصفة مصاحبة للموصوف، أو منفردة عنها؛ فإن كانت الصفة مصاحبة للموصوف، استوى فيها المذكر والمؤنث؛ تقول: رجل قتيل، وامرأة قتيل، ورجل جريح، وامرأة جريح.
- وإن لم تكن الصفة مصاحبة للموصوف، فإنها تؤنث، إذا جَرت على المؤنث، نحو قتيلة بني فلان. وهذا المسلك هو أقوى مسالك النحاة في توجيه الآية .

٣) لو تتبعنا المبتدأ وخبره في الآيتين لوجدنا أن كلاً منهما يجوز فيه التذكير والتأنيث:

- فالمبتدأ اسم إن **رحمة**، واسم لعل **الساعة** من قبيل المؤنث المجازي لا الحقيقي، ومعلوم في الاستعمال اللغوي أن المؤنث المجازي يجوز تأنيث خبره وصفته على حد سواء.
- أما الخبر **قريب** فهو من الألفاظ التي يستوي فيها التذكير والتأنيث، ومهما يكن فالمطابقة بين المبتدأ وخبره في الآيتين جائزة.

٤) ولو أمعنا النظر في تأويل المبتدأ وخبره، لتبين لنا مطابقة أحدهما للآخر بما ينفي توهم المخالفة بينهما:

- فقد يكون المبتدأ في الآية الأولى **رحمة**: على تأويل الترحُّم، وفي الآية الثانية **الساعة**: على تأويل البعث؛ وكلاهما يصح الإخبار عنه بالمذكر **قريب**.

• وقد يكون خبر المبتدأ مذكرًا محذوفًا تقديره: شيء أو أمر، وقريب: صفته، والتقدير (إن رحمة الله شيءٌ أو أمرٌ قريب) و (لعل الساعة أمرٌ أو شيءٌ قريب).

٥) ومن الوجوه التي أثبتها أهل العلم: أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر، لكونه تبعًا له، ومعنًى من معانيه؛ فإذا ذُكر أغنى عن ذكره، لأنه يُفهم منه.

وقريب من هذا ما ذكره ابن القيم، قال ـ رحمه الله ـ : " إن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين، ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته. ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة. ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين، لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص. فلا تستهن بهذا المسلك، فإن له شأنًا، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب.

فلا مخالفة كما يدعي المتوهمون.

التفصيل:

قبل أن نجيب عن هذه الشبهة، من المفيد أن نقول في البداية: إن كلمة رحمت في الآية التي بين أيدينا، قد كُتبت بالتاء المفتوحة في المصحف الشريف، وليس بالتاء المربوطة، كما هي في الكتابة الإملائية المعتادة؛ وتعليل ذلك: أنها هكذا رُسمت في المصحف العثماني .

إذا تبين هذا، نشرع في الإجابة عن هذه الشبهة، فنقول: إن للعلماء توجيهات عديدة في الإجابة عن هذه الشبهة، بيد أننا نقتصر هنا على أقوى تلك التوجيهات، وأقومها رشدًا، وأقصدها سبيلا، فمن تلك التوجيهات قولهم:

أولاً. تأتي لفظة **قريب** للدلالة على قرابة النسب، أو قُرب المسافة. فإن وردت بمعنى قرابة النسب تؤنث بلا خلاف، أما إن دلت على قُرب المسافة ـ كما في الآيتين ـ؛ فيجوز فيها التذكير والتأنيث.

فالعرب تفرق بين كلمة **قريب** إذا كان المراد بها قرابة النسب، أو المراد بها قرب المسافة، فتُؤَنَّث إذا كانت تدل على قرابة النسب، أو أخبرت عن مؤنث حقيقي التأنيث.

أما إذا كانت بمعنى المسافة المكانية، أو الزمانية، فإنه يجوز فيها الوجهان **(التذكير والتأنيث)**؛ لأنها قائمة مقام المكان والزمان، فنقول: فلانة قريبة وقريب، والتقدير هي في مكان قريب، ودليل ذلك من لغة العرب قول الشاعر **عروة بن حزام**:

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتَدنُوا ولا عَفْراءُ مِنْكَ بَعِيدُ

فقد جمع الشاعر بين الوجهين، التأنيث والتذكير، مع أن الموصوف مؤنث؛ لأن قريب و بعيد أريد بهما قرب المكان وبعده[1].

ولو نظرنا للآيتين الكريمتين: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، نجد أن المراد قرب الزمان، والعرب ـ كما أسلفنا ـ تجيز فيه الوجهين: التأنيث والتذكير. ولامرئ القيس ـ وهو من شعراء الجاهلية، وشعرهم حُجَّة في إثبات اللغة ـ بيت نحا فيه هذا المنحى، يقول:

لَهُ الوَيلُ إنْ أَمْسَى وَلا أُمُّ هَاشِمٍ قَرِيبٌ وَلا البَسْبَاسَةُ ابْنَةَ يَشْكُرا

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ط٢، ص ١٨٧، ١٨٨، بتصرف يسير.

والشاهد من البيت تذكير **قريب** مع جريانه على مؤنث هو: أم هاشم وهو نظير **قريب**[1]، في الآيتين؛ وعليه فليس ثمة مخالفة بين المبتدأ وخبره في التذكير والتأنيث كما يتوهمون.

ثانيًا. إن قريب على وزن فعيل وهي تأتي على ضَربين:

أحدهما: بمعنى فاعل كقدير، وسميع، وعليم.

والثاني: تأتي بمعنى مفعول كقتيل، وجريح، وكحيل؛ كله بمعنى مفعول.

فإذا أتت بمعنى **فاعل** فحقُّها إلحاق تاء التأنيث مع المؤنث دون المذكر؛ كجميل وجميلة، وشريف وشريفة، وصبيح وصبيحة، وصبي وصبية، ومليح ومليحة، وطويل وطويلة ونحو ذلك.

وإذا أتت بمعنى **مفعول** فلا تخرج عن حالين: إما أن تكون الصفة مصاحبة للموصوف، أو منفردة عنها؛ فإن كانت الصفة مصاحبة للموصوف، استوى فيها المذكر والمؤنث؛ تقول: رجل قتيل، وامرأة قتيل، ورجل جريح، وامرأة جريح؛ وإن لم تكن الصفة مصاحبة للموصوف، فإنها تؤنث إذا جرت على المؤنث، نحو قتيلة بني فلان. وهذا المسلك هو من أقوى مسالك النحاة في توجيه الآية. وقد تكون على وزن فعيل: بمعني المصدر، والمصدر على هذا الوزن يُلْتَزم فيه التذكير، وإن جاء خبرًا لمؤنث.

وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير؛ كقوله: ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٧٥). وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، صـ ١٨٨.

ومن ثم فإن كلمة **قريب** في الآيتين، مصدر استُعمل استعمال الأسماء مثل: النقيق، وهو صوت الضفدع، والضغيب وهو صوت الأرنب، لهذا جاز أن يأتي مذكرًا بالرغم من أنه خبر لمؤنث[1]، وأيًا ما كان معنى صيغة اللفظة فقد ثبت فيها لزوم التذكير: إن كانت بمعنى المصدر أو كانت بمعنى المفعول، وعليه فكلمة **قريب** التي في سورة الأعراف ليس المراد منها أن رحمة الله هي التي تَقْرُب من المحسنين؛ فإن الرحمة هي المقروبة، والإحسان هو الذي يقرُب إليها[2].

ثالثًا. إننا لو تتبعنا حكم المبتدأ وخبره في الآيتين لوجدنا أنه مما يجوز فيه التذكير والتأنيث: فالمبتدأ أو اسم إن **رحمة**، واسم لعل **الساعة** من قبيل المؤنث المجازي لا الحقيقي، ومعلوم في الاستعمال اللغوي أن المؤنث المجازي يجوز تأنيث خبره وصفته على حد سواء.

ويرى بعض العلماء أن السر في تذكير كلمة **قريب** في الآيتين، أنها تخبر عن مؤنث مجازي لا حقيقي، فكلمة **رحمة** في سورة الأعراف، وكذلك كلمة **الساعة** في سورة الشورى مؤنثتان تأنيثًا مجازيًّا لا حقيقيًّا؛ وعليه فهما مما يجيز فيه الاستعمال اللغوي تأنيث الخبر والصفة، وتذكيرهما على حد سواء، وهذا ـ كما يقول الحلبي تلميذ أبي حيان، وهما من الأئمة الأعلام في النحو ـ: يجيء على مذهب ابن كيسان في الشعر، وفي النثر كذلك[3].

---

١ . حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق ، مرجع سابق، ص ١٨٧.

٢ . تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٧، ص ٤١٨٢.

٣ . حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق ، ص ١٨٧. وإعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، اليمامة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ص ٣٧١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، ص ٤١٨٢.

أما الخبر **قريب** فهو من الألفاظ التي يستوي فيها التذكير والتأنيث.

ولقد نزل القرآن بلغة العرب، وعند العرب ألفاظ يستوي فيها التذكير والتأنيث؛ فقد جاء استخدام القرآن للألفاظ على غرار استخدام العرب لها، ومن الألفاظ التي تُستخدم للمذكر والمؤنث: (صبور ـ معطاء) فنقول: **"رجل صبور، وامرأة صبور"**، ولا نقول: **صبورة**، ونقول: **رجل معطار** أي يكثر من استخدام العطر، وكذلك **امرأة معطار** للدلالة على المعنى ذاته، ولا نقول: **امرأة معطارة**.

وقد سمحت اللغة بذلك لحكم وعلَّة؛ فنحن حين نقول: **رجل صبور** أو امرأة **صبور**: تُذكِّرها لأن الصبر يقتضي الجَلَد والعزم والشدة، فالتذكير أبلغ وأقوى في الدلالة؛ لذلك لا نقول: **امرأة صبورة**.

وكذلك حينما نتأمل كلمة **قريب** في الآيتين نجدها جاءت على صيغة فعيل التي يستوي فيها المذكر والمؤنث، ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:٤)، فالملائكة لفظها: مؤنث، ولم يقل الحق ﷻ: **ظهيرة**؛ لأن **ظهير** يعني: **مُعِين**، والمعونة تتطلب القوة، والعزم، والمدد[1].

رابعًا. هناك احتمالات وتأويلات قائمة في الآيتين تنفي عنهما توهم المخالفة، منها:

أنه يجوز تذكير كلمة **قريب** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، على تأويل الرحمة **بالرحم**، أو الترحُّم، ـ كما ذكر الزمخشري ـ وأولها آخرون على الإحسان أو الغفران، وقال الأخفش: **الرحمة هنا المطر**.

---

١ . تفسير الشعراوي، مرجع سابق، جـ٧، ص ٤١٨١.

أما في سورة الشورى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فقد أوّلوا الساعة: **بالبعث** أو **الحشر**، وكلاهما مذكر؛ ومن ثَمَّ فلا وجه للخطأ في تذكير كلمة قريب في الآيتين.

وقد ذكر **العلماء** أن كلمة **قريب** في الآيتين صفة لخبر مذكر محذوف، تقديره في آية الأعراف: إن **رحمة الله شيء** أو **أمرٌ قريب**، وفي سورة الشورى تقديره: لعل **الساعة أمر أو وقتٌ** أو **واقعٌ قريب**، ودليل تقدير هذا المحذوف في الآيتين هو تذكير **قريب**[1].

خامسًا. وثمة توجيه آخر للآية حاصله:

أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعًا له، ومعنًى من معانيه؛ فإذا ذُكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يُفهم منه. ومنه على أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (الشعراء:٤)، فاستغني عن خبر **الأعناق** بالخبر عن أصحابها. ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (التوبة:٦٢)، فالمعنى عليه: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك. فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله، إذ إرضاؤه هو إرضاء لرسوله، فلم يقل: يرضوهما. فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله **قريب** من المحسنين، وإن رحمة الله **قريبة** من المحسنين، فاستُغْنِيَ بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوَّغ ذلك ظهور المعنى.

وقريب من هذا ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بدائع الفوائد بعد كلام نقله عن بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فعلى هذا

---

١ . حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ١٨٧، بتصرف يسير.

يكون الأصل في الآية: **إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين،** قلت: ففي الآية ما يشبه الاحتباك، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى.

والذي ينبغي أن يعبر عنه به: أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها، فإذا كانت **قريبة** من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين.

فالرب تبارك وتعالى **قريب** من المحسنين ورحمته **قريبة** منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته؛ ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين قربه وقرب رحمته، ولو قال: إن رحمة الله **قريبة** من المحسنين؛ لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يسلتزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته.

فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأناً وهو متضمِّن لسر بديع من أسرار الكتاب.

وإذا كان المعنيان متلازمين صح إيراد كل واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان، واستدعائه من النفوس، وترغيبها فيه غاية حظ.

فكان في العدول عن **قريبة** إلى **قريب** من استدعاء الإحسان، وترغيب النفوس فيه ما لا يتخلف بعده، إلا من غلبت عليه شقاوته، ولا قوة إلا بالله تعالى.

وبعد هذه المطارحة، فلا وجه لما تُوهِّم في الآيتين من خطأ.

الأسرار البلاغية في الآيتين الكريمتين:

إننا لنعجب حقًّا من حال هؤلاء الذين تجرأوا، واتهموا القرآن بالخطأ؛ لأنه ـ في ظنهم ـ ذكَّر ما يستحق التأنيث في الآيتين، وهو كلمة **قريب**، فعلى حين يصفون أنفسهم بالحيادية، والإنصاف، في حكمهم على القرآن الكريم، نجدهم لا يقفون إلا أمام ما يظنُّونه خطأ في القرآن الكريم، وهو ليس كذلك، ويا ليتهم أطالوا الوقوف والتأمل، حتى يتبيَّن لهم ما إذا كان ظنُّهم صوابًا، أم أن في الأمر سرًّا من أسرار اللغة، أو ملمحًا من ملامح البلاغة، التي لا يدركها ويعترف بها إلا رشيد لا يبتغي غير الحقيقة، ففي الآيتين الكريمتين تجد الكثير من الملامح البيانية، والأسرار البلاغية ونحن إذا تأملنا قوله ﷻ: **﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**(الأعراف: ٥٦) نرى:

- قوله ﷻ: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** مجاز مرسل علاقته الكلية؛ حيث ذكر الكل الأرض وأراد الجزء **(الذي هو مكان إفسادهم)**، والسر في ذلك تفظيع الفساد؛ لأنه وإن كان في جزء معين من الأرض؛ إلا أنه بمثابة الإفساد في الأرض كلها؛ لأنه تشويه لمجموعها[1].

- قوله ﷻ: **﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾**، دليل على أن الله ﷻ قد خلق الأرض من أول أمرها على صلاح، وهذا يبيِّن إكرام الله للإنسان، فقد أصلح له الأرض، ثم استخلفه فيها، وكذلك التصريح بالبَعدية هنا **﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** ، تسجيل لفظاعة الإفساد؛ لأنه إفسادٌ لما هو نافع، فلا معذرة لفاعله، ولا مساغ لفعله عند أهل الأرض.

١ . التحرير والتنوير، محمد طاهر بن عاشور، مرجع سابق، بتصرف يسير.

• وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: جملة واقعة موقع التفريع عن جملة **وادعوه**؛ فلذلك قُرنت بـ **إنّ** الدالة على التوكيد؛ وهو لمجرد الاهتمام بالخبر، إذ ليس المخاطبون بمترددين في مضمون الخبر، ومن شأن **إنّ** إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التعليل، وربط مضمون جملتها بمضمون الجملة التي قبلها؛ فتغني عن فاء التفريع؛ ولذلك فُصِلَت الجملة عن التي قبلها فلم تُعطف لإغناء **إنّ** عن العاطف.

• دل قوله: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على: مقدَّر في الكلام، أي: وأحسنوا؛ لأنهم إذا دعوا خوفًا وطمعًا، فقد تهيأوا لنبذِ ما يُوجب الخوف، واكتساب ما يوجب الطمع، ويتحقق ذلك بالإحسان في العمل، ويلزم من الإحسان ترك السيئات، فلا جرم أن تكون رحمة الله قريبًا منهم، وسكت عن ضد المحسنين رفقًا بالمؤمنين، وتعريضًا بأنهم لا يظن بهم أن يسيئوا فتبعد الرحمة عنهم[1]، أما قوله ﷻ في سورة الشورى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. ففيها العديد من الوجوه والأسرار البيانية، منها:

• قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾: تمهيد لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وهو يُؤذن بمقدَّرٍ يقتضيه المعنى، تقديره: فجعل الجزاء للسائرين على الحق، والناكبين عنه في يوم الساعة، فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وهذه الجملة موقعها من الآية السابقة لها: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى: ١٧)، موقع

١ . المرجع السابق، ج٩، صـ ١٧٦، ١٧٧.

الدليل، والدليل: من ضروب البيان؛ ولذلك فُصِلَت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى.

- **الميزان** هنا مستعار للعدل والهدي، بقرينة قوله: **أَنْزَلَ** فإن الدين هو المُنْزَل، والدين يدعو إلى العدل والإنصاف، فشُبِّه الدين بالميزان في تساوي رجحان كفتيه.
- كلمة: **وما يدريك** فإنها جارية مجرى المثل، والكاف منها خطاب لغير مُعيَّن بمعنى: قد تدري، أي: قد يدري الدَّاري، وسر استعمال **ما** الاستفهامية: التنبيه والتهيئة، و **يدريك** من الدراية بمعنى العلم، وقد عُلِّق فعل **يدري** عن العمل بحرف الترجِّي **لعل**.

فإن قيل: لكن لِمَ قال تعالى: **وما يدريك** ولم يقل: **وما أدراك**؟! كان الجواب كما قال ابن عباس: لأن كل ما يأتي من الكلام بعد الفعل **ما أدراك** فقد أعلمه الله به، أي: بينه له نحو: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾ (القارعة:١٠، ١١)، وكل ما جاء فيه **وما يدريك** لم يُعْلِمْهُ به، أي: لم يعقبه بما يبين إبهامه نحو: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾، ولعل معنى هذا الكلام: أن الاستعمال خَصَّ كل صيغة من هاتين الصيغتين بهذا الاستعمال[1].

وبعد هذا البيان الشافي، وذاك العرض لبعض الأسرار البلاغية في الآيتين الكريمتين، يتبين لنا مدى دقة القرآن الكريم في استخدام التراكيب والألفاظ، مما يبطل حجة من يتوهم أي خطأ في لغة القرآن الكريم.

١ . المرجع السابق، جـ١٢، صـ ٦٨.

الشبهة الثانية والعشرون

توهم اضطراب القرآن في تأنيث العدد وجمع المعدود(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن جانب الصواب في تمييز العدد في قوله ﷻ: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٠)، ويرون أن الصواب تذكير العدد اثني عشر، وليس تأنيثه اثنتي عشرة، وإفراد التمييز سبطًا وليس جمعه أسباطًا؛ فيُقال: اثنى عشر سبطًا بدلاً من اثنتى عشر أسباطًا(**).

وجوه إبطال الشبهة:

---

*. عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م.

الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر.

www.saaid.net.www.Islameyat.com www.answering.islaming

(**) يذكر الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ ، أنهم هم بنو إسرائيل، وهم أولاد سيدنا يعقوب، وكانوا اثنى عشر ولدًا، والحق ﷻ يوضح أنه قطعهم وجعلهم أسباطًا، والسبط هو ولد الولد، ويقول في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (الأعراف: ١٦٠)، وكان ذلك لأنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسبًا للاختلاف فيما بينهم، فجعل الحق ﷻ لكل سبط منهم عينًا يشرب منها؛ ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم بعضًا؛ لأن الحق قال عنهم: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، ويقول: وقطعهم ربنا في الأرض، أي: نشرهم في البلاد، وجعل كل سبط أمة بخصوصها، ويقول في قوله تعالى: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ...﴾ : المراد هنا هو طلب السقيا، والسقيا: هي طلب الماء الذي يمنع عن الإنسان العطش، ويقول في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ ، أن المن: مادة بيضاء اللون، حلوة الطعم، مثل قطرات الزئبق، يجدونه على الشجر، والسلوى هو طير السمان. (تفسير الشعراوي، للإمام محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج٧، ٤٣٩١، ٤٣٩٨).

الأصل فى تمييز العدد المركب اثني عشر أن يأتى مفردًا منصوبًا موافقًا لمعدوده فى نوعه، لكن الناظر في قوله ﷻ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾، يظن مخالفته للقاعدة، حيث يتوهم اضطراب القرآن فى تأنيث العدد وجمع المعدود، والصواب في نظرهم أن يُقال: اثنى عشر سبطًا، ونردُّ على هذا بالتالي:

١) وجَّه بعض النحاة تأنيث العدد ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ في الآية، بأن السبط كالقبيلة، أو الجماعة، أو الفرقة، أو الطائفة، وكل هذه الأسماء مؤنثة؛ ولذلك أنَّثَ جزئي العدد المركب.

٢) ومن التوجيهات التي وضعت في تأنيث العدد ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، أن معدوده (تمييزه) جمع، والتمييز إذا جُمع صار مؤنثًا؛ لأنهم يقولون: كل جمع مؤنث.

٣) وقيل: تأنيث العدد هنا ذهب إلى أممًا، وليس إلى أسباطًا.

٤) قيل: إن أسباطًا ليس تمييزًا للعدد المؤنث ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، وإنما هو بدل من العدد نوعه "بدل كل من كل"، والتمييز هنا محذوف، أي.. اثنتى عشرة فرقة..؛ ولذلك جاء العدد مؤنثاً؛ لأن تمييزه مؤنث.

٥) وجَّه بعض النحاة جمع تمييز العدد المحدود في قوله تعالى: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ ، والذي كان حقه الإفراد، بأنه رُوعي فيه المعنى دون اللفظ، وهو كثير الورود في القرآن الكريم.

التفصيل:

أولاً. وجَّه بعض النحاة تأنيث العدد في الآية الكريمة، بأن السبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، يعني أنه أراد بالأسباط القبائل؛ ولذلك أنَّث جزئي

العدد المركب ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، وقيل: تأويل السبط: الجماعة، أو الفرقة، أو الطائفة[1]؛ لذلك تحتَّم تأنيث العدد المركب، قال الشاعر:

وإن قريشًا كلَّها عشْرُ أبطنٍ ... وأنت بريءٌ من قبائِلها العشْرِ

فذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة؛ فلذلك أنثها، والبطن مذكر[2].

ثانيًا. يدل لفظ اثنتي على التأنيث، وعشرة كذلك؛ لأننا نقول: جائني رجلان اثنان، وامرأتان اثنتان، أي: اثنان للذكور، واثنتان للإناث، وكلمة اثنتي عشرة عدد مركب، وتمييزه يكون دائمًا مفردًا؛ ولذلك يقول الحق:﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، وقد أُنث العدد اثنتي عشرة على الرغم من أن المذكور هنا سبط، وهو مذكر، لكن المفرد المذكر إذا جُمع صار مؤنثًا؛ لأنهم يقولون: كُل جمع مؤنثْ، هذا فضلاً عن أن المراد بالأسباط: القبائل ـ على قول من قال بذلك ـ ومفردها قبيلة، وهي مؤنثة[3]

ثالثًا. إن السبط في قوله تعالى: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ ، مذكر لكن بعده أممًا، فذهب التأنيث إلى أممًا، ولو قال: اثنى عشر لتذكير السبط، جاز عند الفراء.

رابعًا. أن أسباطًا ليس تمييزًا؛ لأنه جمع، وإنما هو بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، ونوعه بدل كل من كل، والتمييز محذوف، أي: اثنتي عشرة فرقة، ولو كان أسباطًا

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، أ. د. محمود حمدي زقزوق، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص ١٩٠.

٢. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج٧، ص ٣٠٣.

٣. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج٧، ص ٤٣٩٢، ٤٣٩٣ بتصرف.

تمييزًا عن ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ لذكْر العددان، ولقيل: اثنى عشر بتذكيرهما؛ لأن السبط واحد مذكر من الأسباط، ولا يجوز أن يكون أسباطًا تمييزًا؛ لأنه لو كان تمييزًا لكان مفردًا. وجاء في قول عنترة:

فيهـــا اثنتـــان وأربعـــون حلوبـــة سودًا كخافيـة الغـراب الأسـحم[1]

خامسًا. وجَّه بعض النحاة جمع تمييز العدد المعدود في قوله تعالى: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، والذي كان حقه الإفراد، بأنه رُوعي فيه المعنى دون اللفظ، وهو كثير الورود في القرآن الكريم، ويبدو أن هؤلاء الطاعنين في سلامة القرآن الكريم من الأخطاء، يجهلون هذه الأساليب في القرآن الكريم خاصة، وفي اللغة العربية عامة، ويتشبثون بظواهر العبارات حبًّا في ترويج ما يريدون ترويجه من الشبهات الواهية، ومن أمثلة ذلك في الاستعمال المأثور الوراد عن العرب، قول عنترة:

فيهـــا إِثْنَتـــانِ وَأَربَعـــونَ حَلوبَـــةً سَـــوداً كَخافِيَـــةِ الغُـــرابِ الأَسـحَمِ

فقد وصف الشاعر "حلوبة"، وهي مفرد، بقوله "سودا"، وهو جمع سوداء[2].

الأسرار البلاغية في الآية:

• قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فيه حذفٌ؛

١. إعراب القرآن الكريم، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، بيروت، ج٣، ص ٤٧٧، ٤٧٦.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، مرجع سابق، ص ١٩٠.

حيث حُذفت الجملة المعطوف عليها لظهور معناها، ولسر بلاغي يتجدد بتجدد مقامات الكلام، وقال: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ﴾، ولم يقل: فضرب فانبجست؛ لعدم اللبس، وليجعل الانبجاس مسببًا عن الإيحاء بضرب الحجر، للدلالة على أن الموحَى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر[1].

- قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ بدأت الآية الكريمة بهذا الفعل، قطعناهم، بتشديد الطاء على وزن فَعَّلَ، وهذا التشديد يفيد التكثير، أي: كثرة التقطيع والتفريق، وهذا يناسبه بلاغة جمع ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ لا إفرادهما[2].

وعليه، فلا حجة لهؤلاء المدعين تصمد أمام حجة القرآن الدامغة، وكيف لا، وقد نزل من عند رب الأرض والسماء.

---

١. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، القاهرة، دار التضامن للطباعة، الطبعة الثانية، ص ٤٠٨.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ص ١٩٢، مرجع سابق.

الشبهة الثالثة والعشرون

توهُّم اعتراف القرآن بخَبَل الرسول ﷺ وجنونه(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المغرضين أن القرآن اعترف بخَبَل النبي ﷺ وجنونه في قوله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٨٤، ١٨٥) (**)؛ حيث يفسّرون هذه

(*) الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، مصر.

(**) يقول صاحب الظلال في تفسير قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: إن الله ﷻ استنكر على الكفار أن يصفوا الرسول ﷺ بالجنون دون أن يُعمِلُوا أذهانهم في كلامه ومنهجه؛ فإن الرسول لم ينههم إلا عن كل رذيلة، ولم يأمرهم إلا بكل فضيلة، أهكذا يكون المجانين؟! ثم يقرر ﷻ في عبارة قاطعة أنه ﷺ بريء من أية شبهة جنون، فيقول ﷻ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ، واستخدم سبحانه "ما" النافية العاملة عمل ليس؛ لنفي جنس الجنون عن شخص النبي ﷺ، وتتضح بلاغة الآية في توظيف إمكانيات اللغة، وتوظيف مفرداتها للهدف الذي جاءت من أجله، فاستخدم سبحانه كلمة **صاحبهم** التي تدل على معرفتهم التامة به، وأنهم أعلم الناس بأنه ليس مجنونًا، فالقرآن يدعوهم إلى التفكُّر والتدبُّر في أمر صاحبهم هذا، المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله. أفهذا به جِنَّة ؟ أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ كلا﴿ : مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ، لا اختلاط في عقله ولا في قوله، إنما هو منذر مفصح مبين، لا يلتبس قوله بقول المجانين، ولا تشتبه حاله بحال المجانين. ثم: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ : وهي هزة أخرى أمام هذا الكون العجيب، والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذي يشهد به ، والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير، والنظر إلى ما خلق الله من شيء ـ وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء ـ يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التي أوجدت

الآية بقولهم: هل نسوا ما بصاحبهم من جنَّة، كما نسَوْا أن يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض؟!

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يكون الرسول ﷺ - وأىُّ رسول من الرسل - مُنزَّهًا عن العيب، مُبرَّءًا من النقائص، مُخلَّصًا من كل ما يسلبه أَهْلِيَّته، كالصرع والجنون وما شابه ذلك.

وقد زعم فريق ممن لا يملكون التمكن من فهم اللغة العربية وألفاظها أن القرآن الكريم يقرر جنون الرسول ﷺ وإصابته بالخَبَل.

وزعموا أن ذلك وارد دليله فى قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، ومبعث هذا الوهم الباطل أنهم فهموا أن **ما** فى قوله ﷻ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ هى **ما الموصولة**، وهذا مخالف للمعنى المراد فيها.

ويمكن الرد على هذا الزعم من وجهين:

١) إن تفسير هؤلاء لقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ بمعنى: **هل نسوا** فيه تضليل واقتطاع سيء للسياق؛ إذ إن الآية ختمت بوصف النبي ﷺ بالنذير، ولا يعقل أن يبعث الله نذيرًا لعباده ثم يحكم بخبله أو جنونه؟!

٢) لفظة **ما** فى قوله ﷻ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ نافية بمعنى ليس، وقيل: استفهامية إنكارية، والمعنى على هذا: ليس بصاحبكم من جنة.

هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور .(في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٣١).

التفصيل:

أولاً. إن تفسير بعض هؤلاء لقوله ﷻ: ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا** ﴾ بمعنى: **هل نسوا** تفسير خاطئ، واقتطاع سيئ للآيات عن سياقاتها، وأصحاب الفهم السليم يقرءون الآية كلها، ويفهمون معناها، ولو فكر هؤلاء قليلاً لاستراحوا كثيرًا.

فالآية الأولى بها عبارة: ﴿**مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ**﴾ ، وبها أيضًا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾، فكيف يجتمع الضدَّان؟! ومعلوم في الأمور العقلية المنطقية أن الضدين لا يجتمعان.

فقد أرسل الله ﷻ رسوله ﷺ بالحق؛ ليكون للعالمين نذيرًا وبشيرًا، فهل يعقل أن يبعث الله رسوله، ثم يحكم بجنونه أو بخبله؟! فالمجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكري يصبح غيرَ أهلٍ للتكليف؛ لأن التكليف في اختيار أن تفعل كذا، أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على الترجيح، فكيف يكون ذلك صفة نبيٍّ أرسله الله لهداية الناس؟!

والله ﷻ لا يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله، وعن أبيه وأمه؛ لذلك نلاحظ أن الطفل وهو صغير يختار له والداه الملابس والطعام، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مراهقًا، ويقرر أن يختار لنفسه ما يريده؛ لأنه قد صارت له ذاتية، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات، وفي الحيوان، وفي الإنسان، وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادرًا على إنجاب مثله، سواء أكان هذا الفرد من النبات، أم الحيوان، أم الإنسان.

أما إذا كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير، فهنا يسقط عنه التكليف؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يبلغ، وعن المجنون، وعن المُكْرَه، وهذه عدالة الجزاء من الله تعالى.

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات، فكيف يقولون ذلك عن سيدنا محمد ﷺ، وقد عاش بينهم، ولم يكن قط فاقدًا لميزان الاختيار بين البديلات؟! بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم، حتى وهم كافرون به، وخُلُقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم[1].

فهل يمكن بعد ذلك أن يقولوا عليه: إنه مجنون؟!!

لقد كانوا يقولون عن الرسول ﷺ في حرب الدعاية التي يشنها ضده الملأ من قريش يخدعون بها الجماهير: إن محمدًا به جِنَّة، ومن ثم ينطق بهذا الكلام الغريب، غير المعهود في أساليب البشر العاديين!

ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق في أمر رسول الله ﷺ ، وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن، والتأثر به أعمق التأثر، وقصة الأخنس بن شريق، وأبي سفيان بن حرب، وعمرو بن هشام - أبي جهل - في الاستماع لهذا القرآن خلسة، ليالي ثلاثًا، وما وجدوه في أنفسهم - معروفة.

وكذلك قصة عتبة بن ربيعة، وسماعه سورة "فصلت" من النبي ﷺ وهزته أمام إيقاعاتها المزلزلة.. ومثلها قصة تآمرهم قبيل موسم الحج، فيما يقولون للناس عن النبي ﷺ وما معه من القرآن، كل هذه الروايات تُثبت أنهم ما كانوا جاهلين حقيقة

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج٧، ص ٤٤٩٢، ٤٤٩٣.

هذا الأمر، إنما هم كانوا يستكبرون عنه، ويخشونه على سلطانهم الذي تهدده شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، التي تسلب البشر حق تعبيد البشر لغير الله، وتهدد كل طاغوت بشري على العموم.

ومن ثم كانوا يستغلون تَفَرُّد هذا القرآن العجيب وتميزه عن قول البشر المعهود ؛ كما يستغلون الصورة التي كانت معهودة - فيهم وفيمن قبلهم - عن الصلة بين التنبؤ والجنون والنطق بكلمات ورموز يؤولها المصاحبون لمن بهم جِنَّةٌ وفق ما يريدون ؛ ويزعمون أنها تأتيهم من عالم غير منظور !. كانوا يستغلون هذه الرواسب في التمويه على الجماهير ويزعمون بأن الذي يقوله محمد ، إنما يقوله عن جنة به ؛ وأنه يأتي بالغريب العجيب من القول ، لأنه مجنون! وإن كانوا يعلمون في سرائرهم بطلان هذه الدعوى.

ثانيًا. لفظة (ما) في قوله ﷻ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ تعني: ليس بصاحبكم جنة، فهي نافية، و(ما) في اللغة العربية لها معانٍ كثيرة، منها: أنها نافية عاملة عمل ليس، وهذا المعنى هو المتحقق في الآية الكريمة: إذ المعنى: أولم يتدبروا أمر صاحبهم؛ لقد لبث فيهم أربعين سنة قبل هذا الوحي، وقبل هذه الرسالة، فكان فيهم الصادق المصدوق وما حادثة تحكيمه ﷺ في وضع الحَجَرِ في حِجْر الكعبة منهم ببعيد.

وقيل: إن (ما) استفهامية، والاستفهام هنا إنكاري، وعلى ذلك يكون المعنى: ألم تتدبروا أو تتأملوا أمر صاحبكم، هل به جِنَّةٌ؟ وذلك تقرير من المولى ﷻ للمشركين، من باب المثل المعروف "الحق ما شهدت به الأعداء".

وعلى هذا فليس لهذا الزعم أساس من الصحة: فما كان الله ﷻ أن يتهم خير البشر الذي امتلأ كتابه الكريم ثناءً عليه، ما كان له أن يصفه بالجنون، وهو القائل

عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤)، ولو شاع عن النبي ﷺ الجنون لما آمن به أحد، وما اتبعه أحد؛ ولوجد أصحاب القرن الأول من المتصدين للدعوة في ذلك الأمر السلاح الأعظم لهدم بناء الإسلام من أساسه، وتقويض صرحه قبل أن يتمَّ له الأمر.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ مناسبة بين الفاصلة وما تقدمها، حيث استنكر الله ﷻ على الكافرين وصفهم للنبي ﷺ بالجنون، وهو ﷺ ليس به جِنَّة، ثم يأتي في الفاصلة، وينفي عنه ﷺ كل شيء إلا كونه نذيرًا مبينًا، وقال ﷻ: نذير مبين، ولم يقل: بشير أو داعٍ؛ لأن الكلام هنا في الآية مع الكافرين، فجاء الإنذار ولم يأت التبشير.
- أما قوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾، فالصاحب هو الذي يلازم غيره، وقد آثرها لما فيها من دلالة واضحة على علمهم بحاله ﷺ تمام العلم، فهم أدرى الناس بكمال عقله ﷺ.
- أما مجيء كلمة **مبين** وصفًا للنذير، ففيه تعريض بالذين لم ينصاعوا لنزارته، ولم يأخذوا حذرهم من شرٍّ ما حذرهم منه، وذلك يقطع عذرهم [1]، كما أن فيه ردٌّ لدعوى المشركين، فوصفه بالمبين ينفي أن يكون به جِنَّة كما يزعمون.

١ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس مجلد ٥، ج٩، ص ١٩٧.

الشبهة الرابعة والعشرون

توهُّم مجانبة القرآن الكريم للصواب في إعادة الضمير المفرد إلى الجمع(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ (التوبة: ٣٦) مخالفة لقواعد اللغة؛ حيث عاد الضمير المفرد في **منها** على الجمع **اثنا عشر**، ويظنون أن الصواب: أن يقال: **منهن** وليس **منها**؛ للتوافق مع قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦) (**).

*. THEGOOD. WAY.COM

. جاء في عمدة التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أنه قال: روى الإمام أحمد عن أبي بكرة، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: **ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمَادى وشعبان. الحديث. ورواه البخاري ومسلم. وقال ابن عباس في قوله: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ في الحديث: **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض** تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾: فهذا مما كانت العرب أيضًا في الجاهلية تحرمه، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: **البَسْل**، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديدًا.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة؛

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يعود الضمير على ما يوافقه تذكيرًا وتأنيثًا، وإفرادًا وتثنية وجمعًا، فإذا زاد العدد عن العشرة لم تكن العرب تراعي هذا التطابق، وقد توهَّم بعضهم مخالفة في عود الضمير في **منها** وهو مفرد مؤنث على **اثنا عشر** وهو جمع لمذكر، وتوهمهم هذا مردود عليه بأن العرب يعاملون ما يزيد عن العشرة معاملة المفرد، ومن ثمَّ فلا إشكال في قوله ﷻ: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، فإذا عاد الضمير على ما فوق العشرة جيء به مفردًا مؤنثًا، وإذا عاد على ما تحت العشرة جيء به جمعًا مؤنثًا.

التفصيل:

من بديهيات قواعد اللغة العربية أن الأعدادَ من ثلاثة إلى عشرة هي جمعُ قلة، وتعامل معاملة الجمع المؤنث، فإن زاد العدد عن عشرة كان جمع الكثرة، والعرب

لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج:٢٥)، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حَقِّ من قتل في الحرم، أو قتل ذا محرم. وقال ابن عباس: قوله:﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾:في كلّهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعظَّم حُرمَاتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره مايشاء. قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلا، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فَعَظِّموا ما عظم الله، فإنما تُعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال ابن إسحاق:﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾أي: لاتجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك، زيادة في الكفر﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾الآية(التوبة:٣٧).وهذا القول اختيار ابن جرير (عمدة التفاسير، أحمد شاكر، دار الوفاء).

تعامله معاملة المفرد المؤنث، كما في قوله ﷻ: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، ومن ثم فلا إشكال؛ لأن عَوْد الضمير في **منها** ـ وهو مفرد ـ على اثنا عشر ـ وهو جمع ـ من صميم قواعد العربية، ولزيادة الأمر وضوحًا نقول: معي خمسة عشر كتابًا، منها ثلاثة مستعارة، ولا نقول:منهن ثلاثة مستعارة؛ لأن العدد المذكور يزيد عن عشرة.

ويجعلون **الهاء والنون** للعشرة فما دونها إلى الثلاثة، فنقول: عندي ثلاث مكتبات، منهن واحدة صوتية، ولا نقول: منها واحدة صوتية؛ لأن العدد المذكور أقل من عشرة، وهذا ما جاء به القرآن في مواضع أخرى، ففي سورة يوسف قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ (يوسف: ٤٣)، فقال: **يأكلهن** ولم يقل **يأكلها**؛ لأن العدد المذكور أقل من عشرة، ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (فصلت: ١٢)، فقد قال تعالى: **فقضاهن** ولم يقل فقضاها؛ لأن العدد **سبع** أقل من عشرة.

أما في الشعر: ما هجا به أحد الشعراء جماعة من الجماعات لقلتها فقال:

لا أبـــالي بجمعهـــن فجـــمعهـــن كـــل جمـــع مؤنـــث

ولما كان عددها قليلاً لا يتجاوز العشرة قال: جمعهن، ولم يقل: جمعها.

وعلى هذا جاءت الآية مطابقة لقواعد العربية وسنة العرب في كلامهم.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- الآية الكريمة بها استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمة على الوجه الحق، الصالح لجميع البشر والمناسب لنظام الأرض، وافتتاح الكلام بحرف التوكيد للاهتمام بمضمونه لتتوجه أسماع الناس وألبابهم إلى وعيه[1].

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد٦، صـ ١٨٠.

- وفي قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الضمير المجرور بـ **في** عائد إلى الأربعة الحرم؛ لأنها أقرب مذكور، ولأنه أنسب بسياق التحذير من ارتكاب الظلم فيهن وإلا كان مجرد اقتضاب بلا مناسبة[1].
- وقوله ﷻ: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، أي: أنفس غير الظالمين، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على أن الأمة كالنفس من الجسد.
- وفي قوله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقعت هذه الآية موقع الاحتراس من الظن بأنَّ النهي عن انتهاك الأشهر الحرم، يقتضي النهي عن قتال المشركين فيها إذا بدأوا بقتال المسلمين، وهذا **يوضح** التشبيه التعليلي في قوله ﷻ: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾فيكون المعنى: فلا تنتهكوا حرمة الأشهر الحرم بالمعاصي، أو باعتدائكم على أعدائكم، فإن بادأوكم بالقتال فقاتلوهم.
- الكاف في قوله ﷻ: ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾أصلها كاف التشبيه، استعيرت للتعليل بتشبيه الشيء المعلول بعلته؛ لأنه يقع على مثالها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾.

ويعلق صاحب الظلال تعليقا أدبيًا رائعًا حول هذه الآية؛ يوضح فيه ما اشتملت عليه هذه الآية من إعجاز بياني وعلمي؛ تقرره الكشوف والحقائق العلمية الحديثة قائلا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات

---

١. المرجع السابق، جـ٨، صـ١٨٥.

﴿وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ إن هذا النص القرآني يردُّ معيار الزمن وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التي فطره الله عليها، وإلى أصل الخلقة، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة، مقسمة إلى اثني عشر شهراً، يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر، فلا تزيد في دورة وتنقص في دورة، وإن ذلك في كتاب الله ـ أى: في ناموسِهِ الذي أقام عليه نظام هذا الكون فهي ثابتة على نظامها، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة لأنها تتم وفق قانون ثابت، هو ذلك الناموس الكوني الذي أراده الله يوم خلق السماوات والأرض:

هذه الإشارة إلى ثبات الناموس يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديدها؛ ليقول: إن هذا التحديد والتحريم جزء من نواميس الله ثابت كتابتها، لا يجوز تحريفه بالهوى، ولا يجوز تحريكه تقديمًا وتأخيراً، لأنه يشبه دورة الزمن التي بتقدير ثابت، وفق ناموس لا يتخلف: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

فهذا الدين مطابق للناموس الأصيل، الذي تقوم به السماوات والأرض، منذ أن خلق الله السماوات والأرض وهكذا يتضمن ذلك النص القصير سلسلة طويلة من المدلولات العجيبة... يتبع بعضها بعضاً. ويشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث جاهداً أن يصل إليها بطريقته ومحاولاته وتجاربه، ويربط بين نواميس الفطرة في خلق الكون وأصول هذا الدين وفرائضه، ليقر في الضمائر والأفكار عمق جذوره، وثبات أسسه، وقدم أصوله ... كل أولئك في إحدى وعشرين كلمة تبدو في ظاهرها هيِّنة يسيرة قريبة مألوفة.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تظلموا أنفسكم في هذه الأشهر الحرم التي يتصل تحريمها بناموس كوني تقوم عليه السماوات والأرض، ذلك

الناموس هو أن الله هو المشرع للناس، كما أنه هو المشرع للكون.. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التي أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام؛ فتخالفوا عن إرادة الله. وفي هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله في الآخرة، وتعريضها للخوف والقلق في الأرض، حين تستحيل كلها جحيما حربيا لا هدنة فيها ولا سلام[1].

١. في ظلال القران، سيد قطب، جـ ٣، صـ١٦٥٢، ١٦٥١.

الشبهة الخامسة والعشرون

توهم الخلاف اللفظي بين الآيات المتشابهة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك خلافًا لفظيًّا بين الآيات المتشابهة في القرآن، ويتساءلون عن الفرق بين قوله ﷻ: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥) وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٨٥) (**).

(*) www.saaid.com

(**) قال أبو بكر الجزائري في الآية: بيَّن تعالى لرسوله علة إعطائهم ذلك - أي المال والولد - وتكثيره لهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ، ووجه تعذيبه بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد يشعرون معه بألم لا نظير له؛ لأن الإنفاق يعتبرونه ضدهم، وليس في صالحهم، إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وأما أولادهم فالتعذيب بهم، هو أنهم يشاهدونهم يدخلون في الإسلام ويعملون به ولا يستطيعون أن يردوهم عن ذلك، أي ألم نفسي أكبر من أن يكفر ولد الرجل بدينه، ويدين بآخر من شروطه أن يبغض الكافر به، ولو كان أبًا، أو أمًّا، أو أخًا، أو أقرب قريب؟ وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون، فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد، وبهذا سلَّى الرب ﷻ رسوله والمؤمنين ببيان علة ما أعطى المنافقين من مال وولد؛ ليعذبهم بذلك لا ليسعدهم. (أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، عند تفسير هذه الآية.

أمَّا قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥) فهوحكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به، وتكون هذه النعمة عليهم عذابًا، فهم في خوف من ضياع المال أو فقد الولد؛ لذلك يعانون من العذاب. وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة معذبون، فهم لا يريدون أن يموتوا؛ لأنهم لا يعتقدون في الآخرة، ويكون المال والولد حسرة عليهم. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ، وهذه هي الحسرة الكبرى، فحين يموت الكافر، ولا يجد له رصيدًا في الآخرة

وجوه إبطال الشبهة :

فى القرآن الكريم آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، والمحكم ما لا تعْرِض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى، والمتشابة منه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره، إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى.

ويزعم بعض مثيرى الشبهات حول القرآن الكريم، أن الخلاف فى اللفظ بين المتشابه فى القرآن الكريم لا فائدة منه، وهو خلاف ظاهرى، ومثّلوا لهذا بقوله تعالى:﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(التوبة: ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم ......﴾ (التوبة : ٨٥)، ويزعمون أن الاختلاف بين الآيتين اختلاف يسير بين بعض الألفاظ، ولا يغيِّر فى المعنى قليلًا ولا كثيرا. وفات هؤلاء إدراك ما بين الآيتين من اختلاف واضح فى المدلول والسياق.

وزعمهم هذا مردود من وجوه:

١) الآيتان وإن تشابهتا في الألفاظ، فقد اختلفتا في السياق، واتفقتا في المعنى؛ إذ أراد بالأولى: قومًا من المنافقين لهم أموال وأولاد في وقت نزولها، وأراد بالثانية: أقوامًا آخرين، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة، لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيًا عن ذكره مع الآخرين.

٢) التفاوت اللفظي بين الآيتين ناشئ عن تفاوت في المدلول، والمعنى المراد التعبير عنه، وهذا حاصل في أربعة وجوه، وهي:

إلا النار؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة، وعلى غير يقين بأنه قد قَدَّم شيئًا، فهو يلقى في النار محسورًا على ما تركه في الدنيا. (تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج٩، ص ٥٤٠١، ٥٤٠٢).

• ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾: الفاء لمناسبة التعقيب والترتيب، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾، الواو لمناسبة عطف نهي على نهي قبله، ولا تفريع فيها، والمعنى: (لا تُصلِّ ولا تَقُمْ ولا تعجبك).

• ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، مشعر بالنهي عن الإعجاب بكل واحد على انفراد، وقوله ﴿أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾، نهي عن إعجاب المجموع، ويتضمن النهي عن الإعجاب بكل واحد.

• ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، بالتناوب بين اللام وأن، تنبيهًا على أن التعليل في أحكام الله مُحال، وأنه أينما وردت، فمعناه: أنْ. ومثله في القرآن كثير.

• ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، على الأصل، وفي سياق الحديث عن أموالهم في حياتهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بعد ذكر موت المنافقين في الآية قبلها، فهم بمنزلة الأموات، وحياتهم لا حياة فيها.

٣) في تكرار المعنى وتجدد النزول - لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين - شأن في تقرير ما نزل وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال المخاطب، خصوصًا والمنهي عنه حقيق بذلك؛ لعموم البلوى بمحبته، والإعجاب به، مما يوجب التحذير منه مرة بعد مرة.

التفصيل:

أولاً. لا يوجد في القرآن ما يعد من قبيل تكرار النصوص بما يغني أحدهما عن الباقي، بل إن النص القرآني إذا ما اتفق مع نص آخر، فإن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف، ومن ينظر إلى خصوصيات الأحوال ومقتضياتها، يعلم أن هذا تأسيس، وليس تكرارًا، فقد تحمِل آيتان معنًى عامًا واحدًا، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء. ولنأخذ مثالاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقوله ﷻ:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١).

ولعلّ سبب ادعائهم التكرار راجع إلى نظرهم إلى عموم الآية، لا إلى خصوصية العطاء، وخصوصية العطاء توافق مقتضى كل حال، ولنا أن نسأل هؤلاء: هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى؟ ولأنهم لا يعرفون دقة البيان العربي، لن نجد إجابة عندهم[1].

قال أبو علي: ظاهره أنه تكرير، وليس بتكرير؛ لأن الآيتين في فريقين من المنافقين، ولو كان تكريرًا، لكان مع تباعدٍ لفائدة التذكير، وقيل: أراد بالأولى: لا تعظِّمهم في حال حياتهم؛ بسبب كثرة المال والولد، وبالثانية: لا تعظِّمهم بعد وفاتهم لمانع الكفر والنفاق[2].

ثانيًا. ثمّة تفاوت بين الألفاظ المستخدمة في الآيتين، كلٌّ وما يتناسب مع طبيعة السياق فيه، وهذا التفاوت حاصل بين هاتين الآيتين من وجوه أربعة، هي:

١. قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالفاء، وقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالواو في الآية الثانية، وذلك أن الآية الأولى وردت بعد قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، فوصفهم بأنهم كارهون للإنفاق، وإنما كرهوا ذلك الإنفاق؛ لأنهم معجبون بكثرة

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٩، ص ٥٣٩٥، ٥٣٩٦.

٢. ذكره أبو حيان في البحر المحيط عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

تلك الأموال؛ فلهذا المعنى نهاه الله عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب، وفي الثانية: لا تعلُّق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو[1].

وخلاصة القول: أنه جيء **بالفاء** هنا لمناسبة التعقيب، والمعنى: لا ينفقون إلا وهم كارهون للإنفاق، معجبون بكثرة الأموال والأولاد، فنهى عن الإعجاب المتعقب له، وجيء **بالواو** لمناسبة عطف نهي على نهي قبله[2]. ولا تُصَلِّ، ولا تقم، ولا تعجبك.

٢ . أثبت (لا) في قوله: ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، وأسقطها في الآية الثانية: ﴿وَأَوْلَادُهُمْ﴾، ولهذا التفاوت مدلولان هما:

الأول: أن ذكر (لا) في الآية مُشْعِر بالنهي عن الإعجاب بكل واحد على انفراد، ويتضمن ذلك النهي عن المجموع؛

وإسقاط (لا) في الثانية: نهي عن إعجاب المجموع، ويتضمن ذلك النهي عن الإعجاب بكل واحد؛ فدلت الآيتان بمنطوقهما ومفهومهما على النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين ومنفردين[3].

---

١. الرازي في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥)

٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لشهاب الدين الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، في تفسير الآية ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

٣. أبو حيان في البحر المحيط عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

الثاني: في إسقاط (لا) في الثانية، دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين، وإنما هي في الأولى؛ لزيادة التأكيد، أي: أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد، وكان إعجابهم بأولادهم أكثر[1].

٣. قوله في الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ ، وفي الثانية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ ، فيه تنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال، وأنه أينما ورد حرف اللام، فمعناه كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله[2].

واللام هنا في (ليعذبهم): لام تدخل على الفعل، واسمها "لام العاقبة"، وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين، ولكن قد تكون عاقبته شيئًا آخر تمامًا غير الذي قصدناه، بل تكون عكس الذي قصدناه، ومثاله قول الحق ﷻ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3]، وهكذا الحال هنا؛ فالمال والأولاد نِعَمٌ لم يقصد الله من ورائها عذاب هؤلاء، لكنهم بعملهم غير الشرعي استحقوا العذاب بعد أن فتنوا بنعم الله عليهم، إذن هي "لام العاقبة"[4].

---

١. صاحب تفسير الخازن عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

٢. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، جـ٩، ص ٥١٩١ ـ ٥١٩٢.

٣ . المرجع السابق، جـ٩ صـــ٥١٩٢.

٤. أبو حيان في البحر المحيط عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

٤. قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وفي الثانية: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ، فذكر الحياة في الأولى على الأصل وحذفها في الثانية؛ تنبيهًا على خسة الدنيا[١]، فهي لا تسمى حياة، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهًا على تمام دناءتها.

ولما تقدمها ذكر موت المنافقين ناسب أن لا تسمى "حياة"[٢]؛ فقد صاروا إلى حياة أخرى، وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثًا[٣].

ثالثًا. الآيتان تتلاقيان في المعنى العام مع احتفاظ كل آية بنظمها المتسق مع سياقها، ولو اعتبرنا تكرار النهي حاصل بين الآيتين فالمنهي عنه حقيق بذلك لعموم البلوي بمحبته والإعجاب به[٤].

وتجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه، ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين.

وإن أُعيدَ هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يُحذَّر منه، فلا حرج في ذلك؛ ذاك أن أشد الأشياء جذبًا للقلوب واستهواءً لها، هو الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان بهذه المثابة من التقرير والإغواء يجب التحذير منه مرة بعد مرة[١].

---

١. صاحب تفسير الخازن عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

٢. أبو حيان في البحر المحيط عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، جـ٦، ص ٢٨٧.

٤. روح المعاني، الألوسي في تفسير الآية ٨٥ من سورة التوبة.

وما دام النهي في الآيتين على هذه الدرجة من الأهمية؛ فلا ضيّر إن كرره القرآن مع احتفاظ كل نهي بنظمه؛ بما لا يغني أحدهما عن الآخر، ويبقى مجمل النهي عالقًا في الذهن ماثلاً للأعين؛ علّها تمتثل.

الأسرار البلاغية في الآيتين الكريمتين:

في الآيتين اتصال من وجه (النهي)، وانفصال من وجه آخر (الألفاظ)، وهذا الوجه الأخير هو ما أغفله هؤلاء، وقالوا بعموم الاتصال بين الآيتين، ولعل هذا الخلاف، وتلك المفارقة بين الألفاظ في الآيتين موطن البلاغة فيهما، ولعل القارئ يقف على هذا الرأي - إن أدرك الفرق أولاً، ثم التمس وجه اتساقه في سياقه الذي ذُكر فيه ثانيًا - ومن هذه المخالفة:

- العطف بالفاء **فلا تعجبك**؛ لمناسبة التفريع قبلها على مذمة حالهم في مواهم[٢]؛ ولذلك عطف بالواو في الثانية، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾؛ لعدم التعلق؛ ولمجيئها من قبيل عطف نهي على نهي[٣].
- فى قوله تعالى: ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، أثبت **لا** مراعاة للترتيب، فأراد أن يبتدأ بالأدنى، ثم يترقى إلى الأشرف"[٤]. وذكر﴿أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ بالعطف بالواو؛ للتساوي بينهما في التحقير في نظر المسلمين، فناسبه إسقاط **لا**؛ ليدل على عدم التفاوت بينهما؛ فكلاهما مقصود[٥]، ومضرته لا تقل عن الآخر.

---

١. البحر المحيط، مرجع سابق، عند تفسير الآية ٨٥ من سورة التوبة.

٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور، مرجع سابق، جـ٦، ص ٢٨٦.

٣. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، عند تفسير الآية ٨٥ من سورة التوبة.

٤. تفسير الرازي، مرجع سابق، الآية ٨٥ من سورة التوبة.

٥. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، جـ٦، ص ٢٨٧.

• قوله تعالى:﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، قد قدرت "أَنْ" بعد اللام، وهو كثير في الاستعمال، ومن محاسن التأكيد الاختلافُ في اللفظ، وهو تفنن[1].

• قوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ذكر الصفة، وحذف الموصوف، وفيه تنبيه على كمال ذمها، فلقد بلغت في الخسة والمهانة، إلى حيث إنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة، بل يجب عند ذكرها الاقتصار على لفظ الدنيا[2]، فلقد أصبحت الصفة عَلَمًا على الموصوف، فإن قيل الدنيا فقط عَلِمْت أن هذه الصفة إن أطلقت أُرِيْد بها "الحياة"، وفي هذا الأسلوب من التزهيد فيها ، والتحقير من شأنها ما تغني الإشارة إليه عن ذكره.

• هذا وإن التقت الآيتان في المعنى العام ـ المنهي عنه ـ فليس فيه تكرار للمعنى، خصوصًا والمنهي عنه حقيق بذلك لعموم البلوى بمحبته والإعجاب به، مما يوجب التحذير منه مرة بعد مرة.

---

١. المرجع السابق نفسه الصفحة.

٢. إعراب القرآن الكريم وبيانه: لمحى الذين الدرويش، دار بن كثير، دمشق، بيروت، جـ٤، ص ١٤٧.

الشبهة السادسة والعشرون

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في مجيء الضمير مفردًا مع عودته على مثنى(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن لم يطابق بين الضمير وما يعود عليه في العدد، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة: ٦٢)؛ حيث جعل الضمير في كلمة يرضوه مفردًا رغم أنه عائد على المثنَّى (الله ورسوله)، والصواب في ظنهم أن يُقال: يرضوهما(**).

وجوه إبطال الشبهة:

(*) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، دار زهراء الشرق، مصر.

(**) يقول صاحب المنار في سبب نزول هذه الآية: روى ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال في شأن المتخلِّفين في غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقًّا، لهم شر من الحمر، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشرّ من الحمار؛ فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: "ما حملك على الذي قلت؟" فجعل يلتعن، أي: (يلعن نفسه) ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله في ذلك ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية.

أما قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فهو خطاب للمؤمنين في بعض شئون هؤلاء المنافقين معهم في غزوة تبوك، أخبرهم بأنهم شعروا بما لم يكونوا يشعرون من ظهور نفاقهم؛ فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين في كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول وعمل، ليرضوهم فيطمئنوا لهم، فتنتفي داعية إخبار الرسول ﷺ بما ينكرون منهم، وقد ردَّ الله تعالى عليهم بقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، أي: والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين؛ فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرًا معلومًا باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو يوحي إلى رسوله من أمور الغيب ما فيه المصلحة (تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، جـ١٠. ص ٥٢٢- ٥٢٤).

الأصل فى اللغة أن يطابق الضمير الاسم الذى يعود عليه فى نوعه (**التذكير والتأنيث**)، وفى عدده (**المفرد والمثنى والجمع**)، وغير المتأمل لقوله ﷻ: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ يظن أن فى هذه الآية مخالفة لقواعد اللغة العربية في عود الضمير المفرد فى **يرضوه** على المثنى **الله و رسوله**، والصواب فى زعمهم أن يقال: " والله ورسوله أحق أن يرضوهما "؛ ليتفق الضمير ويتطابق مع ما يعود عليه، وقد دُحِض هذا الزعم بوجوه عدة؛ منها:

١) هناك شرط موضوعي في التثنية والجمع، ألا وهو التجانس بين الأفراد في الواقع، ومن أجل هذا؛ فإن الله لا يُجمع ولا يُثنَّى، لا في ذاته، ولا مع أحدٍ من خلقه تعظيمًا وتنزيهًا له جل جلاله عن الشرك.

٢) إن الضمير جاء مفردًا؛ لأن الله ورسوله في حكم مَرْضيٍّ واحد، فلا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله؛ فإرضاء الله إرضاء لرسوله.

٣) إن الضمير جاء مفردًا؛ لأن في الكلام حذفًا، والتقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه؛ فحذف خبر المبتدأ (لفظ الجلالة) **الله** لدلالة خبر رسوله عليه؛ أو لأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وهذا توجيه نحوي.

٤) إن الضمير المنصوب في **يرضوه** جاء مفردًا؛ لأنه عائد على اسم الجلالة؛ لأنه الأهم في الخبر، ولذلك ابتدئ به، ومعلوم أن الضمير يعود على أحد الاسمين الظاهرين إما لقربه، وإما لأنه المراد، وإما لكونه الأشرف أو الأسمى أو الأجلّ.

التفصيل:

أولاً. لقد فات هؤلاء أمر عظيم، ترتب عليه جهل شنيع؛ ذلك أنهم لم يستحضروا في أذهانهم وهم يسطرون هذه الشبهة، متى يثنى المعدود، ومتى يجمع، ومتى يظل مفردًا؟

ومعلوم أن هناك شرطًا موضوعيًّا في تثنية المعدود وجمعه هو: التجانس بين الأفراد في الواقع، فقلمٌ يثنى فيقال: قلمان، ويجمع فيقال: أقلام.

لكن السيف ـ مثلاً ـ لا يُثنَّى مع القلم ولا يُجْمَع؛ لأنك لو ثنَّيْت القلم والسيف، فقلت: قلمان، أو سيفان، وأنت تريد قلمًا وسيفًا لم يفهم أحد ما تريد.

وحتى الرجل والمرأة، وهما فردان بينهما تجانس من جهة، واختلاف من جهة أخرى، فإنك لا تستطيع أن تثنيهما فتقول: رجلان، أو تقول: امرأتان، وأنت تريد رجلاً وامرأة، فهذا لا يجوز عند العقلاء، ولا يجوز في الواقع الذي يحسُّه الناس ويحترمونه.

هذا التمهيد ضروري جدًّا لبيان لماذا ورد في القرآن أن يرضوه دون أن يرضوهما كما اقترح مثيرو هذه الشبهة؟!

وذلك لأنه ليس بين الله، ورسوله ﷺ، ولا بين الله وأي شيء في الوجود تجانس من أي نوع من الأنواع؛ فالله هو الفرد الصمد، الواحد الأحد، الذي لم يلد، ولم يولد. هو الخالق البارئ المصور، وليس كمثله شيء في الوجود.

وعليه فإن الله ﷻ لا يُجمع ولا يُثنَّى لا في ذاته، ولا مع أحد من خلقه، وعلى هذا جرى بيان القرآن المعجز!

ثانيًا. إن الضمير جاء مفردًا؛ لأن الله ورسوله في حكم مرْضيٍّ واحد، فلا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله؛ فإرضاء الله إرضاء لرسوله، وهذا الرأي قد أشار إليه الشيخ الشعراوي في تفسيره فقال: "وهنا نلاحظ أن الحق ﷻ قال: **﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾** (التوبة: ٦٢)؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتي بالقرآن من عنده، ولكنه وحي من عند الله، وإرضاء

الرسول اتباع المنهج الذي فيه رضا الله؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠)، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، ويقول ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠).

إذن، فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول، ولا رضا لله ورضا للرسول؛ لأن الرضا منهما رضا واحد، فقول الحق ﷻ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ دليلٌ على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله، فما يُرضي الله يُرضي الرسول ﷺ وما يغضب الله يغضب الرسول ﷺ[1].

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب المنار؛ فقال: وكان الظاهر أن يقال: يرضوهما، ونكتة العدول عنه إلى يرضوه؛ الإعلام بأن إرضاء رسوله من حيث إنه رسوله عين إرضائه تعالى؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز، ولو قال: يرضوهما لما أفاد هذا المعنى؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا.

وكذلك لو قيل: والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه لا يفيد هذا المعنى أيضًا، وفيه ما فيه من الركاكة و التطويل، وقد خرَّجه علماء النحو على قواعدهم[2].

---

١ . تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، جـ٩، ص ٥٢٥٦.

٢ . تفسير المنار، للإمام رشيد رضا، مرجع سابق، ج١٠، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

وقد أوجز محى الدين الدرويش هذا المعنى قائلاً: "وَوُحِّد الضْمير لتلازم الرضاءين، وإفراد الضمير في يرضوه تعظيمًا للجناب الإلهي بإفراده بالذكر؛ ولكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فإرضاء الله إرضاء لرسوله"[1].

ثالثًا. أن الضمير جاء مفردًا؛ لأن في الكلام حذفًا، والتقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، فحذف خبر المبتدأ لفظ الجلالة الله لدلالة خبر رسوله عليه، والآية على هذا الوجه مثل قول الشاعر:

نحــنُ بِمَــا عِنْــدَنَا وأنــت بِمَــا عِنْــدك راضٍ والــرَّأيُ مُختَلِــفُ

أي:نحن بما عندنا راضون، فحذف راضون لدلالة راضٍ عليه.

يقول صاحب المنار في هذا: "وأقرب الأقوال إلى قواعدهم ـ يقصد علماء النحو ـ قول سيبويه: إن الكلام جملتان حُذف خبر إحداهما لدلالة خبر الأخرى عليه، كقول الشاعر:

نحــنُ بِمَــا عِنْــدَنَا وأنــت بِمَــا عِنْــدك راضٍ والــرَّأيُ مُختَلِــفُ

فهذا لا تكلف فيه من ناحية التركيب العربي، ولكن تفوت به النكتة التي ذكرناها، وهي من بلاغة القرآن التي يجب على أهل البيان اقتباسها".

وجاء الضمير مفردًا كذلك؛ لأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله، حيث قدم الخبر أحق أن يرضوه، على المبتدأ رسوله.

رابعًا. إن الضمير المنصوب في يرضوه جاء مفردًا؛ لأنه عائد على اسم الجلالة؛ لأنه الأهم في الخبر، وكذلك ابتدئ به، ويشير إلى هذا الوجه الإمام ابن

---

١ . إعراب القرآن وبيانه، محى الدين الدرويش، دار اليمامة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ج٤، ص ١٢٢، وانظر الكشاف للزمخشري، ج٢، ص ١٩٩، دار العالمية.

عاشور في تفسيره فيقول: "وإنما أفرد الضمير في قوله: أن يرضوه مع أن المُعاد اثنان؛ لأنه أريد عود الضمير إلى أول الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل بتقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين؛ ثانيتهما كالاحتراس، وحذف الخبر للإيجاز، ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين، ومنه قول ضابئ بن الحارث:

ومن يك أمسى بالمدينة رَحْلُهُ فإني وقيّار بها لغريب

التقدير: فإني لغريب، وقيّار[1] بها غريب أيضًا؛ لأن إحدى الغربتين مخالفة لأخراهما.

والضمير المنصوب في يرضوه عائد إلى اسم الجلالة؛ لأنه الأهم في الخبر، ولذلك ابتدئ به، ألا ترى أن بيت ضابئ قد جاء في خبره المذكور لام الابتداء الذي هو من علائق إنّ الكائنة في الجملة الأولى، دون الجملة الثانية، وهذا الاستعمال هو الغالب؟"[2]

ويضيف الشيخ الشعراوي إلى هذا الوجه كلامًا غاية في الروعة، فيقول: إن الحق ﷻ يريدنا أن نتأدب مع ذاته، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحدًا مع الله، وإنما نجعله له ﷻ وحده.[3]

خامسًا. معلوم أن الضمير يكون عائدًا إلى أحد الاسمين الظاهرين؛ إما لقربه، وإما أنه المراد، وإما لكونه الأشرف والأسمى:

---

١ . قيّار: اسم فرس ضابئ.

٢ . التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج٦، ص ٢٤٥.

٣ . تفسير الشيخ الشعراوي، مرجع سابق، ج٩، ص ٥٢٥٦.

١. لقربه؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ (التوبة: ٣٤)؛ فقد عاد الضمير في ينفقونها بالإفراد على المثنى: الذهب والفضة فهو عائد على الفضة؛ لأنها أقرب مذكور.

٢. أو لأنه المراد: كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: ١١)؛ فقد عاد الضمير في إليها إلى التجارة؛ لأنها كانت مراد القوم.

٣. أو لكونه الأشرف أو الأسمى أو الأجلّ؛ ومنه الآية التي معنا: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: ٦٢)؛ فقد عاد الضمير بالإفراد على لفظ الجلالة الله؛ أو لأن طاعة الرسول هي طاعة لله.

وخلاصة القول: إن اللغة العربية تشترط في تثنية المعدود وجمعه، أن يكون هناك تجانس بين الأفراد في الواقع، أما وقد انتفى شرط التجانس، فيبطل مع انتفائه الزعم القائم، ثم إن لغة العرب ليست قاصرة على المطابقة بين الضمير وبين من يعود عليه؛ فقد يعود على مَنْ تقدم ذكره، وقد يعود على متأخر، وعليه فلا يوجد ثمة خطأ في الآية، وإنما الخطأ في عقول هؤلاء وفي فهمهم السقيم.

الأسرار البلاغية في الآية:

- إذا دققنا النظر في هذه الآية وتأملناها، نجد فيها فنًّا من فنون البلاغة العربية ألا وهو فن الاحتباك، وهو ذلك الإيجاز القرآني البليغ، وهذا الفن نوعان: الأول منه متعلق بالآية التي معنا وهو أن يحذف كلام من جملة أولى، ويذكر ما يدل عليه في جملة ثانية جاءت بعدها مباشرة، مثل الآية التي بين أيدينا، فالمعنى فيها "والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه"، فحذف أحق أن يرضوه من الأولى، لدلالة الثاني عليه، وهو رسوله أحق أن يرضوه.

• يوجد بالآية أسلوب التفات في مجال العدد بين الإفراد والتثنية كما يقول الدكتور حسن طبل[1]: لقد اختلف النحاة والمفسرون في تحديد مرجع الضمير في الفعل يرضوه؛ فقد قيل: إنه يعود على الله ورسوله؛ وإنما أُفرد لتلازم الرضاءين. وقيل أيضًا: إنه يعود على الرسول فحسب؛ لأن الكلام في إيذائه ﷺ وإرضائه. وقيل كذلك: إنه عائد على الله ﷻ فقط، والتقدير: والله أحق أن يرضوه والرسول ﷺ كذلك.

فعلى الرأي الأول: تتضمن الآية الكريمة عدولاً عن تثنية الضمير يرضوهما إلى إفراده يرضوه، أما على الرأيين الأخيرين: فليس فيها عدول أصلاً؛ إذ إن ضمير الإفراد بمقتضاهما هو الأصل، أو مقتضى الظاهر كما يقال.

والرأي الأول ـ فيما نحس ـ هو أرجح الآراء؛ وذلك لقوة الملاءمة بينه وبين السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة؛ فهؤلاء الذين تخبر الآية عن حلفهم للمؤمنين كي يرضوهم هم فئة من المنافقين كانوا يتعمدون الرسول ﷺ بالإيذاء ويتقولون عليه الأقاويل، وهذا ما أخبرت عنه الآية السابقة على تلك الآية مباشرة في قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٦١).

في ضوء هذا السياق يُرجِّح القول بأن الضمير في يرضوه عائد على الله والرسول، وأن في توحيده ـ عدولاً عن تثنيته ـ دلالة على توحد الرضاءين، وإشعارًا بأن إرضاءه ﷺ هو في الوقت ذاته إرضاء للخالق ﷻ، إذ في ذلك ـ دون

---

١ . أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، ص ٩٤.

ريب ـ دعم لموقفه، وسلوان له فيما تحمله من أذى هؤلاء المنافقين، فشأن الإرضاء في توحيده في تلك الآية الكريمة، هو شأن الطاعة التي وحَّدها ﷻ في قوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠).

- وشبيه بالآية السابقة في عود الضمير مفردًا على الله ورسوله قوله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (النور: ٤٨)[1].

ومثيرو هذه الشبهات قد فاتهم أمرٌ عظيم، ترتب عليه جهل شنيع؛ ذلك أنهم لا يعرفون عن حقيقة التوحيد شيئًا، وضوابطهم فيه مثل الغربال إذا وُضِعَ فيه سائل لا يبقى منه شيء؛ ونحن نرى أن هذه المعاني البديعة التي أشرنا إليها من خلال بيان القرآن المعجز لا ترقى إليها مدارك هؤلاء، ولا تساعدهم أنفسهم على الإقبال عليها.[2]

١ . أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، مرجع سابق، ص ٩٤.

٢ . حقائق القرآن وأباطيل خصومه (شبهات وردود)، مرجع سابق، ص ١٥٠، ١٥٥، بتصرف.

الشبهة السابعة والعشرون

توهُّم اضطراب القرآن في الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم قد جانب المألوف في اللغة العربية في قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(**) (يونس:٢٢)؛ حيث وقع الالتفات من المخاطَب **كنتم** إلى الغيبة **بهم** قبل تمام المعنى، والصواب في ظنّهم أن يستمر على المخاطب، فيقال: (وجرين بكم ... وفرحتم بها).

وجوه إبطال الشبهة:

قد زعم غير المتأملين لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، أن في الآية اضطرابًا؛ حيث انتقل الكلام فيها من ضمير المخاطبين في **كنتم** إلى ضمير الغائبين في **بهم**، وفرحوا قبل تمام

(*) عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م.

www.ebnmaryam.ocm – www.quartos.org.lb – www.islameyat.com

(**) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي حتى إذا ركبتم الفلك وجرت بكم في البحر بريح طيبة، وفرحتم بسرعة سيركم رافلين، فبينما هم كذلك؛ إذ جاءت لسفنهم ريح شديدة، واغتلم البحر عليهم، وظنُّوا أنهم هلكوا، حينها دعوا الله مخلصين له الدين؛ فلا يدْعون معه صنمًا ولا وثنًا، بل يفردونه بالدعاء والابتهال قائلين: لئن أنجيتنا من هذه الحال، لا نشرك بك أحدًا، ولنفردنك بالعبادة كما أفردناك بالدعاء ههنا، فلما أنجاهم من هذه الورطة، عادوا كما كانوا، وكأن لم يكن من ذلك شيء. (تفسير القرآن العظيم، الحافظ بن كثير، عند تفسير هذه الآية، بتصرف يسير).

المعنى، مما يخالف فى زعمهم أصول البلاغة والبيان، وهذا الزعم مردود من وجهين:

١) في العربية ما يسمى بـ **فن الالتفات**، وهو التحول من حال خطاب إلى غيرها؛ كالتحول من الخطاب إلى الغيبة، أو من المخاطب المفرد إلى الجمع، وهكذا، وفي الآية الكريمة التفات، والالتفات فيها يؤدي وظيفة بلاغية لا تتأتى بدونه، وهي إظهار النعمة للمخاطبين، فالخطاب موجه للمسيَّرين في البحر .. مؤمنين وغير مؤمنين، فلما ذكر الله ﷻ حالةً آلَ الأمرُ في آخرها إلى البغي بغير الحق؛ عدل الخطاب من المخاطب إلى الغائب؛ حتى لا يكون المؤمنون مخاطبين بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي منهم تكريمًا لهم، فجميع المخاطبين مشتركون في نعمة التيسير، ولكن غير المؤمنين وحدهم هم الذين جحدوا النعمة، ونسوا فضل الله عليهم حينما جرت الفلك بهم، وأنجاهم الله ﷻ.

٢) السرُّ في إيثار الالتفات من الخطاب إلى الغيبة - أيضا - هو أن الغيبة تناسب الفعل جرين، فهم كانوا على الشاطئ والفلك ترسوا إليه، وأخذ الناس يركبون، حتى إذا تكاملوا على ظهرها، وأبحرتْ آخذة في الجري غابوا عن الأنظار، فهم ليسوا حاضرين حتى يُخاطَبوا، ولكنهم غائبون، فجرى الحديث عنهم مجرى الحديث عن الغائب.

التفصيل:

أولاً. استخدام فن **الالتفات** أصيل في اللغة العربية، وهو هنا يخدم المعنى المراد إيصاله من الآية الكريمة، وفي ذلك يقول الزمخشري: "ما فائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة؟ قلتُ: المبالغة، كأنه يذكر حالهم لغيرهم ليعُجِّبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار، والتقبيح".

والمعنى: أن هؤلاء الذين تحدث الله عنهم في هذه الآية، أنعم الله عليهم بالسير في البر والبحر، وامتحنهم بالريح العاصفة، بعد أن أقلعت بهم الفلك وهي تمخر عُبَاب الماء؛ فتوجهوا إلى الله يطلبون منه الإنجار معاهدين الله إذا أنجاهم أن يشكروه، ويعرفوا فضله، فلما أنجاهم نسوا ما وعدوا الله به، وعادوا إلى معصيته، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

وكانت فائدة الالتفات عن خطابهم المباشر **كنتم في الفلك** إلى حكاية حالتهم العجيبة إلى غيرهم؛ لكي يستثير سخطهم عليهم، ويقبِّحوا سُوء صنيعهم مع الله[1]، وهذا الأسلوب غير مخالف للعربية الفصحى في شيء، قال ابن الأنباري: وجائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب، قال الله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢١، ٢٢)، فأبدل الكاف من الهاء[2].

ثانيًا. إن الحديث عنهم بضمير الغيبة يناسب الفعل **جرين**، فهم ليسوا حاضرين حتى يُخَاطبوا، ولكنهم غائبون، حيث أبحرت الفلك بهم في عُبَاب البحر، وغابوا عن الأنظار؛ فجرى الحديث عنهم مجرى الحديث الغائب بينما بدأ الحديث معهم بضمير المخاطب؛ لأنهم كانوا على الشاطئ لم تبحر بهم الفلك بعد.

١. حقائق القرآن وأباطيل خصومه، شبهات وردود، د. عبد العظيم المطعني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القسم الثالث، ص ١٣٤، ١٣٥.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٨، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

يقول القرطبي: وقوله: **وجرين بهم** خروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير، قال النابغة:

يـــا دارَ مَيَّـــةَ بِالعَليـــاءِ فَالسَّـــنَدِ　　أَقْوَت وَطالَ عَلَيها سالِفُ الأَمَـدِ[1]

الأسرار البلاغية في الآية:

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾، فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وحكمته: زيادة التقبيح والتشنع على الكفار لعدم شكرهم النعمة[2]، ومن بديع هذ الأسلوب في الآية، أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء، وقع الانتقال من ضمائر الخطاب للغيبة؛ لأن الحديث يخص المشركين دون المؤمنين.

- أما إسناد التسيير في قوله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ ﴾ إلى الله ﷻ، فهو إسناد مجازي باعتباره سببه؛ لأنه ﷻ خالق التفكير وقوى الحركة، والكلام مستعمل في الامتنان والتعرض بإخلال المشركين بواجب الشكر.

- أما قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا ﴾ ، فـ **حتى** هنا ابتدائية أعقبت بحرف المفاجأة وجوابه، فمجيء الريح العاصف هو غاية التسيير الهنيء المنعم به، حينئذ ينقلب التسيير كارثة ومصيبة، وفي هذا أشد التحذير لهؤلاء المشركين من الاغترار بنعمة الله عليهم.

---

١. المرجع السابق، ج٨، ص٣٢٥.

٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٧، ص ٥٧.

- قوله ﴿ أُحيطَ بِهِمْ ﴾، فيه استعارة تمثيلية للهلاك؛ لأن الإحاطة تدل على الإحداق والتطويق، وهي بمعنى الهلاك. [1]
- أما الإشارة إلى الحالة التي يدعون الله للنجاة منها بـ **هذه** الدالة على القرب، تدل على إشرافهم على الغرق، فالمشار إليه مُشاهد لهم.
- أما قوله: ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾، فقد بدأ جواب، فلما أنجاهم بـ إذا الفجائية، للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة، وقد جعل البغي في الأرض للدلالة على تمكنهم في النجاة، وقوله: بغير الحق هو قيد كاشف لمعنى البغي، إذ البغي لا يكون بحق. [2]

وهكذا نلاحظ دقة ألفاظ القرآن، وبلاغة أساليبه، مما ينأى به عن أي توهم لوجود الخطأ فيه.

---

١ . التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون، تونس، مجلد ٦، ج١١، ص ١٣٥ : ١٣٨، بتصرف.

٢ . التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، م٦، ج١١، ص ١٣٨، ١٣٩، مرجع سابق بتصرف.

الشبهة الثامنة والعشرون

توهُّم اضطراب القرآن في نَصْب المضاف إليه(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن القرآن خالف قواعد اللغة حين نصب المضاف إليه **ضَرَّاءَ** في قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ (هود: ١٠)، والصواب في ظنِّهم أن يُجرَّ المضاف إليه ويُقال: **ضَرَّاءٍ** بكسر الهمزة(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في المضاف إليه أن يُجرّ، والأصل في الجر أن يكون بالكسرة، فالكسرة علامة الجر الأصلية، وغير المتمكن من اللغة عندما يقرأ قوله تعالى:

---

*. رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت. الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر.

**. يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية: إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه، فلا يتذكر ما مضى، ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له، وهو فَرِح بَطِرٌ بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء، لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه، ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة، أو يحسب لزوالها حسابًا. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٩٨٧، ١٤٠٧هـ جـ ٤، ص ١٨٦٠).

كما جاء في المفردات في غريب القرآن في معنى (الضراء): سوء الحال إما في نفسه لقلة العلم، والفضل، والعفة، وإما في بدنه لعدم جارحةٍ ونقص، وإما في حالة ظاهرةٍ من قلة مالٍ وجاهٍ، والضراء يُقَابلُ بالسراء والنعماء، والضر بالنفع. (المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ص ٢٩٣، ٢٩٤).

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾، يظن في كلمة **ضراء** خطأ في الإعراب ولحنًا؛ حيث جاءت بالفتحة مخالفة بذلك أصل الجر، وهو بالكسرة، وكان الصواب في ظنهم أن يقول **ضراء**، فتكون علامة جرها الكسرة، وهذا الزعم باطل من وجهين:

١) **ضرّاء** مضاف إليه ممنوع من الصرف؛ لانتهائه بألف التأنيث الممدودة، والممنوع من الصرف يُجرُ بالفتحة نيابة عن الكسرة.

٢) ليست الكسرة وحدها علامة الجر في العربية، فهناك الياء والفتحة - كما سيأتى بيانه - وبذلك يتضح الخطأ الفاضح الذى وقع فيه هؤلاء المتوهمون، والذي لا أساس له من الصحة.

التفصيل:

أولاً. جاءت كلمة **ضراء** - في الآية الكريمة - مضافًا إليه، والأصل في المضاف إليه الجر بالكسرة، وهي علامة أصلية، وتوجد في اللغة العربية علامات فرعية - أيضًا - تُستخدم بدلاً من العلامات الأصلية، وهذا ما حدث في كلمة **ضراء** التي معنا، فقد نابت الفتحة عن الكسرة في الجر؛ لأن الكلمة ممنوعة من الصرف [١]؛ لأنها تنتهي بألف التأنيث الممدودة، مثل: صحراء وبيضاء، والممنوع من الصرف يُرفع بالضمة، ويُنصب ويُجر بالفتحة، إلا إذا عُرِّف بأل، أو أُضيف إلي غيره، فيجر بالكسرة.

ثانيًا. لا يخفى على أحد ممن يفهم العربية الفصحى أن الكسرة ليست وحدها علامة الجر في العربية، فالجر قد يكون بالكسرة على الأصل، وقد يكون

١ . المنصرف: مصطلح نحوي يطلق على الاسم المنون، ويقال: المنصرف والمصروف، وعكسه الممنوع من الصرف: وهو الاسم الذي يُمنع من التنوين.

بالياء ـ وهي علامة فرعية ـ كما في جمع المذكر السالم والمثنى، وقد يكون بالفتحة كما هو في الممنوع من الصرف.

وعلى هذا تكون كلمة ضراء مجرورة وليست منصوبة ـ كما يتوهم بعضهم - وكل ما حدث أن الفتحة نابت عن الكسرة في الجر، وهذا معلوم لدى أرباب الفصاحة والبيان.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- أول ما يطالعنا في هذه الآية هو مراعاة النظيرين: **نعماء، ضراء**؛ حيث قال ﷻ: **نعماء**، ولم يقل **نعمة**، مع العلم أن لفظة **نعماء** لم ترد في التنزيل إلا في هذه الآية.

وقد جاء في التحرير والتنوير: إن اختيار لفظ **نعماء** مع أن النعمة أشهر؛ لمراعاة النظير بين اللفظين[1]. وجاء في تفسير الشعراوي كلام جميل ينضح بالبلاغة، حيث قال: هناك فرق بين نعماء ونعمة، وضراء وضرّ؛ فالضرّ: الشيء الذي يؤلم النفس، والنعمة: الشيء الذي تتنعم به النفس، ولكن التنعم والألم قد يكونان في النفس، ولا ينضح أي منهما على الإنسان، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها: نعماء، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال ضراء[2].

- ومن الأسرار البلاغية في الآية الكريمة كذلك إسناد الإذاقة إليه ﷻ دون المس، فقد جاء في تفسير الألوسي: إن إسناد الإذاقة إليه ﷻ دون المس، إشعار بأن

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس م٦، ج١٢، ص ١٤، بتصرف يسير.

٢. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم - قطاع الثقافة، جـ١٠، ص ٦٣٥٢.

إذاقة النعمة مقصود بالذات دون مس الضر، وعلَّل البقاعي عدم إسناد المس إليه ﷻ قائلاً: ولم يُسند المس إليه ﷻ كما فعل في النعماء؛ تعليمًا للأدب، كما علل الألوسي ذلك بقوله: إنه لم يؤت ببيان تحول النعمة، بل خُولف التعبير فيهما؛ حيث بُدئ في الأول بإعطاء النعمة وإيصال الرحمة، ولم يُبدأ في الثاني بإيصال الضر على نمطه؛ تنبيهًا على سبق الرحمة على الغضب، واعتناءً بشأنها، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما، وكونهما مما يرغب فيه، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى، ولعله يقوي عظم شأن الرحمة[1].

١ . تفسير الألوسي، آية ١٠ سورة هود.

الشبهة التاسعة والعشرون

الزَّعم بأنَّ القرآن الكريم تحدّى الضُّعفاءَ فقط(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم قد تحدّى الجاهلين والضعفاء ومن لا قدرة لهم على التحدى فقط ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣)(**)، والتحدى لا يكون للضعيف المغلوب، بل للأقران الأكْفاء، ويشككون بذلك فى كون القرآن الكريم كلام الله تعالى، وكونه معجزًا.

وجوه إبطال الشبهة:

إن الأصل فى الإعجاز - كما بيَّنه علماء المعانى والبلاغة - أن يكون فيما يجيده الخصم ويتمكن منه - ويكون بذلك نِدًّا لمن يتحداه ويعجزه.

وقد زعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم قد تحدى بقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ تحدى الضعفاء والجاهلين، ومن هنا - كما فى زعمهم - لا قيمة للتحدى، ولا أساس للإعجاز. إذ يجب أن يكون التحدى للنظير الكفء وقد أبطل علماء البلاغة هذه الشبهة من وجوه هى:

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة.

(**) جاء في صفوة التفاسير في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أن محمدًا اختلق هذا القرآن وافتراه من عند نفسه، وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، معناه: إن كان الأمر كذلك - من أن محمدًا اختلق القرآن كما تقولون - فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات، فأنتم عرب فصحاء ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن هذا القرآن مفترى. (صفوة التفاسير: الصابوني: جـ٢، طبعة السيد حسن عباش الشربتلي، ص ٥٩٣).

١) القرآن كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمدﷺ ، معجز فى نظمه ولفظه محتوٍ على كل صنوف الإعجاز، فهو معجز فى لغته وبيانه، كما أنه معجز فى تشريعاته وحقائقه العلمية.

٢) القرآن الكريم تحدى أهل الفصاحة والبيان من العرب مجتمعين ومفترقين، بل وتحداهم مع قرنائهم من الجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة من مثله فعجزوا، وما يزال التحدى قائماً إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة ولن يستطيعوا.

٣) كل المحاولات التى أرادوا بها معارضة القرآن باءت بالفشل، بل وقد اعترف فصحاء العرب بقمة بيان لغة القرآن وبلاغته، وأنه ليس بكلام بشر.

التفصيل:

أولاً.القرآن كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ ومعجز فى نظمه ولفظه، محتوٍ على كل صنوف الإعجاز فهو معجز فى لغته وبيانه كما أنه معجز فى تشريعاته وحقائقه العلمية، والحق الذي لا مرية فيه أن القرآن كتاب الله ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود : ١)، وقد تأكد ذلك المعنى كثيراً فى مواجهة الماديين المشركين سواء فى رد افتراءاتهم، أو فى تحديه لهم، وإعجازه إياهم[1].

أما رد افتراءاتهم. فمنها فى سورة الطور المكية قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ

(١) القرآن الكريم فى مواجهة الماديين الملحدين، أحمد عبد الحميد الشاعر، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ، صـ٩٩-١١١

الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(الطور : ٢٩: ٣٤).

وفى سورة الحاقة وهى مكية أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة : ٣٨: ٥٢).

وهكذا يمضي القرآن فى كثير من سوره ليؤكد تلك الحقيقة، وعلى الأخص فى سوره المكية.

ومما يلفت النظر فى افتتاح الكثير من السور المكية والمدنية إقرار تلك الحقيقة ابتداءً؛ لأنها الحق والحق ثابت لاشك فيه مهما عارض المعارضون، وأنكر الملحدون.

ولا يكون الإعجاز إعجازا صحيحا، إلا إذا توافرت للمتحدِّي أسباب القدرة التى تمكنه من محاولة التصدى والتحدي. والمعروف، أن العرب ـ وقت نزول القرآن ـ أهل فصاحة وبلاغة، وقد فشلوا فشلا ذريعا، وعجزوا عجزًا تاما عن معارضة القرآن.

أما الزعم بأن الإعجاز القرآنى تم بالصرفة فهو زعم خاطئ، وقد قال بهذا الرأي المعتزلة وخاصة: النظَّام الذي ذكر أن الله ﷻ صرفهم عن تلك المعارضة، وسلبهم القدرة عليها ومن هنا كان الإعجاز.

إن مثل هذا الزعم كمثل من أوثق غريمه المريض ثم انهال عليه ضربا ثم قالوا: إنه أعجزه وانتصر عليه، أليس ذلك بسفيه؟! وإذا كان القرآن معجزا، فبأى وجه كان إعجازه؟

أما إذا ما رغبنا فى الكشف عن وجوه إعجاز القرآن، فقد تعددت الوجوه بتعدد تخصصات العلماء: من العقيدة، إلي علوم القرآن، إلي البلاغة إلي العلم التجريبى، ولكل وجهة هو موليها، وفق رغبته، وحسب تخصصه، ومن ثم قالوا بالإعجاز اللغوي والبياني، كما قالوا: بالإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي.[1]

والرأى عندنا ، أن هذا التنوع فى الوجوه يعضد بعضها بعضًا، وليس ثمة تعارض بين بعضها البعض، ولهذا يصح لنا القول: بأن الإعجاز القرآنى إعجاز مطلق، بكل ما تحتمل كلمة الإعجاز من معنى دقيق وعميق. يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه " إعجاز القرآن:إن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، وحين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا، وليس إلى ذلك مأتى ولا وجهة.

وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها فى إعجاز الصنعة، وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرّغةٌ إفراغا من ذوب تلك المواد كلها، وما تظنه إلا الصورة الروحية للإنسان إذا كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله، فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز

١. يراجع فى ذلك إعجاز القرآن لأبى يزيد الواسطى، وإعجاز القرآن للباقلانى، ودلائل الإعجاز للجرجانى، وإعجاز القرآن للرافعى، ومناهل العرفان للزرقانى، وغير ذلك كثير فى المكتبة الإسلامية.

في أثره الإنساني، ومعجزٌ كذلك في حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شئ.[1]

وإذا كان الإعجاز القرآني مطلقا فإن جهود العلماء قد توافرت في الكشف عن وجوه ذلك الإعجاز في مختلف الأنحاء. وقد كتب في ذلك الشيخ الزرقاني بحثا خاصا[2] ممتعاً في كتابه " مناهل العرفان " ضمَّنه أربعة عشر وجها من وجوه الإعجاز في القرآن.

وتلك الوجوه تدور حول: لغة القرآن وأسلوبه، وطرق تأليفه، وعلومه، ومعارفه، ووفائه بحاجات البشر، وموقف القرآن من العلوم الكونية وسياسته في الإصلاح، وأنباء الغيب فيه، وآيات العتاب فيه، وما نزل بعد طول انتظاره، ومظهر النبي عند نزول الوحي عليه، وآية المباهلة، وعجز الرسول عن الإتيان بمثله، والآيات التي تجرد الرسول من نسبة القرآن إليه، وتأثير القرآن ونجاحه.

هذا ما يراه الشيخ الزرقاني رحمه الله. وهو حق كله؛ لأن القرآن معجز من أي وجه نظرت إليه فيه.

تلك الخصائص التي جعلته يتوجه إلى كل إنسان على وجه الأرض منذ اللحظة الأولى لنزوله إلى ان تقوم الساعة، رغم اختلاف العقول، وتباين المدارك، وتضارب الثقافات، واختلاف الزمان والمكان.

إنه لم يتوجه إلى الناس في عقولهم فحسب، ولا إلىعواطفهم فقط، وإنما هو يخاطب فيهم العقل والقلب والوجدان، ومن هنا أصبح ميسورا على كل إنسان أن يجد فيه حظه، ويأخذ منه طَلِبَتِهِ طالما هو ينشد الحق، ويستهدف الخير.

١. إعجاز القرآن للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ص١٥٧.

٢. يراجع المبحث السابع عشر من ٣٣١-٤٣٥ من الجزء الثاني مناهل العرفان في علوم القرآن.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (القمر : ١٧).

إن القرآن ليس معجزة فحسب، بل هو معجزة المعجزات. ذلك أنه الوعاء الكامل للرسالات الإلهية فى تمامها وكمالها.

ويقول الشيخ الزرقانى رحمه الله " إن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات، لا معجزة واحدة، كما يبدو لبعض السذج والسطحيين، وإذا أضفنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز؛ تراءات لنا معجزات متنوعات تَجِلُّ عن الإحصاء، والتَّعداد، وسبحان من يجعل من الواحدة كثرة؛ ومن الفرد أمة"[(١)]

إننا حينما نرصد الآيات القرآنية الكريمة فى هذه القضية، يتضح لنا أن القرآن قد تحدى به الله المشركين ومن على شاكلتهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، وهذا التنزل فى التحدي يدل على أمرين:

الأمر الأول: منتهى التحدي والإعجاز.

والأمر الثانى: أن أقل قدر ممكن فى الإعجاز القرآني، يصدق بسورة منه وهذه الأخيرة منها الطويلة ومنها القصيرة؛ وبمقتضى منهج القرآن فى التنزل بالتحدي يتضح أن أصغر سورة قرآنية هى أقل قدر معجز من القرآن.

ويصدق ذلك على سورة " الكوثر" ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر ١-٣)، وهذا كله مصداق قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

(١) مناهل العرفان ص ٣٣٦ جـ٢.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٣،٢٤).

ويتضح من هذه الآية الكريمة ومثيلاتها فى كتاب الله تعالى؛ أن القرآن لا يتحدى فردا ، أو جماعة محددة من الناس، وإنما يتحدى أمة بل يتحدى العالم كله.

ثانيًا. القرآن الكريم تحدى أهل الفصاحة والبيان من العرب مجتمعين ومفترقين، بل وتحداهم مع قرنائهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وما يزال التحدى قائما إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة ولن يستطيعوا.

ذلك أن القرآن الكريم تحدث إلى المشركين من العرب ـ وهم أهل فصاحة وبلاغة مشهودة ـ ويتحداهم بل يتحدى جمع المقرضين والنثريين أن يأتوا بمثل ما أتى به من نص معجز معصوم من الخطأ.

وفى هذا التحدي ينهج القرآن نهجاً تنُزليا مع الملحدين. حيث يتنزل معهم إلى أقل ممكن من التحدى. حتى لا تكون لهم حجة. وتثبت عليهم الحجة.

ومن هذا المنطلق يتحدى القرآن كل من تسول له نفسه بالتطاول عليه، بأن يأتى بمثله، وليستعن على ذلك بمن يستطيع معاونته من البشر.

تؤكد سورة الإسراء تلك الحقيقة الناصعة فى الإعجاز القرآنى، وأن الإنس والجن معا لو اجتمعوا على قلب رجل واحد منهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلن يأتوا بمثله، وفي ذلك تقول السورة الكريمة: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء : ٨٨).

ولمَّا عجز المشركون عن الإتيان بمثل القرآن تراه يتنزل معهم في التحدى إلى مستويات أقل خطورة من التحدي الأول، فيتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله،

وسورة هود تعرض لهذا التحدي، في سخرية ومشاكلة عجيبة إذ تقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (هود ١٣،١٤).

ومن البديهي أن يعجز الماديون المشركون عن مواجهة ذلك التحدى الأدنى، ورغم ذلك يدفعهم العناد والإصرار إلي المكابرة بتوالى افتراءاتهم وأكاذيبهم على الله، وهنا يتنزل القرآن معهم إلى أقل قدر ممكن يتحقق معه الإعجاز، ومن ثم يطلب إليهم بأن يأتوا بأية سورة ولو كانت قصيرة.

وفى ذلك تقول سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(يونس : ٣٨)، كما تؤكد سورة البقرة هذا التحدى فتقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٣-٢٤).

واضح من كل ما سبق أن القرآن يتحدى المشركين وأشباههم فى:

- أن يأتوا بمثله.
- أو بعشر سور من مثله.
- أو بسورة على الأقل من مثله.

ورغم كل هذا التنزل فى التحدي لن يفلح المشركون فى الإتيان بمثله.

ثالثا. كل المحاولات التى أرادوا بها معارضة القرآن باءت بالفشل ، بل واعترف المكذبون للقرآن ببلاغته وأنه ليس بكلام مخلوق من المخلوقات.

لقد حاول بعض المشركين معارضة القرآن بكلام مسجوع موزون، وظنوا أنهم بذلك التطاول على القرآن ، ينالون منه ، ويصرفون الناس عنه.

ومن هؤلاء من ادَّعى النبوة، وزعم أن وحياً يأتيه من السماء، وأن له قرآنا مثل قرآن محمدﷺ.

إن مسليمة الكذاب واحد من هؤلاء الأدعياء، فقد ادَّعى النبوة باليمامة زمن رسول الله ﷺ ، ويقول عنه الرافعى: قد زعم مسليمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء، ويأتيه به ملك يسمى "رحمن"، بيد أن قرآنه إنما كان فصولا وجملا، بعضها مما يرسله، وبعضها مما يترسل به فى أمر إن عرض له، وحادثة إن اتفقت، ورأى إذا سئل فيه، وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن فى تراكيبه، ويجنح فى أكثرها إلى سجع الكهان.

وقد اتُّهم ابن المقفع بمعارضة القرآن، ولكن الرافعى يدفع تلك التهمة ويقول: "وإن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء، إلا لأنه من أبلغ الناس... وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس؛ لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده، وكان البلغاء كافة لا يمترون فى إعجاز القرآن وإن اختلفوا فى وجه إعجازه؛ ثم كان ابن المقفع متهمًا عند الناس فى دينه فدفع بعض ذلك إلى بعض، وتهيأت النسبة من الجملة"[1]

وقد نُسب إلى الشاعر أبي الطيب المتنبي أنه عارض القرآن، وأنه لا سيما ادَّعى النبوة فى حدثان أمره، على حد عبارة الرافعى.

---

[1]. إعجاز القرآن ص ١٧٩، مرجع سابق.

كما نسبت المعارضة أيضًا إلى أبى العلاء المعري، وغيره، والنتيجة الحتمية لكل ذلك من قبل ومن بعد: أنه ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء : ٨٨).

إن هؤلاء يعرفون تلك الحقيقة، ولكن يدفعهم إلى عنادهم وإصرارهم ذلك الحقد الدفين فى قلوبهم.

تلك هى الحقيقة التى سجَّلها القرآن الكريم فى واقعة الوليد بن المغيرة وموقفه من القرآن. حسبما تنطق بذلك سورة "المدثر" فتقول عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر ١١- ٣٠).

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره عن أبى جرير عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة، جاء إلي النبى ﷺ ؛ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه "فقال: أى عم: إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا.

قال: لم ؟ قال: يعطونكه. فإنك أتيت محمدا تعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالا. قال أبو جهل: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له. قال الوليد: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً

من هذا. والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته. وإنه ليعلو ما يعلى.

قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال فدعنى حتى أتفكر فيه. فلما قال: إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ (المدّثر : ١١)، حتى بلغ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدّثر : ٣٠). أ.هـ[1]

وقد حكى الرافعي شيئًا من هذا القبيل فقال: قد رووا أن طلحة النمري جاء اليمامة فقال: أين مسيلمة؟ قالوا: مه! رسول الله. فقال: لا حتى أراه. فلما جاءه مسيلمة قال: أنت مسيلمة. قال: نعم. قال: مَن يأتيك؟ قال: رحمن. قال: أفي نور أم في ظلمة؟ قال: في ظلمة. قال طلحة: أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

الأسرار البيانية في الآية:

- **أم:** هذه منقطعة بمعنى: **بل** التي للإضراب، للانتقال من غرض إلى آخر، إلا أن **أم** مختصة بالاستفهام فتقدر بعدها همزة الاستفهام، والتقدير: بل يقولون افتراه، والإضراب الانتقالي في قوة الاستئناف الابتدائي، فللجملة حكم الاستئناف، والمناسبة ظاهرة؛ لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجة.[1]

(١) تفسير ابن كثير فى سورة المدثر

١. تفسير التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م، ص ١٩، ٢٠، باختصار.

• الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ استفهام استنكاري، فالله سبحانه وتعالى ينكر عليهم قولهم، جملة ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ جواب لكلامهم، فلذلك فُصِّلت على ما هو مستعمل في المحاورة، سواء أكانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول، أم كانت أمرًا بالقول قوله ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ .

• بالمماثلة في قوله: ﴿مِثْلِهِ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه، قال علماؤنا: وهذا دليل على أن إعجازه وفصاحته بقطع النظر عن علو معانيه، وتصديق بعضه بعضًا.

• الدعاء في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ بمعنى: النداء لعمل. وهو مستعمل في الطلب مجازًا ولو بدون نداء. وحذف المتعلق لدلالة المقام، أي: وادعوا لذلك، والأمر فيه للإجابة، أي إن شئتم حين تكونون قد عجزتم عن الإتيان بعشر سور من تلقاء أنفسكم فلكم أن تدعوا من تتوسمون فيه المقدرة على ذلك، ومن ترجون أن ينفحكم بتأييده من آلهتكم وبتيسير الناس ليعاونوكم كقوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

ومن خلال ما سبق يتضح أن القرآن لم يتحدَّ الضعفاء بل تحدى من تحدوه، من فصحاء العرب وبلغائهم والذين نزل القرآن لحضرتهم، ولا يزال هذا التحدى قائما وسيظل إلى قيام الساعة، ولن يستطيع أحد أن يقبل هذا التحدى مهما أوتى فصاحة وبيانًا؛ وذلك يبطل زعم الزاعمين.

الشبهة الثلاثون

توهُّم اضطراب القرآن الكريم في تذكير الفعل مرَّة وتأنيثه أخرى مع فاعل واحد(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن بالقرآن اضطرابًا، يتمثل فى تذكير الفعل تارة، وتأنيثه تارة أخرى، والفاعل مؤنث في الحالتين، ويستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ (هود: ٩٤)، فقد جاء الفعل **أخذت** مؤنثًا، والفاعل **الصيحة** مؤنثا أيضًا.

أما في قوله عز وجل: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ (هود: ٦٧). فقد جاء الفعل **أخذ** مذكرًا والفاعل **الصيحة** مؤنثا (**).

(*) www.quartos.org.lb

(**) جاء في روح المعاني للألوسي في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قوم شعيب، وعدل عن الضمير إلى الظاهر؛ تسجيلا عليهم بالظلم، وإشعارًا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أي: صيحة جبريل، أو صيحة من السماء فيها كل صاعقة وصوت مفزع، وهي على ما في "البحر" فَعْلَة للمرة الواحدة من الصياح، يقال: صاح يصيح إذا صَوَّت بقوة .... ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ أي: منازلهم ومساكنهم، وقيل: بلادهم. ﴿جَاثِمِينَ﴾ : هامدين موتى لا يتحركون. (روح المعاني: للألوسي، عند تفسير قوله ﷻ :﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾(هود: ٩٤)

وجاء في صفوة التفاسير: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: أخذتهم الصيحة من السماء التي تقطعت لها قلوبهم، فأصبحوا هامدين موتى، لا حراك بهم، كالطير إذا جثمت، كأن لم يقوموا في ديارهم، ولم يعمروها من قبل. وأما قوله: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي: أخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب.

قال القرطبي: صاح بهم جبريل صيحة، فخرجت أرواحهم من أجسادهم، فأصبحوا موتى هامدين لا حراك بهم.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى الفعل أن يطابق فاعله فى التذكير والتأنيث، وهذا ما نلحظه فى لغة القرآن الكريم، أما ما توهمه بعضهم من اضطراب مخالف للقاعدة بين الفعل وفاعله فى هاتين الآيتين، فزعم باطل لما يأتي:

- هناك قاعدة نحوية تقول: إن تأنيث الفعل مع فاعله المؤنث جائز إذا كان الفاعل:

١) حقيقي التأنيث، مفصولًا عن فاعله، بفاصل.

٢) ظاهرًا مجازي التأنيث.

٣) جمع تكسير.

التفصيل:

إن تذكير الفعل مع فاعله المؤنث جائز إذا كان الفاعل:

١. حقيقي التأنيث، مفصولاً عن فعله بفاصل، مثل: آمنت بالرسول خديجة، ويجوز فيها: آمن بالرسول خديجة.

٢. ظاهرًا مجازي التأنيث، مثل: وقعت حرب بين تغلب وبكر، وبقيت زمنًا طويلاً، ويجوز فيها: وقع حرب بين تغلب وبكر، وبقيت زمنًا طويلًا.

٣. جمع تكسير، مثل: "جالت الأبطال في الميدان" ويجوز فيها: "جال الأبطال في الميدان"، فَصحَّ مجيء الفعل **أخذ** مذكرًا في الآية: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ لأمرين:

أولهما: أن الفاعل **الصيحة** ظاهر، ومجازي التأنيث.

قال ابن كثير: وذكره ههنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم النقم كلها، وإنما ذكر كل منها في سياق ما يناسبه. (صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، بيروت، ج٢، ص ٦٠٧: ٦١٥بتصرف يسير).

ثانيهما: أن الفعل وقع بينه وبين الفاعل فاصل، وهو المفعول به الذين.

وقد جاء في الشعر العربي ما يؤيد ذلك؛ إذ يقول الشاعر:

إنَّ امــرأً غَــرَّه مِــنْكُنَّ وَاحِــدَةٌ   بَعْـدِى وبَعْـدَكِ فـى الـدُّنْيَا لمغْـرُورُ

فقد ذكَّر الشاعر الفعل: "غرَّه" مع الفاعل المؤنث: "واحدة" وكان من المتوقع أن تأتي: "غرته"، لكن جاز ذاك للفصل بين الفعل والفاعل بشبه الجملة: "منكن".

وعليه فلا يوجد ثمَّة تعارض بين الآيتين؛ إذ الفاعل في الآيتين مجازي التأنيث ومفصولٌ عن الفعل بفاصل هو المفعول به، ومن ثم يجوز فيه التذكير والتأنيث طبقًا للقاعدة النحوية.

الشبهة الحادية والثلاثون

دعوى اضطراب القرآن في مجئ جمع القلة في موضع جمع الكثرة (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم لم يوافق اللغة العربية فى قوله ﷻ: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف: ٤٣)؛ حيث جيء بجمع القلة **سنبلات** موضع جمع الكثرة **سنابل**، والصواب فى زعمهم أن يُقال: سبع سنابل خُضْر(**).

وجوه إبطال الشبهة:

(*) عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق مصر.

(**) يقول القرطبي في جامعه: "قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ لما دنا فرج يوسف ﷺ رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج، وقال: إن الله مخرجك من سجنك، ومُمَكّن لك في الأرض، يُذَلّ لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومُعْطِيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أوّلاً ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرًا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد، رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقراتٍ سمانٍ، في أثرهنّ سبع عجاف ـ أي مهازيل ـ وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبع يابسات، فأكلنهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كن عجافًا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس، أهل العلم منهم، والبصر بالكهانة، والنّجامة، والعِرَافة، والسِّحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فقص عليهم، فقال القوم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، أي: أخلاط أحلام. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ج٩، ص١٩٨، ١٩٩.

الجمع فى اللغة قسمان: جمع سالم، وجمع تكسير، وجموع التكسير نوعان: جمع قلة، وجمع كثرة، وقد أجمع النحويون على أن جموع القلة ما كان للأعداد من ثلاثة إلى عشرة. وصيغ جموع القلة تأتى على أوزان مختلفة هى: أفعُل، وأفعال، وأفعِلة، وفِعلَة، وأضاف الفرَّاء إليها: فعل، وفُعَل هذه الأوزان، ويضاف إليها جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم.

وقد زعم بعض أصحاب الشبهات أن فى القرآن الكريم تناقضًا واضطرابًا؛ حيث يظنون أنه قد استخدم جمع القلة في موضع جمع الكثرة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ ﴾ ليوسف : ٤٣] ويزعمون في ذلك اضطرابًا والصواب فى زعمهم أن يقال: سبع سنابل خضر" ليوافق الجمع عدده.

وهذا الزعم مردود من وجوه:

١) أن الآية مستقيمة وموافقة لقواعد اللغة العربية؛ لأن الأعداد من (٣.١٠) يُعبَّر عنها بجمع القلة، وقد ذكر النحاة أن هذه الأعداد تشارك أبنية القلة في الدلالة على جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم.

٢) أنه لما عطف قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ على ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ وجاوره، حسن فيه الجمع بالألف والتاء.

٣) إذا كان القصد من كلامهم أن كلمة **سنبلة** لا تجمع بالألف والتاء فهم مخطئون خطأ شنيعًا؛ لأن النحاة والصرفيين قد نصوا على أن كل ما ينتهي بالتاء يجمع جمعًا سالمًا.

التفصيل:

أولاً. الآية مستقيمة، وموافقة لقواعد اللغة العربية؛ لأن الأعداد من (٣ ـ ١٠) يعبر عنها بجمع القلة، وقد ذكر النحاة، أنه يشارك أبنية القلة في الدلالة جمعا التصحيح للمذكر

والمؤنث. (جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم). قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ (يوسف: ٤٣).

إن ورود الكلمتين "بقرات وسنبلات" في الآية جمع مؤنث سالم هو من الجموع التي تنصرف إلى القلة في الغالب، (**نقول في الغالب**)؛ لأنه قد يأتي من الأسماء المؤنثة، وغيرها ما لا يجمع إلا بالألف والتاء، فلا يمكن في هذه الحالة أن ينصرف إلى القلة إلا بقرينة كالعدد وغيره، فإذا قلنا: حمامات، فهي جمع كثرة إلا إذا قلنا: سبع حمامات.

من ثم فإن كلمة **سنابل** جمع كثرة، ولا يعبر به عند جمهور النحاة عن الأعداد من (٣-١٠)، إلا بقرينة كالعدد وغيره، كما في سورة "يوسف" في قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ ، قال الزمخشري: فإن قلت هلاّ قيل: "وسبع سموات" على حقه من التيسير لجمع القلة، كما قال: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ من وقوع أمثلة الجمع متجاورة مواقعها، فجعل هذا من باب الاتساع، ووقوع أحد الجمعين موقع الآخر على سبيل المجاز، إذ كان حقه أن يُميز بأقل العدد[1].

قال شهاب الدين: اعلم أن جمعي السلامة لا يميز بها عدد، إلا في موضعين:

أحدهما: ألا يكون لذلك المفرد جمع سواه، نحو **سبع سموات**، و**تسع آيات**؛ لأن هذه الأشياء لم تجمع إلا جمع السلامة.

---

١. البحر المحيط، لأبي حيان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ .

والثاني:أن يَعْدِل إليه لمجاورة غيره، كقوله تعالى: ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ ، (يوسف: ٤٣، ٤٦)، عدل من **سنابل** إلى **سنبلات** لأجل مجاورته **سبع بقرات**؛ ولذلك إذا لم توجد المجاورة، مُيِّز بجمع التكسير دون جمع السلامة[1].

ثانيًا. لمَّا عطف قوله تعالى: ﴿سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ على ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ وجاوره، حَسُن فيه جمعه بالألف والتاء، وهو ما ألمح إليه الشهاب آنفا، وتفصيله الآتي:

ذلك أنه لو لم يعطف ولم يجاور لكان **سبع سنابل**، ولذلك إذا عَرِيَ عن المجاور جاء على **مفاعل** في الأكثر والأولى وإن كان يجمع بالألف والتاء، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ و ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ ، فلم يقل طريقات ولا ليلات، وإن كان جائزًا في جمعه أن يكون جمع سلامة، فتقول: مسكينون ومسكينين، وقد آثروا ما لا يماثل **مفاعل** من جموع الكثرة على جمع التصحيح، وإن لم يكن هناك مجاور يقصد مشاكلته لقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ وإن كان جائزًا فيه أن يجمع بالألف والتاء؛ لأن مفرده حجة، فتقول: **حجات**.

فعلى هذا الذي تقرَّر إذا كان للاسم جمعان: جمع تصحيح، وجمع تكسير، فجمع التكسير إما أن يكون للكثرة أو للقلة، فإن كان للكثرة، فإما أن يكون من باب **مفاعل**، أو من غير باب **مفاعل**، فإن كان من باب **مفاعل** أوثر على جمع التصحيح، فنقول: **جاءني ثلاثة أحامد، وثلاث زيانب**، ويجوز التصحيح على القلة، فتقول: **جاءني ثلاثة أحمدين، وثلاثة زينبات**، وإن لم يكن من باب **مفاعل**، فإما أن يكثر فيه غير التصحيح، وغير جمع الكثرة، فلا يجوز التصحيح، ولا جمع الكثرة إلا

---

١ . تفسير اللباب، ابن عادل، عند تفسير قوله: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ .

قليلًا، مثال ذلك: **جاءني ثلاثة زيود، وثلاثة هنود، وعندي ثلاثة أفلس**، ولا يجوز: **ثلاثة زيدين**، ولا **ثلاثة هندات**، ولا **ثلاثة فلوس** إلا قليلًا، مثال ذلك: **ثلاث سعادات، وثلاث شسوع**، ويجوز على القلة: **ثلاث سعائد، وثلاثة أشسع**، فإذا تقرر هذا فقوله: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، فلأجل المجاورة كما تقدم.

وتحصل من هذا الذي قررناه أن قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ ، إنما جاء على ما تقرر في العربية من كونه جمعًا متناهيًا، وأن قوله: ﴿سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ﴾ ، إنما جاء لأجل مشاكلة: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ ومجاورته، فجاءت **سنبلات** منتهية بالألف والتاء لمجاورتها وعطفها على بقرات[1].

وقيل: لما كان الكلام في قوله: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ ، في تضعيف الأجر، ناسبها جمع الكثرة. أما في سورة يوسف فقد ذُكرت في سياق الكلام عن سني الجدب، فناسبها التقليل فجمعت جمع قلة.

ثالثًا. أما إذا كان القصد من كلامهم أن كلمة **سنبلة لا** تجمع بالألف والتاء فهم مخطئون؛ لأن النحاة والصرفيين قد نصوا على أن كل ما ينتهي بالتاء يجمع جمعًا مؤنثًا سالمًا، سواء أكان علمًا مؤنثًا، مثل: فاطمة، وكريمة، أم مذكرًا، مثل: طلحة، أم لم يكن علمًا أصلاً، مثل: بقرة، وثمرة، وسنبلة، فجمعها على التوالي: بقرات، وثمرات، وسنبلات ومن ثم فجمع "سنبلات" ليس جمعًا شاذًّا ليعترضوا عليه.

الأسرار البلاغية في الآية:

1. البحر المحيط، لأبي حيان، عند تفسير قوله: ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ ، مرجع سابق.

- التعريف في **الملك** للعهد، أي: ملك مصر، وسماه القرآن هنا ملكًا، ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة (ملوك مصر القبط) ، وإنما كان ملكًا لمصر أيام أن حكمها الهكسوس، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، فالتعبير عنه بـ **الملك** في القرآن، دون التعبير **بفرعون**، مع أنه عبَّر عن ملك مصر في زمن موسى عليه السلام بلقب **فرعون**، هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي، وقد وقع في التوراة إذ عبر فيها عن **ملك** في زمن يوسف عليه السلام **بفرعون**، وما هو **بفرعون**؛ لأن أمته ما كانت تتكلم القبطية، وإنما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف عليه السلام في آخر أزمان حكم ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك.

- وقوله: **سمان** جمع سمينة وسمين، مثل كرام، وهو وصف لـ **بقرات**، **وعجاف** جمع **عَجْفَاء**، والقياس في جمع **عجفاء: عُجْف**، لكنه صيغ هنا بوزن **فعال** لأجل المزاوجة لمقارنه وهو **سمان**، كما قال الشاعر:

هتَّاك أخبية ولأَّج أبوبة

والقياس: أبواب، ولكنه حمله على أخبية[1]، وكذلك جاء بـ **عجاف** وحُسنه هنا مناسبته لسمان[2].

- في قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى[3].

---

١ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، المجلد السادس، ص ٢٨٠.

٢ . تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ج١٢، ص ٣١٧.

٣ . المرجع السابق، جـ ١٢، صـ٣١٧.

يقول الطاهر بن عاشور: وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به، وكان الكهنة منهم يعدونه من علومهم، ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم، وقد وُجدت في آثار القبط أوراق من البردي فيها ضوابط، وقواعد لتعبير الرؤى، فإن استفتاء صاحبي السجن يوسف ﷺ في رؤييهما، ينبئ بأن ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه، ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يُظن بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهان من شأنهم تعبير الرؤيا، والاهتمام بهذه الرؤى يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر، وأن الهبة اللّدنية التي وُهِبَها يوسف كانت من روح العصر وجوِّه على ما نعهد في معجزات الأنبياء[1].

1 . التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، جـ٦.

الشبهة الثانية والثلاثون

توهُّم مخالفة القرآن الكريم قواعد اللغة في عدم مطابقة الخبر للمبتدأ في العدد(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المدعين أن القرآن خالف قواعد اللغة العربية في عدم المطابقة بين الخبر والمبتدأ في العدد، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ (الحجر: ٦٨)، حيث جاء المبتدأ اسم إشارة **هؤلاء** يدل على الجمع، بينما جاء الخبر ضيفي مفردًا، والصواب في ظنهم أن يقال: هؤلاء ضيوفي، بجمع الخبر(**).

وجه إبطال الشبهة:

الأصل في الخبر المفرد أن يطابق المبتدأ في نوعه تذكيرًا وتأنيثًا، وفي عدده إفرادًا وتثنيةً وجمعًا.

ومن لا يتدبر قوله تعالى: ﴿ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾، يظن مخالفةً بين الخبر والمبتدأ في العدد، إذ جاء الخبر **ضيفي** مفردًا، في حين جاء المبتدأ **هؤلاء** جمعًا، وهذا ليس بخطأ كما زعموا؛ لأن علماء اللغة قالوا: إن كلمة ضيفي جاءت هنا مصدرًا،

*. www.alkalema.com

(**) لقد سُبقت هذه الآية الكريمة بآية يقول فيها ﷻ: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، قال صاحب الظلال في تفسيره للآيتين: إن التعبير بهذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم (قوم سيدنا لوط) في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، فيقف لهم سيدنا لوط يحاول الدفاع عن ضيفه وعن شرفه، ويقف يستثير النخوة الآدمية فيهم، ويستجيش وجدان التقوى لله، وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع: ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١٣، ١٩٨٧م، ج٤، ص ٢١٤٩، بتصرف يسير).

والخبر إذا جاء مصدرًا يجب أن يكون مذكرًا ومفردًا، وهذا ما تقوله قواعد العربية.

التفصيل:

إن **ضيفي** جاءت هنا مصدرًا، والخبر إذا جاء مصدرًا يجب أن يكون مذكرًا ومفردًا، وفقًا لقواعد اللغة، فقوله تعالى: **﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾**، ضيف هنا يقع للمفرد والمثنى والجمع على لفظ الواحد؛ وذلك لأنه في الأصل مصدر الفعل ضاف ضيفًا.

قال الشاعر:

لا تُعدمي الدهرَ شِفار الجازرِ   للضيفِ، والضيفُ أحقُّ زائرِ

كما أنه يجوز فيه التثنية والجمع، ومن ذلك: رجال صَوْمٍ، وفِطْرٍ، وزَوْرٍ[1]

والقرآن الكريم، وكذلك الاستعمالات العربية عامرة بالشواهد التي تدل على ذلك، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله ﷻ: **﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (الشعراء: ١٦)، وقوله ﷻ: **﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾** (الحج: ٥)، وقوله ﷻ: **﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾** (البقرة: ٢٨٥)، ومن أمثلة ذلك في الاستعمال العربي: **فلان كثير الدرهم والدينار**، ومن ذلك قول الشاعر:

فَقُلْنا أَسلِموا إِنّا أَخوكُم   وَقَد بَرِأَت مِنَ الإِحَنِ الصُدورُ[1]

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ج٩، ص ٧٧.

وعليه، فلا يوجد ثمّة خطأ في الآية الكريمة، إذ جاءت الآية وفق ما تقتضيه قواعد العربية.

١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص ٢٨٥.

الشبهة الثالثة والثلاثون

توهُّم اشتمال القرآن الكريم على كلمات زائدة لا فائدةَ منها(*)

مضمون الشبهة:

يدعى بعض المتوهمين أن القرآن محشوٌّ ببعض الكلمات التى ليس لها فائدة مثل قوله ﷻ: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)، ويتساءلون: ألم يكن مناسبًا للعبارة أن يُقال: "ولبثوا فى كهفهم ثلاثَ مائةٍ وتسعِ سنين"؟ ولماذا لم يوضِّح التقويم الذى قاس به، هل هو التقويم الميلادى (٣٠٠) أم القمرى العربى (٣٠٩) سنة؟ (**).

وجوه إبطال الشبهة:

إن الأصل أن يكون لكل مفردة فى الكلام دورها فى المعنى، ولا قيمة لكلمة تأتى حشوًا زائدًا، ومن الأولى أن يُحذف الحشو؛ لأنه لا قيمة له فى التعبير.

ومن هنا زعم بعض المتوهمين أن قوله ﷻ:﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ حشوٌ يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه قول لا يُزيد المعنى شيئًا. وهذا الزعم مردود من وجهين:

(*) كيف نرد على المنصرين؟!

www.saaid.net

(**) جاء في تفسير القرطبي في تفسير هذه الآية: هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، وفي قراءة ابن مسعود: "وقالوا لبثوا". قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نيامًا، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يَرد علم ذلك إليه. (الجامع الأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، جـ١٠، ص ٣٨٦).

١) هذه الآية الكريمة نزلت على مرحلتين: حيث نزل قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ﴾ فقالوا: سنين أم شهورًا أم جمعًا أم أيامًا ؟! فأنزل الله تعالى: ﴿سِنِينَ﴾ ؛ لتُحدد نوعية المدة التي قضاها أصحاب الكهف في كهفهم.

٢) من المعلوم أن القرآن الكريم نزل على سيدنا محمد العربي ﷺ، فلمَّا كان الإخبار عن أهل الكهف ذكرت الآية التقويم **القمري** الذي يعرفه العرب، والذي يختلف عن التقويم الشمسي **الميلادي**، إذ إن التقويم الشمسي تبلغ السنة فيه (٣٦٥) يومًا، وتبلغ في التقويم القمري (٣٥٤) يومًا، فالاختلاف بينهما في أحد عشر يومًا، وهذا التفاوت على مدار المدة المذكورة في الآية يُنْتِج تسع سنوات.

التفصيل:

أولاً. إن هذه الآية نزلت على مرحلتين؛ حيث نزل أولاً قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ﴾ وكانت على هذا مبهمة، لم تحدد للناس أهي ساعات، أم أيام، أم شهور أم سنين، فأنزل الله ﷻ: ﴿سِنِينَ﴾ .

جاء في تفسير القرطبي: لما نزلت ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ﴾ ، قالوا: سنين، أم شهور، أم جُمَع، أم أيام، فنزلت ﴿سِنِينَ﴾ ، ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ لم يدر الناس أهي ساعات، أم أيام، أم جُمَع، أم شهور، أم أعوام، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة، وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام؛ ذلك لأن التسع مسبوقة بالسنين، كما تقول: عندي مائة درهم وخمسة، والمفهوم منه خمس دراهم، قال بذلك القشيري. وقال أبو علي: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ، أي: ازدادوا لبث تسع، فحذف سنين.[1]

---

١. المرجع السابق، جـ١٠، ص ٣٨٧.

ثانيا. قال ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥) هذه الآية ـ كما يقول الشيخ الشعراوي في تفسيره ـ تحدد عدد السنين التي قضاها الفتية في كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة، وهذا هو عددها الفعلي بالتقويم الشمسى؛ لذلك لم يقل الحق ﷻ: ثلاثمائة وتسعًا؛ بل قال:﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ، ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا: نعرف ثلاثمائة سنة، ولكن لا نعرف التسع؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حسابًا شمسيًّا.

فلو حَسَبْتَ الثلاثمائة سنة الشمسية بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعًا؛ إذن هي في الحساب الشمسي ثلاثمائة سنة، وفي الحساب القمري ثلاثمائة وتسعًا، ومعلوم أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يومًا تقريبًا في كل عام[1].

ومما يؤكد ذلك ما جاء في التحرير والتنوير: فعبَّر عن هذا العدد بأنه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع؛ ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام، مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف، وهم أهل بلاد الروم[2].

وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمى الذى لم يكن لعموم العرب علم به.

وخلاصة القول: إن التفاوت بين أيام السنة القمرية، وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ، ومن هنا نعلم أن الخطاب القرآني جاء باللغة التي تناسب العربي

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، جـ١٤، ص ٨٨٧٠، بتصرف يسير.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر التوزيع، تونس، م٧، جـ١٥ ص ٣٠٠.

وغير العربي، ومن ثم كان القرآن في منتهى البلاغة المتمثلة فى دقة التعبير والإيجاز فى اللفظ؛ إذ عبر عن التقويمين بما يناسبهما معًا.

الإعجاز العلمى فى الآية:

• هذه الآية الكريمة وردت في ختام قصة أصحاب الكهف فى سورة سميت بهذا الاسم لذكر قصة هؤلاء الفتية بها فمن أعلم النبى محمدًا ﷺ قصة هؤلاء الفتية؟! وهو الأميٌ الذي لم يقرأ كتابًا ولم يطلع على التاريخ؟! وقد سأله المشركون عن قصة هؤلاء الفتية بإيعاز من اليهود؛ ليختبروا صدقه ﷺ فكان ورود هذه القصة فى القرآن دليل على صدق نبوته ﷺ وأن القرآن وحى من الله تعالى لا من عند محمد ﷺ.

• والأقوى برهانًا علي ذلك تحديد هذه المدة التي لبسها أصحاب الكهف فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، فبأى تاريخ هذا العدد من السنين؟ وهل كان أحد علي وجه الأرض يومها من العرب أو غيرهم من روم وفارس، أو حتى أصحاب الديانات السماوية (اليهودية ـ النصرانيَّة) وغيرها.... هل كان أحد يومها يعرف الفرق بين التاريخ القمري والتاريخ الشمسي؟! وأنه كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنوات قمرية؟! ولهذا استكمل الثلاثمائة بتسع زيادة، وهذا ما يؤكده العلم، ومن هنا يتبين لنا أن ما ورد فى القرآن هو "عَلْم" وهذا الرقم توقيف من الله تعالى فتبارك علام الغيوب الذى وسع علمه كل شىء: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك : ١٤).

الشبهة الرابعة والثلاثون

الزَّعم بأن المجاز في القرآن الكريم من قبيل الكذب(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّمُ بعض المشككين أنَّ المجاز في القرآن من قبيل الكذب، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ (الكهف: ٧٧) (**)، وقوله ﷻ أيضًا: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف: ٨٢)؛ حيث يرون أن **الجدار** لا يُريد، و**القرية** لا تُسأل.

وجوه إبطال الشبهة:

(*) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(**) يقول صاحب الظلال في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ : إن سيدنا موسى وصاحبه الخضر كانا جائعين، وهما في قرية أهلها بخلاء، لا يطعمون جائعًا، ولا يستضيفون ضيفًا، فلما وجد الخضر جدارًا مائلاً يهم أن ينقض، فإذا به يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م، ج٤ صـ٢٢٨٠). ويقول في قوله ﷻ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ ، إنه لما عاد أبناء سيدنا يعقوب من سفرهم لمصر، وقد تركوا أخاهم الأصغر الذي استأمنهم الأب عليه، وأخذ منهم الموثق على حفظه وإعادته ثم عادوا من غيره، وأبى أخوهم الكبير أن يعود، طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق؛ فأخذ بما سرق. ذلك ما علموه وشهدوا به، أما إن كان بريئا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب، كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم، وما هم بحافظين للغيب، وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها ـ وهي عاصمة مصر ـ والقرية اسم للمدينة الكبيرة، وليسأل القافلة التي كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف. (المرجع السابق، ج٤، ص ٢٠٢٣ـ٢٠٢٥).

المجاز المرسل أحد ألوان البيان والجمال، وهو بعلاقاته المختلفة من صور الإيجاز والقوة في التعبير، وكذلك الاستعارة وغيرها من صور البيان.

ويزعم المشككون في بلاغة القرآن وبيانه، أن المجاز المرسل فيه كذب واختلاق ويدّعون أن في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ،وكذلك في قوله تعالى:﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ،كذبًا وبهتانًا، فالجدار لا يمتلك إرادة، والقرية لا تُسأل، والصواب في زعمهم أن يبتعد القرآن الكريم عن مثل هذه التعبيرات، وقد أوقعهم في هذه الشبهة؛ أنهم لا يعرفون قدرات اللغة العربية وإمكاناتها في التعبير، ويمكن الرد على هذا الزعم بما يلي:

١) قد يكون المعنى المراد من آية سورة يوسف: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، وإن كانت جمادًا، فأنت نبي الله، وهو ينطق الجماد لك، والقول في العير كالقول في القرية سواء، وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار،[1] وكذلك آية سورة الكهف ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ وكذلك الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾، فلا مانع من حمله على حقيقة الإرادة المعروفة في اللغة، لأن الله يعلم للجمادات ما لا نعلمه لها. كما قال ﷻ:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤).

٢) في قوله ﷻ: ، أي: أشرف على الانقضاض وهو السقوط، وعبر عن إشرافه على الانقضاض؛ بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة المصرحة التبعية،[2] فاستعيرت الإدارة للمداناة والمشارفة، كما استعير العزم والهم لذلك، قال الراعي:

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ج٩، ص ٢٤٥.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر التوزيع، تونس، ج٨، ص٧، ٨..

في مهمــــة قلقـــت بهـــا هاماتهـــا   قلـــق الفـــؤوس إذا أردن نصـــولاً[1]

وإذا كان القول والنطق، والشكاية، والصدق، والكذب، والسكوت، والتمرد، والإباء، والعزة، والطواعية، وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل، فما بال الإرادة[2]؟!

٣) إن المجاز ليس كذبًا كما حُكي عن مانعيه، وإنما هو فنٌّ من فنون البيان عرفه العرب وأداروا بيانهم عليه[3].

لذا فلا مانع تمامًا من وجود المجاز في القرآن، ولا يُتهم ذلك بالكذب على الإطلاق.

٤) إن ما يشتمل على حالٍ ومحل من الألفاظ إذا عاد الحديث عنه بمراعاة الحال، أو بمراعاة المحل فالمعنى واحد في الحالتين، أنه حقيقة فيها لا مجاز[4]وعلى هذا فإنه لا كذب في الآية على الإطلاق؛ لأن سؤال القرية روعى فيه الحال.

التفصيل:

أولاً. قد يكون المعنى المراد من الآية: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وإن كانت جمادًا، فأنت نبي الله، وهو يُنطق الجماد لك، والقول في العير كالقول في القرية سواء، وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار.كما قال أبو بكر بن الأنباري: المعنى: اسأل القرية، والعير،

---

١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم الزمخشري، الدار العالمية للطباعة والنشر، ج٢، ص ٤٩٤.

٢. المرجع السابق.

٣. المجاز في اللغة والقرآن،د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ج١، ص ٥٣٣، ص ٥٣٤.

٤. المرجع السابق، ج٢، ص ٨١٤، ٨١٥.

والجدار، والحيطان، فإنها تجيبك، وتذكر لك صحة ما ذكرناه؛ لأنك من أكابر أنبياء الله، فلا يبعد أن يُنطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه[1].

وكذلك الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾،لا مانع من حمله على حقيقة الإرادة المعروفة في اللغة؛ لأن الله يعلم للجمادات ما لا نعلمه لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، وقد ثبت في صحيح البخاري حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ ،وثبت في صحيح مسلم أنه قال ﷺ: "وإني لأعرف حجرًا كان يسلم عليّ في مكة"، فلا مانع أن يعلم الله من ذلك الجدار إرادة الانقضاض[2].

وعلى هذا الكلام، فالزعم بوجود الكذب في القرآن باطل من أساسه؛ فالآيتان المشار إلى وجود الكذب فيهما على حقيقتهما، وليسا على سبيل المجاز.

ثانيًا. في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ،أي: أشرف على الانقضاض - وهو السقوط - عبَّر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة المصرحة التبعية؛ فاستعيرت الإرادة للمداناة، والمشارفة كما استعير الهمّ والعزم لذلك، قال الراعي:

في مهمة قلقت به هاماتها ... قلق الفؤوس إذا أردن نصولاً[3]

وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أُسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير، ومنه قول الأعشى:

---

١. التفسير الكبير، الرازي عند تفسير هذه الآية.

٢. المجاز في اللغة والقرآن، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق .

٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٩٤.

أتنتهون ولا يَنهى ذوِي شطط كالطعنِ يَذهبُ فيه الزيتُ والفُتُلُ

فأضاف النهي إلى الطعن.

وقال آخر:

إن دهرًا يلف شملي بجُمْلٍ لزمانٌ يَهُمُّ بالإحسان

وقال عنترة:

فازورٌ من وقع القنا بِلَبَانه وشكا إلىّ بعبرةٍ وتحمحُمِ[1]

وهذا في المعنى كثير جدًا. منه قول الناس: إن داري تنظر إلى دار فلان، وفي الحديث: اشتكت النار إلى ربها[2].

وسمعتُ من يقول: عزم السراج أن يُطفأ، وطلب أن يُطفأ، وإذا كان القول والشكاية، والنطق والسكوت، والصدق والكذب، والتمرد والطواعية، والإباء والعزة، وغير ذلك مستعارة للجماد، ولما لا يعقل فما بال الإرادة؟

كما قيل:

يأبى على أجفانه إغفاءة همٌّ إذا انقاد الهموم تمرّدا

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [3].

كما أنه لا مانع من كون العرب تستعمل الإرادة عند الإطلاق في معناها المشهور، وتستعملها في الميل عند دلالة القرينة على ذلك، وكلا الاستعمالين حقيقة في محله[1].

---

١. الجامع لأحكام القرآن،القرطبى، مرجع سابق، ج ١١، ص ٢٦.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، مرجع سابق، ص ٢٦.

٣. الكشاف، لأبى القاسم الزمخشرى، مرجع سابق، ص ٤٩٤.

كما أن تشبيه قرب انقضاضه بإرادة من يعقل فعل شيء، فهو يوشك أن يفعله حيث أراده؛ لأن الإرادة طلب النفس حصول شيء وميل القلب إليه، وإقامة الجدار تسوية ميله[٢]، والمراد من إرادة السقوط لقربه، أو على سبيل الاستعارة بأن يشبه قرب السقوط بالإرادة لما فيها من الميل، وكما قلنا أنه كثر في كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم، كقوله:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عقيل[٣]

وعلى هذا، فإن استعارة الإرادة للجماد ليس شاذًا في اللغة، وليس بكذب على الإطلاق، ولو كان كذلك لكان أول من تصيَّد هذا الخطأ بلغاء العرب آنذاك، فما كان أحراهم بهذا، وهم يهاجمون دينًا هذا الكتاب ومعجزته وشريعته في آن واحد، ولكنهم لم يفعلوا حيث إنهم تثبتوا من إعجاز هذا الكتاب وصدقه.

ثالثًا. المجاز ليس كذبًا، كما يزعم الزاعمون، وإنما هو فن من فنون البيان عرفه العرب، وأداروا بيانهم عليه[٤]، والمجاز كما عرّفه الرماني: هو تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى[٥]، والإيجاز إنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة[٦].

---

١. المجاز، مرجع سابق، ج٢، ص ١٠١٨.
٢. التحرير والتنوير، مرجع سابق، عند تفسير هذه الآية.
٣. روح البيان، الآلوسي، عند تفسير هذه الآية.
٤. المجاز، عبد العظيم المطعنى، سابق، ج١، ص ٥٣٣، ص ٥٣٤.
٥. الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٤م، ص ١٠٥.
٦. إعجاز القرآن، للباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٢٦٨.

أما الكذب فيبينه ابن حزم بقوله: "وإنما يكون كاذبًا مَنْ نقل اسمًا عن موضوعه في اللغة إلى معنى آخر يلبس به بلا برهان، فهذا هو الكاذب الآفاك الأثيم"[1].

وقد تعرض ابن قتيبة لمن يزعم أن القرآن فيه ألوان من الكذب؛ لأنهم ظنوا أن المجاز والكذب صنوان، والقرآن لا يخلو من المجاز، فهو بالتالي لا يخلو من الكذب، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ،وقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، والجدار لا يريد، والقرية لا تسأل، فلا يهادنهم ابن قتيبة فيقول: "فهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم. ولو كان المجاز كذبًا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسدًا، لأنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة.."[2].

ولو قلنا للمنكر لقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ كيف كنت أنت قائلاً في جدار رأيته على شفا انهيار، رأيت جدارًا ماذا؟ لم يجد بدًا من أن يقول: جدارًا يهم أن ينقض، أو يقارب أن ينقض، وأيًا ما قال فقد جعله فاعلاً، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ[3].

---

١. المجاز، عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ج١، / ص ٥٣٣، ٥٣٤، نقلاً عن الأحكام في أصول الأحكام ٤/ ٥٣٢.

٢. القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، مصر، ط١، ١٩٩١م، ص ١٥١.

٣. المرجع السابق، صـ١٥١، نقلاً عن المشكل ص ٩٩، ١٠٠، والعمدة ١/ ٢٦٦.

إذن فلا مناص من القول: إنه حتى ولو كانت الآية مشتملة على المجاز، فإن الآية خالية تمامًا من الكذب؛ لأن المجاز ليس بكذب على الإطلاق، وما سمعنا بأحد من العرب اتُّهم بالكذب لَّما استعمل المجاز فى تعبيراته.

كما أننا سبق وأوضحنا أن الله جل وعلا إنما خاطب العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان ما تعرف من معانيها اتساع لسانها، ومنها: أن تخاطب بالشيء منه ظاهرًا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره"[1]، إذا دلت القرينة عليه.

رابعًا. إن ما يشتمل على حالّ ومحلّ من الألفاظ إذا عاد الحديث عنه بمراعاة الحالّ، وبمراعاة المحل فالمعنى واحد في الحالتين أنه حقيقة فيهما لا مجاز.

فلفظ القرية، والمدينة، والنهر، والميزان، وأمثال هذه الأمور التي فيها الحالّ والمحلّ، وكلاهما داخل في الاسم، قد يعود الحكم على الحالّ وهو السكان، وتارة على المحل وهو المكان[2].

وكذلك في القرآن يرد مرة مراعيًا للحال، ومرة مراعيًا للمحل، وذلك مثل قوله تعالى: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾** (محمد: ١٣)؛ لأن قوله **أخرجتك** جاء على لفظ القرية بمعنى المحل[3]، وقوله **أهلكناهم** جاء على لفظ القرية بمعنى الحال وهم السكان[4].

وعلى هذا فإن آية: **﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾** إذا روعي فيها الحال وهم **أهلها**، أو المحل وهي **نفسها**؛ فإنه لا خطأ في ذلك على الإطلاق، وليس في ذلك كذبٌ أبدًا.

---

١. المجاز، عبد العظيم المطعنى، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٦٦.

٢. المرجع السابق، ج٢، ص ٨١٤.

٣. المرجع السابق، ص ٨١٥.

٤. المرجع السابق.

ومما سبق يتبين أن الآيتين الكريمتين خاليتان من الكذب، ومن يتهمهما بذلك إنما يفعل ذلك لقصر فهمه وسقامته، وأن القرآن بعيدٌ عن كل خطأ، ولا يفهم ذلك إلا ذو القلب الذكي والبصر المستنير.

الأسرار البلاغية في الآيتين:

- في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ،مجاز مرسل علاقته الحلية، فالمعنى المراد أهل القرية، ففى الآية حذف وإضمار، وكأن إخوة يوسف ـ مبالغة في إثبات براءتهم ـ طلبوا أن تُسأل القرية؛ إذ الواقعة مشهورة يعرفها العاقل وغيره،وقد يُنطِق الله تعالى غير العاقل ليشهد لهم ويعلن براءتهم، وليس من عجب أن تَنطق القرية؛ إذ إن يعقوب نبى قد يُنطق الله له الجماد، ويكون المراد على الحقيقة لا على المجاز كما قال البلاغيون.
- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، مبالغة منهم في التأكيد والتقرير، يعني سواء نَسبتنا إلى التهمة أم لم تنسبنا إليها فنحن صادقون[1]، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم؛ لأن هذا يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه، بل الإنسان إذا قَدَّم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده: وأنا صادق في ذلك، يعني فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة[2].
- في الآية الكريمة: قرينة عقلية مع المجاز، فالقرية والعير لا يخبران بصدق إخوة يوسف، وإنما الذي يخبرهم أهل القرية وأهل العير.

---

١. التفسير الكبير، الرازي، عند تفسير هذه الآية، مرجع سابق.

٢. المرجع السابق.

• في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ، استعيرت الإرادة للمشارفة والمداناة، ويجوز أن يكون مجازًا عقليًا، وهذا الخلاف مطرد في كل نسبة إلى ما لا يعقل[1].

• قوله تعالى:﴿أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ،جاء على صيغة **انفعل**، والتي تأتي لمعنى واحد وهو المطاوعة، ويختص بما كان فيه علاج وتأثير، والمطاوعة عند علماء التصريف هي قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب.

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين، مرجع سابق، ج٦، ص ١٦.

الشبهة الخامسة والثلاثون

ادعاء خلط القرآن بين مريم أخت موسى، ومريم أم المسيح(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن خلط بين **مريم** أخت موسى، و**مريم** أم المسيح؛ حيث قال: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم: ٢٨)، قاصدًا أم المسيح - عليها السلام - ، ولم يكن لمريم أم المسيح أخ اسمه هارون، وإنما كان هارون أخًا لموسى عليه السلام ولهما أخت اسمها مريم(**).

وجوه إبطال الشبهة:

نصت المعاجم العربية على أن الأخ من جمعك وإياه صلب، أو بطن، أو هما معًا، أو رضاع. ويكون الأخ بمعنى: القرين والشبيه في الخلال والصفات؛ لذلك فمعنى: يا أخت هارون، أي: ياشبيهة هارون فى التقوى والورع، وقد يعنى أنها من نسل هارون؛ لأن العرب اعتادوا أن ينسبوا الناس إلى قبائلهم بقولهم: يا أخا تميم، يا أخا هذيل.

وزعم بعض المشككين أن قول القرآن عن مريم أم المسيح **يا أخت هارون** خلط بين مريم أخت موسى، ومريم أم المسيح. ذلك أن هذه الأخيرة ليس لها أخ

(*) فيزياء اللغة في القرآن.
www.saaid.net

(**) ورد في صفوة التفاسير في معنى قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ، يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك رجلاً فاجرًا، وما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟

قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحًا في بني إسرائيل مشهورًا بالصلاح، فشبهوها به.(صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، الدارالعالمية الحديثة، ج٢، ص٧٩٩).

اسمه هارون، والصواب في زعمهم أن لا يقول عن مريم أم عيسى يا أخت هارون؛ لأنه يوقع في الخلط واللبس.

وهذا الزعم مردودٌ من وجهين:

1) إن تسمية القرآن لمريم بـ **أخت هارون** ليست خبرًا من القرآن، بل حكاية لما قاله قومها عندما وجدوها تحمل ولدها، ونسبتها إلى هارون إما أن المراد منها أخوة النسب، بأن كان لها أخ اسمه هارون، وإمَّا أنهم أرادوا هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، من باب قول العرب للتميمي يا أخا تميم.

2) لم يخلط القرآن الكريم بين مريم **أخت موسى**، ومريم **أم المسيح**؛ وذلك للفارق الزمني بينهما الحائل بين هذا الخلط.

التفصيل:

أولاً. إن تسمية القرآن لمريم بـ **أخت هارون** ليست خبرًا من القرآن، بل حكاية لما قاله قومها عندما وجدوها تحمل ولدها، فاتهموها في عرضها وشرفها وعفافها.

واختلف المفسرون في نسبة **مريم** ـ عليها السلام ـ إلى هارون؛ فذهب بعضهم إلى أن المراد من الأخوة هنا أخوة النسب. فقوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ يحتمل أن يكون على حقيقته، فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحًا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي: ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك[1]، وكذلك قال الزمخشري في الكشاف وهو يسوق الوجوه الواردة في معنى قوله تعالى: ﴿يَا

1. تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ص ٩٥.

أُخْتَ هَارُونَ﴾ فقال: كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل[1]، وإذا كان كذلك فلا شبهة إذن.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هارون كان رجلاً في ذلك الزمان، مشهورًا بالصلاح والعفة، فنسبها قومها إليه سخرية منها، وتهكمًا عليها، وتعريضًا بما فعلت، واستهزاءً بادعائها الصلاح والتقوى، والتبتل في العبادة، بينما هي في ظنهم قد حملت سفاحًا. وقيل رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، وذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفًا كلهم يسمى هارون؛ تبركًا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهارون هذا[2].

وقال قتادة: كان في ذلك الزمان في بني إسرائيل عابد منقطع إلى الله ﷻ يسمى هارون، فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ[3].

ثانيًا. لم يخلط القرآن الكريم بين مريم أخت موسى، و مريم أم المسيح، وذلك للفارق الزمني بينهما الحائل بين هذا الخلط ففي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرءون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدرِك ما أقول، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له. فقال: ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم. ففي هذا تجهيل لأهل نجران ـ وكذلك لهؤلاء

١. تفسير الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، ج٢، ص ٥٠٨.

٢. المرجع السابق، ص ٥٠٨.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ج١١، ص١٠٠.

المدعين ـ أن طعنوا في القرآن على توهم أن ليس في القوم مَنْ اسمه هارون إلا هارون أخا موسى[1].

والمعنى أنه اسم وافق اسمًا. ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء، وقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهارون زمان مديد، وقال الزمخشري: كان بينهما أي ـ موسى وهارون ـ وبينه ـ أي المسيح ـ ألف سنة، أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهارون، وإن صح فكما قال السدّي؛ لأنها كانت من نسله، وهذا كما تقول للرجل من قبيلة: يا أخا فلان[2]. فيكون نسبة مريم لـ هارون من قبيل التقريع والمبالغة منهم في تعييرها، فنسبوها إلى هارون على اسم النبي، فأنتِ من بيت صلاح ونشأتِ في طاعة الله، فكيف يصدر منك هذا الفعل؟ كما تقول: أنت سيدة محجبة يصدر منها في الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها، فتلومها على هذا السلوك الذي لا يتصور من مثلها[3].

ويحتمل أيضًا أن يكون معنى أخت هارون: أنها إحدى النساء من ذرية هارون أخي موسى، كقول أبي بكر: يا أخت بني فراس، وقد كانت مريم من ذرية هارون أخي موسى من سبط لاوى، ففي إنجيل لوقا كان كاهن اسمه زكرياء من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات، وإليصابات، زوجة زكرياء نسيبة مريم، أي ابنة عمها[4]. والعرب تقول للتميمي أخا تميم.

---

١. التحرير والتنوير، ج٨، مرجع سابق، ص ٩٥، ٩٦.

٢. تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص ١٠١.

٣. تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج١٥، ص ٩٠٧٣، ٩٠٧٤.

٤. التحرير والتنوير، مرجع سابق، مجلد٨، ج١٦، ص ٩٦.

وبهذا الإيضاح يتبين عدم خلط القرآن بين مريم أخت موسى، ومريم أم المسيح.

الشبهة السادسة والثلاثون

الادِّعاء بأنّ القرآن يقضي بدخول الناس جميعًا النار حتى المؤمنين(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم نصَّ على دخول الناس جميعًا النار وحتَّى المؤمنين، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾(**) (مريم: ٧١)، والمقصود من هذا الآية في زعمهم هو: "ما من أحد من الناس إلا وارد جهنم"، أي: داخل فيها، حتى الذين آمنوا داخلون.

ولأن الرسول ﷺ داخلٌ في هذا العموم، فإنَّ هذا الحُكْمَ منطبقٌ عليه كذلك.

---

*. الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ، دار السعادة للطباعة، مصر، ٢٠٠٣م.

**. يقول صاحب صفوة التفاسير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾،أي: كان ذلك الورود قضاءً لازمًا لا يمكن خُلفه، ثم يُنَجِّي الله من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها، ويترك الظالمين في جهنم قعُودًا على الرُّكَب، قال البيضاوي: "والآية دليل على أن المراد بالورود الجُثُوّ حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد نجاتهم"، واختلف علماء السلف في معنى الورود، فقال ابن مسعود وقتادة: الورود: "المرور عليها حين اجتياز الصراط"، .... (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، ج٢، ص ٨٠٨، ٨٠٩).

ويقول صاحب الظلال: إن المؤمنين يشهدون العرض الرهيب: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فهم يَرِدُون فَيَدنون، ويمرُّون بها وهي تتأجج، وتتميز وتتلمظ، ويرون العُتاة ينزعون ويُقذفون، فتزحزح عنهم وينجون منها ولا يكادون، وهو مشهد مفزع حيث يجثو فيه العتاة جُثُوَّ الخزي والمهانة، ويروح فيه المتقون ناجين ويبقى الظالمون فيه جاثين. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، بيروت، الطبعة ١٣، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م، ج٤، ص ٢٣١٨).

وجوه إبطال الشبهة:

في المعاجم العربية: وَرَدَ فلان على المكان، ووَرَد المكان: أشرف عليه، ومرَّ به، دخله أو لم يدخله، وقد حمل المتوهِّمون المعنى على **الدخول**، وقطعوا بذلك، ولم ينتبهوا إلى أن الإشراف على المكان والمرور به لا يعني دخولَه.

والدليل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ (القصص: ٢٣)، وهذا الوهم الذي توهَّموه وليد فهم واهٍ، وجهل عميق بأبسط قواعد اللغة العربية وأساليبها، وكذلك المعلوم من الدين بالضرورة؛ لذلك فهو مردود من وجوه:

١) الورود على جهنم قضاءٌ لازمٌ، ومعناه: الجُثُوّ حواليها[1]،ولا يعني ذلك، دخولَ الناس جميعًا فيها.

٢) الوُرود أمرٌ ثابت، ويشمل الأتقياء وغيرهم؛ لأن الصراط - الذي يمر عليه الجميع - مضروبٌ على متن جهنم، فالورود يعني المرور السريع وليس البقاء فيها[2].

٣) وقيل: إن الورود ليس لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وإنما هو خاص بالمشركين فقط، [3].

التفصيل:

أولاً. أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ خطابٌ عامٌّ لجميع الخلق دون استثناء؛ بدليلِ قوله تعالى بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ

١ . صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ج٢، ص ٨٠٨، ص ٥٠٩.

٢ . تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة،المجلد ١٥، ص ٩١٥٥.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المجلد ، مجلد ٨، طبعة دار سحنون، تونس، جـ١٦، صـ١٥٠.

فِيهَا جِثِيًّا﴾ يعني الجثو هنا حواليها والاقتراب منها.(سورة مريم: ٧٢) [1]. الدليل ما، جاء في آية أخرى والذي يدل على أن بعض الناس مُبعدٌ عنها لا يسمع حَسيسها، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠١ـ١٠٢)

فمعنى قوله: **مُبْعدون**، أي: عن عذاب النار وألمها، وقيل: المراد إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريبين منها؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ،فالورود يعني القرب[2]، وقال زهير:

فَلَمّـــا وَرَدنَ المـــاءَ زُرقـــاً جِمامُـــهُ وَضَعنَ عِصِـيَّ الحاضِـرِ المُتَخَـيِّمِ [3]

وَذكَر **الراغب الأصفهانيّ**: أن **الورود** أصله قَصْدُ الماء، ثُمَّ يُستعمل في غيره، يقال: **وَرِدْتُ** الماءُ، أَرِدُ، **وُرُودًا**، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ،فقد قيل: منه وردت ماء كذا إذا حضرته، وإن لم تشرع فيه، وقيل: بل يقتضي ذلك الشروع، ولكن من كان من أولياء الله الصالحين لا يُؤثِر فيهم؛ بل يكون حاله فيها كحال إبراهيم ﷺ؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩) [4].

١ . تفسير الشعراوى، محمد متولى الشعراوى، مرجع سابق، جـ١٥ ، صـ٩١٥٤.

٢ . دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م، ج١، ص ١٥٠.

٣ . قال الزوزني في شرحه للمعلقات السبع: "فلما وردت هذه الظعائنُ الماء، ـ وقد اشتد صفاءُ ما جُمع منه في الآبار والحياض ـ عَزَمْن على الإقامة كالحاضر المبتني الخيمة، ومعنى الجمام: هو ما اجتمع من الماء في البئر والحوض وغيرهما (تفسير الشعراوي، مرجع سابق، المجلد ١٥، صـ٩١٥٥).

٤ . المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار المعارف، بيروت، لبنان، ص ٥١٩، ٥٢٠.

والورود على جهنم أمرٌ ثابت بالكتاب والسنة، فمعنى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إنكم جميعًا (**متقون ومجرمون**) سَتَرِدُونَ النار وترونها؛ لأن الصراط الذي يمر عليه الجميع مضروب على متن جهنم.

وقد ورد ذلك في حديث **أبي سعيد الخدري** ﷺ قال ﷺ: "يُوضع الصراط بين ظهراني جهنم، عليه حَسَكٌ كحسك السَّعْدان[1]، ثم يستجيز الناس، فناجٍ مُسلَّم، ومخدوشٌ به، ثم نَاجٍ، ومُحْتَبَسٌ به، ومَنكوسٌ[2]، ومكدوس فيها"[3]، ولعل الحكمة في ورود المؤمن جهنم معرفته نعمة الله عليه، فإذا رأى المؤمن النار التي نَجّاه الله منها يحمد الله، ويعلم نعمته ورحمته به.

وتعقيبًا على ما سبق كله يقول القرطبي: اختلف الناس في **الورود**، فقيل: **الورود**، أي: الدخول، وقيل: **الورود**: الممر على الصراط المستقيم، وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: "**ليس الورود الدخول**"، وإنما نقول: وردت البصرة، ولم أدخلها، فالورود أن يمروا على الصراط، وفي صحيح مسلم: "ثم يُضرب الجسرَ على جهنم، وتحلُّ الشفاعة، فيقولون: "اللهم سلِّم سلِّم" وقيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: "دَحْضٌ مَزَلَّةٌ[4] فيه خطاطيفُ، وكلاليبُ، وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شويكة، يُقال لها:

---

١ . حسك السعدان: هي عُشبة تضرب إلى الصُّفرة، ولها شوك يسمى الحسك ـ أيضا ـ مدحرج لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا مَنْ في رجليه خف، أو نعل (لسان العرب: مادة حَسَكَ).

٢ . مكدوس في النار: مدفوع فيها، وتَكَدَّس الإنسان: إذا دُفع من ورائه فسقط (لسان العرب ـ مادة كَدَسَ)، والمنكوس: المطأطئ رأسه من الذل والهوان.

٣ . أخرجه ابن ماجة في سننه (٤٢٨٠)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٥٨٥)، والديلمي في الفردوس (حديث رقم ٨٨٣٦).

٤ . دَحْضٌ مَزَلَّةٌ: بمعنى واحد، وهو الموضع الذى نزل فيه القدم

السَّعْدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، والطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناجٍ مُسلَّم، ومخدوشٌ مُرْسلَ، ومَكْدوسٌ في نار جهنم، وبه احتج من قال: إن الجواز على الصراط هو **الورود** الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها، وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطّلاع وقُرب، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب، وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب، ثم يُنجِّي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه[1].

ثانيًا. وقيل: إن معنى **الورود** في قوله ﷻ: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ هو الجواز على الصراط، أو الرؤية، أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون ذلك شيء من المسيس[2]؛ لأن النار ستكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم[3]. ويُنَجِّي الله المؤمنين سالمين لقوله ﷺ: "**لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار**"، والجُنَّة: الوقاية والستر، ومن وُقيَ النار وسُتر عنها، فلن تمسَّه أصلاً، ولو مسَّته لما كان موقًّى، وقوله تعالى: ﴿**كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**﴾ الحتم: إيجاب القضاء، أي: كان ذلك حتمًا، **مقضيًا** أي: قضاه الله تعالى عليكم، وقال **ابن مسعود**: أي: قسمًا واجبًا [4]؛ وعلى هذا فإن معنى هذه الآية: أنه ما من أحد إلا وارد جهنم، أي: بالغ إياها (**مارٌ بها**)،أما النبي ﷺ والمؤمنون فيجاوزونها إلى الجنة، وأمَّا العصاة والكافرون فيسقطون فيها جزاء وفاقًا لأعمالهم.

---

١ . الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥م، ج١١، ص ١٣٧.

٢ . المصدر السابق، جـ ١١، ص ١٣٩.

٣ . دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، جـ١، ص ١٥٠.

٤ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، صـ١٤١.

ثالثًا. وقيل: إن المقصود **بالورود** في الآية الكريمة ليس لجميع الناس؛ بل هو خاصٌ بالمشركين فقط؛ فالخطاب في " **وإن منكم**" التفات عن الغيبة في قوله: "**لنحشرنّهم ولنحضرنّهم**"؛ عدل عن **الغيبة** إلى **الخطاب** ارتقاءً في المواجهة بالتهديد؛ حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة؛ فإن ضمير الخطاب أعرَف من ضمير الغيبة، ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن منهم إلا واردها. [1]

وعن ابن عباس أنه قال في قوله: "**وإن منكم إلا واردها**": هذا خطاب للكفار، ورُوِيَ عنه أنه كان يقرأ: "**وإن منهم**" ردًّا على الآيات التي قبلها في الكفار، في قوله: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً** ﴾، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة، وعلى هذا فإن المراد بـ (منكم): الكفرة فقط دون المؤمنين؛ لأن الكاف في **منكم** راجعة إلى الهاء في **لنحشرنهم**، وهذا نظير قوله تعالى: "**وإن جهنم لموعدهم أجمعين**" فالمقصود الكافرون دون المؤمنين.

ومن ثم فليس الخطاب في قوله: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا** ﴾ لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن فضل الله على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقًا واحدًا؟، كيف وقد قال الله عن المتقين: ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً** ﴾، بينما أخبر عن الكافرين بقوله: ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً** ﴾؛ وعلى هذا فقد زالت هذه الشبهة واتضح وجه الحق فيها. [2]

---

١ . التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، مجلد٨ ج١٦، صـ١٤٩.

٢ . التحريروالتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، تونس، مجلد ٨، ص١٦، ص ١٤٩.

الأسرار البلاغية في الآية:

- استخدام حرف **إن** دلالة على النفي، وعدم استخدام الفعل "ليس"؛ لأن الحرف يفيد الثبات والديمومة بخلاف الفعل المؤقت بزمن معين.
- *الالتفات في الخطاب في "**وإن منكم**" التفات عن الغيبة في قوله: "لنحشرنهم- ولنحضرنهم"؛ وقد عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد؛ حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة، فإن ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة، ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن منهم إلا واردها.[1]
- استخدام طائفة من المؤكدات : كان/ على ربك/ حتمًا/ في قوله تعالى: ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ حيث استخدم الفعل الماضي (كان) الذي يدل على تمكن الحدث، وكذلك استخدام **على ربك** وهي متعلقة بالفعل (كان)، أضف إلى أن **على** تفيد الالزام، وحاشا لله أن يلزمه أحدٌ بشيء، وإنما يدل هذا على تأكيد تنفيذ ما توعد به، وانتهاء الآية بـ (حتمًا مقضيًا) يفيد لزوم ما قضى الله به.

وبذا يتضح بجلاء مدى دقة القرآن الكريم ونزاهته عما تجرأ هؤلاء من الافتراء عليه.

---

١ . المرجع السابق، ص ١٥٠.

الشبهة السابعة والثلاثون

ادّعاء المخالفة بين النعت والمنعوت فى الإفراد والجمع (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن جانب الصواب فى عدم المطابقة بين النعت والمنعوت فى قوله ﷻ: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ (طه: ٥١) (**)؛ حيث جاءت كلمة **الأولى** ـ مؤنث الأول ـ وصفًا لكلمة **القرون** الجمع، ويتساءلون: ألا يُعَدّ ذلك خطأً فى المطابقة بين النعت ومنعوته؟!

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في اللغة وقواعدها أن يطابق النعت منعوته في النوع (**التذكير والتأنيث**)، وفي العدد (**المفرد أو المثنى أو الجمع**)، وغير المتدبر للغة القرآن والذي لم يتمكن من قواعدها النحوية يظن في قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ عدم

---

* .www.Marefa.org

**. تبين هذه الآية الكريمة جزءًا من المحاورة التي دارت بين فرعون من ناحية، وموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ من ناحية أخرى، فبعد أن أبلغ موسى فرعون أنهما رسولا رب العالمين، وبعد سؤال فرعون لموسى عن ربه، وإجابة موسى له بأنه الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وكما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: إن فرعون أراد أن يُحاجَّ موسى بما حصل للقرون الماضية، الذين كانوا على ملة فرعون، أي: قرون أهل مصر، أي: ما مصيرهم؟ وقد أراد بذلك التشغيب على موسى حين نهضت حجته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب؟ أم هم في سلام؟ فإذا قال موسى: إنهم في عذاب، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداءً لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضت حجة فرعون؛ لأنه متابع لدينهم، أي: أن هذا سؤال تعجيز وتشغيب من فرعون. وقد جاء جواب موسى له في قوله، بعد هذه الآية: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ؛ مبطلاً خطة فرعون في التشغيب على موسى، صالحًا للاحتمالين؛ ليزيد خيبة فرعون، وعدولاً عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله. (التحرير التنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، م ٨، ج١٦، ص ٢٣٤، بتصرف يسير).

تطابق بين النعت ومنعوته؛ حيث إن النعت جاء مفردًا مؤنثًا، في حين أن المنعوت جاء جمعًا لمفرد مذكر، وهذا يخالف قواعد اللغة، والصواب في زعمهم أن يقال: القرون الأوائل حتى يطابق النعت منعوته في نوعه وعدده.

وهذا الزعم مردود عليه بما يأتي:

إن القاعدة النحوية تقرِّر أن المنعوت إذا جاء جمع تكسير لغير العاقل - كما في الآية الكريمة - جاز في نعته المطابقة في العدد أو عدم المطابقة، فيجوز أن يقال: القرون الأولى، أو القرون الأوليات، أو القرون الأوائل على حد سواء؛ ومن ثم فلا وجود للخطأ في القرآن الكريم.

التفصيل:

إن القاعدة النحوية تقرِّر أن المنعوت إذا جاء جمع تكسير لغير العاقل، جاز في نعته المطابقة في العدد أو عدم المطابقة[1]، وهذا ما جاء في الآية الكريمة التي معنا؛ حيث جاء المنعوت **القرون** جمع تكسير لغير العاقل، فيجوز أن يجيء نعته مفردًا، كما ذُكِر في الآية الكريمة: ﴿ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ، وجاز أن يجيء جمعًا: **القرون الأوليات**، وهذا من الأمور الشائعة في الاستعمال اللغوي، فيجوز أن نقول: **هذه جبال عاليات**، مطابقين العدد، ويجوز أن نقول: **هذه جبال عالية**، غير مطابقين.

واستخدم القرآن الكريم كلا الأسلوبين في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)؛ حيث جاء النعت مخالفًا للمنعوت في العدد، وجاء مطابقًا له في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٠٣)، ومن ثم فلا يوجد في قوله ﷻ: ﴿الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أية مخالفة للقواعد النحوية؛ لأن مجيء النعت مفردًا، إذا

١. دور التوابع في الجملة، فهم وتحليل، د. أحمد كشك، دار الهاني للطباعة، القاهرة، ص ٢٤.

كان المنعوت جمع تكسير لغير العاقل من الأمور الجائزة والشائعة في الاستعمال اللغوي.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

إن أول ما يُلاحَظ في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ هو الإيجاز بالحذف، وهو من الأساليب البلاغية عند العرب، وتفصيل ذلك:

- عدم ذكر المتكلم والمخاطب في أول الآية، فاكتفى بقوله: **قال**؛ وذلك لدلالة السياق عليهما، فلم يقل مثلاً: "قال فرعون لموسى"، ولا شك أن الإيجاز من الأساليب البلاغية البديعة في لغة العرب.

- أما كلمة **بال** هنا، فهي كلمة دقيقة المعنى، تطلق على الحال المبهم، ومصدره: البالة - بتخفيف اللام -، وفي الحديث: "كل أمر ذي بال ... إلخ"، وإيثار هذه الكلمة هنا من دقيق الخصائص البلاغية[1]؛ حيث جمعت هذه الكلمة كل ما يخص الأمم السابقة من أعمال وأحوال في الدنيا، وكذلك مصائرهم وما آلوا إليه بعد هلاكهم.

- وفي الآية إنشاءٌ طلبيٌّ نوعه الاستفهام؛ فقد سأل فرعون عن أمر مغيّب، مهما أُخبر به يمكنه إنكاره قصدًا للمغالطة؛ لذلك لم يجبه موسى عليه إلا بقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (طه: ٥٢) [2].

---

١. التحرير والتنوير، مرجع سابق، م٨، جـ١٦، ص ٢٣٥، بتصرف يسير.

٢. البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر، القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ١٢٥.

• الهاء في قوله: "علمها" كناية عن يوم القيامة؛ لأنه سأله عن بعث الأمم، فأجابه بذلك[1].

وهكذا يتبين لنا مدى دقة القرآن الكريم في تعبيره عن المعنى، ومن ثم فلا وَجْه لمن يتوهم وجود الخطأ اللغوي في القرآن الكريم.

---

١. زاد المسير عن الآية (٥١ طه).

الشبهة الثامنة والثلاثون

توهم اضطراب القرآن في مجيء اسم (إنَّ) مرفوعًا(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم جانب الصواب، ورفع اسم "إنَّ"، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (طه: ٦٣)(**)، والصواب في ظنهم أن يقال: إن هذين لساحران؛ لأن اسم إنَّ حقه النصب.

وجوه إبطال الشبهة:

القراءة القرآنية الصحيحة هي ما كانت متواترة وموافقة لرسم المصحف، وكانت على وجه من وجوه الإعراب، فإذا خالفت شرطين من هذه الثلاثة فهي ليست صحيحة ولا معمول بها.

وبعض أصحاب الشبهات يزعمون أن في قوله ﷻ: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ مخالفة للنحو وقواعده؛ فقد جاء اسم " إن " مرفوعًا وكان حقه النصب، والصواب في زعمهم أن يقال: إن هذين لساحران.

(*) رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت ـ عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

www.slamyat.com –www.ebmarayam.com –www.answering.islam.org

(**) أورد الصابوني في تفسير هذه الآية كلامًا وجيزًا فقال: أي قالوا بعد التناظر والتشاور: ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾، أي: غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه، والذي هو أفضل المذاهب والأديان. قال الزمخشري: والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول، ثم قال ﷻ: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ ، فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفًا من غلبة موسى وهارون لهما، تثبيطًا للناس من اتباعهما. (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٢، ص ٨٢٢، ٨٢٣).

وهذا الزعم باطل مردودٌ إذا علمنا أن:

هذه الآية قد ورد فيها ست قراءات: منها الأكثر تواترًا ومنها ما يخالف المصحف ويوافق الإعراب، ومنها ما يوافق المصحف ويخالف الإعراب الظاهر المشهور، ومنها الذى يوافق كلاًّ منهما، ولكن الذي عليه القرّاء: ثلاث قراءات هي:

- القراءة الأولى: "إن هذين لساحران" بتشديد نون إنَّ ونصب هذان وهذه لا شبهة فيها ولا إشكال حولها.
- القراءة الثانية: إنْ هذان لساحران بتخفيف نون إن ورفع هذان، وهذه أيضًا لا إشكال فيه؛ لأن إنّ هنا مخففة من الثقيلة، ولها توجيهان:

أحدهما: أنها بمعنى ما واللام في لساحران بمعنى إلا، فيكون معنى الآية : **ما هذان إلا ساحران.**

الثانية: اسم إنْ المخففة ضمير الشأن محذوف على المشهور.

- القراءة الثالثة: "إنَّ هذان لساحران" بتشديد إنَّ ورفع هذان، وهذه القراءة هي التي فيها الإشكال، وللمفسرين فيها توجيهات بلغت الستة أهمها: أن الآية على لغة كنانة وغيرهم ممن يجعلون علامة إعراب المثنى الألف رفعًا ونصبًا وجرًا وفيهم من جعل إنَّ بمعنى: نعم.

ومنهم مَن جعل اسم إنَّ ضمير الشأن محذوف والجملة بعده خبر إن، والتقدير: إنّه هذان لساحران.

التفصيل:

القراءات القرآنية أربع عشرة قراءة منها أربع شواذ وعشر متواترة فأمّا الشواذ فقد اعتبرها العلماء قراءات تفسيرية فقط ولا يجوز الإقراء بها ولا العمل بمقتضاها فلا تأثير لها على الأحكام.

وأمّا القراءات المتواترة فهى القراءات المعتبرة لدى العلماء ولكن لا يحكمون بصحتها إذا خالفت رسم المصحف، وعلى هذا فشروط القراءة المقبولة الصحيحة لدى العلماء هى:

١. التواتر.

٢. موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

٣. موافقة وجه من أوجه اللغة العربية [1].

ولقد وردت في هذه الآية ست قراءات؛ ثلاث منها شواذ لمخالفتها رسم المصحف، وهذه لا إشكال حولها فلا تَعْويل عليها، وثلاث منها متواترة ونفصِّل القول فيها على النحو التالى:

القراءة الأولى: إنَّ هذين لساحران، بتشديد إنّ ونصب هذين على أنه اسمها ورفع لساحران على أنه خبرها، وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة لرسم المصحف، وهى قراءة أبى عمرو ورويت عن بعض الصحابه وقرأ بها بعض التابعين، وهذه القراءة لا إشكال حولها؛ لأنها موافقة للإعراب والشبهة ـ فيما يبدو ـ حول ما جاء مخالفًا للإعراب كما أن هذه القراءة مخالفة لرسم المصحف والشبهة ليست حول رسم المصحف، بل إن هذه القراءة موافقه لما يريده أصحاب هذه الشبهة وعلى هذا فإنهم قد وافقوا قراءة صحيحة متواترة وإن كانت مخالفة لرسم المصحف فإن هذا لا يقدح في صحتها، قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "وأما قراءة أبى عمرو وحده: 'إنَّ هذينِ' بتشديد نون إنَّ، وبالياء بعد ذال هذين، فقال القرطبي: هى مخالفة للمصحف، وأقول: ذلك لا يطعن فيها لأنها رواية صحيحة ووافقت وجها مقبولاً في العربية [2].

---

١. الأحرف السبعة وأصول القراءات، محمد عبدالله، مطبعة الوراق، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م ص٦٧.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون ـ تونس، المجلد الثامن، ج١٦، ص٢٥٤.

ولكن ما ينبغى التنبيه عليه هنا: أنه إذا وافقت قراءة من القراءات الصحاح المتواترة الإعراب الظاهر المشهور فهذا لا يعنى عدم قبول القراءات الأخرى الصحيحة المتواترة؛ فإنها موافقة وجوهًا أخرى في الإعراب قد تكون غير مشهورة، ولكنها صحيحة وواردة عن العرب؛ ولهذا نقول لأصحاب هذه الشبهة، إنهم علموا شيئًا وغابت عنهم أشياء.

القراءة الثانية: "إنْ هذان لساحرانْ" بتخفيف نون إنْ ورفع هذان، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وموافقة للإعراب؛ لأن "إنْ" هنا بمعنى "ما" واللام في لساحران بمعنى "إلا"، فيكون معنى الآية: ما هذان إلا ساحران، وقيل: اسم إنْ المخففة ضمير شأن محذوف، وجملة هذان لساحران خبر إن في محل رفع، وبهذا فقد سلمت هذه القراءة من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، فلا إشكال حولها ولا شبهة فيها؛ إذ ليست للنصب، بل بالنفي بمعنى: ما، وهذه قراءة ابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه، وبها قرأ الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيص.

يقول الشيخ الشعراوي: والقراءة التي نحن عليها قراءة حفص: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، و **إن** شرطية إن دخلت على الفعل، كما نقول: إن زارني زيد أكرمته، وتأتي نافية بمعنى: ما، كما في قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (المجادلة: ٢).

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، كذلك في قوله: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، فالمعنى: ما هذان إلا ساحران، فتكون اللام في ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى: إلا، كأنك قلت: ما هذان إلا ساحران. وتأتي اللام بمعنى إلا: إذا اختلفنا مثلاً على شيء كل واحد

منا يدَّعيه لنفسه، فيأتي الحكم يقول: لَزيد أحق به، كأنه قال: ما هذا الشيء إلا لزيد؛ إذن: اللام تأتي بمعنى: إلا.[1]

وقد وردت احتمالات إعرابية خاصة بقرءاة حفص وابن كثير لهذه الآية وهي:

١. أن تكون **إنْ** " الساكنة النون مخففة من " **إن المؤكدة**"، واللام الواقعة بعدها هي اللام الفارقة بين " إن المثبتة المؤكدة" و "إن النافية" المشبهة بليس. وعليه: تكون إن هنا مهملة، والجملة الواقعة بعدها مبتدأ وخبر.

٢. أن تكون إن نافية واللام الواقعة بمعنى : إلا، فيكون المعنى: ما هذان إلا ساحران، وعليه فإن **إنْ** نافية، وما بعدها مبتدأ وخبر.

٣. أن يكون هناك ضمير مستتر، وهو اسم إن، والجملة بعده في محل رفع خبرها.

القراءة الثالثة: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾ بتشديد "إنّ" ورفع "هذان"، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف مخالفة للظاهر المشهور من الإعراب، ومع هذا فهي عند العلماء قراءة صحيحة؛ لأنها موافقة لرسم المصحف ومتواترة عن أئمة القرَّاء المعتبرين وهم المدنيون والكوفيون (نافع، عاصم، حمزة، الكسائى، أبو جعفر، خلف العاشر)، ومعلوم أن هؤلاء القرَّاء ـ مع مالهم من العلم الواسع في القراءة وعلوم القرآن ـ إلا أنهم من أشهر أئمة النحو وعلمائه ولهم مصنفات عظيمة في النحو وقواعده، فهم من الجهابذة الذين جمعوا بين القراءة والنحو... وهذه القراءة هي مثار الشبهة وموطن الإشكال، إذ كيف يأتى لفظ هذان مرفوعًا مع أنه هنا اسم إنَّ

١ . تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، جـ١٥، ص ٩٣٠٧.

حسب ظاهر الآية؟! وكيف يحكم العلماء بصحة هذه القراءة لورودها عن الأئمة المعتبرين، ولموافقتها رسم المصحف؟!

وقبل أن نوضح هذا الإشكال ونزيل هذا التوهم، ينبغى أن يعلم هؤلاء أنهم مهما أوتوا من العلم ومهما بلغوا من الدرجة فيه فلم ولن يدركوا معشار ما كان لهؤلاء القرَّاء من باع واسع في العلم خاصة في النحو والقراءة.

كما يجب أن يدرك هؤلاء المشككون أن مثل هذه الأمور التى يثيرون حولها الأقاويل هى من البساطة بمكان، بل هى من الأمور اليسيرة في علم النحو والقواعد التى لا تخفى على الدانى والقاصي، فضلاً عن جهابذة هذا العلم ومؤسِّسيه، كما لم يكن العلماء والذين حكموا بصحة هذه القراءة بعد زمن القُرَّاء - ومعظمهم من الراسخين في علم النحو ومنظِّريه - ليغفلوا عن مثل هذا، حتى يأتى هؤلاء المدَّعون بعبقريتهم في آخر الزمان ويستدركوا عليهم مثل هذا.

أما عن التوجيه النحوى لهذه القراءة فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستة نذكر أهمها الذى يستوعبه الفهم العربي المعاصر وينسجم معه، يقول القرطبي في توجيه قراءة الجمهور - قراءة أهل المدينة والكوفة -: وهي: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال، ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب الردّ له، والنحاس في إعرابه، والمهدوي في تفسيره، وهي:

- **القول الأول:** أنها لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكَنانة بن زيد، فيجعلون رفع الاثنين - المثنى - ونصبه وخفضه بالألف؛ يقولون: جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ (يونس: ١٦) على ما تقدم. وأنشد الفراء لرجل من بني أسد، قال: وما رأيت أفصح منه:

فـأطرقَ إطـراقَ الشُّـجاعِ ولـو يـرَى ... مَسـاغًا لِنَابـاهُ الشُّـجاعُ لَصَـمَّا

ويقولون: كَسَرْتُ يَدَاه، وركبت عَلَاه؛ بمعنى: يديه وعليه؛ قال شاعرهم:

تزوَّد منا بين أُذْنَاه ضَرْبةً   دعتْه إلى هابي التُّرابِ عَقِيم

وقال آخر:

طاروا عَلاَهُنَّ فَطِرْ عَلاَهَا

أي: عليهن وعليها.

وقال آخر:

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

أي: "إن أبا أبيها وغايتها".

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول من أحسن ما حُمِلتِ عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه وأمانته؛ منهم أبو زيد الأنصاري والكسائي والفراء.

- **القول الثاني**: أن يكون **إن** بمعنى: **نَعَمْ**؛ كما حكى الكسائي عن عاصم قال: العرب تأتي بـ **إن** بمعنى: **نعم**. وحكى سيبويه أن **إن** تأتي بمعنى: **أَجَلْ**.

وقد سُمع رسول الله ﷺ يقول على منبره: إن الحمدُ لله نحمده ونستعينه، ثم يقول: أنا أفصح قريش كلها، وأفصحها بعدي أبان بن سعيد بن العاص. قال أبو محمد الخفاف قال عمير: إعرابه عند أهل العربية والنحو: إن الحمد لله بالنصب، إلا أن العرب تجعل إن في معنى نعم كأنه أراد ﷺ: نعم الحمدُ لله؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خُطَبَها بنعم. وقال الشاعر في معنى نعم:

قالوا: غَدَرْتَ. فقلتُ: إنَّ وربما   نال العُلاَ وشَفَى الغَليلَ الغادرُ[1]

١. الشاهد (فقلت إنّ)، أي: فقلت نعم أو أجل.

وقال عبدالله بن قيس الرُقيات:

بَكَــر العــواذلُ في الصَّــبا حِ يَلُمْنَنِــي وأَلُــومُهُــنَّهْ

وَيَقُلْــن شَـيْبٌ قــد عَــلاَ كَ وقــد كَبِــرتَ فقلــتُ إنَّــه

الشاهد: فقلت إنَّه، أي: فعلت نعم أو أخل، والهاء في البيت للسكت.

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله ﷻ: إْن هذان لساحرانْ بمعنى: نعم، ولا تنصب. قال النحاس: أنشدني داود بن الهيثم، قال أنشدني ثعلب:

ليـتَ شـعري هـل للمحـِب شـفاء مِــنْ جَــوَى حُــبُّهن إنَّ اللقــاءُ

والشاهد: إنَّ اللقاءُ، أي: أمل اللقاء.

- **القول الثالث:** قال أبو إسحاق: النحويون القدماء يقولون: الهاء ها هنا مضمرة، والمعنى: إنه هذان لساحران؛ قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب **إن، وهذان:** خبر **إن، وساحران** يرفعها الضمير **هما** المضمر، والتقدير: **إنه هذان لهما ساحران،** والأشبه عند أصحاب هذا الجواب: أن الهاء اسم إنْ، وهذانْ رُفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء.[1]

ونكتفى بهذه التوجيهات النحوية الثلاث حول قراءة الجمهور ـ المدنيين والكوفيين ـ على أن هناك وجوها نحوية أخرى ذكرها الإمام القرطبي وغيره، لكن لا حاجة لذكرها ها هنا، فما قدمناه فيه الكفاية وإنما يجدر بنا أن نضيف تعليق الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور على هذه القراءات. يقول:واعلم أن جميع القرّاء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله: **هاذان،** ما عدا أبا عمرو من العشرة، وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر، وذلك يوجب اليقين

١. الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج١١ صـ٢١٩.

بأن إثبات الألف في لفظ **هذان** أكثر تواترًا، بقطع النظر عن كيفية النطق بكلمة **إن** مُشدَّدة أو مخفَّفة، وأن أكثر مشهوري القراءات قرأوا بتشديد نون **إنّ**، ما عدا ابن كثير وحفصٍ عن عاصم، فقرءا: **إنْ** ـ بسكون النون ـ على أنها مخففة من الثقيلة.

والمصحف الإمام ما رسموه إلا اتّباعًا لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبي ﷺ، والقُرَّاء من أصحابه، فإن حفظ القرآن في صدور القرّاء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كُتب في أصول المصاحف إلا من حفظ الكاتبين، وما كُتب المصحف الإمام إلا من مجموع محفوظ الحُفَّاظ، وما كتبه كُتاب الوحي في مدة نزول الوحي.

وهنا نتساءل: لماذا نزل القرآن بكل هذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال؟

ويجيب على هذا السؤال الإمام الطاهر ابن عاشور فيقول: ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه؛ لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة متحدة المقصود[1].

وهناك تساؤل آخر: لماذا نزل القرآن على لغة قريش؟

ويجيب الشيخ الشعراوي عن ذلك قائلاً: لأن لغات العرب جميعها كانت تصب في لغة قريش في مواسم الحج، والشعر، والتجارة وغيرها، فكانت لغة قريش هي السائدة بين لغات كل هذه القبائل؛ لذلك نزل بها القرآن، لكن الحق ﷻ أراد أن يكون للقبائل الأخرى نَصيب، فجاءت بعض ألفاظ القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها، ليجعل لها السيادة على العرب، وإنما جاء للجميع[2].

---

١ .تفسير التحرير والتنوير، للإمام ابن عاشور، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥١: ٢٥٤.

٢ . تفسير الشعراوي: الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٥، ص ٩٣٠٨، ٩٣٠٩.

وقبل أن نختم حديثنا في دَرْءِ هذه الشبهة وإزالة الإشكال حول هذه القراءة، يحسن بنا أن نشير إلى أن هناك ادعاء آخر يرتبط بهذه الآية، وإن كان قد سبق الرد عليه في الجزء الخاص بعصمة القرآن إلا أننا نوضحه هنا لتكتمل الفائدة، وهو: ادّعاؤهم أن كتابة إن هاذان ـ هكذا ـ خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، ليس فيه سند صحيح.

ويعقّب الطاهر بن عاشور على هذا الادعاء فيقول: حسبوا أن المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تَغفُّل، فإن المصحف ما كُتِبَ إلا بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيِّفًا وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كُتبت المصاحف إلا من حفْظ الحفّاظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلا من أفواه حُفّاظه قبل أن تُكتب المصاحف وبعد ذلك إلى اليوم، فلو كان في بعضها خطأ في الخط لما تبعه القرّاء، ولكان بمنزلة ما تُرِك من الألفات في كلمات كثيرة، وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والربّا بالواو في موضع الألف، وما قرأوها إلا بألفاتها[1].

ولو كان هناك خطأ من الكاتب ـ كما يزعمون ـ لكان في كل المصاحف بخلاف ما اتفق عليه في كتابة مصحف عثمان وأبي بن كعب رضي الله عنهما.

ولو كان خطأ من جهة الخط المرسوم المكتوب، لم يكن ليمر على ألسنة الصحابة الفصحاء وأئمة التابعين البلغاء، وفي تناقل الصحابة ومن بعدهم، وذلك أعظم دليل على صحة المرسوم الموجود، ولا علاقة للكاتب في ذلك بشيء ولله الحمد والمنة.

١ . تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٥٤.

الشبهة التاسعة والثلاثون

توهُّم إسناد القرآن الكريم فاعلين لفعل واحد(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم قد خرج عن المألوف في قوله عز وجل: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ (الأنبياء: ٣)؛ حيث أسند الفعل **أسرَّ** إلى فاعلين **واو الجماعة** و **الذين**، والصواب في ظنهم حذف **الواو** من **أسروا** فيُقال: وأسرَّ النجوى الذين ظلموا(**).

(*) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت. الأخطاء اللغوية في القرآن، زكريا بطرس. رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت. الإعجاز اللغوي في القرآن (إلكتروني)، زكريا بطرس، موقع الكلمة. سقوط الغلو العلماني.
www.saaid.net, www.alkaema.net, www.ebnmaryam.com

(**) بدأ الله ﷻ السورة بمطلع قوي الضربات، يهزُّ القلوب هزًّا، وهو يلفتها إلى الخطر القريب، و القلوب عنه غافلةٌ لاهية، فيقول ﷻ: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٣)، في ظلال القرآن، ج٤، ص ٦٦٣٢. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهية قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبُّر معناه: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: تناجي المشركون فيما بينهم سرًّا، ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: قالوا فيما بينهم خفية: هل محمد الذي يدَّعي الرسالة، إلا شخص مثلكم يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؟، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتقبلون السحر، وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال الآلوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد ﷺ من قبيل السحر؛ وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكًا، وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر، وعنوا بالسحر القرآن. (صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، جـ٢، ص ٨٤٠).

يقول الأستاذ سيد قطب في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ : وقد كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتآمرون خفية، يقولون عن رسول الله ﷺ : هل هذا إلا بشر مثلكم؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن ؛ فكانوا يلجئون في مقاومة تأثيره الطاغي إلى التعلات، يقولون:إن محمدا بشر. فكيف تؤمنون لبشر مثلكم؟ وإن

وجوه إبطال الشبهة:

إن الأصل فى الجملة الفعلية أن يكون للفعل فاعل واحد يَدُلُّ على مَنْ قام بالفعل أو مَنْ في حكمه.

وغير المتأمل من القارئين لقوله تعالى:﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يظن أن للفعل أسرَّ فى الآية فاعلين؛ الأول الضمير المتصل (**واو الجماعة**). والثانى: اسم الموصول (**الذين**) ويظن هذا القارئ أن القرآن الكريم قد أتى بفاعلين لفعل واحد ، وكان الصواب فى ظنهم أن يكون للفعل فاعل واحد.

وهذ الزعم الواهي مردود عليه من وجوه:

١) أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلاً من **الواو** في ﴿وَأَسَرُّوا﴾ .

٢) أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فاعلاً، **والواو** في ﴿وَأَسَرُّوا﴾ حرف للجمع وليس اسمًا وهذا على لغة "**أكلوني البراغيث**"[1]

٣) أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منصوبًا على الاختصاص، وتقدير الكلام: أعني الذين ظلموا.

التفصيل:

أولاً. إن لفظة **الذين** في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تُعرب بدلاً من **الواو** فى قوله ﷻ : ﴿وَأَسَرُّوا﴾ ، وهو عائد على **الناس** المتقدم ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال **المبرد**: وهو كقولك: إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، فلفظة **بنوا**

ما جاء به السحر. فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له، وفيكم عيون وأنتم تبصرون؟. (ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٣، ج٤، ص ٢٣٦٧، ٢٣٦٨).

١. لغة أكلوني البراغيث هي لغة طيء وأزد شنوءة، وهم يلحقون الفعل علامات التثنية والجمع، مع وجود الفاعل الظاهر المثني والجمع.

بدل من **الواو** في **انطلقوا**، وإنما أعربت **الذين** بدلاً ؛ لزيادة تقرير أنهم المقصودون من النجوى؛ ولما في الموصول من الإيماء إلى أن سبب تناجيهم هو كفرهم وظلمهم أنفسهم؛ وللتنبيه على قبح ما هم متصفون به[1].

ثانيًا. إن تكون لفظة **الذين** في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فاعلاً على لغة "**أكلوني البراغيث**" **والواو** في **أسرُّوا** علامة جمع.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: "يتعاقبون فيكم ملائكة؛ ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" (رواه الشيخان) .

وحكى البصريون عن **طيء** وحكى بعضهم عن **أزدشنوءة** نحو : "ضربوني قومُك وضربتني نسوتُك، وضربانى أخواك" وفي الحديث: **أوَمُخرجيَّ هم**؟ وقال عمرو بن ملقط الجاهلي:

أُلفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذو واقيه

فأُلفيتا بالبناء للمجهول فعل ماضٍ، وعيناك نائب الفاعل، فألحق الفعل علامة التثنية مع إسناده إلى الظاهر، ونائب الفاعل **عيناك** كالفاعل[2].

ثالثًا. أن يكون قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منصوبًا على الاختصاص، ويكون تقدير الكلام: أعنى **الذين ظلموا** [3].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ١١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

٢. إعراب القرآن الكريم، وبيانه، محي الدين الدرويش، اليمامة، دمشق، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨، جـ٦، صـ٢٨٣.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، جـ١١، ص ٢٦٩.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

• أول ما يشرق علينا في هذه الآية من أسرار النظم القرآني ذلك الأسلوب البلاغي الرائع ألا وهو **الاستئناف البلاغي**، وضابط هذا الأسلوب أن تتقدم جملة من الكلام تثير في ذهن السامع تساؤلاً لطيفًا، يدبُّ في نفسه؛ فتأتي جملة أخرى تجيب على هذا التساؤل الذي ليس له صورة في الكلام، بل يبرق كالشعاع في ذهن السامع، ومن أمثلته في القرآن قوله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٦٦) فجملة ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ جواب على سؤال تقديره. ما ذلك الأمر الذي قضاه الله؟

وهذه الآية جرت على نسق الاستئناف البلاغي؛ لأن جملة ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ تثير في النفس التساؤل نفسه: من هم الذين أسرُّوا النجوى؟ فكان الجواب ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ .

وفي الآية ـ أيضًا ـ ما يسمَّى عند البلاغيين **الإضمار على شريطة التفسير** وضابط هذا الأسلوب هو أن تأتي بالضمير أولاً ثم تفسِّره بعد ذلك بذكر مرجعه، ومن أمثلته شعرًا قول الشاعر:

هي الدنيا تقولُ بملءِ فيها   حَذارِ حَذارِ مِنْ بطشي وفَتكي
ولا يغرركمُ مني ابتسامٌ   فقولي مُضحكٌ والفعل مُبكي

وتخريج الآية على ذلك سائغ وذائع، فقد أتى بالضمير أولاً ﴿وَأَسَرُّوا﴾ ، ثم فسَّره ثانيًا هكذا: ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [1].

---

١. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديثة، الرياض، ١٩٥٤م، عند تفسيره هذه الآية.

- ومن ذلك أيضا الاستفهام وغرضه في قوله تعالى: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدِّق بنبوة محمد ﷺ، وتقدير الكلام: كيف تؤمنون بنبوته وهو أحد منكم[1].
- ومثله في الغرض الاستفهام في قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ إنكاري وأراد بالسحر الكلام الذي يتلوه عليكم. والمعنى: أنه لما كان بشرا مثلكم فما تصديقكم لنبوءته إلا من أثر سحرٍ سحركم به، فتأتون السحر بتصديقكم بما يدعوكم إليه.
- ومن بلاغة السياق أطلق الإتيان على القبول والمتابعة على طريق **المجازأو الاستعارة**؛ لأن الإتيان لشيء يقتضي الرغبة فيه، ويجوز أن يراد بالإتيان هنا حضور النبي ﷺ لسماع دعوته؛ فجعلوه إتيانا؛ لأن غالب حضور المجالس أن يكون بإتيان إليها، وجعلوا كلامه سحرا فنهوا من ناجوهم عن الاستماع إليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ في (**سورة فصلت**).

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ في موضع الحال، أي تأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي؛ فعبَّروا عنه بالبصر؛ لأن المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير[2].

وبعد هذا البيان لا يحق لمدعٍ أن يتوهَّم في الآية نقصًا أو تجاوزًا، وكيف تجانب الصواب وقد جاءت تنزيلاً من لدن حكيم حميد؟!

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مجلد ٨، ج١٧، ص ١٣.

٢. التحرير والتنوير، مجلد٨، ج١٧، المرجع السابق، ص ١٤.

الشبهة الأربعون

توهُّم عدم مطابقة الحال لصاحبها في العدد في القرآن الكريم (*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن خالف قواعد اللغة في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (الحج: ٥) (**)؛حيث وردت لفظة طفلا حالا بصيغة المفرد "طفلًا"، لا بصيغة الجمع: **أطفالا** المناسبة لضمير الجمع العائد على المخاطبين في **نخرجكم**.

(*) www.arabicradio.org

(**) بعد أن ذكر الله ﷻ هذه النقلة الضخمة بعيدة الأغوار، والآماد الشاهدة بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي إنشاء ذلك الخلق من تراب: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، ثم يمضي السياق مع أطوار الجنين: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فما شاء الله أن يُتِمَّ تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير!

إنها في الزمان - تعادل في العادة - : تسعة أشهر، ولكنها أبعد من ذلك جدا في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل. النطفة التي لا ترى بالعين المجردة، وهذا المخلوق البشري المعقد المركب، ذو الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط الثالثة عشرة، سنة ١٩٨٧م ـ ١٤٠٧هـ ج٤، ص ٢٤١٠).

والطفل: يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ. وولد كل وحشية أيضا طفل. ويقال: جارية طفل، وجاريتان طفل وجوار طفل، وغلام طفل، وغلمان طفل.

ويقال أيضا: طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال. ولا يقال: طفلات. وأطفلت المرأة صارت ذات طفل. والمطفلة: الظبية معها طفلها، وهي قريبة عهد بالنتاج. و(الطَّفْل) (بالفتح في الطاء)، الناعم؛ يقال: جارية طفلة أي ناعمة، وبنان طفل. وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه. والطفل (بالتحريك): بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج١٢، ص ١١).

وجوه إبطال الشبهة:

إن الأصل فى قواعد النحو أن الحال المفردة يجب أن تطابق صاحبها فى نوعه (التذكير والتأنيث، وعدده والإفراد والتثنية والجمع)، وهذا ما نلحظه في لغة القرآن الكريم، أما ما يزعمه بعضهم من أن الحال لم تطابق صاحبها فى العدد فى قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ فزعم باطل من وجوه:

ويمكن الرد على هذا الزعم بما يلي:

١) للعلماء في كلمة "طفلاً" ثلاثة آراء:

- أنها تدل على الجنس، أي: كل طفل.
- أنها مصدر والمصادر لا تجمع.
- أنها جاءت بمعنى: "نخرج كل واحدٍ منكم طفلًا".

٢) وقد عُهِد أن اللغات تستخدم المفرد، والمثنى، والجمع كلمة واحدة، يُفَرِّق السياق بينها في الاستخدامات المختلفة، وكذلك اللغة العربية، فجاءت (رسول، صديق، طفل) لتُعبر عن هذا، ولم ينكرها أهل اللغة عند ورودها، فلزم غيرهم أن يسلموا بها إذ لم يعرفوا تخريجًا لها، فالجاهل باللغة يُخفى جهله، ولا يُخَطِّئ المستخدم لها.

التفصيل:

أولاً. إن لعلماء اللغة فى توجيه كلمة **طفلًا** ـ فى هذه الآية ـ آراء، وهى:

١. إن كلمة **طفلًا** ليست مفردة، بل إنها تدل على الجنس، أي: كل طفل، وقوله **طفلاً** حال من ضمير **نخرجكم**، أي: حال كونكم أطفالًا، وإنما أفرد **طفلًا**؛ لأن المقصود به الجنس؛ وهو بمنزلة الجمع[1].

١. التحرير والتنوير، الطاهرابن عاشور، دار سحنون، تونس، ج٨، ص ٢٠٠.

ومما يؤكد ذلك ما جاء في تفسير القرطبي في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ . أي: أطفالًا، فهو اسم جنس[1]؛ واسم الجنس يدل على المعنى دلالة الجمع تمامًا بتمام؛ وعليه فليس ثمة مخالفة بين الحال وصاحبها كما يتوهم هؤلاء.

٢. كلمة **طفل**، قال المبرد: هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضا والعدل، فيقع على الواحد والجمع، كقوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ (النور: ٣١).

٣. إن لفظة **طفلًا** جاءت بمعنى الجمع، أي: نخرج كل واحد منكم طفلا، وذلك في فقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

ومعلوم أنه إذا قال القائل: "جاءني القوم مثنى" ـ وهم مائة ألف ـ كان المعنى أنهم جاؤوه اثنين اثنين، وهكذا "جاءني القوم ثلاث ورباع"، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما في قوله تعالى:﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة : ٥) [2].

كما في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: نخرج كل طفل على حدة، ومما سبق ذكره يتبيَّن أن الكلام مستقيم، ولا خطأ فيه.

ثانيًا. ليست اللغة العربية بدعًا في مجيء بعض ألفاظها لازمًا صيغة واحدة ـ إفرادًا وتثنية وجمعًا يفرق السياق بينها في الاستخدامات المختلفة، وهذا ما أقره أهل اللغة وذووها، وأحرى بمن لا يعرف قواعدها أن يسلم بها بدلًا من أن يُخطِّئ أهلها.

---

١. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، مرجع سابق، جـ١٢، ص ١١، ١٢.

٢. محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ج٣، ص ٢١.

ولو صدق صاحب الزعم أن هذا من قبيل الخطأ، فهل من الخطأ في الإنجليزية أن الفعل Cut يأخذ نفس صورته في ماضية وتصريفه الثالث؟ وهل فعلا يصح إطلاق لفظ الشاذ على مثل هذه الأمور في اللغات المختلفة؟ ويتضح ذلك جليًا في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

فقال: نخرجكم بصيغة الجمع، ولم يقل: أطفالا، إنما طفلا بصيغة المفرد، لماذا؟ قالوا: في اللغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع، فطفل هنا بمعنى: أطفال، وقد وردت أطفال في موضع آخر في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٩).

وكما تقول: هذا رجل عدل، ورجال عدل، وفي قصة سيدنا إبراهيم ﷺ يتكلم عن الإحسان فيقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ (الشعراء: ٧٧)، ولم يقل: أعداء، وحينما تكلم عن ضيفه قال: ﴿ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ (الحجر: ٦٨)، ولم يقل 'هؤلاء ضيوفي'؛ إذن: المفرد هنا يؤدي معنى الجمع[1].

وليس بعد هذا البيان لمدع أن يدعي أن القرآن قد أخطأ، ويتبين أنه لا وجه لما تعلق به أصحاب هذه الشبهة، وأن الكلام مستقيم لا عوج فيه.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ (البقرة : ٢٣)، فالظرفية المفادة لـ **في** مجازية، شبهت ملابسة الريب إياهم بإحاطة الظرف بالمظروف.
- كُرِّرَتْ **مِنْ** أربع مرات للتوكيد.

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ج١٦ ، ص ٩٧٠٨.

• قدَّم ذكر المُخَلَّقة على ذكر غير المخلقة على خلاف الترتيب فى الوجود؛ لأن المُخَلَّقة أدخل فى الاستدلال، وذُكر بعده غير المُخَلَّقة؛ لأنه إكمال للدليل، وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء، وهو المقصود من الكلام.

• حذف مفعول **لِنبين**؛ لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب، مما يرجع إلى بيان ما في التصرفات من القدرة والحكمة.

• جملة **ونُقِرُّ** عطف على جملة **فإنا خلقناكم من تراب**، فعدل عن فعل الماضى إلى الفعل المضارع. للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث، ثم إخراجها بالبعث كما يخرج الطفل من قرارة الرحم، مع تفاوت القرار[1].

• ومن مجاز ما جاء لفظة الواحد الذي به جماع منه، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع قوله:﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ فى موضع **أطفالاً**[2]، وفيها التفاف أيضًا بالعدول بالمفرد عن الجمع.

• وعطف جملة: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ بحرف **ثم**، للدلالة على التراخي الترتيبي، فإن إخراج الجنين هو المقصود.

• جيء بقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ على وجه الاعتراض استقراء لأحوال الأطوار الدالة على عظيم القدرة، والحكمة الإلهية مع التنبيه على تخلل الوجود والعدم أطوار الإنسان بدءًا ونهاية، كما يتقضيه مقام الاستدلال على البعث.

---

١ .التحرير والتنوير، مرجع سابق، م٨، جـ١٧، صـ ١٩٦-١٩٧-١٩٨.

٢. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي، بصيغة الكلمة: د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العربية، صيدا، بيروت، ص ١٤١.

والمعنى: ومنكم من يتوفى قبل بلوغ بعض الأطوار، وأما أصل الوفاة فهي لاحقة لكل إنسان لا لبعضهم، وقد صرح بهذا في سورة المؤمنون ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾.

- وقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ هو عديل قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ فسكت عن ذكر الموت بعد **أرذل العمر**؛ لأنه معلوم بطريقة لحن الخطاب.
- في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ **(من)** الداخلة على **(بعد)** هنا مزيدة للتأكيد.
- في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ واقع في سياق النفي يعُمُّ كل معلوم، أي: لا يستفيد معلومًا جديدًا، ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغله في أرذل العمر، تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء، ومرتبة الاختلاط بين المعلومات، وغير ذلك[1].

---

١. التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مج ٨، ج١٧، ص ٢٠٢.

الشبهة الحادية والأربعون

توهُّم مجانبة القرآن الكريم في جمع الضمير العائد على المثنى (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الواهمين أن القرآن الكريم جانب الصواب، فأعاد ضمير الجمع على المثنى، وذلك فى قوله ﷻ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج:١٩)، والصواب في زعمهم أن يقال: هذان خصمان اختصما، وليس (اختصموا) (**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى الضمير أن يوافق الاسم الذى يعود عليه ويطابقه فى نوعه (التذكير والتأنيث)، وفى عدده (الإفراد والتثنية والجمع).

ومن لا يتأمل قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾، يظن أن فى الآية تناقضا واختلافا بين الضمير والاسم الذى يعود عليه الضمير (فى التثنية

(*) عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م.
www.saaid.net - www.islameyat.com - www.ebnmaryam.com

(**) يقول الألوسي في تفسير قوله ﷻ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، تعيين لطرفي الخصام وتحرير لمحله، فالمراد بهذا: فريق المؤمنين، وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمس المذكورة قبلها (اليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس، والذين أشركوا)، فهما فريقان مختصمان، وبذلك يتعيَّن كون الفصل السابق بين المؤمنين، ومجموع من عُطف عليهم، ولمَّا كان كل خصم فريقًا يجمع طائفة جاء اختصموا بصيغة الجمع، وقيل المراد: الجنة والنار، قالت الجنة: خلقني لرحمته، وقالت النار: خلقني لعقوبته، وقيل المراد بالخصمين: هم الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين: حمزة، وعلي، وأبو عبيدة، ومن الكافرين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وكان أبو ذر يُقسم أنها نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت في الصحيحين. وقوله: ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾، أي: في شأنه ﷻ وقيل: في دينه، وقيل: في ذاته وصفاته، والكل من شئونه ﷻ، واعتقاد كل من الفريقين أحقية ما هو عليه، وبطلان ما عليه صاحبه، وبناء أقواله وأفعاله عليه يكفي في تحقيق خصومته للفريق الآخر. (تفسير الألوسي، عند تفسير هذه الآية).

والجمع)؛ فالضمير (واو الجماعة) للجمع، ويعود على المثنى وهو خصَمان، وهذا مخالف لقواعد اللغة، والصواب فى زعمهم أن يُقال: هذان خصمان اختصما.

وهذه الشبهة مردودٌ عليها من وجهين:

١) المثنى الحقيقى لفظًا ومعنىً فى اللغة العربية: ما كان واحده فردًا فى الوجود، وهذا القسم إذا وُصف أو استؤنف الحديث عنه؛ وجب تثنية الضمير العائد عليه.

٢) المثنى لفظًا لا معنىً، وضابطه ما كان واحده فردًا من عدة، وليس فردًا واحدًا، فهذا القسم إذا وُصف أو استؤنف الحديث عنه؛ جاز فيه مراعاة اللفظ أو مراعاة جانب المعنى، وبالنسبة للآية فقد رُوعى فيها جانب المعنى؛ فأعاد الضمير جمعًا على خصمان المثنى اللفظى.

التفصيل:

أولاً. إن المثنى الحقيقي: ما كان لفظا ومعنى، نحو: رجلان، وهذا لا يجوز أن يُستأنف الحديث عنه إلا بصيغة المثنى، وذلك فى مثل قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ (المائدة : ٢٣)، فلوحظ أن الله تعالى استأنف الكلام على الرجلين بصيغة المثنى، ولم يستأنفه بصيغة الجمع، وليس المثنى في الآية الكريمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا ﴾، من هذا النوع.

ثانيًا. أمّا المثنى لفظًا لا معنىً ـ وهو بيت القصيد فى هذه الشبهة ـ فقد تعلّق بكلمة الخصم التى ثُنّيت؛ ذلك أنها تطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتّحدت الخصومة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١)

وفي آية سورة الحج: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ ؛ لمراعاة تثنية اللفظ أتى باسم الإشارة الموضوع للمثنى **هذان**، ولمراعاة العدد أتى بضمير الجماعة في **اختصموا**[1].

قال الرازي: احتج من قال: أَقَلُّ الجمع اثنان بقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ ، والجواب: الخصم صفة وُصِفَ بها الفوج، أو الفريق؛ فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان يختصمان، فقوله: **هذان** إشارة للفظ، **واختصموا** إشارة للمعنى، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا﴾ (محمد: ١٦)[2].

قال الألوسي: وذُكرَ أن لفظ **الخصم** في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد المذكر وغيره، وقال أبو البقاء: أكثر الاستعمال توحيده؛ فمن ثَنَّاه وجمعه حَمَلَه على الصفات والأسماء[3].

وقال الشعراوي: كلمة **خصم** من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد، والمثنى، والجمع، وكذلك المذكر والمؤنث، كما في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١)، وكذا قوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ (ص: ٢٢).

والمراد بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ ، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ والخصومة تحتاج إلى فصل بين المتخاصمين، والفصل يحتاج إلى شهود، ولكن إذا جاء الفصل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: ٢٨)[1].

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج٨، ج١٦، ص٢٢٩.

٢. تفسير الرازي، عند تفسير هذه الآية.

٣. تفسير الألوسي، عند تفسير هذه الآية.

هذا فضلاً عن أن المثنى الحقيقى واحده فردٌ فى الوجود، كما ألمحنا آنفا.

وعلى هذا فإنه لا يوجد أي تجاوز في الآية السابقة، بل يصح تمامًا عود ضمير الجمع على المثنى اللفظي، ولا ينكر ذلك أهل العربية المتضلعون فيها.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- في التحول عن التثنية إلى الجمع في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ سرٌّ بلاغيٌّ؛ حيث أسند فعل الاختصام إلى ضمير الجماعة **اختصموا**، لا إلى ضمير التثنية **اختصما** الملائم لظاهر السياق.

ولكي نستوضح سر هذا العدول في الآية الكريمة نود - أولاً - أن نلاحظ أن هذه الآية مَسُوقة لبيان مصير كل من الخصمين - المؤمنين والكفار - يوم القيامة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (الحج: ١٩، ٢٠)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣).

وفي آية سابقة على تلك الآية يخبرنا الله ﷻ بأن يوم القيامة هو موعد الفصل بين الأديان، وأصحاب الملل المختلفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧).

١. تفسير الشعراوى، محمد متولى الشعراوى، أخبار اليوم، مصر، جـ١٦، صـ٩٧٥٦.

وقد جاء فعل الاختصام ـ الذي تمثَّل فيه العدول عن التَّثنية إلى الجمع ـ بصيغة الماضي **اختصموا**، مما يدل على أن الخصومة بين الخصمين قد حدثت قبل زمن الإشارة إليهما **هذان خصمان**.

إن **الخصمين** المشار إليهما في الآية الكريمة هما في الأصل تلك الفِرَق أو الملل المختلفة التي حددتها الآية السابقة عليها؛ وعلى ذلك فإن التثنية في **هذان خصمان** هي ـ والله أعلم ـ للدلالة على أن تلك الفرق سوف تستحيل يوم القيامة ـ بعد أن يفصل الله بينها ـ إلى فريقين ـ مؤمنين وكفار ـ فحسب.

أما الجمع في **اختصموا** فمردُّه إلى الحال التي كانت عليها تلك الفِرَق في الدنيا، من تعدد التسميات، واختلاف المذاهب، وتضارب المسالك في قضية العقيدة وتصور الألوهية؛ وعليه فلا يجوز الإخبار عن الخصومة والاختلاف بين تلك الطوائف المتعددة بطريق التثنية **اختصما**[1].

- هناك استعارة تمثيلية في قوله ﷻ: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾، والإرداف بقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ، فلا نكاد نلمح موطنًا بلاغيًا في إشارة من إشارات النظم الحكيم المعجز إلا ويلاحقنا آخر؛ ففي قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ ، استعارة تمثيلية جعل تقطيع الثياب وتفصيلها على قدود الكفار بمثابة الإحاطة بهم، مع التهكم الذي ينطوي عليه، أي: أنها تشتملهم وتحتويهم كما تشتمل الثياب لابسها وتحتويه، أمَّا الروعة، فهي كامنة في قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ

---

١. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، مصر، ص ٩٩، ١٠٠.

رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ، وهو ما يسمى بالإرداف؛ فإن الثياب تشمل جميع الجسد غير الرأس، وأفرد الرؤوس بالذكر بقوله: **يُصبُّ**[1].

وقوله ﷻ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، يعني من الفِرَق الذين تقدم ذكرهم. ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾، أي: خِيطت وسُوِّيت، وشُبِّهت النار بالثياب؛ لأنها لباس لهم كالثياب، وقوله: قطعت، أي: تُقَطَّع لهم في الآخرة ثياب من نار، وذُكر بلفظ الماضي؛ لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق.

وعلى هذا فالخطأ ليس في القرآن، إنما فيمن سَقُمَ فهمُهم عن البلوغ إلى تلك القمم السامقة الموجودة في القرآن.

---

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، بيروت، ج٦، ص ٤١٧، ١٩٨٨م.

الشبهة الثانية والأربعون

توهُّم مخالفة القرآن لقواعد اللغة في وصف المفرد باسم موصول للجمع(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أنَّ في قوله ﷻ: ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (النور: ٣١)(**) خروج عن اللغة العربية؛ حيث استعمل المفرد طفل ووصفه باسم موصول للجمع هو الذين، والصواب في زعمهم أن يقال: الأطفال بصيغة الجمع؛ لأنَّ اسم الموصول الذين يختص بالجمع.

* .www.marefa.org

(**) يقول علي الصابوني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أي: قل يا محمد للمؤمنات أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات، وقال المفسرون: أكَّد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزاد في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصد ولا نية سيئة؛ فإن كل بدن المرأة عورة، لا يحل لغير الزوج النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالعلاج، وتحمل الشهادة، ولذلك أمرهم الله ﷻ أن يلقين الخمار ـ وهو غطاء الرأس ـ على صدورهن؛ لئلا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأُول، لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال، وكن يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة، فأُمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطين صدورهن بها، ويدفعن عنهن شر الأشرار، ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن، وعدَّد سبحانه من يجوز إظهار العورات أمامهم إلى قوله ﷻ: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يعني الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم، فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم. (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، جـ٢، ص ٩٢٠، ٩٢١).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يُعرب اسم الموصول صفة لاسم قبله ما لم يكن في أول الكلام، ومتى جاء صفة يجب أن يطابق موصوفه في نوعه (التذكير أو التأنيث)، وفي عدده (الإفراد والتثنية والجمع).

ويظن بعضُ مَن لم يتمكن من اللغة مخالفة بين الاسم الموصول في عدده، والاسم الذي يوصف به في قوله ﷻ: ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾؛ وذلك لأنه في ظنهم قد جاء باسم الموصول **الذين** وهو جمع صفة **للطفل** وهو مفرد. والصواب في زعمهم أن يقال: "أو الطفل الذي" ... أو أن يقال: "الأطفال الذين؛ حتى تتحقق المطابقة بين اسم الموصول وموصوفه، وللغويين والنحويين في الرد على هذه الشبهة كلامٌ بيّنٌ نورده على النحوالآتي:

- أطلق الله كلمة الطفل في قوله تعالى ﷻ: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ بصيغة المفرد ووصفه باسم موصول للجمع **الذين**؛ لأنه يريد بهذا الجمع الجنس، أو اشتراك الأطفال في غرائز متعددة، فلا يكاد يلاحظ اختلاف بينهم، فكأنهم طفل واحد.

التفصيل:

أطلق الله كلمة **الطفل** في قوله ﷻ: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ بصيغة المفرد، ووُصف باسم موصول للجمع؛ لأنه يريد بهذا الجمع الجنس، أو اشتراك الأطفال في غرائز متعددة، ففي قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ (النور: ٣١) نلحظ أن الطفل مفرد، لكنه وُصف بالجمع ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ وهذه سمة من سمات اللغة، وهي الدقة في التعبير؛ حيث تستخدم

اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع، كما نقول هذا قاضٍ عدل، وهذان قاضيان عدل، وهؤلاء قضاةٌ عدل، ولم نقل: عدلان وعدول، فإذا وُحِّد الوصف في الجمع بدون هوى كان الوصف كالشيء الواحد، فالقاضي لا يحكم بمزاجه وهواه والآخر بمزاجه وهواه، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد. فالعدل واحد وليس لكل واحد منهم عدل خاص به.

كذلك الحال في ﴿الطِّفْلِ﴾ مع أن المراد الأطفال، لكن قال **الطفل**؛ لأن غرائزه مشتركة مع الكل، وليس له هوى، فكل الأطفال - إذن - كأنهم طفل واحد حيث لم يتكون لكل منهم فكره الخاص به، الجميع يحب اللهو واللعب، ولا شيء وراء ذلك، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز، وفي الميول.

بدليل أنه إذا كبر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوّن لديهم هوى وفكر وميل يقول القرآن عنهم: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحد في مرحلة الطفولة المبكرة.

ومن ذلك أيضا قوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (الذاريات: ٢٤)، فوصف **ضيف** وهي مفرد بالجمع (مكرمين)؛ ذلك لأن ضيف تدل أيضًا على الجمع، فالضيف من انضاف على البيت، وله حق والتزامات لابد أن يقدمها المضيف مما يزيد على حاجة البيت، والضيف في هذه الالتزامات واحد، سواء أكان مفردًا أم جماعة؛ لذلك دل بالمفرد على الجمع[1].

يعضد هذا القول ويدعمه، إذا تأملنا الآيات الأخرى في القرآن الكريم الذي ذُكرت فيها كلمة **الطفل** وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥)، وقوله:

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، ص ١٠٢٥٨، ١٠٢٥٩.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (غافر: ٦٧)، وكذلك إذا تأملنا الآية التي معنا في قوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ حيث إنه استخدم كلمة **الطفل** هنا بدلاً من **أطفال** في هذه المواضع؛ لأن لفظة طفل توحي بمعنيين هما **الصغر والقلة**، والملاحظ في سياق هذه الآيات التي ذكرناها آنفًا أنها تتحدث عمن هم في مرحلة الطفولة أو الصغر فعلاً، ولم يتجاوزوها إلى مرحلة أخرى، كما أن إفراد هذه اللفظة في قوله ﷻ: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يُوحي إلى أن المرأة لابد ألا تتساهل في إبداء زينتها أمام كل الأطفال؛ ولهذا استخدم **الطفل** التي توحي بالقلة[1].

ويزيد هذا الرأي وجاهة إذا تأملنا قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ (النور: ٥٩)، فقد استخدم في هذه الآية **الأطفال** التي تدل على الجمع؛ لأن المقصود بها من تجاوزوا تلك المرحلة إلى مرحلة الرجولة أو الكبر، فهؤلاء الذين بلغوا الحلم يجب عليهم الاستئذان[2].

ومن ثم فمجيء لفظة **الطفل** هنا مفردة قد أجازته قواعد اللغة، وتطلبته أساليب البلاغة العربية، وليس خطأً كما توهم بعضهم.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أطلق الحالَّ وأراد المحل، فالمراد بالزينة مواقعها ومواضعها، كالرقبة والصدر وغيرهما، وفي المجاز مبالغة في الأمر بالتستر

١. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٩٣، بتصرف يسير.

٢. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، المرجع السابق، ص ٩٣.

بإيقاع النهي على إبداء الزينة، والمراد النهي عن إبداء موضعها، وفي ذلك حث للنساء على أن يحتطن في سترها، ويتقين الله بعدم كشفها.

• وفي قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض مواضع الزينة، فإن إرسال الخُمُر على الجيوب فيه ستر للنحور والصدور، واستعمال الضرب في الإرسال والإسدال استعارة تشعر بالقوة والشدة في إرسال الخمر، حتى تستر ما تحتها تمام الستر.

• في قوله ﷻ: ﴿ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ ﴾، كناية عن عدم الرغبة الجنسية، وعدم الميل إلى الشهوة والتفكير فيها، وفي قوله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ كناية عن عدم بلوغ الأطفال سن التمييز، وعدم معرفتهم للعورة والشهوة، ولما يدور بين الرجل والمرأة، وهكذا فإننا نلحظ أن القرآن الكريم يبعد الألفاظ الصريحة التي تخدش الحياء العام، وتشعل الغرائز، ويعبر عن ذلك بألفاظ وكنايات لطيفة لا تتصادم مع الذوق العام.

• والمراد بالنهي في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ النهي عن ضرب الأرض بالأرجل، لإظهار صوت الزينة الخفية كالخلخال وغيره، ويكون هذا أبلغ من النهي عن إبداء الزينة؛ لأن سماع صوت الشيء أضعف من رؤيته، فإذا نهي عن الأضعف فما فوقه يكون منهيا عنه من باب أولى.

• وتختم الآية الكريمة بأمر حاسم وملزم للمؤمنين بالتوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وفي توجيه هذا الأمر إلى المؤمنين تلوين للخطاب بصرفه عن الرسول ﷺ إلى كل المؤمنين والمؤمنات بطريق التغليب، وأمر جميع المؤمنين بالتوبة فيه إشعار بأنه لا يخلو مؤمن من بعض الذنوب.

الشبهة الثالثة والأربعون

توهم وقوع الكلام الأعجمي والغريب في القرآن الكريم (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن في القرآن الكريم كلامًا أعجميًّا وغريبًا عن لغة العرب، ويمثلون للأعجمي بكلمات مثل: القرآن؛ فهي من أصل سرياني، والفرقان؛ فهي من أصل عبري، وللغريب بكلمة: أبًّا، وغير ذلك من الكلمات، وهذا يتنافى مع قوله ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥). (**)

(*) قناة الحياة الفضائية، من قضايا القرآن: نظمه، جمعه، ترتيبه. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، د.إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، وزارة الأوقاف، مصر، ٢٠٠٤م، محمود حمدي زقزوق، المستشرقون والقرآن، حضارة الإسلام. شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، والاستشراق والقرآن العظيم.
, www.alkalema.com,www.islameat.com, www.Ladeenin.net

ويقصدون بالكلام الأعجمي، ما كان له أصول من لغات أخرى؛ كالفارسية والهندية.. إلخ. ومن أمثلتهم: إستبرق، صراط، هاروت، أباريق.. إلخ والكلام الغريب هو الكلام الذي لم تألفه أسماع العرب، مثل كلمة أبًّا التي استغلقت على فهم سيدنا عمر رضي الله عنه.

(**) جاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٣: ١٩٥) أن هذا القرآن المعجز تنزيل من رب العالمين، نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام على قلب أمين الأرض محمد ﷺ ليحفظه، وينذر بآياته المكذبين، وكان لابد أن يكون ذلك التنزيل بلسان عربي مبين؛ لئلا يبقى لهم عذر، فيقولوا: ما فائدة كلام لا نفهمه؟ قال ابن كثير: أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل؛ ليكون بيانًا واضحًا قاطعًا للعذر مقيمًا للحجة دليلًا على المحجة.(صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٢، ص٩٨٠).

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي: لسان قومه الذي يدعوهم به، ويتلو عليهم القرآن، وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا، ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وإن كان بلغتهم، وأنه

ويتساءلون: كيف يكون القرآن نزل بلسان عربي مبين، وبه مثل هذه الكلمات الأعجمية والغريبة؟ ويذهبون من وراء ذلك إلى الطعن في لغة القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

إن ما في القرآن من ألفاظ لا ينافي كونه بلسان عربي مبين؛ بل يعضده ويثبته أما ما توهمه بعضهم خلاف ذلك، فوهم باطل من وجوه:

1) المقصود باللسان العربي: ما نطقت به العرب؛ لأنه أصبح من لغتهم وصار عربيًّا، حتى وإن كان من لغات أخرى.

2) إذا فهمنا مفهوم الغريب بالمعنى الذي أراده علماء اللغة والنقاد؛ فإنَّا لا نجد في القرآن الكريم لفظة واحدة من الغريب.

3) القرآن والفرقان - اللتان ادّعى البعض عجمتهما - ذواتا أصل عربي، وليستا من كلام العجم.

4) القرآن نزل بلسان عربي مبين، وورود بعض الكلمات ذات الأصل غير العربي فيه، إنما هو من باب تداخل اللغات، وذلك تم في اللغة قبل نزول القرآن.

التفصيل:

أولاً. المقصود باللسان العربي: ما نطق به العرب، ودار على ألسنتهم؛ لأنه أصبح من لغتهم وصار عربيًّا، وإن كان من لغات أخرى، والمراد: أنه لم يأت بكلام جديد لم تعرفه العرب، فقبل أن ينزل القرآن كانت هذه الكلمات شائعة في اللسان العربي، ووجود مفردات غير عربية الأصل في القرآن أمر أقر به علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، ومن اليسير علينا أن نذكر كلمات أخرى وردت في القرآن غير عربية

بنظمه وبمعانيه وبمنهجه وبتناسقه يشي بأنه آتٍ من مصدر غير بشرى بيقين. (فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ١٣، ج٥، ص٢٦١٦).

الأصل، مثل: **منساة** بمعنى: **عصى**، في سورة **سبأ**، و**اليمّ** بمعنى: **النهر** في سورة القصص وغيرهما.

إن كل ما في القرآن من كلمات غير عربية الأصل إنما هو ألفاظ مفردة: أسماء أعلام مثل: "إبراهيم، يعقوب، إسحاق، فرعون"، أو صفات مثل: "طاغوت، حبر" - إذا سلمنا أن كلمة "طاغوت" أعجمية - والقرآن يخلو تمامًا من تراكيب غير عربية، فليس فيه جملة واحدة اسمية، أو فعلية من غير اللغة العربية.

ووجود مفردات أجنبية في أية لغة؛ سواء أكانت اللغة العربية، أم غير العربية لا يُخْرِج تلك اللغة عن أصالتها، ومن المعروف أن الأسماء لا تترجم إلى اللغة التي تستعملها حتى الآن؛ فالمتحدث بالإنجليزيَّة إذا احتاج لذكر اسم من لغة غير لغته، يذكره برسمه ونطقه في لغته الأصلية - التي استعاره منها - ومن هذا ما نسمعه الآن في نشرات الأخبار باللغات الأجنبية في مصر، فإنها تنطق الأسماء العربية نطقًا عربيًّا، ولا يُقال: إن نشرة الأخبار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً؛ لمجرد أن بعض المفردات فيها نُطقت بلغة أخرى.

وكذلك المؤلفات العلمية والأدبية الحديثة، التي تكتب باللغة العربية ويُكْثِر فيها مؤلِّفوها من ذكر الأسماء الأجنبية، والمصادر التي نقلوا عنها، ويرسمونها بالأحرف الأجنبية والنطق الأجنبي لا يقال: إنها مؤلفات غير عربية؛ لمجرد أن بعض الكلمات الأجنبية وردت فيها، والعكس صحيح.

وقد أسرف هؤلاء في نسبة بعض هذه المفردات التي ذكروها، وعزوها إلى غير العربية مثل: (الله، الزكاة والسكينة، وآدم والحور، والسبت والسورة، ومقاليد، وعدن)، كل هذه مفردات عربية أصيلة لها جذور لغوية عريقة في اللغة العربية، وقد

ورد في المعاجم العربية، وكتب فقه اللغة وغيرها تأصيل عربيٌّ لهذه الكلمات، فمثلاً: **(الزكاة)** من زكا يزكو فهو زاكٍ، وأصل هذه المادة بمعنى: الطهر والنماء.

وكذلك **(السكينة)** بمعنى: الثبات والقرار ـ ضد الاضطراب ـ لها جذر لغوي عميق في اللغة العربية، يقال: سكن بمعنى أقام، ويتفرع عنه: يسكن، ساكن، مسكن، أسكن.

إن بعض المفردات التي وردت في القرآن وظنها بعضهم أعجمية، ليست، كما ظنوا، بل إنها وإن لم تكن عربية في أصل الوضع اللغوي، فهي عربية باستعمال العرب لها قبل عصر نزول القرآن، وكانت سائغة ومستعملة بكثرة في اللسان العربي قُبيل نزول القرآن، وبهذا الاستعمال فارقت أصلها غير العربي، وغدت عربية: نطقًا واستعمالاً وخطًّا.

قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعرَّبتها؛ فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العاربة ـ التي نزل القرآن بلسانها ـ بعض مخالطة لسائر الألسنة الأخرى؛ وذلك عن طريق التجارة، فمن المعروف أنه كان للعرب رحلتان في كل عام؛ رحلة إلى الشام صيفًا ورحلة إلى اليمن شتاءً، وأيضًا السفر، كسفر بن أبي عمرو إلى الشام، وسفر عمر بن الخطاب، وسفر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى الحبشة، وهكذا.

وقد ذهب الطبري إلى أنه قد تتفق لغتان في لفظة.

إذن فورود مثل هذه الألفاظ في القرآن مع قلتها وندرتها ـ إذا ما قيست بعدد كلمات القرآن ـ لا يخرج القرآن عن كونه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ .

ومن أكذب الادعاءات أن يقال: إن لفظ الجلالة **الله** عبري أو سرياني، وإن القرآن أخذه عن هاتين اللغتين؛ إذ ليس لهذا اللفظ الجليل "الله" وجود في غير

العربية؛ فالعبرية مثلاً: تطلق على **الله** عدة إطلاقات مثل أيل، الوهيم، وأدوناي، ويهوا، أو يهوفا. فأين هذه الألفاظ من لفظ **الله** في اللغة العربية؟ وفي اللغة اليونانية التي ترجمت منها الأناجيل إلى اللغة العربية نجد لفظ الجلالة **الله** فيها **الوى** وقد وردت في بعض الأناجيل على لسان عيسى عليه السلام مستغيثًا بربه هكذا: **الوى الوى** وترجمتها: **إلهي إلهي**.

ثانيًا. لا وجود في القرآن لكلمة واحدة من الغريب حسب تعريف اللغويين والنقاد لمفهوم الغريب:

فالغريب ـ الذي يعد عيبًا في الكلام، ينافي فصاحته وبلاغته ـ هو ما ليس له معنى يُفهم منه على جهة الاحتمال أو القطع، وما ليس له وجود في المعاجم اللغوية ولا أصل له في جذورها.

والغريب بهذا المعنى ليس له وجود في القرآن الكريم، ولا يحتجُّ علينا بوجود الألفاظ التي استعملت في القرآن من غير اللغة العربية مثل: إستبرق، وسندس، واليم؛ لأن هذه الألفاظ كانت مألوفة الاستعمال عند العرب حتى قبل نزول القرآن، وشائعة شيوعًا ظاهرًا في محادثاتهم اليومية وكتاباتهم الدورية[1].

ثم إنها وإن لم تكن عربية الأصل، فهي ـ بالإجماع ـ عربية الاستعمال، ومعانيها كانت ـ وما تزال ـ معروفة في القرآن، وفي الاستعمال العام.

ومنها الكلمات التي ذكروها مما ليس عربيًّا، مثل: **غسلين**، ومعناها: الصديد، أي: صديد أهل النار، وما يسيل من أجسادهم من أثر الحريق، ولما كان يسيل من كل أجسامهم شُبِّه بالماء الذي تُغْسل به الأدران، أما بناؤه على وزن **فِعلين** فظاهر أنه

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، مرجع سابق، ص ٥٧، ٥٨.

للمبالغة، ومثل: **قمطريرا** ومعناها: طويلاً، أو شديدًا، ومثل: **إستبرق** ومعناها: الديباج، وهكذا كل ما في القرآن من ألفاظ غير عربية الأصل؛ فهي عربية الاستعمال بألفاظها ومعانيها، وكانت العرب تلوكها بألسنتها قبل نزول القرآن.

واستعارة اللغات من بعضها من سنن الاجتماع البشري، ودليل على حيوية اللغة، وهذه الظاهرة فاشية جدًّا في اللغات ـ حتى في العصر الحديث ـ، ويعرِّفُها اللغويون بـ **التقارض بين اللغات**، سواء أكانت لغات سامية أم غيرها كالإنجليزية، والفرنسية...إلخ، وفي اللغة الإسبانية كلمات مستعملة حتى الآن من اللغة العربية.

أما ما اقترضته اللغة العربية من غيرها من اللغات القديمة، أو ما له وجود حتى الآن فقد اهتم به العلماء المسلمون وَنَصُّوا عليه كلمة كلمة، وأسموه بـ **المُعرَّب** مثل كتاب العلامة الجواليقي، وقد يسمونه بـ **الدخيل**.

وحتى لو جارينا هؤلاء الحاقدين، وسلمنا لهم جدلاً بأن هذه الكلمات غريبة؛ لأنها غير عربية الأصل، فإنها كلمات من **المعرَّب** الذي عربه العرب واستعملوه بكثرة؛ فصار عربيًّا بالاستعمال، ومعانيه معروفة عند العرب قبل نزول القرآن، وما أكثر الكلمات التي دخلت اللغة العربية، وهجرت أصلها وصارت عربية، فهي إذن ـ ليست غريبة؛ لأن الغريب هو ما لا يُفهم معناه في اللغة المعنية، ولا وجود له في المعاجم اللغوية التي دونت فيها ألفاظ اللغة.

قد يقال: كيف تنكرون **الغريب** في القرآن، وهو موجود باعتراف العلماء، مثل الإمام محمد بن مسلم بن قتيبة العالم السني؛ فقد وضع كتابًا في **غريب القرآن** وأورده على وفق ما جاء في سور القرآن سورة سورة؟ وكذلك صنع السجستاني وتفسيره لغريب القرآن مشهور، ومثله الراغب الأصفهاني في كتابه **المفردات** في شرح غريب القرآن.

ثم الإمام جلال الدين السيوطي ـ العالم الموسوعي ـ فله كتاب يحمل اسم **مبهمات القرآن** !!

ألا يعد ذلك اعترافًا صريحًا من هؤلاء الأئمة الأفذاذ بورود الغريب في القرآن الكريم؟! ومن العلماء المحدثين الشيخ حسنين مخلوف، مفتي الديار المصرية في النصف الأول من القرن العشرين، وكتابه **كلمات القرآن** لا يجهله أحد.

كما أن جميع مفسري القرآن قاموا بشرح ما رأوه غريبًا في القرآن، فكيف يسوغ القول ـ الآن ـ بإنكار وجود الغريب في القرآن أمام هذه الحقائق التي لا تغيب عن أحد؟!

ونجيب فنقول: إن الغريب الذي نُسِب في كتب العلماء ـ رضي الله عنهم ـ إلى القرآن، إنما هو غريبٌ نسبُي وليس غريبًا مطلقًا؛ فالقرآن في عصر الرسالة، وعصر الخلفاء الراشدين كان مفهومًا لجميع أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يرد في رواية صحيحة أن أصحاب رسول الله ﷺ غاب عنهم فهم ألفاظ القرآن من حيث الدلالة اللغوية البحتة، وكل ما وردت به الرواية أن بعضهم سأل عن واحد من بضعة ألفاظ لا غير، وهي روايات مفتقرة إلى توثيق، وقرائن الأحوال ترجح عدم وقوعها، والألفاظ المسئول عنها هي: غسلين، قسورة، أبًّا، فاطر، أواه، حنان. وقد نسبوا الجهل بمعاني هذه الكلمات إما إلى عمر بن الخطاب ، وإما إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكلا الرجلين أكبر من هذه الاتهامات.

ومما يضعف إسناد الجهل إلى عمر بمعنى كلمة **أبًّا**: أن عمر كما تقول الرواية سأل عن معناها في خلافته، مع أن سورة "عبس" التي وردت فيها هذه الكلمة من أوائل ما نزل بمكة قبل الهجرة، فهل يعقل أن يظل عمر جاهلاً بمعنى "أبًّا" طوال هذه المدة (قرابة ربع قرن)؟

أما ابن عباس ﷺ فإن صحت الرواية عنه أنه سأل عن معاني **غسلين**، و **فاطر**، فإنه يحتمل أنه سأل عنها في حداثة سنه، ومشهور أن ابن عباس كان معروفًا بـ "ترجمان القرآن" ومعنى هذا أنه كان متمكنًا من الفقه بمعاني القرآن، وقد ورد أن الرسول ﷺ دعا له قائلاً: "اللهم فقّهه في الدين، وعلمه التأويل".

هذا فيما يتعلق بشأن الروايات الواردة في هذا الصدد.

أما فيما يتعلق بالمؤلفات قديمًا وحديثًا حول ما سمي بـ **غريب القرآن**، فنقول:

إن أوّل مؤلَّف وضع في بيان غريب القرآن هو كتاب "غريب القرآن" لابن قتيبة (في القرن الثالث الهجري) وهذا يرجّح أن ابن قتيبة، لم يكتب هذا الكتاب للمسلمين العرب، بل كان القصد منه هو أبناء الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام، وكانوا يتحدثون لغات غير اللغة العربية.

أما القرنان الأول والثاني الهجريان، والنصف الأول من القرن الثالث، فلم يكن فيها - فيما نعلم - كتب حول بيان غريب القرآن، سوى تفسير عبد الله بن عباس ﷺ وكتاب "مجازات القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (م ٢١٠ هـ) وهما ليسا من كتب الغريب، بل هما: محاولتان لتفسير القرآن الكريم: مفردات وتراكيب[1].

ولما تقادَم الزمن على نزول القرآن، وضعف المحصول اللغوي عند الأجيال اللاحقة، قام بعض العلماء المتأخرين، مثل: الراغب الأصفهاني، صاحب كتاب "**مفردات القرآن**" و "جلال الدين السيوطي، صاحب كتاب "**مبهمات القرآن** بوضع كتب تقرب كتاب الله إلى الفهم، وتقدم بيان بعض المفردات التي غابت معانيها واستعمالاتها عن الأجيال المتأخرة.

١. هذا وقد ظهرت مؤلفات أخرى في هذا الموضوع مثل "معاني القرآن" للفراء، وغيره من الأقدمين، وهي ليست من كتب الغريب، بل لها مجالات بحث أخرى كالقراءات.

وعليه فإن ما يطلق عليه **غريب القرآن** في بعض المؤلفات التراثية ـ ومنها كتب علوم القرآن، وما تناوله مفسرو القرآن الكريم في تفاسيرهم ـ، غريب نسبي لا مطلق؛ باعتبار أنه مستعار من لغات أخرى غير اللغة العربية، أو من لهجات عربية غير لهجة قريش التي بها نزل القرآن، وغريب نسبي باعتبار البيئات التي دخلها الإسلام، وأبناؤها دخلاء على اللغة العربية؛ لأن لهم لغات يتحدثون بها قبل دخولهم في الإسلام، وظلت تلك اللغات سائدة فيهم بعد دخولهم في الإسلام، وغريب نسبي باعتبار الأزمان، حتى في البيئات العربية؛ لأن الأجيال المتأخرة زمنًا ضعفت صلتهم باللغة العربية الفصحى: مفردات وتراكيب، وكل هذه الطوائف ـ كانت وما تزال ـ في أَمَسِّ الحاجة إلى ما يُعينهم على فهم القرآن، وتذوق معانيه، والمدخل الرئيس لتذوق معاني القرآن هو فهم مفرداته، وبعض أساليبه.

والغريب النسبي بكل الاعتبارات المتقدمة غريب فصيح سائغ، وليس غريبًا عديم المعنى، أو لا وجود له في معاجم اللغة ومصادرها، وهذا موضع إجماع بين علماء اللغة والبيان في كل عصر ومصر، ولا وزن لقول من يزعم غير هذا من الكارهين لما أنزل الله على خاتم أنبيائه ورسله.

ومن أوائل من تكلم عن الغريب في القرآن ابن الأزرق: ونوجز القول عن قصته هنا إيجازًا يكشف عن دورها في الانتصار للحق، في مواجهة مثيري هذه الشبهات، **ومسائل ابن الأزرق** مسطورة في كثير من كتب التراث، مثل: ابن الأنباري في كتابه: **الوقف**، والطبراني في كتابه: **المعجم الكبير**، والمبرد في كتابه: **الكامل**، وجلال الدين السيوطي في كتابه: **الإتقان في علوم القرآن**، وغيرهم.

ولهذه المسائل قصة إيجازها: أن عبد الله بن عباس كان جالسًا بجوار الكعبة يفسر القرآن الكريم، فأبصره رجلان هما: نافع بن الأزرق، ونجدة بن عويمر، فقال

نافع لنجدة: قُم بنا إلى هذا الذي يجترئ على القرآن ويفسره بما لا علم له به؛ فقاما إليه، فقالا له: إنا نريد أن نسألك عن أشياء في كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بما يصادقه من كلام العرب، فإن الله أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، ثم أخذا يسألانه وهو يجيب بلا توقف، مستشهدًا في إجاباته على كل كلمة، "قرآنية" سألاه عنها بما يحفظه من الشعر العربي المأثور عن شعراء الجاهلية؛ ليبين للسائلين أن القرآن بلسان عربي مبين.

وقد جمع الإمام جلال الدين السيوطي هذه المسائل، وذكر منها مائة وثمان وثمانين كلمة، وقد حرص على ذكر إجابات ابن عباس عليها ﷺ وقال: إنه أهمل نحو أربع عشرة كلمة من مجموع ما سئل عنه ابن عباس[1].

وها نحن أولاء نورد بعض النماذج منها:

النموذج الأول. عِزِين:

قال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قوله ﷻ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (المعارج: ٣٧).

قال ابن عباس: عزين: الحِلَقُ من الرفاق. فسأله نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال ابن عباس: نعم، أما سمعت قول عُبَيد بن الأبرص:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول مِنْسَره عزينا

يعني: جماعات يلتفون حول الرسول ﷺ، وهو مشتق من الاعتزاء، أي: ينضم بعضهم إلى بعض. قال الراغب في المفردات: العزين: الجماعة المنتسب بعضها إلى بعض[2].

---

١. الإتقان في علوم القرآن، فصل ما يجب على المفسر لكتاب الله، السيوطي.

٢. ومنه قول العامة "عزوة" أي: جماعة. انظر حرفي العين والزاي في كتاب الراغب.

النموذج الثاني. الْوَسِيلَةَ:

قال نافع: أخبرني عن قوله ﷻ: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥). قال ابن عباس: الوسيلة: الحاجة، قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال ابن عباس: نعم، أما سمعت قول عنترة:

إن الرجـال لهـم إليـك وسـيلة ... إن يأخـذوك تكحّلـي وتخضّـبي

يعني: اطلبوا من الله حاجاتكم، واستعمال الوسيلة في معنى الحاجة كما - فسرها ابن عباس - فيها إلماح أن طريق قضاء الحوائج يكون إلى الله؛ لأن معنى الوسيلة: الطريق الموصل إلى الغايات.

النموذج الثالث. شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا:

وسأله نافع عن الشرعة والمنهاج في قوله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، فقال ابن عباس: **الشرعة**: الدين، **والمنهاج**: الطريق، واستشهد بقول أبي سفيان الحارث بن عبد المطلب:

لقـد نطَـق المـأمون بالصّدْق والهُـدَى ... وبـيّن للإسـلام دِينًـا ومنهجًـا

النموذج الرابع. رِيشًا:

وسأله نافع عن كلمة **ريشا** في قوله ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٦).

ففسّره ابن عباس بالمال، واستشهد بقول الشاعر:

فَرِيشِـي بخَيْـرٍ طَالمـا قـد بَرَيْتَنِـي ... وخيرُ الموالي مَـنْ يَـرِيشُ وَلاَ يُبْـرِي

النموذج الخامس. كَبَدٍ:

وسأله نافع عن كلمة ﴿كَبَدٍ﴾ في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤).

قال ابن عباس: في اعتدال واستقامة، ثم استشهد بقول لبيد بن ربيعة:

يـا عَـيْنُ هَـلاَّ بَكَيْـتِ أَرْبَـدَ إِذْ قُمْنَـا وقَـام الخُصُـومُ في كَبَـدِ

وهكذا نهج ابن عباس في المسائل التي وجهت إليه كلها؛ يجيب عنها بسرعة مذهلة، وذاكرة حافظة لأشعار العرب، وسرعة بديهة في استحضار الشواهد الموافقة لفظًا ومعنى للكلمات القرآنية، التي سُئِل عنها[1].

وهذا يؤكد لنا حقيقتين أمام هذه الشبهات التي أثارها هؤلاء حول القرآن:

الأولى: كذب الادعاءات التي نُسِبَتْ لابن عباس الجهل ببعض معاني كلمات القرآن؛ بل إنه كان على درجة عالية من الفهم والحفظ والفصاحة تدرأ به عن مظنة الجهل وهو تُرجمان القرآن.

الثانية: القرآن كله لا غريب فيه بمعنى الغريب الذي يُعاب الكلام من أجله، وأن نسبة الغريب إليه في كتابات السَّلف، تعني الغريب النسبي لا الغريب المطلق، وقد تقدَّم توضيح المراد من الغريب النسبي في هذا المبحث، باعتبار الزمان، وباعتبار البيئة والمكان، وأن ما وضعه القدماء من مؤلفات تَشْرح غريب القرآن إنما كان المقصود به إما أبناء الشعوب التي دخلت الإسلام من غير العرب. وإما للأجيال الإسلامية المتأخرة زمنًا، التي غابت عنها معاني بعض الألفاظ.

وقد يضاف إلى هذا كله الألفاظ المشتركة المعنى، والمترادفة، والمتضادة، والاحتمالية.

أما أن يكون في القرآن غريب لا معنى له فهذا محال محال.. والحمد لله رب العالمين[2].

---

١. الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ط دار المعارف، القاهرة.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، مرجع سابق، ص ١٣١ ـ ١٣٨.

ثالثًا. القرآن والفرقان، كلمتان ذواتا أصل عربي، وليستا من كلام العجم:

لأن الزَّعم بأن كلمة **الفرقان** ذات أصل عبرىّ، وأنَّها تعنى: **المُخلّص والمنجِّى،** وأن كلمة **القرآن** مشتقة من كلمة **قريانا** السريانيَّة والتى معناها: **القراءة المقدسة،** وأنها عُدِّلت إلى وزن **فعلان،** حتى تناسب الذوق العربى، كلام باطل إذا علمنا أن كلمتى **فرقان، وقرآن** أصولهما عربية؛ فأما كلمة **فرقان** فتدور معانيها حول التفرقة والتمييز عن طرق معرفة ما يميِّز كل عنصر؛ وغالبًا ما تستخدم فى مقامات التَّفْرِقة بين الحق والباطل؛ فتكون حجَّة وبرهانا[1]؛ ولذلك هى عربية أصلية فى أصالتها.

أمَّا كلمة **القرآن:**[2] فهى فى الأصل مصدر على وزن **فُعلان** بالضم، كالغفران والشكران والتكُلان، تقول: قرأته قراءة وقرآنًا بمعنى واحد أى: تلوتُه تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدرى فى قوله ﷻ: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾** (القيامة: ١٧:١٩)، ثم صار علمًا شخصيًّا لذلك الكتاب الكريم. وهذا هو الاستعمال الأغلب، ومنه قوله ﷻ: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي**

---

١. فرَّق بين القوم: أحدث بينهم فرقة، وبين المتشابهين: ميز بعضهما من بعض، وفرَّق القاضى بين الزوجين:حكم بالفرقة بينهما، وافترق القوم: فارق بعضهم بعضا، وتفرَّق الشيء تفرُّقًا: تبدَّد، و تفرَّق الرجلان: ذهب كل منهما فى طريق. والفارق: أمرًا من أمْرٍ. والفاروق: مَنْ يفرِّق بين الحق والباطل، وهو نعت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، والفرقان: هو القرآن، كما فى القرآن: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾** (الفرقان:١)، والفرقان: يوم بدر، والفرقان: كل ما فُرِق به بين الحق والباطل. معجم العين والمعجم الوسيط، مادة فرق.

٢. رُوعِى فى تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعى فى تسميته كتابًا كونه مُدوَّنًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع، وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى حقه من العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد، نعنى: أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعًا.

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء : ٩)، ويطلق الاشتراك اللفظى على مجموع الكتاب، وعلى قطعة منه، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صَحَّ أن نقول: إنه يقرأ القرآن.

ولو سلمنا بأن الكلمتين **القرآن، الفرقان** عبريتان أو سريانيتان ـ كما يزعمون ـ فلنا أن **نتساءل**: أليست العبرية والسريانية مُنْبثِقَتَان من اللغة السامية التي تعد العربية إحدى فصائلها، وعلماء الساميَّات يقرون كلمات كثيرة مشتركة بين اللغات السامية حتى عصرنا الحاضر؛ ولذلك فرد الكلمة إلى أصلها السامي واشتراك أكثر من لغة سامية في كلمة من الكلمات لا ينفي أصالة الكلمة في هذه اللغة.

ولا شك أن الهدف من وراء هذا التشكيك في أصالة المصطلحات الرئيسية في القرآن الكريم، وردها إلى أصول عبرية أو فارسية، أو سامية، أو آرامية، إنما هو استدراج للقارئ، وتمهيد لإقناعه بأن القرآن هو من اختراع محمد ﷺ وتأليفه، وأنه قد تَعَلَّمَ هذه الألفاظ من اليهود والنصارى.

ويناقش د. عبد الرحمن بدوى مزاعم المستشرقين ـ فى هذا الصدد ـ فيقول: ولكى نفترض صحة هذا الزعم فلابد أن محمدًا ﷺ كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل الأدب التلْمُودى، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات ، وقرارات المجامع الكنيسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والملل والنِّحل المسيحية.

ثم يعلق على ذلك فيقول: هل يمكن أن يُعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكُتَّاب؟ إنه كلام لا برهان عليه.

إن حياة النبىِّ محمد ﷺ قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع، ولا أحد ـ قديمًا أو حديثًا ـ يمكنه أن يؤكد أن النبىَّ ﷺ كان يعرف غير العربية؛ إذن كيف يمكن أن يستفيد من هذه المصادر كما يدَّعون؟!

والكل يتفق على أن اللغات: العربية والعبرية والسريانية تنتمى إلى سلالة لغوية واحدة هى سلالة اللغات السامية، ولابد من أجل هذا أن يكون بينها الكثير من التشابه والتماثل؛ ومن ثم فإن القول: بأن إحدى اللغات قد استعارت ألفاظًا بعينها من أخواتها هو ضَرْب من التعسُّف، لا دليل عليه.

ويمكن أن تكون هذه الألفاظ قد وجدت فى العربية قبل زمن النبى ﷺ بوقت طويل، واستقرت فى اللغة العربية حتى أصبحت جزءًا منها ، وصارت من مفرداتها التى يروج استخدامها بين العرب.

رابعًا. القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ووجود بعض الكلمات التي تستعمل في لغات أخرى فيه؛ إنما هو من باب تداخل اللغات، ولا يقدح ذلك في أصالة اللغة إطلاقًا، وذلك يتضح من خلال النقاط الآتية:

١ . إن التوافق والتداخل والاشتراك بين اللغات في بعض الكلمات أمر شائع ومعروف ومألوف، وهو أمر قد قرَّره دارسو علم اللغات أنفسهم ـ قديمًا وحديثًا ـ؛ فاللغة العبرية تشتمل على عدد غير قليل من الكلمات ذات الأصل العربي، ومع ذلك لا يقال عن الناطق بتلك الكلمات: إنه لا يتكلم العبرية.

وكذلك الشأن في اللغة التركية، واللغة السريانية أيضًا تعد عند علماء اللسانيات شقيقة اللغة العربية في مجموعة اللغات السامية، وهي تشترك مع العربية في كلمات وعبارات وقواعد واشتقاقات كثيرة، ومثل هذه الكلمات المشتركة والمتداخلة يوجد الكثير منها في لغات العالم، وخصوصًا بين الشعوب المتجاورة وذات الأصل الواحد القريب، ومنها: اللغات (الكردية، والتركية، والفارسية)، فلديها كلمات مشتركة كثيرة، وكذلك بالنسبة للغات ذات الأصل اللاتيني؛ كاللغة الفرنسية، والإسبانية، واللغات التي أصلها جرماني؛ كاللغة الإنجليزية والألمانية،

وعلى الرغم من ذلك لا يقال فلا يقال في الكلمات المشتركة والمتداخلة بين اللغات: إن لغة ما أخذتها من الأخرى.

والتلاقح بين اللغات والتفاعل بينها عبر العصور والأزمان أمر واقع ومقرر، ومسألة التلاقح والتفاعل بين اللغة العربية واللغات الأخرى ليست وليدة اليوم، وإنما ترجع جذورها إلى العصور الزمنية التي سبقت دعوة الإسلام، وهو أمر مألوف ومُشَاهد بين لغات الناس اليوم؛ إذ إن ظاهرة التفاعل بين اللغات - كما يقرِّرُ علماء اللغات - سنة ثابتة من سنن الاجتماع البشري، التي لا تتبدل ولا تتغير بتغير الأحوال والأزمان، وإذا تقرر هذا كان دليلاً وشاهدًا على ضعف هذه الشبهة وركاكتها، إذا وزنت بميزان العلم، أو قيست بمقياس الواقع.

٢. إن ظاهرة التعريب في كلام العرب مقررة عند أهل العربية، والتعريب ليس أخذًا للكلمة من اللغات الأخرى كما هي ووضعها في اللغة العربي؛ بل التعريب: أن تُصَاغ اللفظة الأعجمية بالوزن العربي؛ فتصبح عربية بعد وضعها على أوزان الألفاظ العربية كما أسلفنا، وإذا لم تكن على أوزان تفعيلاتها، أو لم توافق أي وزن من أوزان العرب عدلوا فيها بزيادة حرف أو بنقصان حرف أو حروف وصاغوها على الوزن العربي؛ فتصبح على وزن تفعيلاتهم، وحينئذ يأخذونها. يقول سيبويه - في هذا الصدد -: "كل ما أرادوا أن يُعرِّبُـوه، ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية"[1].

وإذا كانت ظاهرة التعريب أمرًا ثابتًا، وضرورة من ضروريات حياة اللغة نفسها، فلا يُعوَّل بعد هذا على من ينكر هذه الظاهرة، أو يقول بقول مخالف لما تقرر.

---

١. الكتاب، سيبويه ٤/ ٣٠٤.

٣. ومما يدفع هذه الشبهة من أساسها: واقع الشعر العربي في الجاهلية ـ الذي نزل القرآن بلغته ـ؛ فقد اشتمل هذا الشعر على ألفاظ معرَّبة من قبل أن يُنزَّل القرآن؛ مثل: كلمة **السجنجل** وهي لغة رومية ومعناها المرآة، وقد وردت هذه الكلمة في شعر امرئ القيس في قوله في المعلقة:

مُهَفْهَفَـةٌ بَيْضـاءُ غَيْـرُ مُفَاضَـةٍ تَرَائِبُهـا مَصْـقُولَةٌ كالسَّـجَنْجَلِ

وكذلك كلمة (الجمان) وهي: الدرة المصوغة من الفضة، وأصل هذا اللفظ فارسي، ثم عُرِّبَ، وقد جاء في قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

وتُضِـيءُ في وجْـهِ الظَّـلامِ مُـنيرةً كَجُمَانَـةِ البحـريِّ سـلَّ نظامهـا

٤. العرب الذين عاصروا نزول القرآن، وعارضوا دعوة الإسلام، لم يُعْرَفْ عنهم، أنهم نفوا عن تلك الألفاظ أن تكونَ ألفاظًا عربية، وهم كانوا أولى من غيرهم في نفي ذلك لو كان، وهم أجدر أن يعلموا ما فيه من كلمات أعجمية لا يفهمونها، أو ليست من نسيج لسانهم العربي المبين، ولو كان شيء من ذلك القبيل لوجدوا ضالتهم في الرد على دعوة الإسلام، ومدافعة ما جاء به القرآن، أما وأنهم لم يفعلوا ذلك فقد دل ذلك على تهافت هذه الدعوى، وسقوطها من أساسها جملة وتفصيلاً.

وقد جاء في الحديث النبوي: أن رجلاً جاء للنبي ﷺ فقال له: ما بال بالقرآن ألفاظ غير عربية، وذكر منها قسورة.. فأجلسه النبي حتى جاء رجلٌ من الأعراب فجمع له تلك الألفاظ في عبارة واحدة؛ فانصرف الرجل عن النبي ﷺ؛ فعلموا أنها ألفاظ عربية إلا أنهم لم يكونوا يعرفونها.

الشبهة الرابعة والأربعون

توهُّم اشتمال القرآن الكريم على كلام زائد لا معنى له(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى المشككون أنه قد جاء في فواتح بعض سور بالقرآن الكريم ألفاظ لا معنى لها، فمثلاً قوله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(**) (النمل: ١)، ليس بمعجز، ولا هو بالمبين كما يُفهم من الآية، بل بالعكس هو شيء مُبْهَم، فأين البيان فيه؟! ويزعمون أن فواتح السور بالحروف المقطَّعة ليست من القرآن، وأنها رموز لمجموعات الصحف، التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يُوجد المصحف العثماني، فمثلاً حرف الميم كان يُرمز لصحف المغيرة، والنون لصحف عثمان، والصاد لصحف سعد بن أبي وقَّاص، والهاء لصحف أبي هريرة، وهكذا.(١)

(*) الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه. الاستشراق والـق. حقائق القرآن في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. موسوعة القرآن العظيم: عبد المنعم الحنفي، ج١، مكتبة مدبولي. مناهل العرفان في علوم القرآن: عبد العظيم الزرقاني. موقع أقباط مصر المتحدة: عزت أنداروس.

(**) ذكر الشيخ الشعراوي في تفسير قوله تعالى: **طس** أن حروفها من أسماء الحروف و **تلك** اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة، و "الآيات" لها معان متعددة، فقد تعني الآيات الكونية، وقد تكون بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل، والتي تُثبت صدق بلاغهم عن الله، وقد تكون بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام. وهي المرادة هنا في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ومعنى **مبين**: بَيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة، وحركاتها، من أوامر ونواه. (تفسير الشعراوي: للإمام محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج١٧، ص ١٠٧٢٧ ـ ١٠٧٢٩).

١. ويسوق الكاتب مثالاً على ذلك فيقول: إن **الم** التي افتُتِحَت بها بعض السور مأخوذة من العبارة الآرامية التي وردت في فواتح نبوءات التوراة باللغة الآرامية (أمر لي مريو)، فأخذ عثمان الحرف الأول من كل كلمة ليكون **الم**.

ويقولون: إن الحروف المقطَّعة في القرآن قد أخذها سيدنا عثمان ﷺ من كلمات كان المسيحيون يستخدمونها باعتبارها لغةً سريَّة للفرار من بطش الرُّومان بهم، وهذه الكلمات هي: (أبجد هوز حطي كلمن)[1]

وجوه إبطال الشبهة:

قال المفسرون فى فواتح السور أقوالا أهمها أنها حروف إعجاز وبيان، إن المتأمل للقرآن الكريم يجد ما فيه من البلاغة، وحسن النظم، وروعة البيان والأسلوب، ومن ذلك أن فواتح تسع وعشرين سورة في القرآن جاءت حروفا مقطعة، من أمثلة ذلك: (الم، المر، المص، ص، ق، كهيعص، ...) وقد جاءت هذه الحروف المقطعة لتعجز العرب، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، واللسان، والبيان، ولكن المشككين ادعوا أنه يحتوي على كلام عاطل زائد لا معنى له، وقد رد عليهم المفسرون والعلماء قولهم هذا بوجوه عدة، من أهمها:

١) إن الآية الكريمة **طس** تنطق هكذا **طا، سين**: لأنها حروف، والرسول ﷺ كان أميًّا لا يعرف أسماء الحروف، فهي إذن دليل على أن القرآن من عند الله، لا من عند محمد ﷺ.

٢) إن أكثر السور المبدوءة بالفواتح نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى، فواجههم القرآن بالتحدي، وأعجزهم أن يأتوا بسورة من مثلة .

ثم يذكر أن السبب في ذلك هو ما لاحظه عثمان من أن النبيﷺ لم يُجبْ عن التساؤلات الملحَّة حول السيد المسيح، ولاحظ أن المسلمين يحتلُّون البلدان تحت غطاء نشر الإسلام، والقرآن هو الركيزة الأساسية في هذا الغطاء؛ إذ إنَّه يأمرهم بطاعة الله ورسوله، ويبشِّرهم بالجنة، وينذرهم بالنار، خوفًا من النهاية المحتومة، والعذاب الأبدي من عدم الإعلان عن قضيَّة المسيحيين واعتقادهم في المسيح من مسائل: الصلب.والفداء والخلاص، إن ذِكْر سيدنا عثمان لهذه الرموز غايةٌ في التعقيد لكي لا يفهمها الناس، وتظل الحروب قائمةً، والكنوز مفتوحةً تُهلُّ عليهم من أقطار الأرض.

٣) للعلماء آراء وتوجيهات في هذه الحروف وتقديمها، ومقتضى هذه التوجيهات أن في ذلك حكمة بالغة وبلاغة باهرة، وفصاحة كاملة.

التفاصيل:

أولاً. أن **طس** تنطق هكذا **طا، سين** مع مدهما مدًّا مشبعا؛ لأنهما أسماء حروف وفرق بين اسم الحرف ومُسمَّاه، فكل من الأمي والمتعلم يتكلم بحروف، يقول مثلاً: كتب محمد الدرس، فإن طلبت من الأمي أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع؛ لأنه لا يعرف اسم الحرف، وإن كان ينطق بمسماه، وأما المتعلم فيقول: كاف تاء باء، ورسول الله ﷺ كان أميًّا لا يعرف أسماء الحروف.

لذلك كانت مسألة توقيفية، فالحروف **الم** نطقنا بها في أول البقرة بأسماء الحروف **ألف لام، ميم**، أما في أول الانشراح فقلنا ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بمسميات الحروف نفسها[1].

ولو كان النبي ﷺ متعلمًا لكان من الطبيعي أن ينطق بأسماء الحروف، فإذا جاء بها وهو أمي دل ذلك على أن هذا إعجازا من الله سبحانه وتعالى[2].

ثانيًا. أن أكثر السور المبدوءة بالفواتح **الحروف المقطعة** نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى، وأفحشوا في حمل الوحي على الافتراء، والسحر، والشعر، والكهانة، فواجههم القرآن بالتحدي وأعجزهم مجتمعين ومن ظاهرهم من الجن، أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتى بسورة واحدة مثله، ما داموا يزعمون أن محمدًا افتراه وتقوله، وأفحموا وعجزوا جميعًا أن يأتوا بسورة

١. تفسير الشعراوي: للإمام محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ج١٧، ص ١٠٧٢٧.

٢. تفسير الشعراوي: للإمام محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١، ص ١٠٣، بتصرف.

من مثله، وإنه لكتاب عربي مبين؛ ألفاظه من لغتهم، وحروفه هي حروف معجمهم، تلك الحروف التي تُقرأ مقطعة، مفردة أو مركبة فلا تعطي دلالة ما، لكنها حين تأخذ مكانها في القرآن الكريم يتجلى سُّرها وسحرُها البياني، والبلاغي المعجز[1].

ثالثًا. للعلماء آراء وتوجيهات في هذه الحروف وتقديمها ومن أهم هذه التوجيهات الآتي:

الأول. قيل عنها: إنها حروف يتألف منها اسم الله الأعظم، ورووا عن سعيد بن جبير أنها أسماء الله تعالى مقطعة، لو عرف الناس تأليفها تعلموا اسم الله الأعظم، قال ابن عباس: إلا أنا لا نعرف تأليفه منها[2].

الثاني. وقيل: إنها اسم ملك من ملائكته تعالى، أو نبي من أنبيائه[3].

الثالث. وعند بعضهم أن حروف الفواتح دوال على أسماء الله الحسنى، أو مفاتيح لها، فما من حرف منها إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى، فالكاف من الكريم، أو الكبير، والهاء من الهادي، والعين من العزيز، أو العليم أو العلي، والصاد من الصمد أو المصور، والألف من الله، والراء من الرحمن ....، ونحو ذلك ما روي عن ابن عباس من أن قوله تعالى: (**الم**): أنا الله اعلم، وفي (**المص**): أنا الله أفصل، وفي (**الر**) أنا الله أرى[4].

١. الإعجاز البياني للقرآن الكريم: د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط٢، ص ١٨٠.

٢. المرجع السابق، ص ١٤٣.

٣. المرجع السابق، ص ١٤٣.

٤. المرجع السابق، ص١٤٣.

الرابع. وقيل: هي أسماء للسور التي افتتحت بها، وقال الزمخشري. وعليه - أي على هذا الوجه - إطباق الأكثر، ولا يعني هذا عنده أنها أسماء السور حقيقة، بل هي التسمية بما افتتحت به واستهلت، ونظيره قولهم: فلان يروي قفا نبك، عفت الديار، وقول القائل: قرأت من القرآن **الحمد لله**، و **براءة** وقريب من قول من قال: إن الفواتح من أسماء القرآن، كالفرقان.

الخامس. وقيل: هي أصوات للتنبيه كما في النداء، عمد إليها القرآن ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات، وقد تركوا ما ألفوا من ألفاظ التنبيه إلى ما لم يألفوا؛ لأنه لا يشبه كلام البشر، ولكي يكون أبلغ في قرع الأسماع، ثم اختلفوا فيمن يكون المقصود بهذا التنبيه، فأبو حيان يرى أنها تنبيه للمشركين إلزامًا لهم بالحجة لسماع القرآن، على حين يتجه بها الرازي إلى تنبيه النبي ﷺ لا المشركين[1].

السادس. وقيل: هي من حروف الجمل، أو ما يسمونه حساب أبي جاد، ويعنون به الأبجدية: (**أبجد هوز حطي كلمن**)، واتجهوا بدلالة الأعداد فيها إلى مدة الملة، أو مدة الأمم السابقة أو مدة الدنيا[2].

السابع. قيل: إن الحروف في مفتتح السور تشير إلى غلبة مجيئها في كلمات هذه السورة، فكل سورة بُدئت بالحروف المفردة، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له[3].

---

١. المرجع السابق، ص ١٤٤.

٢. المرجع السابق، ص ١٤٥.

٣. المرجع السابق، ص١٤٨.

الثامن. وقال بعضهم: إنها سر من مكنون علمه تعالى، ورووا عن أبي بكر الصديق ﷺ عنه أنه قال: "في كتاب الله سر، وسر الله في القرآن في الحروف التي في أوائل السور"[1].

الأسرار البلاغية وأوجه الإعجاز في هذه الحروف المقطعة:

القرآن كتاب معجز، وأوجه الإعجاز فيه أكثر من أن يحصيها إنسان، ومن ذلك ما قد تنبه السلف إلى أن مجموع هذه الحروف المفردة التي جاءت في القرآن بغير المكرر منها، أربعة عشر حرفًا هي نصف الحروف العربية، كما أطال بعضهم النظر في هذه الحروف، فلفتهم منها أنها نصف الحروف الهجائية، على أى وجه من الوجوه التي اصطلح عليها علماء اللغة بعد نزول القرآن بزمن طويل، ففيها خمسة مهموسة، وعدد المهموس من العربية عشرة، وفيها كذلك نصف الحروف المجهورة، وفيها ثلاثة من حروف الحلق هي: نصف الحروف الحلقية، كما أن فيها نصف الحروف غير الحلقية، وفيها نصف الحروف الشديدة، ونصف الحروف الرخوة، وفيها حرفان من الأحرف الأربعة المطبقة، ونصف الحروف الأخرى، المنفتحة غير المطبقة، وفيها الحروف المستعلية، ونصف الحروف المنخفضة، وقد ذهب قوم منهم الباقلاني إلى أن مجيء هذه الحروف على حد التصنيف مما تواضع عليه العلماء بعد العهد الطويل، هو من دلائل الإعجاز من حيث لا يجوز أن يقع هكذا إلاَّ من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب، وإن يكن في موضع آخر قد عدها معنى من معاني إعجاز القرآن ببديع نظمه وعجيب تأليفه وتناهيه في البلاغة[2].

١. المرجع السابق، ص ١٥٠.
٢. الإعجاز البياني للقرآن الكريم: د. عائشة عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ١٤١، ١٤٢.

بهذا الإعجاز يبطل القول بأن هذه الحروف لا معنى لها أو أنها من كلمات كان يستخدمها المسيحيون لغة سرية للفرار من بطش الرومان، أو أنها رموز لصحف بعض الصحابة.

الشبهة الخامسة والأربعون

الادّعاء باضطراب القرآن في التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بض المشككين أن القرآن قد جانب الصواب حين أتى بلفظ الفعل أرى الدال على الاستقبال، وهو يريد الماضي، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ (الصافات:١٠٢) وكان الأولى في ظنهم أن يقول: (رأيتُ) (**).

وجوه إبطال الشبهة

الأصل في اللغة أن يختلف نوع الفعل باختلاف زمن حدوثه بين الماضي والحاضر والمضارع والمستقبل، ومن قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ دون أن يتدبر المعنى، ودون أن يتأمله، يظن أن القرآن الكريم جانب الصواب في استخدام الفعل المضارع أرى، والذي يفيد المستقبل بدلاً من الفعل الماضي **رأيت**، وكذلك **أذبحك**، بدلاً من **ذبحتك** مما يعني المخالفة بين الفعل وزمن حدوثه. وكان من الصواب في ظنهم أن يقال: إني رأيت في المنام أني ذبحتك؛ ليوافق الفعل زمنه. ومن هنا كانت الشبهة. وقد رد علماء اللغة على هذه الشبهة بوجوه منها:

*. فن البلاغة.

** يقول صاحب الصفوة في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي: إني أُمرت في المنام أن أذبحك، قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، وتلا الآية، وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله ـ تعالى ـ أيقاظًا ورقودًا؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم. (صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، طبعة السيد حسن عباس الشربتلي، ج٣، ص ١٢٠٤).

١) استعمال الفعل المضارع أبلغ في الدلالة، وأنسب لمعنى الآية من استعمال الماضي؛ وذلك لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام رأى هذه الرؤيا أكثر من مرة، وتوقع رؤيتها في المستقبل أمر وارد، وهذا لا يناسبه إلا استعمال المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار.

٢) دلالة المضارع - إذا وضع موضع الماضي عند علماء المعاني - بعث للماضي وتصوير له في صورة الذي يحدث الآن، وكأن الأبصار تراه.

التفصيل:

أولاً. أن استعمال الفعل المضارع أبلغ في الدلالة، وأنسب لمعنى الآية من استعمال الماضي؛ وذلك لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام رأى هذه الرؤيا أكثر من مرة، وتوقُّع رؤيتها في المستقبل أمرٌ وارد، وهذا لا يناسبه إلا استعمال المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليالٍ متتابعات، وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم.

ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روَّى في نفسه (أي فكَّر): أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسُمِّي التروية، فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضًا، وقيل له: الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله؛ فَسُمِّي يومَ عرفة. ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمَّ بالنحر فَسُمِّي يومَ النحر[1].

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١٥، ص ١٠١، ١٠٢، باختصار.

فتكرار الرؤية لا يناسبه إلا استعمال المضارع ـ كما تقدم ـ لأنه يفيد التجدد والاستمرار، ومثل هذا يقال في الفعل **أذبحك** الذي يعبر به عن المستقبل.

ثانيًا. أن دلالة المضارع "أرى" في الآية أن الله ﷻ يصور للمخاطبين ترتيب الأحداث ساعة حدوثها في الزمن الذي أمر الله فيه إبراهيم ﷺ، وفائدته نقل أذهان المخاطبين إلى تلك اللحظة كأنهم يعاينونها بأبصارهم. وهذه هي دلالة المضارع إذا وُضع موضع الماضي عند علماء المعاني، وهي بعث الماضي وتصويره في صورة الذي يحدث في الحال.

ومن أمثلة ذلك عند العرب قول الشاعر يحكي صراعًا حدث بينه وبين الضبع، وهو حيوان مفترس:

فأضـربُها بـلا دَهَـشٍ فخـرَّت ... صـريعًا لليـدين، وللجـرَان

فالشاعر ضرب الضبع في الماضي، فلما حكى صراعه معها للناس عَبَّر عن الماضي **فضربتها** بالمضارع **فأضربها**، والدلالة البلاغية للعدول عن الماضي إلى المضارع استحضار صورة الحدث الذي وقع في الماضي، كأنه يحدث الآن في زمن المتكلم[1]، ولا شك أن استعمال المضارع ـ بدلالته على التجدد والاستمرار ـ يجعل السامع يستحضر المشهد ويتفاعل معه أكثر من استعمال الماضي.

وعلى هذا يتأكد لنا تمامًا أن الآية خالية من الخطأ، وإنما هو سوءُ فهيم لقواعد اللغة العربية أو سوء النية وفساد الطوية.

الأسرار البلاغية والجمالية:

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، أ.د. محمود زقزوق، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م، صـ٢٢٣، بتصرف.

إن هذا التعبير ﴿إِنِّي أَرَى﴾ هو الواجب بلاغة وبيانًا وإعجازًا ونظمًا، أما لو قيل: "إني رأيت" لخلا هذا التعبير من ثلاثة أرباع الحسن الذي هو فيه؛ وذلك لأن دلالة الماضي الأصل فيها الانقطاع عن الوجود المستمر، ولذلك يعبر عنه النحويون بأنه: ما دل على حدث وقع وانقطع قبل زمن التكلم. وهذا غير مراد في حكاية الله كيفية أمره لإبراهيم؛ لأنه لو قيل: **إني رأيت** لصدق هذا التعبير عن وجوده مرة واحدة في الزمن[1]. ولكن الرؤيا تكررت أكثر من مرة، ثم صار الأمر بالذبح - بعد الفداء بالكبش - سُنَّة حتى الآن، فالآية على ذلك غاية في البلاغة.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، مرجع سابق،ص ٢٢٤، بتصرف يسير.

الشبهة السادسة والأربعون

دعوى أن القرآن الكريم جمع اسم علم يجب إفراده(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض الواهمين أن القرآن الكريم قد خالف الصواب في استعمال **إلياسين** بدلاً من **إلياس** في قوله ﷻ: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات:١٣٠)، بعد قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وذلك للسجع المُتكلَّف؛ لأن **إلياسين** جمع مذكر لـ **إلياس**(**).

---

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م
الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر:
www.ebnmaryam.com ,www.islamayat.com ,

**. قال المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٣) إن إلياس نبي من بني إسرائيل، وروي عن ابن مسعود أنه قال: إسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو إدريس. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، جـ١٥، ص ١١٥).

والأرجح: أنه النبي المعروف في العهد القديم باسم **إيليا**، وقد أُرسل إلى قوم في سوريا كانوا يعبدون صنمًا يسمونه **بعلاً**، وما تزال آثار مدينة **بعلبك** تدل على آثار هذه العبادة. (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، جـ٥، ص ٢٩٩٧).

وقال أبو السعود: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى (تفسير أبي السعود، ٤ / ٢٧٦، نقلاً عن صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، جـ٣، ص ١٢٠٦).

والمراد بـ **إل ياسين هو إلياس**، ومن آمن معه جُمعوا معه تغليبًا، كما قالوا للمُهلَّب وقومه: المهلبون. (تفسير الجلالين، ٣ / ٣٤٦، نقلاً عن صفوة التفاسير، جـ٣، ص ١٢٠٧)، واختار الطبري أنه اسم لإلياس، فيقال: إلياس وإل ياسين، مثل: ميكال وميكائيل، وأن له اسمين فيسمى **إلياس** و **إل ياسين**. (تفسير الطبري، ٢٣ / ٦١، نقلاً عن صفوة التفاسير، جـ٣، ص ١٢٠٧).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فيما كان آخره ياءً ونونًا أنه جَمْعٌ مذكر، لكن إذا نظرنا في الآية الكريمة: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾، قد يُتوهم خطأ القرآن في جمع اسم علم يجب إفراده، والصواب ، كما يرى هؤلاء أن يقال سلام على إلياس، وهذا التوهم مردود عليه من وجهين:

١) **إلياس** هو **إيليا** أحد أنبياء بني إسرائيل المذكور في سفر الملوك الأول، وربما زيادة الياء والنون له معنىً في اللغة السريانية، وقيل: إن **إلياسين** لغة في **إلياس**.

٢) على الفرض - جدلاً - أن **إلياسين** جمع، فإن المراد بها **إلياس** ومن آمن به من قومه، كما نقول: **المحمدون والمهلبون**، أي: تسمية الأتباع باسم المتبوع.

التفصيل:

أولاً. إلياس هو **إيلياء** من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، وقد أُمر من جانب الله ﷻ بتبليغ ملوك إسرائيل غضب الله عليهم من أجل عبادة الأصنام، فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على الرسل إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة يس.

وقرأ الجمهور **إلياس** بهمزة قطع في أوله، على اعتبار الألف واللام من جملة الاسم العلم، فلم يحذفوا الهمزة إذا وصلوا **إنَّ** بها، وقرأه ابن عامر بهمزة وصل فحذفها في الوصل مع **إنَّ** على اعتبار أن الألف واللام لِلَمْح الأصل. (**أي: لمعرفة الأصل**)، وأن أصل الاسم **ياس** مراعاة لقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ .

وللعرب في النطق بالأسماء الأعجمية تصرفات كثيرة؛ لأنه ليس من لغتهم، فهم يتصرفون في النطق به على ما يناسب أبنية كلامهم.

وذكر الزمخشري في الكشاف: أن لزيادة الياء والنون في لغتهم معنى، ويكون ذكر آلْ: إقحامًا كقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦) [1].

ومما يقوي ما سبق ويؤيده أن: إلياسين هو إلياس، ولا يصح أن يكون جمعًا له، من ناحية أسلوب السياق في السورة، ولا من ناحية الاستعمال العربي.

فأما من ناحية أسلوب السياق: فإن قصص المذكورين من الرسل قبل إلياس، يقضي بأن السلام المنتهي به في قصته عليه لا على آله، نظير السلام المختوم به قصة كل من نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى وهارون، وهؤلاء قد أعيد ذكرهم بأعلامهم دون تغيير فيها، وقد تقدم في كلام الطبري ما فيه مقنع.

وأما من ناحية الاستعمال: فإن اللغة العربية تقضي في جمع العَلَم تعريفه بـ **أل**، فكان من اللازم أن يقال: سلام على الإلياسين؛ لأن العلم إذا جُمع وجب تعريفه بأل بعد الجمعية أي: (استعماله جمعًا)؛ جبرًا لما فاته من العَلَمية عندها لوجوب تنكيره حينها، وكذا قالوا: إذا ثني العلم وجب في مثناه التعريف بـ **أل** مثل هذا تمامًا، قال الزمخشري: "وكل مثنى أو مجموع من الأعلام فتعريفه باللام إلا نحو: أبانين، وعماتين، وعرفات، وأذرعات قال:

وقبلـيَ مـات الخالـدانِ كلاهمـا ... عَميـدُ بـني جَحْـوانَ وابـنُ المضـلَّلِ

ثانيًا. قوله: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ قيل: أريد به إلياس خاصة، وعبر عنه بـ **ياسين**؛ لأنه يُدعى به.

وقيل: إن ياسين هو أبو إلياس، فالمراد: سلام على إلياس وذويه من آل أبيه.

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد ١١ جـ٢٣، صـ١٦٦ -١٧٠، بتصرف.

وقرأ نافع وابن عامر: **ءال ياسين** بهمزة بعدها ألف على أنهما كلمتان **ءال** و **ياسين**، وقرأ الباقون: بهمزة مكسورة دون ألف بعدها، وبإسكان اللام على أنها كلمة واحدة هي اسم إلياس، وهي مرسومة في المصاحف كلها على قطعتين **إل ياسين**.

ولا منافاة بينها وبين القراءتين؛ لأن **آل** قد ترسم مفصولة عن مدخولها، والأظهر - على هذه القراءة - أن المراد بـ **آل ياسين**: أنصاره الذين اتبعوه وأعانوه، كما قال النبي ﷺ: **آل محمد كل تقي**، وآل إلياس هم: أهل **جبل الكرمل** الذين استنجدهم إلياس على سدنة **بعل**، فأطاعوه وأنجدوه، وذبحوا سدنة **بعل** كما هو موصوف بإسهاب في الإصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الأول، فيكون المعنى: سلام على ياسين وآله؛ لأنه إذا حصلت لهم الكرامة لأنهم آله فهو بالكرامة أولى[1].

الأسرار البلاغية في الآية:

- ابتدأ الكلام عن إلياس بقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٢٣)؛ لأنه ومن بعده سواء في مرتبة الدعوة إلى دين الله، وفي أنهم لا شرائع لهم، وتأكيد إرسالهم بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر؛ لأنه قد يُغْفَل عنه إذ لم تكن لهؤلاء الثلاثة (**إلياس - لوط - يونس**) شريعة خاصة[2].
- في هذه الآية رويت الفاصلة، كما نلاحظ إيقاعها الموسيقى فى إرجاع اسم إلياس بصيغة **إلياسين** على طريقة القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير[3].

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مجلد ١١، جـ٢٣، ص ١٧٠، مرجع سابق.

٢. المرجع السابق، مجلد ٣، ج٢٣، ص ١٦٥، ١٦٦.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٣، ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ جـ٥، ص ٢٩٩٨.

جاء في زاد المسير[1] في قوله ﷻ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أنها قرأت بالفصل كما قُرأت أيضًا بالوصل، وهنا اختلاف في قراءة الآية يؤدي إلى معانٍ شتى، مما يدل على روعة السياق، ونوضح ذلك من خلال ما يلي:

- **الوصل:** وقد قرأ ابن كثير وعاصم "**سلام على إلياسين**" وفيها قولان:
  - **أحدهما:** أنها جمع لهذا النبي وأمته المؤمنين به.
  - **الثاني:** أنه اسم للنبي وحده، وهو اسم عبراني.
- **الفصل:** وقد قرأ بها نافع وابن عامر: **آل ياسين**، فجعلاها: كلمتين. **وفيها** قولان:
  - **أحدهما:** أنهم آل هذا النبي المذكور وهو يدخل فيهم، كقوله ﷺ: "**اللهم صل على آل أبي أوفى**"، فهو داخل فيهم؛ لأنه هو المراد بالدعاء.
  - **الثاني:** أنهم آل محمد ﷺ.

وبذلك يتضح أنه لا أساس لما يدعيه المدعون.

---

١. زاد المسير، ابن القيم، عند تفسير هذه الآية.

الشبهة السابعة والأربعون

الادعاء باضطراب القرآن الكريم في استخدام الضمائر(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في القرآن الكريم اضطرابًا في استخدام الضمائر، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح: ٨، ٩)؛ حيث يرون أن في الآية اضطرابًا في استخدام الضمير من وجهين: الأول: في قوله

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في اللغة أن يعود الضمير على اسم قبله متقدم عليه لفظًا ورتبة، وإن تعددت الأسماء، وتعددت الضمائر العائدة عليها، ويجب أن تعود الضمائر مرتبة حَسْب ترتيب الأسماء، وقد خالفت الآية في وهم بعضهم ذلك الترتيب في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾؛ وذلك في العدول عن مخاطبة الرسول ﷺ في **أرسلناك** إلى مخاطبة المؤمنين في **لتؤمنوا**، ثم في عدم مراعاة الترتيب بين الضمائر، بحسب الترتيب بين الأسماء وتقدُّم الضمير في **تعزِّروه**، **وتوقِّروه** على الضمير في **تسبحوه** يخالف ترتيب بين لفظ الجلالة الله ورسوله.

وهذا التوهُّم مدفوع ومردود عليه من وجوه:

1) العدول عن مخاطبة النبي ﷺ في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى مخاطبة المؤمنين في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾ من أساليب الالتفات في الخطاب، وهو أسلوب معروف في لغة العرب، وأشعارهم، ولم يبتدعه القرآن الكريم.

والأخرة، ويترتب على التبليغ الذي سيشهد به أنه مبشر للمطيعين، ونذير للعاصين. أما قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فالخطاب هنا يشمل النبي ﷺ وأمته، أي: لتؤمن أنت والذين أرسلت إليهم بالله (وذكر رسوله) بعد الإيمان بالله؛ لأن الخطاب يشمل الأمة وهم مأمورون بالإيمان برسول الله ﷺ. أما قوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: لتنصروا الله، وتعظموه، وتنزهوه من كل النقائص في كل وقت. (التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج١٢، ص ١٥٥، ١٥٦، بتصرف)، وقال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾، الضمير راجع إلى الرسول ﷺ، أي: تدعوه بالرسالة والنبوة، لا بالاسم والكنية الجامع لأحكام القرآن. القرطبي، ج١٦، ص ٢٦٧.

٢) لا حرج في عود الضمائر في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ جميعًا على الله؛ لأن من معاني التعزير والتوقير: النصرة والتعظيم، ومن ثم فلا اضطراب في عود الضمائر في هذه الآية الكريمة على لفظ الجلالة.

٣) إن بعض الضمائر في الآية يعود على النبي ﷺ، وبعضها يعود على الله ﷻ، ولا يوجد في ذلك أي اضطراب؛ لأن السياق يوضح مرجعية كل ضمير على صاحبه.

التفصيل:

أولاً. إن العدول عن مخاطبة النبي ﷺ والتي جاءت في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى مخاطبة المؤمنين في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ من أساليب الالتفات في الخطاب، وأسلوب الالتفات من الأساليب المعروفة في كلام العرب، و الالتفات فن عريق من فنون البلاغة العربية، طرقه الشعراء في الجاهلية، وشاع في كلامهم، ووردت منه نماذج كثيرة في القرآن الكريم، وفي أحاديث خاتم النبيين ﷺ، وأسراره لا تحصر، ودلالته لا تنضُب، وكفاه فضلاً أنه يُروِّح عن مشاعر السامعين، وينتقل بهم من لون إلى لون في معرض جذَّاب لا يُقَدِّره حق قدره، إلا من رزق حسن الفهم، والقدرة على التذوق لمرامي الكلام[1].

والالتفات في رأي الزمخشري يحقق فائدتين:

فائدة عامة: وهي إمتاع المتلقي وجذب انتباهه بتلك التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير.

١ . حقائق القرآن وأباطيل خصومه، شبهات وردود، د. عبد العظيم المطعني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ١٣٧.

أخرى خاصة: تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور. في موقعها من السياق التي تَرِدُ فيه، من إيحاءات، ودلالات خاصة[1]. وقد كثر ورود هذا الفن في كثير من أشعار العرب، مثل قول النابغة الذبياني:

يـــا دارَ مَيَّـــةَ بِالعَلْيـــاءِ فَالسَّـــنَدِ   أَقْوَتْ وَطـالَ عَلَيها سـالِفُ الأَبَـدِ

فقد عدل من الخطاب إلى الغيبة في هذا البيت، وهو جائز في اللغة، بل هو من مظاهر البلاغة العربية، والشواهد كثيرة في أشعار العرب على ذلك، ومن ثم فإن العدول عن ضمير الخطاب المفرد في **أرسلناك** إلى ضمير الخطاب الجمع **لتؤمنوا بالله**، هو من أسلوب الالتفات المعروف لدى العرب.

ومن ثَمَّ فلا يوجد أي اضطراب في استخدام الضمائر في الآيتين ـ كما يتوهمون ـ؛ لأن أسلوب الالتفات هو الأنسب لمعنى الآيتين ولأن الإرسال خاص بالنبي ﷺ، بينما التكليف بالإيمان فله أيضًا ولسائر المخاطبين ممن يبلغهم القرآن الكريم. فأين هذا الاضطراب المزعوم في استخدام الضمائر في هاتين الآيتين؟!.

ثانيًا. إن المتأمل في استخدام الضمائر في قوله: ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ لا يجد أي مانع لُغوي أو شرعي، في عودة الضمائر كلها على الله ﷻ، بل إن ظاهر الآية ـ والذي قال به كثير من المفسرين ـ يفيد ذلك؛ لأن التعزير في اللغة هو التعظيم والتفخيم، يقول القرطبي: وتعزِّروه، أي: تعظِّموه وتفخِّموه، قاله الحسن والكلبي وقال قتادة: تنصروه، وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه[2]، أمَّا قوله: وتوقِّروه

---

١ . أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٢٦.

٢ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج١٦، ص ٢٦٦، ١٩٨٥م ـ ١٤٠٥هـ. بتصرف يسير.

فهو التعظيم. ومنه قول نوح لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣)، أي: تعظيمًا له، وذكر الطبري في تفسيره أن قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ بمعنى: تُجِلُّوه وتعظِّموه، وعن ابن عباس وتعزِّروه يعني: الإجلال، وتوقِّروه يعني: التعظيم، وروى ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ قال: الطاعة لله، وهذه الأقوال متقاربة المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها، ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال.

ومن ثم فلا نرى أي غضاضة في عودة الضمائر في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ على الله ﷻ، فلا يعد هذا كفرًا كما - يزعم هؤلاء - ولا منقصة في حق الله تعالى؛ لأن معناهما هو الإجلال والتعظيم، كما ذكرنا.

ولا شك أن الضمير في قوله: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ عائد على الله ﷻ؛ لأن التسبيح معناه: تنزيهه سبحانه من كل قبيح، أو هو الصلاة التي فيها التسبيح، ولا يكون ذلك إلا لله ﷻ، ومن ثَمَّ فإن القول بأن: في القرآن اضطرابًا في استخدام الضمائر، هو قول أبعد ما يكون عن الصحة؛ لأن كل الضمائر في هذه الآية يجوز أن تكون عائدة على الله ﷻ.

ثالثًا. إن القول بعودة بعض الضمائر على النبي ﷺ، وبعضها على الله ﷻ في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ليس فيه أي اضطراب في استخدام الضمائر - كما يدَّعي هؤلاء -؛ لأن السياق في الآية الكريمة يُوضِّح مرجعية كل ضمير على صاحبه، ولا شك أن السياق يُسهم إسهامًا هامًا في نصوص العربية، فلا بد من مراعاته من جانب المتلقي؛ للوصول إلى الفهم الصحيح للنص، والمتأمل في هذه الآية الكريمة تتضحُ له أهمية مراعاة السياق في تحديد عودة الضمائر؛ فلا

شك أن الضمائر في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عائدة على النبي ﷺ إذا كان المعنى التقوية والنصرة، أو كما قال القرطبي: أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية، أو ما قاله ابن عباس وعكرمه: تقاتلون معه بالسيف[1]، أما الضمير في وتسبِّحوه فلا شك أنه عائد على الله ﷻ؛ لأن التسبيح لا يكون إلا لله، وهذا معلوم بالبديهة، وعلى هذا فلا يوجد لبس ولا اضطراب في معنى هذه الآية الكريمة، ولا في استخدام الضمائر فيها لدلالة السياق عليها.

الأسرار البلاغية:

- إن قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، استئناف ابتدائي، وتأكيده بحرف التأكيد إنَّ للاهتمام بما سيخبر عنه، وهو إرسال محمد ﷺ وكونه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا.
- أما السر من تقدم البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين؛ ولكثرة عدد المؤمنين في أمته[2].
- أما قوله نذيرًا ولم يقل منذرًا؛ لأن الإنذار هو إخبار بحلول حادث مُسيء، أو قرب حلوله، فناسب ذلك أن يأتي بلفظ يدل على المبالغة في التحذير والإنذار، وللإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم حتى كأنه قد حلَّ بهم، وكأن المخْبِر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير[3]، هذا وقد شمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات.

---

١ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، جـ١٦، ص ٢٦٧، بتصرف يسير.

٢. التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١١، ص ٥٣.

٣ .التحرير والتنوير، الشيخ ابن عاشور، مرجع سابق، ج١١، ص ٥٣.

• أما قوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ ،فنجد أنه قد التفت من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب المؤمنين، و الالتفات كما ذكرنا من الأساليب البلاغية عند العرب، وفائدته هي الترويح عن مشاعر السامعين، والانتقال بهم من لون إلى لون في معرض جذاب.

• أما قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فهما كناية عن استيعاب الأوقات بالتسبيح، والإكثار منه، كما يقال: شرقًا وغربًا، لاستيعاب الجهات، وقيل: التسبيح هنا: كناية عن الصلوات الواجبة[1].

---

١ .التحرير والتنوير، الشيخ ابن عاشورمرجع سابق، ج١٢، ص ٢٥، ٢٦.

الشبهة الثامنة والأربعون

توهُّم اضطراب القرآن في ذِكْر اسم مكة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أن القرآن مُضْطربٌ في ذكر اسم مكة؛ حيث يقول ﷻ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (الفتح: ٢٤)، ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦)، فهل هي مكة أم بَكَّة؟!(**)

(*) www. Islamyat.com www.ebnmaryam.com

(**) يقول القرطبي في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ (الفتح: ٢٤). المراد ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ : الحديبية، وقد قال سلمة بن الأكوع: كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت لسِتَّة من المشركين أسوقهم مسلَّحين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فأتيت بهم رسول الله ﷺ. وكان عمر في الطريق فقال: يا رسول الله، نأتي قومًا حربًا، وليس معنا سلاح ولا كُراع؟ فبعث رسول الله ﷺ إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها، وأخبر رسول الله ﷺ أن عكرمة بن أبي جهل خرج إليك في خمسمائة فارس، فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: "هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة". فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله، فيومئذ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيل، وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة.. وكان بينهم قتال بالحجارة، وقيل: بالنبل والظُّفْر (طرف القوس)، وقيل: أراد بـ"كف اليد": أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو ردٌّ عليهم، فخرج أقوام مسلمون من مكة، وخافوا أن يردهم الرسول ﷺ إلى المشركين، فلحقوا بالساحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم، حتى طلب المشركون من النبي ﷺ أن يضمهم إليه ليأمنوا منهم، وأما قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: يريد مكة. والثاني: الحديبية؛ لأن بعضها مضاف إلى الحرم. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج١٦، ص ٢٨٠: ٢٨٢).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى الاسم العلم أن يدل على مُحدّد - شخصًا كان أو مكانا، أو ما شابه ذلك - ولا يتغير الاسم العلم؛ لأن مدلوله واحد لا يتغير.

والقارئ غير المتأمل لقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ (الفتح : ٢٤)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (آل عمران : ٩٦)، قد يتوهم أن القرآن به اضطراب؛ حيث دلّ على المكان نفسه مرة بمكة، وأخرى ببكة، ولكن هذا التوهُّم مردودٌ من عدة وجوه، منها:

١) إن ما جاء في قوله ﷻ: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ مقصود به: مكة؛ وذلك لمجيء كلمة بطن؛ فالبطن هي وسط البلد، كما يقال: بطن الوادي. أي: وسطه. وقيل: هي الحديبية.

٢) إن ما جاء في قوله ﷻ: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يُراد به: هو مكان الطواف. وقيل: إن **مكة** و **بكة** اسمان لمسمى واحد بقلب الميم باءً.

التفصيل:

ويقول كذلك في تفسير قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ : إنها نزلت عندما تفاخر المسلمون واليهود في المفاضلة بين الكعبة، وبيت المقدس؛ فأنزل الله هذه الآية.

والمقصود بـ بكة: موضع البيت، ومكة: سائر البلد. وقيل: بكة مشتقة من البَكّ، وهو: الازدحام. وتباكّ القوم: ازدحموا. وسميت بكّة لازدحام الناس في موضع طوافهم. والبكُّ: دقّ العنق. وقيل: سُميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم. قال عبدالله بن الزبير: لم يقصدها جبّار قط بسوء إلا وَقَصَه الله ﷻ. وأما مكة فقيل: إنها سميت بذلك لقلة مائها. وقيل: لإنها تمُكّ المخّ من العظْم؛ مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم: مككْت العظم: إذا أخرجت ما فيه. ومكّ الفَصيل ضَرْع أمه وامتكّه: إذا امتص كل ما فيه من اللبن وشربه. (تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٤/ ١٣٨، بتصرف يسير).

إن القرآن الكريم نزل بلغة الفصاحة والبيان المليئة بالأساليب التي تحتاج إلى تدبر وتعمق وإعمال فكر، ولكنَّ هؤلاء عاجزون عن التدبر، كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)؛ فالقرآن الكريم جاء بألفاظ العرب ولُغتهم، وفيها من الإطناب والإيجاز بنوعيهما، وفي تسمية الشيء بأكثر من اسم ما يبطل هذا الزعم.

وفيما يلي نفصل الأدلة للرد عليهم:

أولاً. إن ما جاء في قوله ﷻ: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ مقصود به: مكة؛ وذلك لمجيء كلمة ﴿بِبَطْنِ﴾، فالبطن: وسط البلد. كما يُقَال: بطن الوادي أي: وسطه. وقيل المراد: الحديبية.

قال الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ (الفتح: ٢٤): حقيقة البطن: جوف الإنسان والحيوان، ويُستَعمل في معاني المنخفض من الشيء أو المتوسط منه مجازًا. قال الراغب: ويقال للجهة السفلى: بطن، وللعليا: ظهر. ويقال: بطن الوادي لوسطه. والمعروف من إطلاق لفظ البطن إذا أضيف إلى المكان أن يراد به: وسط المكان، كما في قول كعب بن زهير:

في فِتْيَـةٍ مِـن قُـرَيْشٍ قَـالَ قَـائِلُهُم ... بِـبطْنِ مَكَّـةَ لَمَّـا أَسْـلَمُوا: زُوْلُـوا

أي: في وسط البلد الحرام.

لكن ما وقع ـ مما قد يفضي إلى القتال ـ إنما وقع يوم الحديبية؛ ولهذا فقد حمل جمهور المفسرين قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ على الحديبية من إطلاق البطن على المكان،

والحديبية قريبة من مكة، وهي من الحل وبعض أرضها من الحرم، وهي على الطريق بين مكة وجَدَّة، وتُعرف اليوم باسم الشميسي[1].

ثانيًا. إن ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ المراد منه: مكان الطواف، كما أن كلمتا **مكة** و **بكة**: اسمان لمسمًّى واحد، حيث قلبت الميم باءً، ونفصل ذلك الوجه على النحو التالي:

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، المراد من **بكة**: المكان الذي فيه الطواف والكعبة، أي: هي اسم مكان البيت الحرام، واشتقاق **بكة** مأخوذ من بكّ المكان، أي: ازدحم المكان؛ ومن هنا فالمقصود من قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: أنه مكان الازدحام الذي يأتي إليه كل الناس، وكل الوفود ليزوروا بيت الله الحرام، ولا أدلَّ على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض؛ وذلك من شدة الزحام في هذا المكان.

وقيل: إن **بكة** اسم آخر **لمكة**؛ حيث يقول بعض العلماء: إنَّ **الميم** و **الباء** يتعاوران؛ ونلحظ ذلك في الإنسان "الأخنف" أو المصاب بزكام فهو ينطق الميم كأنها باء، فهما حرفان قريبان في النطق، والألفاظ منهما تأتي قريبة المعنى من بعضهما[2].

وبهذا البيان يتضح أنه لا يوجد أي اضطراب في القرآن الكريم حول اسم **مكة**.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، م ١٢، ج٢٦، ص ١٨٤، ١٨٥، بتصرف يسير.

٢. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة، ج٣، ص ١٦٣٢، ١٦٣٣.

الأسرار البلاغيَّة في الآيتين الكريمتين:

- إن قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، واقعٌ موقع التعليل للأمر في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٥)؛ لأن البيت المُنوَّه بشأنه كان مقاما لإبراهيم، ففضائل هذا البيت تحقق فضيلة شرع بانيه في متعارف الناس، فهذا الاستدلال خطابي، وهو أيضا إخبار بفضيلة الكعبة وحرمتها فيما مضى من الزمان، وقد آذن بكون الكلام تعليلا موقع **إنَّ** في أوله، فإن التأكيد بإن هنا لمجرد الاهتمام وليس لرد إنكار منكر، ومن خصائص **إن** إذا وردت في الكلام لمجرد الاهتمام، أن تغني غناء فاء التفريع، وتفيد التعليل والربط.
- لقد عبَّر القرآن الكريم عن الكعبة بالموصولية: ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ؛لأن هذه الصلة، صارت أشهر في تعيينه عند السامعين؛ إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره، بخلاف اسم الكعبة: فقد أُطْلق اسم الكعبة على القُلَّيْس الذي بناه أهل الحبشة في صنعاء لدين النصرانية، ولقّبوه بـ **"الكعبة اليمانية"**.
- في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: ٢٤)، أطلق الكفَّ مجازًا على الصرف، أي: قدَّر الله كف أيدي الناس عنكم؛ بأن أوجد أسباب صرفهم عن أن يتناولوكم بضرٌ، أو سوء نووه، أو لم ينووه، وهو حاصل مقدر للطرفين.
- **والكف**: مشتق من اسم الكف التي هي **"اليد"**؛ لأن أصل المنع أن يكون دفعًا باليد، ويقال: كف يده عن كذا: إذ امتنع من تناوله بيده، وفي قوله ﷻ: ﴿ كَفَّ

أيديهم﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث عبَّر بكف اليد وأراد صرفهم كلية لا أيديهم فحسب. وأفاد هنا: أنه لم يترك أحد من الفريقين الاعتداء على الفريق الآخر من تلقاء نفسه، ولكن ذلك كان بأسباب أوجدها الله تعالى لإرادته عدم القتال بينهم[1].

- في قوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: ٢٤)، تقدَّم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ لإفادة التخصيص، أي: القصر، والمعني: لم يكفهم عنكم، ولا كفكم عنهم إلا الله تعالى، مع توفر أسباب الاشتباك للطرفين، إلا أن الله قدَّر موانع لهم ولكم؛ فكف أيديهم عنكم بأن نبهكم إليهم قبل أن يفاجئوكم، وكفَّ أيديكم عنهم حين أمر رسول الله ﷺ بأن يعفو عنهم ويطلقهم[2].

ولكن لِمَ ذكر الله ﷻ كف الأيدي ولم يذكر جل شأنه: منع القتال؟! وفي ذلك يقول د. عبد الفتاح لاشين: وكفُّ الأيدي أبلغ من منع القتال؛ لأن كف الأيدي يستلزم منع القتال بالدليل[3].

- إن الآية الكريمة فيها مراعاة الفواصل ـ كما جاء في جميع آيات السورة الكريمة ـ وهو من المحسنات البديعة[4]. فقد قال الإمام الطاهر بن عاشور: وجملة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تذييل للتي قبلها، والبصير بمعنى: العليم بالمرئيات، أي:

---

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ج ١٢، ج٢٦، ص ١٨٤، بتصرف.

٢. المرجع السابق، المجلد١٢، ج١٢، ص ١٨٣، ١٨٤.

٣. البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م، ص ٢٥٩.

٤. صفوة التفاسير، محمد الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٣، ص ١٣٩٢، بتصرف يسير.

عليمًا بعملكم حين أحطتم بهم، وسقتموهم إلى النبي ﷺ تظنون أنكم قاتلوهم وآسروهم[1].

وبذلك يتضح من خلال ما فنّدنا من أدلة الرد ومن أسرار بلاغية في كلتا الآيتين أن القرآن هو المعجزة الخالدة التي لا اضطراب فيها، فهو من لدن حكيم عليم، وعلى هذا يبطل وهم المتوهمين.

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، م ١٢، ج٢٦، ص ١٨٦.

الشبهة التاسعة والأربعون

توهم عدم مطابقة القرآن الكريم بين النعت والمنعوت في التذكير(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن خرج عن المألوف في اللغة، فلم يطابق بين النعت ومنعوته في النوع (التذكير والتأنيث)، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ (ق: ١١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة: ٦)؛ حيث وصف **بلدة** وهي منعوت مؤنث بالنعت **ميتا** وهو مذكر، ووصف **الريح** وهي منعوت مؤنث بالنعت **صرصر** وهو مذكر، والصواب في ظنهم أن يقال: **بلدة ميتة** و **ريح صرصرة**.(**)

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الصفة أن تتبع الموصوف في أربعة أمور من عشرة هي:

- النوع (التذكير أو التأنيث).
- الإعراب (الرفع أو النصب أو الجر).
- العدد (الإفراد أو التثنية أو الجمع).

(*) www.godd_way.com

(**) جاء في تفسير هذه الآية ﴿ صَرْصَرٍ ﴾: باردة تحرق ببردها كإحراق النار؛ مأخوذة من الصِّر، وهو البرد. قال الضحاك: وقيل: إنها الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم. (القرطبي، ج ١٨، ص ٢٥٩). وعامة المواضع التي ذكر الله ﷻ فيها إرسال الريح بلفظ الواحد، فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة. (المفردات: الأصفهاني، ٢٠٦). ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ ـ قوم هود ـ فأهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد، وهي الدبور، وفي الحديث: نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور. أخرجه البخاري ومسلم. و﴿عَاتِيَةٍ﴾ ، أي: متجاوزة الحد في الهبوب والبرودة؛ كأنها عتت على خزانها، فلم يتمكنوا من ضبطها. (صفوة التفاسير، جـ٣، ص ١٦٠٠).

• التعيين (التعريف أو التنكير).

كما في "استغرق فى نومٍ عميق"، فقد توافق النعت "عميق" مع منعوته "نوم" فى أربعة أمور، هى: التنكير، الإفراد، الجر، التذكير، وتطبيق هذه القاعدة على الآية الكريمة، قد يُتصوَّر بالنظرة العَجلى أن الآيتين فيهما مخالفة للقاعدة المشروحة؛ حيث يُظن أن النعت فى الآية الأولى وهو كلمة **ميتا** قد وافق المنعوت **بلدة** فى ثلاثة أمور فقط، وليس أربعة - كما تقرر القاعدة - وهى التعريف والإفراد، والإعراب، وقد خالفه فى النوع، وهو التأنيث.

وكذلك الحال فى الآية الثانية حين يرون الصواب أن يقال: **بريح صرصرة**، ومن هنا توهم بعض المغالطين أن بالقرآن الكريم أخطاءً لغوية، ومثّلوا بهذه الآية.

ولنا وجوه فى ردِّ هذا الخلط وإزالة هذا اللبس، ومنها:

١) فيما يتعلق بقوله ﷻ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ فإن لفظة **صرصر** وصف خاص لكلمة **الريح** المؤنثة، ولا تأتى وصفًا لمذكر؛ فلا تحتاج إلى علامة فارقة بين المذكر والمؤنث، مثل: حائض، وحامل، ومرضع، فكلها أوصاف خاصة بالمؤنث.

٢) وفيما يتعلق بقوله ﷻ: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ففيه وجهان :

• لفظة **بلدة** هنا بمعنى البلد والمكان، وهذا يعرف فى العربية بالحمل على المعنى؛ ومن هنا نُعتت **بلدة** المؤنثة بنعت مذكر وهو **ميتا** حملاً على معناها.

• لفظة **بلدة** مؤنث مجازى، يجوز فى وصفه والإخبار عنه، التذكير والتأنيث على حد سواء.

التفصيل:

أولاً. فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾، فإن كلمة **صرصر** من الصفات المختصة بالمؤنث، مثل : حائض، وحامل، ومرضع، وذلك أن التاء التى للتأنيث ـ تأتى للتفريق بين المذكر والمؤنث، إذا كانت الصفة تستعمل لهما معًا، كما تقول: طالب وطالبة، أما إذا كانت الصفة خاصة بالمؤنث، فليس هناك حاجة للتاء التى تفرق بين المذكر والمؤنث[١].

يقول الطاهر بن عاشور: والصرصر: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي: دويٌّ في هبوبها من شدة تنقلها وسرعتها، وتضعيف عينه للمبالغة في شدَّتها بين أفراد نوعها، كتضعيف كبكب للمبالغة في كبَّ، وأصله: صَرَّ، أي: صاح، وهو وصف لا يؤنث لفظه؛ لأنه لا يجري إلا على الريح وهي مقدرة للتأنيث.[٢]

ولم يرد فى القرآن إلا وصفًا للريح بدون التاء فى جميع المواضع، وهى:

- قوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ (فصلت : ١٦)
- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (القمر : ١٩)
- وقوله ﷻ:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦)

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون ـ تونس، جـ١١، صـ٢٥٩.

٢. المرجع السابق، نفس الصفحة.

والمعنى: "وأما عاد - قوم هود - فأهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهى الدبور، وفى الحديث: " نصرت بالصبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدبور" [1]

ثانيًا. أما فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ففيه وجهان:

١. جاء النعت **ميتا** مذكرًا، مع أن المنعوت **بلدة** مؤنث؛ لأن البلدة في معنى البلد والمكان، والمعنى: وأحيينا به مكانًا ميتًا، وليس المراد إحياء البشر، وهذا يعرف فى العربية بـ **الحمل على المعنى**، وهو كثير جدًّا في لغة العرب وفي أحاديثهم، أكثر من أن يحصى، ومن ذلك قول الشاعر:

فَـــإِنْ تَعْهَــدِينِى وَلِــى لِمَّـــةٌ   فَـــإِنَّ الحَـــوَادِثَ أَوْدَى بِهَـــا

حيث قال: أودى، ولم يقل: أودت؛ لأنه حمل الحوادث على معنى الحَدَثان، وقال آخر:

هَنِيئًا لِسَعْدٍ مَـا اقْتَضَـى بَعْـدَ وَقْعَتِـى   بِنَاقَـــةِ سَــعْدٍ والعَشِيــيَّةَ بَــارِدِ

فقال: "بارد" ولم يقل: "باردة"؛ لأنه حمل العشية على معنى العشيِّ، ولو قيل فيها: **ميتة**، لجاز ذلك أيضًا؛ لأن المقصود المكان، فقال: **ميتًا** [2].

---

١. صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، جـ٣، صـ١٦٠٠.

٢. الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبى، دار إحياء التراث العربى، لبنان، ١٩٨٥ م، جـ١٧، ص٧.

٢. هناك توجيه يرى أن **بلدة** مؤنث تأنيثًا مجازيًّا لا حقيقيًا، ومن هنا جاز في الاستعمال اللغوي تأنيث خبرها وصفتها، وكذلك جاز تذكيرها على حد سواء، سواء كان ذلك في ضرورة الشعر أم في النثر، ومثل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾، فـ **قريب** هنا جاءت مذكرًا، وهي خبر لمبتدأ مؤنث، لكنه مؤنثٌ مجازيٌّ؛ ولذلك جاز تذكير قريب.

الأسرار البلاغية في الآيات:

- في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾، لفظ **عاتية** وصفت به الريح على سبيل الاستعارة؛ لشدة عصفها، وأفاد معنى آخر إلى جانب الشدة وهو التمرد، فهي ريح شديدة متمردة.
- وفي لفظ **صرصر** أتي اللفظ مطابقًا لمقتضى الحال من العذاب والإيلام، فهو يعني: شديدة الصوت، والتي تُحدِث صرصرة. وقيل: **الريح الباردة** من الصِّر كأنها التي كُرِّر فيها البرد وكثر، فهي تحرق لشدة بردها.
- في قوله تعالى: ﴿**وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾ من البلاغة ما يعرف بـ **المجاز**؛ حيث ذكر هنا البلدة وأراد بها الأرض، والمجاز هنا علاقته المكانية، فالله ﷻ أحيا بهذا الماء أراضٍ ميتة جرداء.
- وكذلك في الآية **استعارة مكنية**؛ حيث صور الأرض أو البلدة بإنسان يحييه، وفيها تشخيص للبلدة، وهذه الاستعارة غرضها استحضار الصورة، وبيان الفرق بين الحيوية والنشاط من جهة، والخمود والموات من جهة أخري.

- وفى الآية أيضًا **تشبيه**؛ حيث شبه **الجدب** بـ **الموت**، وذلك في انعدام ظهور الآثار،[1] وتذكير الميت وهو وصف للبلدة، وهي مؤنث على تأويله بالبلد؛ لأنه مرادفه، وبالمكان لأنه جنسه.

وبعد هذا البيان كيف يحق لمنكر أو مدعٍ أن يتهم القرآن الكريم بخطأ المطابقة بين النعت ومنعوته وهو الكتاب الخالد المعجز، وقد كان أحرى بهؤلاء المتوهمين أن يدرسوا قواعد اللغة جيدًا قبل أن يتعجلوا فى إطلاق الشبه جزافًا، فربما علموا شيئًا وغابت عنهم أشياء.

١. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، المجلد١٢، ج ٢٦، ص٢٩٤.

الشبهة الخمسون

توهُّم اضطراب موقف القرآن الكريم من العرب مدحًا وذمًا(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن يناقض بعضُه بعضًا؛ حيث مدح العرب في قوله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة:٢)، وذمَّهم في قوله ﷻ: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ (التوبة: ٩٧)، فكيف يكون هذا (**) ؟!

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في بلاغة الكلام ألا يناقض بعضه بعضًا، بل يجب أن يكون في إطار فكري واحد؛ ليحقق معنى متَّسقا وهذا ما نلحظه بوضوح تام في السياق

(*) الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن، مجمع البحوث الإسلامية.

(**) يقول صاحب الصفوة في قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ إن الله ﷻ برحمته وحكمته بعث في العرب رسولًا من جملتهم، أميًا مثلهم ـ لا يقرأ ولا يكتب ـ، يقرأ عليهم آيات القرآن، ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب، ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة، وقد كانوا من قبل إرسال الرسالة لفي ضلال واضح عن النهج القويم، والصراط المستقيم. (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٣، ص ١٥٤٢).

أما قوله ﷻ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ : إن الأعراب ـ وهم أهل البادية ـ أشد كفرًا، وأعظم نفاقًا من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح، وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع، والله عليم بخلقه حكيم في صنعه. (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ج١، ص ٥٤٥، ٥٤٦).

القرآنى، ـ منسق الأداء معجز النظم ـ أمّا ما توهمه بعضهم من اضطراب موقف القرآن من العرب ـ مدحًا وذمًا ـ ؛ فوهم باطل من وجوه:

١) اللغة تفرق بين كلمتى: الأعراب، والعرب، وقد بعث الله النبي ﷺ من العرب، وليس من الأعراب،وعليه فإن الآية الأولى نزلت فى العرب والثانية ذمت الأعراب.

٢) لو لم يكن العرب على الرجس والضلالة؛ ما بعث الله فيهم رسولًا ليزكيهم؛ (وبالتالي) فليس بعث الرسول فيهم بمدح لهم بل هو امتنانٌ عليهم؛ ومن ثم لا يوجد تعارض بين الآيتين.

٣) الذم الذي وجه للأعراب لم يوجه إليهم حال إيمانهم، ولم يوجه إليهم جميعًا، ولم ينف عنهم وجود صفات طيبة تؤهلهم لقبول الإيمان والتحسن معه، مما لا يمنع أن يوجه إلى بعضهم الذم، وإلى الباقين المدح.

التفصيل:

أولا. هناك فرقٌ بين الأعراب والعرب في اللغة، وقد بعث الله النبي ﷺ من العرب وليس من الأعراب.

فالعرب هم سكان القرى (المستقرون فيها أماكن ثابتة)، وبالبداهة أن الذي يحيا في القرية ويتوطنها له جيران، وله قانون يحكمه، وله إلف بالمكان، وإلف بالمقيمين، ويتعاون مع غيره، ويتطبع بسكان القرية، ويألفهم ويألفونه، ومع الإلف والائتلاف يكون اللين في التعامل، بخلاف من يحيا في البادية؛ فهو يمتلئ بالقسوة، والفظاظة والشراسة؛ لأن بيئته نضحت عليه، والوحدة عزلته[1].

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دارأخبار اليوم قطاع الثقافة، القاهرة، المجلد التاسع، ص ٥٤٣٥: ٥٤٣٧.بتصرف يسير.

وأما الأعراب سكان البوادي، وليس لهم استقرار في مكان، إنما يتتبعون مواضع الكلأ، وليس لهم تَوَطنٌ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان، ومعنى ذلك أن كلًا منهم ليس له سياسة عامة تحكمه في تلك البادية، وكل واحد منهم ـ كما يقال ـ صوته من دماغه، أو من دماغ رئيس القبيلة، وما داموا بهذا الشكل، وليس عندهم توطن يوحى بالمعاشرة، التي تقتضي اللين في الجانب وحسن التعامل؛ فإنه لذلك يقال عن كل واحد منهم "مستوحش" ،أي: ليس له ألفة بمكان، أو جيران، أو قانون عام.

ولما كان ذلك من شأن الأعراب، ودل على نقصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة ؛ فصاروا دون سواهم، وترتبت على ذلك أحكام ثلاثة:

١. أنهم لا حقَّ لهم في الفيء ولا الغنيمة.

٢. إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة لما في ذلك من تحقيق التهمة.

٣. أن إمامتهم لأهل الحاضرة، ممنوعة لجهلهم بالسُنَّة، وتركهم الجمعة[1].

لذا فإنهم منفصلون تمامًا عن العرب في الصفات والأحكام، فإن كان الله ﷻ قد امتدح العرب في آية سورة الجمعة، فإنه في آية سورة التوبة لم يذمهم، بل ذم الأعراب الذين تقدم وصفهم؛ إذن فلا وجه للتعارض بين الآيتين .

ثانيًا. قولهﷻ: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** (الجمعة: ٢) : ليس بمدح لهم وإنما هو امتنانٌ عليهم، وفيه معنى أنهم كانوا على الرجس والضلالة، وإلا ما بُعث فيهم رسولٌ ليزكيهم.

---

١. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج٨، ص ٢٣١، ٢٣٣.

والتزكية مشتقة من: زكا يزكو زكاة، وهي كلمة متضمنة لمعنيين: الطهارة، والنماء؛ لذا كانت مهمة النبي ﷺ مع العرب الأميين ذات شقين:

الأول: تطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله، وتطهير القلوب من قسوة الجاهلية وغلظتها، وتطهير الإرادات من الشهوات البهيمية والنزوات السبعية، وتطهير السلوك من رذائل الجاهلية.

والثاني: تنمية العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والإرادات بالتوجه إلى عمل الصالحات، والسلوك بالتزام العدل، والإحسان، ومكارم الأخلاق، وهذا ما فعله النبي ﷺ ؛فقد علَّم العرب الكتاب والحكمة، وزكَّاهم أعظم تزكية بما هدم فيهم من أفكار الوثنية، وانحرافات الجاهلية، وما بنى فيهم من معارف التوحيد، وفضائل الإيمان، فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم ﷻ :**﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** (آل عمران: ١١٠)[١]

ثم إن معنى الأميين أنهم لا يقرأون ولا يكتبون، كما أن الله ﷻ تحدث عنهم في الآية نفسها وسمَّاهم ضالين قبل النزول، وفي غيرها سمَّى عصرهم عصر الجاهلية، وسمَّى تصرفاتهم حمية الجاهلية، وسمى سلوكهم موتًا وكفرًا، وجهْلًا، وظلامًا، ولكنه أرسل رسوله ليخرجهم من الظلمات إلى النور[٢].

---

١. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ٩٣.

٢. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، د. عبد العظيم المطعني، ط١، ج٢، ص ٨٧٣.

الشبهة السابعة والأربعون

الادعاء باضطراب القرآن الكريم في استخدام الضمائر (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أنَّ في القرآن الكريم اضطرابًا في استخدام الضمائر، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح: ٨، ٩)؛ حيث يرون أن في الآية اضطرابًا في استخدام الضمير من وجهين: الأول: في قوله أرسلناك الذي خاطب فيه الرسولَ ﷺ، ثم عدَل إلى مخاطبة المؤمنين في قوله: لتؤمنوا، الثاني: أن الضمير المنصوب في "تعزِّروه" و"توقِّروه" عائد على الرسول المذكور آخرًا، وفي تسبِّحوه عائد على لفظ الجلالة المذكور أوَّلاً رغم تأخره.

ويقولون: فإن كان القول: **تُعَزِّروه وتوقِّروه وتسبِّحوه** عائدًا على النبي ﷺ فهذا يُعَدُّ كفرًا؛ لأن التسبيح لا يكون إلا لله فقط، وإن كان القول: **تعزِّروه وتوقِّروه وتسبِّحوه** بكرة وأصيلا) عائدًا على الله فإن هذا يُعَدُّ كفرًا؛ لأن الله ﷻ لا يحتاج لمن يعزِّره ويقوِّيه (**).

---

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، القاهرة ٢٠٠٤م. الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، زهراء الشرق، مصر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(**) ذكر ابن عاشور في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: أن الله تعالى لما أراد أن يُبيِّن ما جرى في حادثة الحديبية. ذكر مراده من إرسال رسوله، ليكون ذلك مقدمة للقصة؛ حيث إن بيان حكمة الله من إرسال رسوله له مزيد اختصاص بالواقعة المُتحدث عنها؛ فذكر في الآية ثلاث أوصاف: شاهدًا، ومبشرًا، ونذيرًا، أما الشاهد فهو المُخْبِر بتصديق أحد أو تكذيبه، فيما ادَّعاه أو ادَّعى به عليه، والمعنى: أرسلناك يا محمد في حال أنك تشهد على الأمة بالتبليغ، بحيث لا يُعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه، وتشهد على الأمم في الدنيا ويوم

وإن انتفى المدح عن هؤلاء العرب قبل البعثة، فقد انتفى وجه التعارض المتوهم بين مدحهم مرة وذمهم أخرى.

ثالثًا. الذم الذى وجه الله إلى الأعراب لم يوجه إليهم جميعًا، ولم يوجه إليهم حال إيمانهم، ولم يَنْفِ عنهم وجود صفات طيبة تؤهلهم؛ لقبول الإيمان منهم، وهذا يثبت من عدة وجوه:

١. ورود هذه الآية في فئة محددة من الأعراب هم أسد وغطفان.

٢. مذمة الله ـ ﷻ ـ للأعراب كان في حال كفرهم، ولعل في صيغة التفضيل "أشدُّ" مع سياق الآيات، ما يدل على أنه ﷻ يقارن كفرًا بكفر، مما يؤكد أن حديثه عن الكفار منهم فقط، فهم الأشد كفرًا من منافقي المدينة، قال تعالى: ﴿ **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا** ﴾ (التوبة: ٩٧)

أما عندما تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم فإن الأمر يتغير تمامًا، فالذي يسلم يتغير من الغلظة للرقة، وقد كان حال سيدنا عمر بن الخطاب قبل الإسلام وبعده خير برهان، على الرغم من أنه لم يكن من الأعراب.

٣. الأعراب ليسوا كلهم بنفس الغلظة والجفاء، وإنما هو من باب وصف الجنس بوصف لبعض أفراده[1]، وقد امتدح الله فيما بعد ذلك في نفس سورة التوبة الأعراب المؤمنين بنص قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة : ٩٩) وبالنظر في الآيات السابقة نجد الدليل القاطع على امتداح الله

١. روح المعاني: للآلوسي في تفسيره للآية (٩٧ التوبة).

لبعض الأعراب على حسن إسلامهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٩٠).

٤. ثم إن اتصافهم بصفات الغلظة والخشونة لم ينف عنهم وجود الصفات الأخرى الحسنة، والتي تُحمد فيها الخشونة والغلظة، وهي الشجاعة، والصراحة، والكرم، والإباء، وهي أقرب إلى الخير إذا اعتقدوا وآمنوا به[١].

٥. ثم إن اتصافهم بالغلظة والجفوة ،يرجع إلى أسباب، هي:

- تربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاءوا.
- بعدهم عن مشاهدة العلماء، ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ،فكانوا أطلق لسانًا بالكفر من منافقي المدينة[٢].

وهذا الحال يختلف بالطبع بعد الإسلام، إذ انضموا تحت لواء واحد بإمام واحد، هو النبي ﷺ بتعاليم واحدة، ويتعلمون الجماعة التي تجمع أرواح المسلمين في كل شيء من الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والأعياد، وحقوق الأخوة والجيران، والأضياف، فيتنازلون عن كثير من غلظتهم وجفوة طباعهم، بل وتنسلخ منهم انسلاخًا مع انطوائهم تحت هذا اللواء الجديد، ومع الوقت تذوب شخصياتهم في هذه التعاليم، فيصير الواحد منهم مسلمًا يوجِّه أمره لله، ينقاد لتعاليمه، وتصير أخلاقه كما يحب الله ورسوله، ويتحول من الطباع الغليظة إلى المشاعر الرهيفة، من عطف على الفقراء والمساكين، وبكاء من خشية الله... إلخ.

---

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس. مجلد ٦، جـ١١، ص ١٢.

٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج١، ص ٥٤٦، مرجع سابق.

ومن كل ما سبق يتبين أن الذم الذي وجهته الآية للأعراب لم يشملهم كلهم وبل فيهم من امتدحه القرآن وأثنى عليه، مما ينفي التعارض بين الآيتين، هذا إذا افترضنا أن الآية في سورة الجمعة تكلمت عنهم، وهذا غير صحيح[1].

الأسرار البلاغية في الآيتين:

قال ﷻ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٩٧)، وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو﴾ (الجمعة: ٢).

- الآية الأولى استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذرين من الأعراب، والذين كذبوا الله ورسوله منهم، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب، فلما تقضي الكلام على أولئك تخلص إلى بقية الأعراب[2].

- والمتأمل في قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ،أي: كائنًا من جملتهم: فمن تبعيضية، والبعضية: إما باعتبار الجنس فلا تدل على أنه ﷺ أمِّي أو باعتبار الخاصة المشتركة في الأكثر فتدل، واختار هذا جمع، فالمعنى: رسولاً من جملتهم أميًّا مثلهم، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ مع كونه أميًّا مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم[3].

---

١. المرجع السابق، جـ١ ص ٥٤٦.

٢. التحرير والتنوير: ابن عاشور، مجلد٦، ص ١٠، سابق.

٣. روح المعاني: الآولسي، في تفسير الآية الجمعة: ٢.

• في **الأميين** للظرفية: أي ظرفية الجماعة، ولأحد أفرادها، ويفهم من الظرفية معنى الملازمة، أي رسولاً لا يفارقهم، فليس مارًا بهم كما يمر المرسل بمقالة، أو بمالكة يبلغها إلى القوم ويغادرهم[1].

• وفي وصف الأمي بالتلاوة وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس ضرب من محسن الطباق؛ لأن المتعارف أن هذه مضادة للأمية.

• تلك كانت بعض الأسرار البيانية والملامح البلاغية في الآيتين الكريمتين، والتي توضح بما لا يدع مجالاً للشك عظمة هذا الكتاب الحكيم، وإعجازه في نظمه ومفرداته، ومعانيه، فهو حقًا كما وصفه ربنا ﷻ : ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ (فصلت: ٤٢).

---

١. التحرير والتنوير: ابن عاشور، جـ١٣، ص ٢٠٧، مرجع سابق.

الشبهة الواحدة والخمسون

توهم مخالفة القرآن بين المبتدأ والخبر في الإفراد والجمع (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المشككين أن القرآن قد خرج عن المألوف في عدم المطابقة بين المبتدأ والخبر في قوله ﷻ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ (المنافقون: ٤)، حيث جاء الخبر العدو مفردًا ومبتدؤه هم ضمير منفصل للجمع، والصواب في زعمهم أن يُقال: هم الأعداء(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الخبر المفرد أن يطابق المبتدأ في النوع والعدد، لكن الناظر في قوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ ،يظن أنه مخالفٌ للقاعدة المشار إليها، حيث جاء الخبر مفردًا لضمير الجمع هم، ومن هنا جاء توهم اضطرب القرآن الكريم في المخالفة بين المبتدأ والخبر في الإفراد والجمع، وهذا الوهم يبطل من وجوه نجملها على النحو الآتي:

---

*. www.alkalema.us

**. يُطْلِع الله تعالى نبيه على صفات المنافقين والتي أهمها: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم؛ لاستواء خلقها، وحسن صورها، وإن يتكلموا تسمع كلامهم يشبه منطق الناس؛ كأن ـ هؤلاء المنافقين ـ خشب مسندة لا خير عندهم، ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول، يحسبون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كل صيحة عليهم؛ لأنهم على وجل أن يُنْزِلَ الله فيهم أمرًا يهتك به أستارهم، ويفضحهم ويبيح للمؤمنين قتلهم. (جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لابن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بالقاهرة، ط٣، ١٣٨٨هـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون: ٤).

١) التعريف في لفظة **العدو** تعريف الجنس الدال على كمال حقيقة العدو فيهم؛ فهي اسم يقع على الواحد والجمع، وما دامت اللفظة دالة بنفسها على الواحد والجمع، فلا مخالفة إذن بينها وبين المبتدأ إن جاء مفردًا أو جمعًا.

٢) الكلام داخل تحت باب المجاز، فقوله ﷻ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، مجاز مرسل علاقته الخصوص، فاللفظ المذكور ـ العدو ـ خاص، والمراد هو العموم ـ الأعداء ـ، وما كان من قبيل المجاز لا يصح أن نعامله أو نفهمه بالمنطق اللغوي نفسه الذي نعامل به الحقيقي ونفهمه به؛ حتى يستقيم المعنى في أذهاننا، ونفهم السياق القرآني على الوجه الذي ينبغي أن يفهم عليه.

التفصيل:

أولاً. إذا جاء خبر المبتدأ الجمع اسم جنس فلا مخالفة بين المبتدأ وخبره في هذه الحالة، فاسم الجنس لا يدل على المفرد وحده، بل يدل على الجمع كذلك، وهذا ما ينطبق على خبر **هم** في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، إذ **التعريف** في **العدو** تعريف الجنس الدال على كمال حقيقة العدو فيهم؛ لأن أعدى الأعادي: العدو المتظاهر بالموالاة، وهو مَدَّاح، وتحت ضلوعه الداء الدويّ. وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم، والعدو: اسم يقع على الواحد والجمع[1].

وما دامت اللفظة دالة بنفسها على الواحد والجمع، فلا مخالفة بينها وبين المبتدأ، واحدًا كان أو جمعًا.

ثانيًا. في الكلام مجاز، ولا يختلف اثنان على أن ما كان في كلامنا من قبيل المجاز؛ لا يصح أن نَزِنَهُ بنفس ميزان ما كان من قبيل الحقيقة، ولا أن يُعَامل

---

١. التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد١٣، جـ٢٨، صـ ٢٤٢،٢٤١.

معاملته، فبينهما بونٌ يدركه أولى النظر في اللغة، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطْره من الحسن، ولو وجب خلو القرآن من المجاز؛ لوجب خلوه من الحذف والتوكيد وتكرار القصة.

على أن علاقات المجاز المرسل كثيرة يعجز العد عن إحصائها، منها ما علاقته السببية أو المسببية، أو الجزئية أو الكلية، ومنها ما باعتبار ما كان أو ما سيكون، أو العموم أو الخصوص، وهذه هي علاقة المجاز الذي نحن بصدده، فالله ﷻ قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ ، أي: هم الأعداء، فَعَبَّر بالخاص وأراد العام، ومثله في القرآن كثير منه قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١٤)، أي: كل نفس، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأحزاب: ١)، فالخطاب للنبي، والمراد الناس جميعًا.

ومثل هذا في القرآن كثير واضح لا يقف عنده أحد، فطالما عَبَّر القرآن بالعام وأراد الخاص، فمعلومٌ أن الله ﷻ حين قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤)، أنه لم يُرد كل الشعراء، وإنما أراد بعضهم[١]، وأحرى بهؤلاء أن يتعاملوا مع الألفاظ القرآنية بمنطق الأساليب البلاغية العربية، التي راعتها لغة القرآن ألفاظًا وتراكيبًا؛ ليسهل عليهم أن يلتمسوا بلاغته، ويقفوا على إعجازه.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

• في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون: ٤)، مجاز مرسل علاقته الكلية، إذ هو ﷺ لم ير جملتهم، وإنما رأى وجوههم، وما يبدو منهم غالبًا، فَعَبَّر بالكل وهو الأجسام، وأراد الجزء وهو ما يبدو منهم[٢].

١ . القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ ص ١٦٩ .

٢. القرآن الصورة البيانية، عبد القادر حسين، مرجع سابق، ص ١٨٢.

• والآية معطوفة على جملة **فهم لا يفقهون** في الآية قبلها، ولو حذف حرف العطف من **إذا رأيتهم** لصح وقوع الجملتين موقع الاستئناف الابتدائي.

فإن قيل: لماذا عطف ولم يستأنف على الابتداء؟! فالجواب: إنه قد آثر العطف للتنبيه، على أن هاتين الصفتين تُحسبان كمالاً وهما نقيصتان؛ لعدم تناسقهما مع ما شأنه أن يكون كمالاً، فإن جمال النفس كجمال الخلقة، إنما يحصل بالتناسب بين المحاسن، وإلا فربما انقلب الحسن ـ المتوهم ـ موجِبَ نقص[1].

• قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، تشبيه تمثيلي ـ إذ شبه هؤلاء المنافقين في سوء الرأي، وعدم الجدوى بالخشب المسندة، فأفيد به أن أجسامهم المعجب بها، ومقالهم المصغى إليه خاليان عن النفع كخلو الخشب المسند عن الفائدة، فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة، وعلم ودراية، وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك، فلا تحتفلوا بهم[2]، ووجه الشبه: حسن الصورة مع تلاشي الإدراك، وعدم النفع[3].

فإن تساءل أحدهم: ما وجه الدقة في هذه الصورة البيانية؟ نقول إن: من عادة القرآن في رسم صورة التشبيه أن يذكر فيها من القيود، وأحوال الصياغة، ما يجعلها معبرة تعبيرًا دقيقًا عن الغرض المسوقة لأجله، ولهذه القيود والأحوال شأن في صورة التشبيه لا ينتبه إليها إلا المعنيُّ بإبراز نواحي الجمال وسر البلاغة في الأسلوب[4]، وتلك هي دقة التشبيه؛ فقد وُصف المشبَّه به وصفًا دقيقًا دالاً على

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، المجلد١٣، ج٢٨، ص ٢٣٩.

٢. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٣، ص ٢٤٠.

٣. القرآن والصورة البيانية، عبد القادر حسين، مرجع سابق، ص ٧٠.

٤. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ، صـ ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

المعنى، إذ شُبّهوا في إسنادهم ﴿خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ بالخُشُب المسندة إلى الحائط؛ لأنهم أجرام خالية عن الإيمان والخير، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف، أو جدار، أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أُسْنِد إلى الحائط، فشُبّهوا به في عدم الانتفاع.

- قوله ﷻ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، فيها إيجاز بالقصر، ومعلوم أن في الإيجاز بالقصر تحميل العبارات القصيرة، المعاني الكثيرة من غير حذف، إذ تتآزر الدلالات الثانوية والشحنات النفسية مع الألفاظ في بيان المضمون[1].

وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير مستحسن، وإذا عرفت مراتب الإيجاز، وتأملت ما جاء في القرآن منه، عرفت فضيلته على سائر الكلام، وهي علوه على غيره من الكلام، وعلوه على غيره من أنواع البيان[2]، وظاهر في الآية من المعنى الكثير ما دل عليه اللفظ اليسير.

- وأما قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٤)، تذييل؛ فإنه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامهم، كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (النساء: ٦٣)، وهو مسوقٌ للتعجب من حال توغلهم في الضلالة والجهالة بعدولهم عن الحق، وعليه فليس لمدَّعٍ أن يتهم القرآن بالخطأ في المخالفة بين المبتدأ وخبره في الإفراد والجمع.

---

١. المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٢٤٥، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي، والجرجاني، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص٧٧، ٨٠.

الشبهة الثانية والخمسون

توهُّم مخالفة القرآن الكريم في جزم الفعل المعطوف على المنصوب(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين أن القرآن جانب الصواب في عود المعطوف على ما قبله؛ حيث جَزم الفعل المعطوف على المنصوب، ويستدلون بقوله ﷻ: ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون:١٠)، ويتساءلون: كيف يُجزم الفعل أكنْ وهو معطوف على الفعل المنصوب؟! والأَوْلى في ظنِّهم أن يُقَال: وأكونَ؛ لأن الفعل معطوف على منصوب(**).

وجوه إبطال الشبهة:

بعد الاطلاع على مزاعم المفترين حيال هذه الآية الكريمة، يتبين لنا بطلان زعمهم، من وجهين:

١) لجزم الفعل **أكن** في اللغة تأويلان:

- أنه معطوف على محل **فأصدق** فكأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن.

---

*. عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر ـ رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م/ ١٤١٤هـ.

www.islamyat.com . www.ebnmarayam.com www.answering.islam.org

**. ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ،أي: عند تيقنه الموت يقول: يا رب هلا امهلتني وأخرت موتي إلى زمن قليل؛ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾،أي: فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقيًا صالحًا، ومعلوم ـ كما قال ابن كثير ـ أن كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة؛ ليستدرك ما فات، ولكن هيهات (صفوة التفاسير، الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٣، ص ١٥٥٢).

○ أنه لم يُسْبق بفاء السببية - التي تعمل النصب في الفعل المضارع، بل هو جواب للطلب مباشرة.

٢) إيثار التمني في الآية على الشرط الصريح من أوجه الإعجاز القرآني البلاغي، وهذا يتفق وحالة قائلها ساعة موته، إذ يتمنى أن يُؤخر أجله؛ ليتصدق ويكون من الصالحين، فهو إذن من تبادل الصيغ، وإحلال بعضها محل بعض لداعٍ بلاغي؛ ولذا جزم الفعل **أكن**، ولم ينصب.

التفصيل:

أولاً. لجزم الفعل **أكن** في اللغة تأويلان:

١. جُزم الفعل **أكن**؛ لأنه معطوف على محل **فاصدق**، فكأنه قيل: إنْ أخرتني أصدق وأكن، وذلك لأن **الفاء** في **فاصدق**: عاطفة، و**أكن** فعل مضارع مجزوم بالعطف على محل **فاصدق**[1].

وأنشد سيبويه في الحمل على هذا الموضع أبياتًا كثيرة منها:

معـــاويَ أنّنـــا بَشَـــرٌ فَأَســـجِح   فَلَســـنا بالجِبـــالِ وَلا الحَديـــدَ

فنصب **الحديد** عطفًا على محل خبر ليس المنصوب **الجبال**؛ إذ **الباء** في قوله: بالجبال، للتأكيد لا لمعنى مستقبل إذ يجوز حذفه[2]. وكذلك جُزم الفعل **أكن** في الآية بالعطف على محل **فاصدق**.

---

١. إعراب القرآن، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، سورية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، جـ١٠، صـ ١٠٣.

٢. تفسير أبي السعود، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠)، بتصرف يسير.

٢. جزم الفعل **أكن** على اعتباره جوابًا للشرط مباشرة؛ لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة، وليست عاطفة مفردًا على مفرد؛ وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسَبُّب، فيغني الجزم عن فعل الشرط، فتقديره: إن تؤخرني إلى أجل قريب؛ أكن من الصالحين، جمعًا بين التسبُّب المفاد بالفاء، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل، وإذا كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقع أحدهما بعد فاء السببية، والآخر بعد الواو العاطفة عليه، فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين، وذلك يرجع إلى محسِّن الاحتباك، فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب، فأصدَّقَ وأكونَ من الصالحين. إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدقْ وأكنْ من الصالحين[1].

ثانيًا. إيثار التمني على الشرط الصريح ـ في الآية ـ من أوجه الإعجاز القرآني البلاغي: ومسوغ عبارة التمني: **تفضيل لولا أخرتني** على الشرط الصريح: **إن أخرتني**، ذلك أن قائل هذه العبارة ـ ساعة قولها، ساعة حضور الموت ـ تملَّكه اليأس من التأخير والتمنِّي ـ كما نعلم ـ يستعمل في طلب المحال أو المتعذَّر، أما الشرط فيستعمل في الأمر الذي لا استحالة فيه ولا تعذّر، فهو إذن من تبادل الصيغ، وإحلال بعضها محلّ بعض لداعٍ بلاغيٍّ، وقرينة إرادة الشرط من عبارة التمني هو جزم الفعل **أكن**.

وأفاد التعبير بالتمني معنى زائدًا وهو: أن من حضرته الوفاة، وهو مقصر في طاعة الله تدفعه شدة الحاجة التي نزلت به إلى طمع من نوع ما، مما هو مستحيل أو متعذر الوقوع، وعليه فالعبارة القرآنية غاية في الاستقامة، وبعيدة كل البعد عن

١ . التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، جـ١٣، صـ ٢٥٤.

الخطأ، أو الخلل، وأدَّت المعنى في صحة لغوية وبلاغية عالية، وليس الأمر كما زعم هؤلاء.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- في الآية الكريمة **احتباك**[1]. فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب، فأصدق وأكون من الصالحين، إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين.

ومن الفوائد البلاغية التي يحققها الاحتباك في الكلام:

١. إحكام النَّظْم وتحقيق فضيلة الإيجاز بحذف فضول الكلام وما يمكن الاستغناء عنه، مع قلة الألفاظ، وكثرة المعاني التي تدل عليها، وهذه غاية البلاغة المتمثِّلة في استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ في التعبير على أكثر ما يمكن من المعاني.

٢. تنبيه المتلقي إلى البحث عن المحذوف: فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه، ويقل نسيانه، وهذا مطلب من مطالب الحذف في القرآن الكريم.

---

١. الاحتباك لغة: من الحبك، ومعناه: الشدُّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثَّوب.

واصطلاحًا: أن يؤتى بكلامين في النص في كل منهما متضادان، أو متشابهان، أو متناظران، أو منفيَّان، أو يشترك نوع منهما في نص واحد، فيحذف من أحد الكلامين كلمة، أو جملة؛ إيجازًا ثُمَّ يأت ما يدل على المحذوف الثاني، ويحذف من الثاني كلمة أو جملة أيضًا قد أتى ما يدل عليها في الأول، فيكون باقي كل منهما دليلاً على ما حذف من الآخر، يكمل كل جزء الجزء الآخر ويتمِّمه، ويفيده من غير إخلال في النظم ولا تكلف. (الاحتباك في القرآن الكريم دراسة بلاغية، عدنان عبد السلام، جامعة الموصل، العراق، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

٣. تهذيب العبارة وصيانة الكلام من الثّقل والترهُّل: فالمعنى الذي يدركه الفهم إدراكًا قويًا بوجود قرينة تمنع اللبس مع حذف الألفاظ الدالة عليه، يكون في ذكرها فضول يتنزه عنه البيان الحكيم.

- ونتساءل: لماذا استعمل القرآن عبارة التمني ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾، ولم يستعمل الشرط الصريح **إن أخرتني**؟!

والجواب: لأن قائل هذه العبارة يقولها ساعة يأس ـ ساعة الموت ـ والتمني يستعمل في طلب المستحيل، والشرط يستعمل في الأمور التي لا استحالة فيها ولا تعذُّر. فهو من تبادل الصيغ، وإحلال بعضها محل بعض لداعٍ بلاغي، وسر بلاغته أن من حضرته الوفاة وهو مقصر في طاعة الله؛ تدفعه شدة الحاجة التي نزلت به إلى طمعٍ من نوع ما، مما هو مستحيل أو متعذر الوقوع.

ومما تقدم يظهر لنا استقامة العبارة القرآنية وبعدها عن أي خلل، ووفاؤها بالمعنى المراد نحويًا وبيانيًا؛ مما يكذب وقوع أي خطأ في هذا الكتاب المعجز، فليس عيبًا في الشمس ألا يراها الضرير[1].

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص ٢٠٢.

الشبهة الثالثة والخمسون

توهم أن القرآن الكريم وضع الجمع موضع المثنى (*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المدَّعين أنَّ القرآن قد خالف قواعد اللغة؛ حيث جاء بلفظ الجمع بدلاً من المثنى، وهو "قلوبكما" في قوله ﷻ: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم: ٤)، والصواب في ظنِّهم أن يقال: (صغى قلباكما)؛ لأنه يتحدث عن حفصة وعائشة - رضي الله عنهما(**).

(*) عصمة القرآن وجهالات المبشرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر.

www.Islamyat.com -www.quavtos.org.lb.

(**) يتضح معنى هذه الآية حينما تفسر ضمن سياقها الذي وردت فيه، ولهذا فسنورد بعض الآيات قبلها - من بداية سورة مريم وسبب نزولها ليتضح المعنى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية، قال: عن عائشة، قالت:كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها. فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له:أكلت مغافير. إني أجد منك ريح مغافير. قال: لا. ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له. وقد حلفت. لا تخبري بذلك أحدا".. فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له فنزلت: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

ويبدو أن التي حدثها رسول الله ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها. فأطلع الله رسوله ﷺ على الأمر. فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه. تمشيا مع أدبه الكريم. فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى. فدهشت هي وسألته: (من أنبأك هذا ؟).. ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته ! ولكنه أجابها: (نبأني

العليم الخبير.(. فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله. ومضمون هذا أن الرسول ﷺ يعلم كل ما دار، لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تآمر ومكايدات في بيت الرسول ﷺ أن غضب. فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا، وهم بتطليقهن ـ على ما تسامع المسلمون ـ ثم نزلت هذه الآيات. وقد هدأ غضبه ﷺ فعاد إلى نسائه.

ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أي: واذكر حين أسر النبي محمد ﷺ إلى زوجته حفصة خبرًا واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في ابي بكر وعمر، وطلب منها ألا تخبر ذلك أحدًا ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي: فلما أخبرت بذلك السر عائشة وأفشته لها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلع الله نبيه بوساطة جبريل الأمين على إفشائها للسر ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتبًا لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياء منه وكرمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وقال سفيان: ما زال التغافل من شيم الكرام، قال الخازن: المعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة؛ لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سره ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيت سرك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتها ـ وكانت قد استكتمتها ـ فقالت: من أنبأك هذا.؟ على سبيل التثبت، فأخبرها أن الله ﷻ هو الذي نبأه به، فسكتت وسلمت ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي: فقال ﷺ:أخبرني بذلك رب العزة، العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية. قوله ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، لما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله، بحب ما يحبه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوؤه من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أي: فإن الله هو وليه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس: أراد بصالح المؤمنين أبا بكر، وعمر فقد كانا عونًا له ﷺ عليهما

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل أن يوافق الاسم ما ينتسب إليه، فالمفرد يوافقه المفرد، والمثنى يوافقه المثنى، والجمع يوافقه الجمع فى إفادة الملكية عند الإضافة إلى الضمير.

وقد زعم البعض أن القرآن الكريم خالف قواعد اللغة فى استخدام الجمع بدلا من المثنى عند الإضافة فى قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وكان الأصح أن يقال: **فقد صغى قلباكما**؛ لأن المخاطب فى الآية اثنتان من زوجات النبى ﷺ هما حفصة وعائشة.

وهذا الزعم مردود بما يلى:

القاعدة النحوية تقول: إن كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى آخر فإن المضاف يصير جمعًا، وقد ساغ مجىء **قلوبكما** جمعًا؛ لأنها أضيفت إلى مثنى وهو ضميرهما، بل إن الجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً بخلاف العدول من التثنية إلى المفرد؛ فإنه لا يجوز عند البصريين إلا في الشعر؛ وعليه فالجمع هو الوحيد الذي يخرج بنا من كراهية اجتماع تثنيتين.

التفصيل:

القاعدة أن كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى آخر فإن المضاف يصير جمعًا.

قال في التسهيل: معنى الآية: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك، فإن له من ينصره ويتولاه، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل، وأبو بكر وعمك معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: والملائكة الأبرار بعد حضرة الله، وجبريل، وصالح المؤمنين أعوان لرسول الله ﷺ على من عاداه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصاره؟ (صفوة التفاسير، الصابوني، جـ٣، ص ١٥٧٢ ـ ١٥٧٣).

فيتضح لنا أن قوله ﷺ: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أنه قال ﷺ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ولم يقل (فقد صغى قلباكما)؛ لأن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، لأنه لا يشكل، وقيل: كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به؛ لأنه أمكن وأخف.

ونجد أيضًا أن قوله ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ليس جزاء للشرط؛ لأن هذا الصغو كان سابقًا، فجواب الشرط محذوف للعلم به، أي: وإن تتوبا خيرًا لكما، إذ قد صغت قلوبكما[1]، وهناك قاعدة تقول: كل ما في الجسد، ومنه واحد، كالرأس، والأنف، والظهر، والبطن، والقلب، إذا أريد ضمَّه إلى مثله ففيه ثلاثة أوجه:

١. أن يجمع اللفظ مضافًا إلى ضمير المثنى، فيقال مثلاً قلوبكما، ورؤوسكما، وهذا هو القياس عند جمهور النحاة، وهذا ما جاءت عليه الآية الكريمة.

٢. أن يُثنى اللفظ ثم يضاف إليه ضمير المثنى، فيقال مثلاً قلباكما، وظهراهما، فؤادهما، قال الشاعر:

بما في فؤادَيْنا من الهم والنَّوى.

وهذا هو الأصل أن يُعبر بالمثنى عن المثنى، ولكنهم كرهوا اجتماع ثنتين، فعدلوا إلى الجمع.

٣. أن يؤتى باللفظ مفردًا لم يُضف إليه ضمير التثنية، فيقال مثلاً: بطنهما وقلبهما[2].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج١٨، ص١٨٨.

٢. البحر المحيط، لأبي حيان، والقرطبي، عند تفسير هذه الآية.

وإذا كانت صيغة الجمع في قلوب مستعملة في الاثنين طلبًا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين، فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام، فلما أمن اللبن ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية.

وهذا استعمال للعرب مما جاء على القياس وذلك فى كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى فإن المضاف يصير جمعًا كما فى هذه الآية، وقول خطام المُجَاشعي:

ومهمهـــــين قــــــذفين مَــــــرْتَيْن   ظهراهمــا مثــل ظهــور التُّرســين

وأكثر استعمال العرب وأفصحه في ذلك أن يعبروا بلفظ الجمع مضافًا إلى اسم المثنى؛ لأن صيغة الجمع قد تطلق على الاثنين في الكلام فهما يتعاوران[1].

ونجد أن الجمع في 'قلوبكما' دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد، وهي في مثل ذلك أكثر استعمالاً من التثنية والإفراد[2].

ونجد أن: خطاب التثنية عائد إلى المنبئة والمُنَبَّأة، فأما المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله إلى بعض أزواجه، وأما المُنَبَّأة فمعادها ضمنى لأن فعل **نبأتْ** يقتضيه، فأما المُنَبِّئة فأمرها بالتوبة ظاهر، وأما المذاع إليها؛ فلأنها شريكة لها في تلقي الخبر السر، ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك، فهاتان موعظتان لمذيع السر مشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعت عنه ضرتها[3].

---

١. التحرير والتنوير، الطاهرابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مجلد ١٣، جـ٢٨، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

٢. تفسير الآلوسي: التحريم (٤).

٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، مجلد ١٣، جـ٢٨، ص ٣٥٦، مرجع سابق.

الأسرار البلاغية:

- القرآن مليء بلمحات الإعجاز ولمسات البيان ومما يطالعنا فى قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما، فهو استئناف خطاب وجهه الله إلى حفصه وعائشة؛ لأن أنباء النبي ﷺ بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير، والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها [1].

- فقوله ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدا منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تتوبا كان خيرًا لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء[2].

- في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ ضمير الفصل في قوله ﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾ يفيد القصر على تقدير حصول الشرط، أي: إن تظاهرتما متناصرتين عليه فإن الله هو ناصره لا أنتما[3].

- قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الكلام مسوق للمبالغة، وإلا فكفى بالله وليًا، وكفى بالله نصيرًا[4].

---

١. المرجع السابق.

٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور، مجلد ١٣، جـ٢٨، ص ٣٥٨، مرجع سابق.

٣. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج٣، ص ١٥٧٢.

٤. المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٧٣.

• في الجمع بين قوله ﷻ: ﴿أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وبين قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ظَهِيرٌ﴾ فيه جناس ناقص، وهو محسن بديعى له جرس داخلي في تضاعيف الكلام"[1].

١. التحرير والتنوير، لابن عاشور، مرجع سابق، مجلد ١٣، جـ٢٨، ص ٣٥٩ بتصرف.

الشبهة الرابعة والخمسون

توهم مخالفة القرآن الكريم لقواعد الإملاء(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم خالف قواعد الإملاء، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ (التحريم: ١٠)(**)، حيث جاءت كلمة **امرأت** بالتاء المفتوحة، والصواب في ظنهم أن تكون بالتاء المربوطة **امرأة**.

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل فى التاء التى تأتى لتأنيث الاسم أن تُكْتَبَ تاء مربوطة، للتفريق بينها وبين تاء التأنيث فى الفعل، والتاء فى جمع المؤنث السالم. مثل: كتب التلميذ الدرس، كتبت التلميذة الدرس، كتبت التلميذات الدرس.

ومن لا يعرف طريقة الكتابة للمصحف بالخط العثمانى، ولا يدرك أسرارها، يظن أن القرآن الكريم قد اشتمل على بعض الأخطاء الإملائية فى

(*) www.ebnmaryam.com

(**) يقول ابن عاشور في تفسير قوله ﷻ: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ لقد جعل الله حالة هاتين المرأتين عظة للذين كفروا، أي: ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف؛ فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله ، ولا أن مكانهم - من جوار بيتِهِ وعمارة مسجده وسقاية حجيجه - تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على الأخذ بأسباب النجاة بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول ﷺ، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسول رب العالمين. (التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ج١٣، ص ٣٧٤).

كتابته، ومن ذلك ما فى قوله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾؛ حيث كتبت كلمة **امرأت** بالتاء المفتوحة مرتين، مما توهمه بعضهم مخالفة لقواعد الإملاء، والصواب فى زعمهم أن تُكتب الكلمة بالتاء المربوطة **امرأة** لتوافق قواعد الكتابة والإملاء.

وهذا الزعم مردود من وجهين:

١) لقد وردت كلمة **امرأة** بالتاء المفتوحة **امرأت** في هذه الآية وفي مواضع أخرى في القرآن الكريم؛ إيذانًا بجواز الوقوف عليها بالتاء على لغة **طيء**، ولا شك أن في هذا حفاظًا على لغات العرب الفصيحة.

٢) إن القرآن الكريم كتاب معجز في نظمه، وفي رسمه؛ لهذا فإن للرسم العثماني الذي كُتب به القرآن الكريم، طبيعة خاصة عما تعارف عليه الناس في الكتابة العادية، ومن ثمَّ فلا وجود للخطأ الإملائي في القرآن؛ لأن هذا الرسم خاص بالقرآن ولا يُقاس عليه.

التفصيل:

أولاً. لقدْ رُسمت كلمة **امرأة** في الآية الكريمة بالتاء المفتوحة **امرأت**، وكذلك وردت في مواضع أخرى في القرآن الكريم، وذلك للإيذان بجواز الوقف عليها بالتاء، دلالة على لغة **طيء** وهي لغة عربية فصيحة، ولا شك أنا لو أهملنا هذا الرسم لضاع، وبضياعه يضيع كثير من اللغات الفصحى، التي لا يمكن الاستدلال عليها إلا بالقرآن الكريم الذي هو أصدق الحديث[1].

---

١ . رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مكتبة الأزهر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٧م ، ص ٩٧.

ولعل سائلاً يسألك إذا كان رسم كلمة **امرأة**، في هذه الآية بالتاء المفتوحة، حفاظًا على لغة طيء، فَلِمَ لَمْ يلتزم النساخ برسم واحد لهذا الحرف في القرآن الكريم، حيث رسمت في بعض المواضع الأخرى بالتاء المربوطة، مثل قوله ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: ٢٣).

ويمكن لنا أن نجيب قائلين: إن في فعلهم هذا كل الصواب، فهم لم يسيروا في القرآن كله برسم واحد للحرف، ورسموه في بعض المواضع بالرسم الذي يوافق لغة من لغات العرب، وفي المواضع الأخرى بالرسم الذي يوافق باقي اللغات.

ولو أنهم لم يفعلوا ذلك، وساروا في رسمه على نمط واحد، لفُهم مع ذلك أن ليس هناك من اللغات غير هذه اللغة التي يشهد لها هذا الرسم، ففي فعلهم هذا صيانة لهذه اللغة الفصيحة، وفي هذا من والذكاء والفطنة، وبعد النظر ما فيه.

وليس معنى ذلك أن هذا التعدد والتنوع في رسم المصحف الشريف قائم على المصادفة، فرُسمت بعض الكلمات بالتاء المفتوحة، وبعضها الآخر بالتاء المربوطة كيفما اتفق، فالمتأمل في آيات القرآن الكريم التي وردت فيها كلمة **امرأة** يجد أنها لا تُكتب بالتاء المفتوحة إلا إذا كانت مخصصة بالإضافة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ (آل عمران: ٣٥) وقوله ﷺ: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١)، وقوله: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ (التحريم: ١٠)، بينما تكتب بالتاء المربوطة إذ جاءت غير مضافة مثل قوله ﷺ: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ (النساء: ١٢٨)، وقوله ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: ٢٣)، وقوله: ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

أي: إن الآيات التي وردت بها كلمة "امرأت" بالتاء المفتوحة هي الآيات التي تشير إلى امرأة معينة، تكون معروفة ومقصودة بعينها، حيث عرفت بالإضافة، كما سبق أن ذكرنا: (امرأت نوح، وامرأت لوط، وامرأت فرعون، وامرأت العزيز).

وإذا كان المعنى يشير إلى أية امرأة، أو جنس المرأة عامة: رسمت فيه كلمة "امرأة" بالتاء المربوطة كما ذكر في الجزء الثاني من الآيات السابقة.

وعلى هذا فليس في الأمر أية مخالفة لقواعد الإملاء، كما يتوهم بعضهم، ولكنه نوع من الحفاظ على بعض اللغات الفصحى لدى قبائل العرب، وهذا الحفاظ قد تمّ بطريقة منظمة، فلم يكن عشوائيًا كما يظنون.

ثانيًا. إن للرسم العثماني الذي كتب به القرآن الكريم طبيعة خاصة تختلف عما تعارف عليه الناس في الكتابة العادية، وهذه الخصوصية ترجع - بلا شك - إلى خصوصية هذا الكتاب الكريم المعجز، فكما أن نظم القرآن معجز، فرسمه - أيضًا - معجز، لهذا كان من الأمور التوقيفية التي لا يجوز تغييرها بحال من الأحوال، فقد كان للنبي ﷺ كُتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن كله بهذا الرسم، وأقرهم الرسول على كتابتهم، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد كُتب القرآن كله على هذه الكيفية المخصوصة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل.

ثم تولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق ﷺ، فأمر بكتابة القرآن كله في المصحف على هذه الهيئة، ثم جاء عثمان ﷺ فنسخت المصاحف العثمانية بأمره من صحف أبي بكر على هذا الرسم أيضًا، ووزع عثمان هذه المصاحف على المسلمين لتكون إمامًا للمسلمين، وأقر أصحاب رسول الله ﷺ عمل أبي بكر وعثمان في المصاحف، ولم ينكر أحد منهم عليهما شيئًا، بل ظفر كل منهما بإقرار جميع الصحابة لعمله، واستمر المصحف مكتوبًا بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة، ولم يثبت أن أحدًا من هؤلاء

حدثته نفسه بتغيير هجاء المصاحف ورسمها الذي كتبت عليه، بل ظل الرسم القديم قائمًا بنفسه بعيدًا عن التأثير بالرسم الحادث، نعم ظل الرسم القديم منظوراً إليه بعين التقديس والإكبار في سائر العصور المختلفة، والأزمنة المتفاوتة مع أنه قد وجد في هذه العصور المختلفة أناس يقرءون القرآن ولا يحفظونه، وهم في الوقت نفسه لا يعرفون من الرسم إلا هذا الرسم المحدث الذي وضعت قواعده في عصر التأليف والتدوين، وشاع استعمال هذه القواعد بين الناس في كتابة غير القرآن[1].

ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له[2]: لا للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها؛ لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سر من الأسرار خص كتابة العزيز، دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضًا معجز! وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في (مائة) دون (فئة)، وإلى سر زيادة الياء في (بأييد) و (بأييكم) أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) بالحج، ونقصانها من (سعو) في "سبأ"، وإلى سر زيادتها في (عتوا) في للأعراف، والذاريات ونقصانها من (عتو) في الفرقان، وإلى سر زيادتها في (آمنوا) وإسقاطها في (باؤ، جاؤ، تبوؤ، فاؤ) بالبقرة وإلى سر زيادتها في (يعفو الذي) ونقصاها من (يعفو عنهم) في النساء، أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف من

---

١ . الأحرف السبعة وأصول القراءات، محمد محمود عبد الله الوراقي، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٢١، ١٢٣.

٢ . مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، الرياض، ط١ ،١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ج١، ص٢٨٢.

(قراءنا) يوسف والزخرف، وإثباتها في سائر المواضع، وإثبات الألف بعد واو (سموات) في فصلت الذي في الأنفال، وإثبات الألف في (سراجًا) حيثما وقع، وحذفه من موضع الفرقان كيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض.

ومن ثم فإن مخالفة رسم القرآن الكريم لبعض القواعد الإملائية، لا يعد خطأً في رسم القرآن الكريم؛ لأن هذا الرسم خاص بالقرآن الكريم فقط، ولا يقاس عليه، يقول ابن درستويه: خطان لا يقاس عليهما: خط المصحف، وخط تقطيع العروض" ومن ثم فإن الخط على ثلاثة أنواع:

١. خط يقتدي به ولا يغير، وهو رسم المصاحف العثمانية.

٢. وخط جرى على إثبات ما تلفظ به وإسقاط غيره، وهو خط العروض.

٣. وخط جرى على العادة المعروفة في الإملاء[١].

وهذه الخصوصية التي يتميز بها رسم القرآن الكريم، هي في الحقيقة ميزة عظيمة، وليست عيبًا أو خطأ؛ لأن للاحتفاظ بهذا الرسم أهمية كبرى، وهي:

- إن قواعد الهجاء والإملاء الحديثة عرضة للتغيير والتنقيح في كل عصر وجيل، فلو أخضعنا رسم المصحف لهذه القواعد لأصبح القرآن عرضة للتبديل والتغيير، وحيطتنا للكتاب العزيز وتقديسنا له يضطرنا إلى أن نجعله بمنأى عن هذه التغييرات في رسمه وكتابته.

- إن تغيير الرسم العثماني ربما يكون مدعاة ـ من قريب أو بعيد إلى التغيير في جوهر الألفاظ والكلمات القرآنية، ولا شك أن في ذلك القضاء على أصل الدين، وأساس الشريعة، وسد الذرائع أصل من أصول الشريعة الإسلامية[٢].

١ . البرهان على سلامة القرآن، د. أحمد بن منصور آل سبالك، معهد علوم القرآن والحديث، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٣١.

٢ . الأحرف السبعة وأصول القراءات، محمد محمود عبد الله، ، مرجع سابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

ونستطيع أن نقول بعد هذه الحقائق التي ذكرناها، وبعد إيضاحنا للطبيعة الخاصة التي تميز بها الرسم العثماني للمصحف الشريف، إنه لا يوجد أي خطأ إملائي في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ (التحريم: ١٠) ولا في غيرها من آيات الكتاب الحكيم، المعجز نظمًا ورسمًا.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

- إن المتأمل في قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجد أن ضرب المثل هنا منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ محاسنه إلا الخاصة؛ لأنه بمثابة التشبيه، والمقارنة بين حال السابق واللاحق، وذلك لتزداد الموعظة وضوحًا، ويزداد التنويه استنارة، أما تعدية **ضرب** باللام على العلة تفيد أن إلقاء المثل لأجل مدخول اللام **الذين كفروا** أي: من أجل تنبيههم وقياس حالهم على حال الممثل به[1].
- أما قوله ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ ،ففي إيثار كلمة **امرأة** على كلمة **زوج** معنى دقيق، حيث لا تذكر كلمة امرأة في القرآن ـ مضافة إلى زوجها ـ إلا إذا كان بين الزوجين شيء من الاختلاف، وعدم التوافق سواء في العقيدة أو في العلاقة الزوجية.
- أما مناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط، دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو: أبي إبراهيم، وابن نوح ـ عليهما السلام ـ لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم، وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح؛ لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، هذا

١ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، ج١٣، ص ٣٧٣، بتصرف.

من ناحية، ومن ناحية أخرى فيه تعريض لطيف بزوجي النبي ﷺ اللتين تظاهرتا عليه، والذي جاء ذكره في أول السورة لئلا يغترا بغناء الصلة الشريفة عنهما، وإن كان المثل قد ضرب في الأساس للذين كفروا، فلا ينفي هذا دلالته على التعريض بهما ـ رضي الله عنهما.

- أما قوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ ، فلفظة **تحت** هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة.

- أما السر من وصف هذين النبيين بوصف **عبدين صالحين** مع أن وصف النبوة أخص من الصلاح، تنويهًا بوصف الصلاح، وإيماءً إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين، ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن لأزواجهن، فإن وصف النبوة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، ومع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين، وعناية ربهم بهم، ومدافعته عنهم[1].

- والمتأمل في قوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يجد أن كلمة 'شيئًا' قد جاءت نكرة وذلك للتحقير، للدلالة على أن هذين النبيين لم يغنيا عن زوجيهما أقل غنى وأجحفه، أو ما يمكن أن يطلق عليه غنى.

- أما قوله: ﴿مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فقد أفاد مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة،وهذا تأكيد من أنهما لم ينتفعا بشيء من حظوة زوجيهما[2]ـ عليهما السلام ـ.

---

١ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، جـ١٣، ص ٣٧٥.

٢ . المرجع السابق، جـ١٣، صـ٣٧٦.

الشبهة الخامسة والخمسون

الزَّعم أن القرآن الكريم به ألفاظ لا تعرفها لغة العرب(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ القرآن الكريم يأتي بألفاظ لا يعرفها العرب، وذلك في قوله ﷻ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم: ١٦)؛ حيث يقولون: إنه لم يرد أي ذكْر - ولو على سبيل الفكاهة - على أنَّ أنف الإنسان كان يُسمَّى **الخرطوم** عند العرب(**).

وجوه إبطال الشبهة:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب؛ ليفهمه أهل هذه اللغة على اختلاف لهجاتهم، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

*. الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، دار السعادة.

**. لقد اتهم المشركون الرسول ﷺ بالجنون؛ ليبرِّروا موقفهم من دعوته ﷺ بالرفض؛ فتوعدهم الله ﷻ وبيَّن لهم ما أوعدهم به، وما أعدَّه لهم من العذاب بقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، أي: سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يُعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به؛ لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شُبِّه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر. (صفوة التفاسير، الصابوني، الطبعة العربية الحديثة، ج٣، ص ١٥٩).

ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس: "معنى سنسمه: سنخطمه بالسيف".

قال: وقد خُطِم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف، فلم يزل مخطوما إلى أن مات، وقيل: المعنى: سنلحق به عارًا وسبَّة حتى يكون كمن وُسِمَ على أنفه، وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله ﷻ بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحق به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوسم على الخرطوم. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ١٨، ص ٢٣٦، ٢٣٧).

ويدَّعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يأتي بألفاظ كثيرة لم ترد في لغة العرب، مثل: كلمة الخرطوم في قوله ﷻ: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾. ويزعمون أن العرب لم تطلق كلمة الخرطوم على أنف الإنسان، حتى ولو كان ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، وهذا يدل في زعمهم على أن القرآن يستخدم ألفاظًا لم يعرفها العرب.

ويُردُّ على هذا الزعم ببيان هذه الحقيقة: لقد عرف العرب كلمة الخرطوم، وأطلقوها على كل أنفٍ مستطيل كأنف الفيل والخنزير، ونحوهما، وإطلاقه على أنف الإنسان في هذه الآية استعارة؛ للاستخفاف، والاستهانة بهذا المشرك، وللدلالة على أنه لا يستحق أن يوصف بالصفات الإنسانية.

التفصيل:

قبل الحديث عن معرفة العرب لكلمة الخرطوم واستعمالهم لها، لابدَّ أن نوضح حقيقة هامة، ألا وهي: أن القرآن الكريم قد نزل على النبي ﷺ بلسان عربي مبين؛ ليفهمه العرب؛ لهذا نجد العديد من آيات القرآن الكريم تُبيِّن أن الله قد يسَّره للذكر، ولا يمكن أن يكون ميسَّرًا للذكر، إلا إذا كانت ألفاظه معروفة وشائعة بين العرب، يقول ﷻ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨) [1]، ويقول: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان: ٥٨) [2].

---

١ . فقول الله ﷻ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ،أي: حال كونه قرآنًا عربيًا لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض.

٢ . وقول الله ﷻ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، أي: يا محمد، فإنما سهلنا القرآن بلغتك ـ وهو لسان العرب ـ لعلهم يتعظون وينزجرون (صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ج٣، ص ١٢٤٢، ١٣٤١).

وتصديقًا لهذا فإن المتأمل لكلمة **الخرطوم** في قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يجد أنها كلمة عربية قد عرفها العرب، وأطلقوها على كل أنفٍ مستطيل، كأنف الفيل والخنزير، ونحوهما، أما إطلاقه في هذه الآية الكريمة على أنف الإنسان؛ فهو من باب الاستعارة كإطلاق المشفر ـ وهو شفة البعير ـ على شفة الإنسان، كما في قول الفرزدق:

فلو كنتَ ضَبّيّاً عرفتَ قَرابتي ... ولكنَّ زنجيًّا غليظُ المشافِرِ

وكإطلاق الجحفلة على شفة الإنسان، وهي للخيل، والبغال، والحمير[1] في قول النابغة يهجو لبيد بن ربيعة:

ألا مَن مبلغٌ عني لبيداً ... أبا الوَرداء جَحفلةَ الأتان

وهذه الاستعارة في الآية الكريمة من باب الاستخفاف والاستهانة بهذا المشرك ـ الوليد بن المغيرة ـ الذي سبق وصفه في الآيات السابقة على هذه الآية بتسع خصال ذميمة، لا نعلم ـ كما يقول القرطبي ـ أن الله بلغ من ذكرعيوب أحد ما بلغه منه ، فألْحقَ به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة، وهذه الخصال الذميمة هي: **"حلاَّف، مهين، همَّاز، مشَّاء بنميم، منَّاع للخير، معتدٍ، أثيم، عتل، زنيم"**.

فأراد الله بعد ذكر مساوئه تلك، والتي تدل على أنه ليس إنسانًا مستحقًا للتفضيل والتكريم؛ ـ لأن هذه الصفات تنافي الإنسانية ـ أراد سبحانه ﷻ بهذا الوصف "الخرطوم" الذي يجمع بين التشويه والإهانة، أن يبيِّن لنا أن هذا المشرك لَمَّا جمع كل تلك الصفات الخلقية الذميمة التي تنافي الإنسانية، لا يستحق أن يوصف

1 . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، مجلد ١٤، جـ٢٩، ص ٧٧.

بدنُه بصفات الإنسان، فلم يقل: **أنفه**، بل جاء بلفظ يدل على وصفه بالحيوانية، فمثله مثل الكلب، أو الخنزير، بل هو أدنى وأحط[1]، وإمعانًا في إذلاله وتحقيره توعده الله أن يجعل على خرطومه علامة تميزه في الدنيا، وتشير إلى ما تورط فيه من جرم ومنقصة، وقد حدث بعد نزول هذه الآية بسنين، في موقعة بدر، حيث عُثر على الوليد بن المغيرة، وقد خُطِم خرطومه بالسيف، وسوف يُبعث يوم القيامة وهذه العلامة على خرطومه إهانة له في الدنيا والآخرة[2].

إذن فإطلاق لفظ الخرطوم على أنف الإنسان في هذه الآية الكريمة من باب الاستعارة؛ - وهي من أساليب العرب في الكلام - ومن ثم فلا مجال لأحد أن يزعم أن هذه اللفظة لم يعرفها العرب؛ لأن في هذا الزعم تجنيًا واضحًا على الحقيقة، وعلى لغة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الأسرار البلاغية في الآية الكريمة:

إن المتأمل في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يجد أن هذه الآية تحتوي على ثلاث كلمات فحسب، وعلى الرغم من هذا فقد حوت الكثير من الملامح البلاغية، وكذلك اشتملت على وجه من وجوه إعجاز القرآن، ومنها:

---

١. الرد على كتاب أخطاء إلهية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ط٢، ٢٠٠٣م، ص ١٢٦، بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص ١٢٦.

- في قوله ﷺ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأن اللفظ المذكور جزء من المعنى، فالخرطوم معناه: الأنف، وأراد به الوجه، فعبَّر بالجزء وهو الخرطوم، وأراد به الكل وهو الوجه[1].
- إن موقع هذه الآية بالنسبة للآيات التي سبقتها (الآيات التي تتحدث عن الصفات الذميمة للوليد بن المغيرة)، بمثابة استئناف بياني؛ جوابًا لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع: ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح، والاجتراء على ربهم؟[2]، وفي هذا تحريك لذهن السامع ولفت لانتباهه.
- أما قوله: سنسمه فمعروف أنَّ الوسم يكون للإبل ونحوها، بجعل سمة لها أنها من مملوكات القبيلة، أو المالك المعيَّن، وهذا كناية عن تحقيره، فالمعنى: سنعامله معاملة يُعرف بها أنه عبدنا، وأنه لا يغنى ماله وولده منا شيئًا، وهذا يظهر تمكُّن الله منه وإظهار عجزه[3].
- أما وصف الأنف بالخرطوم، فكما سبق أن قلنا أنه استعارة للدلالة على غاية الإذلال والإهانة؛ إذ أنه صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف، وإذا كان الوسم في الوجه شيْنًا، فكيف به على أكرم عضو فيه؟[4]

---

١ . القرآن والصور البيانية، عبد القادر حسين، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ١٧٣.

٢ . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ٧٧ بتصرف يسير.

٣ . المرجع السابق، نفس الصفحة

٤ . البحر المحيط، من شبكة الويب.

فالوسم يقتضي التمكن، وكونه في الوجه يُعتبر إذلالاً ومهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالاً، ووصف الأنف بالخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة وهي كناية عن قوة التمكُّن وتمام الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة[1].

- والملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله عبَّر عن هذا الوعيد، بصيغة تدلُّ على الاستقبال سنسمه، وفي هذا إعجاز غيبي للقرآن الكريم، حيث إنه أخبر بشيء لم يحدث بعد، وقد حدث بالفعل بعد هذا الإخبار في غزوة بدر، حيث خُطِم أنفه بالسيف كعلامة مميزة له، ويزداد إعجابنا بهذا الإعجاز الغيبي، إذا علمنا أن هذا الإعجاز الغيبي الذي ينبِّئ عن أمر في المستقبل، قد سبق بإعجاز غيبي آخر، ولكن في الزمن المنصرم، وهو وصف هذا المشرك بصفة زنيم وهو: ولد الزنى، ولم يكن أهل مكة أو غيرهم يعرفون أن الوليد بن المغيرة كان ولد زنى، حتى أخبر القرآن بهذا.

وهذا بعض من الأسرار البلاغية في هذه الآية الكريمة، والتي تدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على إعجاز هذا الكتاب الحكيم، سواء الإعجاز في جمله وتراكيبه، أو الإعجاز في مفرادته، بما يوصد الباب أمام كل متصيِّد للأخطاء؛ لأن هذا الكتاب منزه عن الخطأ؛ فهو كلام رب العالمين، فتبارك من هذا كلامه.

---

1. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص ٧٧، ٧٨، بتصرف.

الشبهة السادسة والخمسون

الزعم أن القرآن الكريم به ألفاظ تجرح الحياء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ القرآن الكريم به ألفاظ قبيحة تجرح الحياء؛ وذلك كلفظ **المني** في قوله عز وجل: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ (القيامة: ٣٧، ٣٦)، ولفظ **الفروج** في قوله عز وجل: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: ٣١)، ولفظ **الحور العين** في قوله عز وجل: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (الطور: ٢٠)، ولفظ **الترائب** في قوله عز وجل: ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (الطارق: ٧)، إلى غير ذلك من الألفاظ (**)

(*) موقع زكريا بطرس.

(**) لقد ذكر المفسرون تفيسرًا دقيقًا حول هذه الكلمات في الآيات السابقة، بينوا به مدى ملائمتها للمعنى، وأنه لا يمكن وضع بدائل لها لتؤدي نفس معناها المراد منها، كما يلي:

١. معنى قول الله عز وجل ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ (سورة القيامة). أي: أيظن الإنسان أن يخلي مهملاً فلا يؤمر ولا ينهى، ومنه: إبل سدى أي: ترعى بلا راع. وقيل: أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبدًا لا يبعث. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: من قطرة ماء تمنى في الرحم، أي تراق فيه، والنطفة الماء القليل، والمعنى: ألم يك ماءً قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ج١٩، ص١١٦، ١١٧).

٢. ومعنى قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١)، ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من العورات، من الرجال والنساء، وهي ما بين السرة والركبة..

وجوه إبطال الشبهة:

العربية الفصحى لغة مهذبة، ولقد نزل القرآن بها؛ فحافظ على نقائها، واستخدم من الأساليب أحسنها، ومن الألفاظ أعذبها، ومن التراكيب أفضلها

وهذا الزعم باطل مردود عليه من وجوه هي:

١. **المنيّ:** النطفة وهي سائل مبيضي غليظ تسبح فيه الحيوانات المنوية وهو ماء الرجل الذي يكون منه الولد، فهل في التعبير به ما يخدش الحياء؟

٢. **الفرج:** هو الشق بين الشيئين، وكنّي به عن السوءة، والتعبير بالكناية أهذب من التصريح، فأي خدش للحياء في هذه الكناية؟

وكما يحرم نظر الرجل للمرأة يحرم نظرها إليه ولو بلا شهوة ولا خوف فتنة، إلا إذا كان بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة، فإنه يحل إلى ما عدا ما بين السرة والركبة.(روح المعانى للألوسي عند تفسير هذه الآية).

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ، أي: حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا، واللمس والنظر، وعلى أنه إن كان حظر النظر فالمس والوطء أيضا مرادان بالآية؛ إذ هما أغلظ، فلو نص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس. (تفسير الرازي مفاتيح الغيب، عند تفسير هذه الآية).

٣. وأما تفسير قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الطور: ٢٠)، وهن نساء أهل الجنة وزوجات المؤمنين فيها، اللاتي جاء في وصفهن ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ و ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي من الحيض، والبصاق، وسائر أقذار الآدميات، لا يبلن ولا يتغوطن، ولا يلدن، ولا يحضن ولا يمنين، ولا يبصقن. (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق.

٤. أما تفسير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٧)، أي:أن الإنسان ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ ، أي: مصبوب في الرحم، أو ماء ذي اندفاق، فالدافق هو المندفق بشدة قوته، وأراد ماءين: ماء الرجل، وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلها ماءً واحدًا لامتزاجهما، وقيل: دافق بمعنى: لزج.

﴿يَخْرُجُ﴾ ، أي: هذا الماء من بين الصلب من الرجل، أي: من ظهره، والترائب من المرأة قيل: عصارة القلب، ومنها يكون الولد، وقيل: المنكبين، والصدر، وقيل: اليدين والرجلين والعينين. (الجامع لأحكام القرآن القرطبي، مرجع سابق.

٣. **الحور العين:** هن نساء أهل الجنة وأطلق عليهن ذلك لحسنهن وجمال عيونهن الزائد، فهل في هذا ما يخدش الحياء؟

٤. **الترائب:** هي عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة وهذه تسمية شائعة عند العرب ولا حرج فيها.

وأما الكلمات مثل: **المني** في قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ ومثل: الفروج والفرج في مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ومثل: الحور العين في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ومثل: الترائب في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾

التفصيل:

إن هذه الكلمات التي ادعى بعضهم أنها تجرح الحياء **المني، الفرج، الحور العين، الترائب**، إنما هي في الحقيقة ألفاظ مهذبة تعبر عن معانيها في صراحة ووضوح مع الأدب الرفيع والحياء الجمّ، في أسلوب يُربي الحياء وينشئه في النفوس، وتعبير جميل يزرع الفضيلة ويقيمها في المجتمعات، وهذا النبع الصافي هو الذي تربى عليه أصحاب الفضائل، والهمم العالية الذين ضربوا أروع الأمثلة في فضائل الأخلاق ومحاسن الأعمال، وإن الخاطر ليتساءل: كيف جرحت هذه الكلمات القرآنية حياء هؤلاء المجروحين في عدالتهم؟! ولماذا هم - من دون خلق الله وحدهم - الذين أثرت في حيائهم وخدشته؟! وهم يتفوهون، بل ويفعلون ما هو أشد شناعة، وأعظم قبحًا من ذلك، وتشيع في كتاباتهم وموروثاتهم الثقافية، ومروياتهم الدينية ما يندى له الجبين من الألفاظ التي تشمئز منها النفوس الطيبة وتقشعر منها القلوب الطاهرة.

إن هذه الكلمات لا يوجد أدقَّ ولا أشدَّ تهذيبًا منها في مواضعها وسياقاتها، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها ليضعوها في أماكنها لما أدت نفس المعنى، بنفس البلاغة والبيان والذوق المؤدب الرفيع؛ فاللغة مليئة بالألفاظ والكلمات التي تعبر عن نفس المعاني المرادة، ولكنها كلمات سوقية بعيدة عن الحياء؛ فابتعد التعبير القرآني عنها، وآثر اللفظ المهذب الذي يدل على المعنى ولا يثير الشهوة الجنسية، بل يسمو بالمشاعر ويوجهها نحو الكمال، ويضبط العواطف والغرائز إلى الصواب والرشاد.

ونحن ندعو الذين يزعمون هذا الزعم أن يتأملوا دقة القرآن وبلاغته في اختيار هذه الألفاظ للتعبير عن الدلالات المقصودة منها، كما ندعوهم أيضًا إلى أن يأتوا لنا ببديلٍ لهذه الألفاظ للتعبير عن هذه الدلالات - بهذه الدقة القرآنية -، إذا كانت الألفاظ التي استخدمها القرآن لا تعجبهم.

وهنا يجدر بنا أن نستعرض معنى ودلالة كل لفظ من هذه الألفاظ بتفصيل أكثر؛ ليتبين بطلان ما زعموا:

أولاً. المَنِيّ:

من خلال مطالعة المعاجم نجد أنَّ هذا اللفظ يعنى: النُّطفة، وهو سائل مبيض غليظ تسبح فيه الحيوانات المنوية، ومنشؤه إفراز الخصيتين، ونجد أن كل موضع أو سياق ورد فيه هذا اللفظ فى القرآن الكريم، إنما كان حكايةً لخَلْق الإنسان بأسلوب مهذَّب، وليس فيه ما يخدش الحياء.

فالقرآن الذى يصور لنا العلاقة بين المرأة والرجل فى قوله ﷻ: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة:١٨٧)، يصورها بكناية بديعة؛ حيث شبه الزَّوجين وهما في مخدعهما باللباس المشتمل على لابسه، والمراد: قربُ أحدهما من الآخر، واشتماله

عليه كما تشتمل الملابس على الأجسام، أين هذا من الكلام الفاضح الذى يُنشر صباحَ مساء فى الروايات الفاضحة، وأغلفة المجلاّت والصحف، وما يُشاهد فى القنوات الفضائية من ممارسة الفاحشة بدون تستُّر كالحيوانات ؟!

ولنتساءل: ما البديل إذا أردنا أن نتحدث عن قضية خلق الإنسان غير هذا اللفظ إن كنتم ترون أنه خادش للحياء ؟

ثانيًا. الفَرْج:

تذكر المعاجم العربية أن الفرج هو: الثَّغْر، والشقُّ بين شيئين، وما بين الرِّجْلَيْن، وكنِّي به عن السَّوْءَة وغلب عليها وكثُر حتى صار كالصريح، وهو قُبُل الإنسان أو دُبُره، ولعل هذا أهذبُ لفظ يمكن أن يُطْلَقَ على الْعَوْرَة، وإلا فما البديل الأكثر تهذيبًا، أو مراعاةً للحياء إذا كان لفظ الفَرْج يجرح الحياء ؟!

ثالثًا. الحور العين:

كان الأَوْلى بمَن ظنَّ أن هذا اللفظ لفظٌ فاضح أن يرجع إلى أيّ تفسير أو معجم عربيّ؛ ليجد نفسه مسكينًا يجهل معنى من أبسط كلمات القرآن، ومنها الحور العين.

فالحور: جمع حَوْراء، وهي شديدة بياض العين، شديدة سوادها.

والعِين: جمع عيناء، وهي واسعة العين التي استدارت حدقتها، ورقّت جفونها، وابيضَّ ما حواليها.

وهذا الوصف كما قال اللغويون والمفسِّرون:لا يكون في بني آدم، وإنما قيل للنساء: **حور العيون**؛ تشبيهًا لهنَّ بالظِّباء والبقر في جمال عيونها.

وهذا الوصف ورد في القرآن الكريم لإحدى النِّعم التي يتنعم بها المؤمنون في الجنة جزاءً بما كانوا يعملون في الدنيا.

إنَّ اللفظ الذي يجرح الحياء، أو اللفظ القبيح، هو ذلك الذي يستحي المرء أن يتلفظ به أمام الناس. والسؤال: هل يستحيي أحد من التلفُّظ بـ **الحور العين** أمام أحد؟!

رابعًا. الترائب:

لقد أثار صاحبنا شفقتنا بعدما أضنى نفسه في البحث والتنقيب في القرآن ليضع يده على لفظٍ فاضحٍ أو خادش للحياء؛ لكنه خرج صفر اليدين، وليُثبت ذكاءه راح يلتقط كلمةً من هنا أو هناك مدَّعيًا أنها فاضحة أو خادشة للحياء.

ومن هذه الكلمات لفظ **الترائب** في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾، وكان الأَوْلى به ما دام يريد أن يُثبت ذكاءه أن يُطالع كُتب التفسير، أو حتَّى المعاجم؛ ليتعلَّم أولاً، ثم ليزداد إعجابه وإيمانه بالقرآن الكريم، ولا يزال هكذا، يطالع ويتدبَّر ويتأمَّل، فيتعلَّم ويتبصَّر حتَّى يجد نفسه أشدّ المحبين للقرآن وأصدق الموقنين به، وأول من يصحِّح خطأ المتوهمين ويزيل لبس من أساء الفهم. إن كلمة الترائب جمع تريبة، وهى (أى الترائب): أربعة أضلاع من يَمْنة الصدر، وأَرْبعَة من يَسْرته. وقيل: هى موضع القلادة، أى ما بين الثديين. وقيل: هى عِظام النحر والصَّدر، وقيل: هى عصارة القلب، ومنه يكون الولد.

وهذه الكلمة ورَدت في القرآن الكريم للتعبير عن المكان الذي ينشأ فيه الماءُ الذي يكون منه الولد؛ فهو في الرَّجل في قوله ﷻ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ﴾، وهو في المرأة (يخرج من بين الترائب) وفي هذا ما فيه من الإعجاز العلمي الذي يُحيل الجميع إلى مطالعته.

والسؤال التقليدى: ما الذي يجرح الحياء في هذا اللفظ؟ وإن كان يجرح الحياء فما البديل ؟ ولماذا سكت عنه العرب ؟

وإذا كان صاحبنا يعتبر (المنىّ، الفروج، الحور العين، الترائب) ألفاظًا جارحة، فماذا يمكن أن يقول عمّا جاء فى الكتاب المقدس من تصوير نبى الله إبراهيم ﷺ فى سفر التكوين: بأنه يتاجر بعرض امرأته (سفر التكوين: ١٢)، ويلقنها الكذب وينكر فحولته، وهى توافقه على ذلك وتسلم قيادها لفرعون.

أو ما اتُّهم به داود ﷺ من أنّه يضاجع النساء زنًا (الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الثانى)، وأنه يزنى بالمتزوجات ويحبّلهن، ثم تتوالى المشاهد الجنسية الفاضحة لتصل إلى ذروتها مع سيدنا لوطُ ﷺ، والذي اتُّهِمَ بأنه يُمارس الجنسَ مع بناته فيحبلن منه، يقول الكتاب المقدس: "فحبلت ابنتا لوط من أبيهما" (سفر التكوين ١٩: ٣٠-٣٨).

أو ما جاء فى سفرٍ كامل نسبوا فيه لنبى الله سليمان ﷺ أنه يتغزّل- وحاشاه- فى محبوبته، ويتناولها بوصف دقيق لتفاصيل جسدها؛ فيقول:

"شعرك كقطيع معز، عيناك حمامتان من تحت نقابك، أنفك كبرج لبنان. خدك كفلقة رمانة تحت نقابك، تحت لسانك عسل ولبن .... إلخ" (سفر الملوك).

والسؤال: هل يمكن تعليم الأطفال مثل هذا الكلام؟! إنّنا نُحفّظ القرآن الكريم للأطفال، وليس فيه كلمة واحدة نخجل منها، وماذا يمكن أن يقولوه للأطفال إذا سألوهم عن معنى: "وسكبوا عليهما زناهم" ؟!

ثم ماذا يمكن أن يقولوه أيضا لو أن فتاة سألت عن معنى: (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ؟!)

ونكتفى بهذا القدر الذى يظهر الفرق الواسع، والبَوْن الشاسع بين التزام النص القرآنى، وبين انحطاط المؤلفات البشرية وسقوطها على مدى آلاف السنين.

الأسرار البلاغية والإعجاز العلمي في هذه الآيات:

القرآن الكريم كتاب معجز، تموج آياته العظيمة بالحسن، والإعجاز الذي يبهر القلوب والأسماع، فيؤمن به كل ذي لب فطين وقلب سليم، ومن ذلك:

- قوله ﷻ: ﴿ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أي يصب في الرحم، فإن قيل: ما الفائدة في منى في قوله: ﴿ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ ، قلنا: فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة؛ فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد على طاعة الله ﷻ، إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥)، والمراد منه قضاء الحاجة[1].

وهنا يعلق الشيخ سيد قطب بقوله: وهذه اللمسة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري؛ كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات والأهداف والغايات والعلل والأسباب، التي تربط وجوده بالوجود كله، وبالإرادة المدبرة للوجود كله.

وفي غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى.. إنها دلائل نشأته الأولى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾، فما هذا الإنسان؟ مِمَّ خُلِق؟ وكيف كان؟ وكيف صار؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء، من مني يمنى ويراق؟ ألم تتحول هذا النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقة ذات وضع خاص في الرحم، تعلق بجدرانه لتعيش

١. تفسير الرازي عند هذه الآية، مرجع سابق.

وتستمد الغذاء؟ فمن ذا الذي ألهمها هذه الحركة؟! ومن ذا الذي أودعها هذه القدرة؟! ومن ذا الذي وجهها هذا الاتجاه؟!

ثم من ذا الذي خلقها بعد ذلك جنيناً معتدلاً منسق الأعضاء؟! مؤلفاً جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية، وهو في الأصل خلية واحدة مع بويضة؟! والرحلة المديدة التي قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوي، وهي أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته، والتغيرات التي تحدث في كيانه في الرحلة الجنينية أكثر، وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث في رحلته من مولده إلى مماته! فمن ذا الذي قاد هذه الرحلة المديدة، وهو خلية صغيرة ضعيفة، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب؟!

وفي النهاية من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة **الذكر والأنثى**؟.. أي إرادة كانت لهذه الخلية في أن تكون ذكراً؟ وأي إرادة لتلك في أن تكون أنثى؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار؟!

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التي قادت النطفة المراقة في طريقها الطويل، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير قال ﷻ: **﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾**.

وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً على الجنس البشري، يجيء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تعالجها السورة: **﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾**.

بلى! سبحانه! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى!

بلى! سبحانه! فإنه لقادر على النشأة الأخرى!

بلى! سبحانه! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً.

وهكذا تنتهي السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم، القوي العميق، الذي يملأ الحس ويفيض بحقيقة الوجود الإنساني، وما وراءها من تدبير وتقدير[1].

- في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٦، ٧)، والدفق صب فيه دفع وسيلان بسرعة، وأريد بالماء الدافق المني، ودافق قيل: بمعن مدفوق على تأويل اسم الفاعل بالمفعول، وقيل من ماء مع أن الإنسان لا يخلق إلا من ماءين؛ ماء الرجل وماء المرأة؛ ولذا كان خلق عيسى ﷺ خارقًا للعادة؛ لأن المراد به الممتزج من الماءين في الرحم، وبالامتزاج صارا ماءً واحدًا، ووصفه "بالدفق" قيل: باعتبار أحد جزئية، وهو مني الرجل، وقيل: باعتبار كليهما، ومني المرأة دافق أيضا إلى الرحم، ويشير إلى إرادة المُتزج على ما قيل في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ،أي: من بين أجزاء صلب كل رجل أي ظهره والترائب، أي: ومن بين ترائب كل امرأة أي: عظام صدره جميع تربية، وفسرت أيضا بموضع القلادة من الصدور، وروي عن ابن عباس: وهو لكل امرأة واحد إلا أنه يجمع كما في قول امرئ القيس.

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[2]

- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٦، ٧): لكي تتضح وجوه الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين لا

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب.

٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت، المكتبة الشاملة/ نت.

بد من عرض السياق الذي وردتا فيه وهو: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (الطارق: ٥: ١٠). الماء الدافق: تعبير وصفي للمني؛ لأنه سائل تركيبه يماثل قطيرات الماء إلا أنه حي تتدفق تكويناته وتتحرك بنشاط ويصدق عليها الوصف بصيغة اسم الفاعل دافق؛ لدلالته على الحركة الذاتية، وجميع الأوصاف عدا وصف الماء بالدافق تتعلق بالإنسان؛ لأن بدء خلقه هو محور الحديث والموضوع الرئيس، وهو المستدل به على إمكان الإرجاع حيًّا. وضمير له في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ لا يستقيم عوده إلى الإنسان، والإرجاع هو إعادة الخلق للحساب بقرينة وقت الإرجاع يوم تبلى السرائر.

ولا توجد ضرورة لتشتيت مرجع الضمائر في **فلينظر الإنسان مماخلق، وخلق من ماء** و رجعه في **إنه على رجعه لقادر** و**فما له من قوة ولا ناصر**؛ ولذا الأولى عود ضمير يخرج في **يخرج من بين الصلب والترائب** إلى الإنسان كذلك مثلها، خاصة أن المني لا يخرج بذاته، كذلك وإنما من الخصية، والوصف بالإخراج آية مستقلة كبيان متصل بأصل الحديث عن الإنسان وبيان القدرة المبدعة وسبق التقدير، ومكان الإعادة أظهر في إخراج الذرية من ظهور الأسلاف، والتلازم قائم بين إخراج الإنسان للدنيا وليدًا وإرجاعه حيًّا، بينما لا تلازم بين إخراج المني و إرجاع الإنسان، وخروج ذرية الإنسان من الظهر مبين في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) وقوله: ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ (النساء: ٢٣) ولم يرد في القرآن فعل (الإخراج) متعلقا بالمني بينما ورد كثيرا متعلقا بالإنسان؛ لبيان خروجه

للدنيا وليدا وخروجه حيا للحساب، وللوجدان أن يقعشر من تلك الدقة المتناهية التي ميزت بين موضع تكون أعضاء إنتاج الذرية في الظهر، وموضع خروجها على طريق هجرتها، قطاع عرضي بين نشأة الغدة التناسلية في المنطقة الظهرية للجنين (الأسبوع ٥ ـ ٦) وهجرة أصولها الخلوية بين بدايات العمود الفقري والضلوع قبل انفصالها وتميزها.

والحقيقة العملية هي أن الأصول الخلوية للخصية في الذكر أو المبيض في الأنثى تجتمع في ظهر الأبوين خلال نشأتهم الجنينية، ثم تخرج من الظهر من منطقة بين بدايات العمود الفقري، وبدايات الضلوع؛ ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم، وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن؛ حيث الحرارة أقل وإلا فشلت في إنتاج الحيوانات المنوية، وتصبح معرضة للتحول إلى ورم سرطاني، إذا لم تكمل رحلتها.

والتعبير[1] ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يفي بوصف تاريخ نشأة الذرية، ويستوعب كافة الأحداث الدالة على سبق التقدير والاقتدار والإتقان والإحكام في الخلق منذ تكوين البدايات في الأصلاب وهجرتها خلف أحشاء البطن ابتداء من المنطقة بين الصلب والترائب إلى المستقر، وحتى يولد الأبوان ويبلغان ويتزاوجان وتخلق الذرية، مما يماثل نطفة ماء التركيب عديمة البشرية، من المني لكنها حية، تتدفق ذاتيا لتندمج مع نطفة نظير؛ فتتكون النطفة الأمشاج من الجنسين، ويستمر فعل الإخراج ساري المفعول؛ ليحكي قصة جيل آخر لجنين يتخلق؛ ليخرج للدنيا وليدا، وينمو فيغفل عن قدرة مبدعه، وكل هذا الإتقان المتجدد في الخلق؛ ليشمل تاريخ كل إنسان قد عبر عنه العليم الحكيم بلفظة واحدة تستوعب دلالتها كل كل

---

١. مع الطب في القرآن، د. عبد الحميد دياب، د. أحمد زقزوق.

الأحداث، يخرج فأيُّ اقتدار وتمكن في الخلق والتعبير، ومع كل تلك المشاهد المتجددة، هل يرد مجرد هاجس على الخاطر: أنبعث حقّا ونحاسب؟!

• من دلائل الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أنه احتوى على تفاصل الخلق الإنساني المشروحة في علم الأحياء وقد عرفت أن بعض علماء الغرب الخبراء في علم الأجنة أعلنوا إسلامهم عندما رأى الدقة التي تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحله، ولا يُعرف هذا في كتاب سابق، وإن العامة والخاصة، يدركون أن بداية الخلق من ماء يمر بمجاري البول، تشرف عليه غدد معقدة متصلة بالجهاز البولي[1].

• وهذا يتحقق في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾ فلينظر الإنسان من أي شيء خلق وإلى أي شيء صار.. إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل، وهو عظام ظهره الفقارية، ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية.. ولقد كان هذا سراً مكنوناً في علم الله لا يعلمه البشر. حتى كان نصف القرن الأخير؛ حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته؛ وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة. حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان!

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير.. بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي.. هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق

---

١. نحو تفسير موضوعي، الغزالي، دار الشوق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.

توحي بأن هنالك يداً خارج ذات الإنسان، هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة، في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة. وتشي بأن هنالك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل، ومن الإرادة والقدرة، في رحلتها الطويلة العجيبة. وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته!

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر؛ إذ إن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة.. هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة، تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء؛ حيث تزودها اليد الحافظة بخاصيَّةٍ تحوّل بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج! وبمجرد اطمئنانها على غذائها، تبدأ في عملية جديدة. عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا.. وتعرف هذه الخلية الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة.. تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد.. حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة .... عمارة الجسم الإنساني.[1]

وقال المراغي: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي فلينظر بعقله وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه وأنه على إعادته أقدر.. ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرنًا، بيان هذا أن صلب الإنسان هو عموده الفقري سلسلة ظهره وترائبه هي عظام

١ في ظلال القرآن، الشيخ سيد قطب، مرجع سابق.

صدره، وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب، فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينها يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا ومقابل أسفل الضلوع، فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما، وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم، وجاء به رب العالمين، ولم يكشف العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب، وهذا وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف؛ فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا أن تتم عملية الهبوط هذه؛ فتقف الخصية في طريقها، ولا تنزل إلى الصفن، فتحتاج إلى عملية جراحية، وإذا هدى الفكر إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان فهذا يسهل علينا أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر قال ﷻ: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ أي أن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء، قادر أن يرده حيا بعد أن يموت.

واقتدار الخالق شاخص في كل العرض، بينما يتملى الخيال مشاهد أعرضت عن الإنسان فعبرت عنه بالغائب في ومضات تُعرِّيه من الخُيَلاء، وتفاجئه بأصله ومصيره طاوية حياته ومماته، وكأنه لم يكن في مقابل مشهد استكباره في تبجح صارخ يلعنه الاحتجاج المستهل بحرف الفاء؟ ليفصح بأصل دلالته على التعقيب عن محذوف يكشف ما يجول في طوية نفسه: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ، كأنه صيحة مدوية مؤنبة تقول: ألم تحدثك نفسك؟ وليس للإنسان في تلك المحاكمة إلا حضورًا باهتًا داخل قفص الاتهام في زاوية من المخيلة، بينما تشخص عيانًا أدلة التجريم؛

وكأنه تعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (القيامة: ٤٠)، وهذا المشهد الأصغر لتَعرِّي السرائر مثال مشهد يوم عظيم(يوم تبلى السرائر)، فتأمل الاتساق فى عرض المشاهد، تصوير عجيب يكشف ما قبل فتح الستار، وحتى بعد ضمه تبقى في الخاطر شتى صور العقاب، وتؤز في المسامع نيران تتشوق لمن يشك لحظة في قدرة الخلاق سبحانه! أسلوب مذهل جامع فريد لا يبلغه اليوم أي كتاب ينسب للوحي، قد بلغ الذروة في التصوير ،وثراء المعنى مع الغاية في إيجاز اللفظ، وأما التفاصيل العلمية التي يستحيل أن يدركها بشر زمن التنزيل، فهي بعض دلائل النبوة التي تسطع اليوم أمام النابهين[1].

ومازلنا مع الأستاذين د. عبد الحميد دياب، و د. أحمد قرقرز وهما يشرحان الإعجاز العلمى الموجود فى هذه الآية:

- إن النطاف تتكون عند الرجل في أنابيب الخصية، ثم تنتقل بعد كمال تكوينها، ونضجها بالحبل المنوي، إلى الحويصلتين المنويتين، ومنهما إلى القناتين الدافقتين، فالإحليل ،ثم يخرج المني آخر الأمر من الإحليل إلى خارج الجسم.

ولا يبقى أي إشكال في أن الآية الكريمة أشارت على وجه الإعجاز والموعظة، يوم لم يكن تشريح ولا مجهر إلى موضع تدفق المني من الإنسان قبل أن يخرج إلى ظاهر الجسم، وإذا التفتنا إلى الناحية العصبية في بحثنا هذا وما لها من أهمية، وجدنا أن الوصف الوارد في الآية الكريمة يمكن أن ينطبق عليها فتنسجم الصورة العصبية مع الصور التشريحية الماضية تمام الانسجام.

ويمكن إيضاح هذا المعنى على الوجه التالي: إنك حين تقول: خرج الأمر من بين زيد وعمرو تريد بذلك أنهما اشتركا وتعاونا على إخراجه، وقوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ

١. مع الطب في القرآن، د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقرز، مرجع سابق.

﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يفيد بأن الصلب والترائب تعاونا كجانبين على إخراج المني من مستقره ليؤدي وظيفته، وبهذا المعنى يصح أن نقول إنه خرج من بين صلب الرجل كمركز عصبي تناسلي آمر، وترائبها كمناطق للضفائر العصبية المأمورة بالتنفيذ، حيث يتم هذا التناسق بين الآمر والمأمور، خروج المني إلى القناتين الدافقتين، وهذا ثابت من الناحية العلمية، وموضح لدور الجملة العصبية ولا بد من تعاون الجانبين لتدفق المني فإن تعطل أحدهما توقف العمل الجسني الغريزي[1].

١. مع الطب في القرآن، د. عبد الحميد دياب، ود. أحمد قرقوز، مرجع سابق.

الشبهة السابعة والخمسون

الزَّعم أنَّ القرآن الكريم استعمل سينين بدلاً من سيناء (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أنَّ القرآن الكريم قد جانب الصواب، فاستعمل **سينين** بدلا من **سيناء** في قوله ﷻ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين:٢،١)، وتوهَّموا أَنَّ كلمة سينين اسم جمع، ومنهم من توهَّم أنَّها جمع مذكر سالم، ويذكرون أنَّ القرآن حرَّفها من أجل السجع فقط(**).

وجوه إبطال الشبهة:

الأصل في الاسم العلم أن يدل على المسمى به، فيحدد المقصود منه، ولا يتبدل الاسم العلم ولا المسمى به. وقد زعم بعض المشككين في القرآن الكريم جانب الصواب في استخدام كلمة **سنين** بدلا من كلمة **سيناء** في القرآن؛ ليتحقق السجع في فواصل الآيات، والصواب في زعمهم أن يُقال: وطور سيناء، وفاتهم أنه يمكن أن يكون للعَلَم اسم أو أكثر، فيكون للمكان المحدد اسمان هما سيناء وسنين، ومن هنا نشأ الوهم.

(*) عصمة القرآن وجهالات المستشرقين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م

(**) استهلت السورة الكريمة بالقَسَم بالتين والزيتون، وخص التين بالقسم؛ لأنه فاكهة مخلصة لا عجم لها، شبيهة بفواكه الجنة، وخص الزيتون؛ لكثرة منافعه؛ ولأنه شجرة مباركة جاء بها الحديث، وهو ثمر ودهن للاصطباغ والاصطباح. تفسير البغوي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين:١، ٢). والحقيقة الرئيسة في السورة حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان، ... وطور سنين: هو الطور الذي نودي موسى ﷺ من جانبه. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٩٣٢، بتصرف يسير.

وهذا الزعم باطل من وجوه:

١) إن في نسق القرآن ونظمه من الإحكام ما ينفى تكلفه لُمَحَّسن لفظي كالسجع، ثم إن في القضايا التي يعالجها من الدقة ما يمنع أن يتبع فيه المعنى اللفظ، بل الألفاظ فيه تابعة للمعاني، وتكلف السجع يقتضي أن يُتْبِعَ المتكلم المعنى للفظ، أضف إلى هذا وذاك أن العرب تستهجن أن يتكلف المتكلم السجع، وتستحسن ما أتى بعفوية مما تسمح به القرائح والمعاني، فهل يعُقل أن يتكلف القرآن السجع، ثم يأتي متحديًا العرب بنظمه زاعمًا لنفسه الإعجاز؟!

٢) كلمة سينين في الآية الكريمة صفة، والمفسرون في تحديد معناها على خلاف؛ فمنهم من يرى أنها بمعنى: الحسن. ومنهم من يرى أنها بمعنى: المبارك. ومنهم من جمع بين القولين فقال: سينين: الحسن المبارك، أو المبارك الحسن. وأيًا ما كان المعنى؛ فالكلام من قبيل إضافة الصفة للموصوف.

٣) قيل: إن كلمة سينين عَلَمٌ على كل جبل فيه شجر مثمر، وسمي بهذا لحسنه، وكل جبل بهذه الصفة فهو "سينين وسيناء"، وفي قراءة عمر بن الخطاب ما يعضد أنها جميعًا لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية.

التفصيل:

أولاً. في القرآن الكريم من وجوه البديع والبيان والموسيقا الداخلية والخارجية ما يذهب به عن مَظَنَّة العدول من لفظة سيناء إلى سينين بهدف السجع؛ فلا حاجة به لتلك المحسنات اللفظية، وهو الحسن بذاته، المعجز بطبيعته، وهو كلام رب العالمين، الذي نزهه الله ﷻ عن أن يكون شعرًا، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، فهو غنى عن تكلف محسنات كلام العرب شعرًا ونثرًا، أضف إلى هذا وذاك ـ أنه بتلاوته يزداد حسنًا إلى حسنه، ومعلوم أن من آداب التلاوة المتفق عليها: تحسين الصوت

بالقراءة، فالقرآن ـ بلا ريب ـ حسن، بل هو في غاية الحسن في ذاته، ولكن الصوت الحسن يزيده حسنًا، فيأخذ بشغاف القلوب ويهز المشاعر هزًّا.

قال السيوطي ـ رحمه الله ـ : يُسَنُّ تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، لحديث ابن حبان وغيره: "زينوا القرآن بأصواتكم". وفي لفظ عند الدرامي:"حَسِّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا". وأخرج البزار وغيره حديث: "حُسْنُ الصوت زينة القرآن"[1].

والمتأمل لمحسنات القرآن المعنوية واللفظية، ومنها السجع، يلحظ نوعًا من التنويع حسب ما يقتضيه المعنى القرآني، ولم يلتزم القرآن السجع لزومًا يصل به لدرجة القبح والتكلف، وليس بمعقول أن القرآن ـ وهو المتحدي لبلغاء العرب وفصائحهم ـ يتكلف السجع ويعدل من لفظة لأخرى جريًا ورائه، ومعلوم أن من أوصاف البلاغة ـ كما يقول ابن وهب ـ : "السجع في موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا جميعه".

ويقول أبو هلال العسكري: "ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأن من نظمه خارج عن كلام الخلق، فكل هذا يُؤْذِن بفضيلة السجع على شرط البراءة من التكلف، والخلو من التعسف".

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حِوَلاً"[2].

---

١. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ، ص ١٦٠، ١٦١.

٢. البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٤٤.

وبعد استقراء كلام البلاغيين في السجع وما يُستحسن منه وما يُستهجن، نعلم أن كتابًا تحدى بنظمه ونسقه بَلاغيّ العرب، مُنَزَّهٌ أن يتحداهم بكلام يستهجنه عامتهم فضلاً عن فصحائهم، ومعلوم أن وراء السجع مطلبًا يقتضيه المعنى، يقول عنه ابن الأثير: "وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مموَّه، على باطن مُشَوَّه، ويكون مثله كغمدٍ من ذهب على نصل من خشب".

"ولا حرج علينا بعد هذا أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعًا، وإذا تتبعنا مثلاً سورة "القمر" نجد سجعاتها قد بُنيت على حرف الراء، لا تجد حرفًا مُسْتَكرهًا، ولا فاصلة قلقة، ولا تضحية بالمعنى في سبيل السجع، مما جعله يفيض سحرًا، ويقطر عذوبة"[1]، وهذا ما لا يكاد ينكره منصف بعد قليلِ تَأَمُّلٍ لكتاب الله المعجز بنسقه المحكم ونظمه المتسق.

ثانيًا. كلمة **سينين** في الآية الكريمة صفة، وإنما أضيفت لـ **طور** على سبيل "إضافة الموصوف إلى الصفة، ويجوز أن تُعْرَب إعراب جمع المذكر السالم، ويجوز أن تلزمه الياء في جميع الأحوال، وتُحَرَّك النون بحركات الإعراب"[2].

بيد أن المفسرين في تحديد تلك الصفة على خلاف وإن كانت المعاني في جملتها تحمل معنى الحسن والبركة؛ فمنهم من يرى كما يقول "مجاهد أن: طور جبل، سينين مبارك، وعن ابن عباس قال: سينين المبارك الحسن"[3].

---

١. البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، د. عبد الفتاح لاشين، مرجع سابق، ص ١٤٥.

٢. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيى الدين الدرويش، اليمامة، ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٠٨هـ جـ١٠، ص ٥٢٣.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ ج٢٠، ص ١١٢.

وعلى هذا القول يكون طور جبلاً و سينين وصفًا له، قد يكون بمعنى الحسن أو المبارك، أو المبارك الحسن، وعلى كلٍّ فهي من باب إضافة الموصوف للصفة.

ثالثًا. قيل: إن سينين كل جبل فيه شجر مثمر وواحدته: سينينيَّة[1]، فقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قسم بالجبل المبارك الذي كلم الله عليه موسى وهو طُور سَيْنَاءَ ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك، قال الخازن: سمي سينين و سيناء لحسنه، ولكونه مباركًا، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين و سيناء[2].

ومما يعضد ما ذهبنا إليه قراءة عمر بن الخطاب، وعبيد الله، والحسن، وطلحة: وطور سيناء، بالكسر والمد، وقراءة عمر أيضًا وزيد بن عليّ: وطور سَيناء بالفتح والمد، وكلها لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية[3]. فالمعنى مأخوذ عن "النبط" وقد جاء تعريبه في العربية على صيغة تشبه صيغة جمع المذكر السالم وليس بجمع، فجاز في إعرابه أن يعرب مثل إعراب جمع المذكر بالواو نيابة عن الضمة، أو الياء نيابة عن الفتحة أو الكسرة، وأن يحكى على الياء مع تحريك نونه بحركات الإعراب، مثل: صِفِّين، وغيرها[4]

قال الواحدي: والأولى أن يكون سينين اسمًا للمكان الذي به الجبل؛ لذلك سمي "**سينين**" أو "**سيناء**" لحسنه أو لكونه مباركًا[5].

---

١. المرجع السابق، ط٢٠، ص ١١٢، ١١٣.

٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج٣، ص ١٧٤٣.

٣. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيى الدين الدرويش، اليمامة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٠٨هـ جـ١٠، ص ٥٢٤.

٤. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، ج١٥، ص ٤٢١.

٥. مفاتيح الغيب، الرازي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ التين:.

وعلى ما سبق فقد تبين أنه لا يوجد في هذه الآية إقحامٌ للألفاظ الغير ضرورية رغبة فى إيجاد السجع والقرآن كله بريء من تلك الفرية.

الأسرار البلاغية في الآيتين الكريمتين:

- وأول ما يطالعنا فى الآية: ابتداء الكلام بالقسم المؤكد يؤْذِنْ بأهمية الغرض المسوق له الكلام[1].
- حُذِفَ الفعل ـ فعل القسم ـ على سبيل الاختصار، وكان من المفترض أن يقول: أقسم بالتين، لكن لما كان القسم في الكلام كثيرًا، اختُصر فصار فعل القسم يُحذف ويكتفي بالباء، ثم عّوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ﴾، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، ﴿ وَالتِّينِ﴾ وغيرها[2].

بيد أن أكثر الأقسام المحذوفة الفعل في القرآن لا تكون إلا بالواو، فإذا ذكرت الباء أتى معها بالفعل، ولا يجتمعان إلا قليلاً، مع إقرارنا بأن الواو فرع الباء، كما يقول النحاة، لكن قد يكثر الفرع في الاستعمال ويقل الأصل[3].

- في الآيات عدة أساليب للتوكيد؛ فإذا كان من المعلوم أن القسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم

---

١. التحرير والتنوير، ابن عاشور، سابق، ج١٥، ص ٤٢٠.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ ص ٢٨٤، ٢٨٥.

٣. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، المكتبة العصرية، بيروت، ج٣، ص ٤٣، ٤٤.

الخصم الألد، فالقَسَم في كلام الله يُزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة[1].

ولو نظرنا لأحوال المقسم عليه لوجدناه فعلاً ماضيًا، وفي هذا زيادة تأكيد للمقسم عليه، ذلك أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جوابًا للقسم تلزمه اللام وقد[2]، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ...﴾ [3].

- إضافة إلى وجود التشويق: وذلك بإطالة القسم قبل المقسم عليه وتعدده، وفيه بيان لأهمية المقسم عليه.

وعلى ما سبق نعلم أن الآية الكريمة تخلو من تكلف السجع ومن الخطأ فى الاستعمالات اللفظية، ولاحجة لمن ادعى هذا الزعم.

١. مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، سابق، ص ٢٨٥.

٢. المرجع السابق، ص ٢٨٨.

٣. التحرير والتنوير: لابن عاشور، سابق، ج١٥، ص٢٤٠.

الشبهة الثامنة والخمسون

الادعاء بأن الرواة انتحلوا الشعر الجاهلي لإثبات الأصالة العربية للقرآن (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن المفسرين والمُحَدِّثين لما أرادوا أن يدللوا على عروبة القرآن الكريم، والحديث الشريف، لجأوا إلى نظم الشعر، ونحلوه لشعراء جاهليين، بل توهموا أسماء لشعراء ادعوا أنهم جاهليون، وفي واقع الأمر لا وجود لهم إلا في الخيال(**).

*. قصة الحضارة. وول ديورانت اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ـ من قضايا القرآن، نظمه، وجمعه وبلاغته. دفاعًا عن السنة. محمد محمد أبو شبهة، مجمع البحوث الإسلامية السنة الحادية والعشرون ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م المستشرقون والقرآن. افتراء المستشرقين على الإسلام عرض.. ونقد: د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

**. إن من أبرز مظاهر التشويش والتشكيك التي أثارها فريق من الحاقدين على الإسلام في مطلع هذا القرن العشرين، ما أثاروه حول الشعر الجاهلي، وتتلخص إثارتهم حوله في أنه شعر مزور مكذوب على العرب في الجاهلية، فزهير بن أبي سلمى وامرؤ القيس، والأعشى ـ مثلاً ـ أبرياء من الشعر المنسوب إليهم، ومن الدواوين الحاملة لأسمائهم، بل إن بعضهم قد أبعد النجعة وأعظم الفرية حتى ادّعى أن من قيل إنهم شعراء جاهليون لم يكن لهم وجود حقيقي في الحياة، بل هم شخصيات وهمية خرافية نُسجت حولها الأكاذيب في عصر الإسلام الأول!

ولقد كان من أعظم ما انطوت عليه هذه الفكرة من خبث أنها بدت في إطار أدبي تمويهًا لتحريرها، ولكن المقصود منها هو إصابة الإسلام في مقتل.

وإذا وقفنا عند حد مزاعم هؤلاء بأن الشعر الجاهلي مكذوب مزور فيحق لنا أن نتساءل: من فاعل هذا التزوير؟ ثم ماذا كان هدفه من تزوير الشعر الجاهلي برمته؟! لأن عملية الكذب والتزوير نفسها لابد لها من فاعل والفاعل لابد له من هدف ابتغاه من الكذب والتزوير.

أما الفاعل والهدف ـ فقد أطنب في الحديث عنهما شخص هو ربيب هؤلاء الحاقدين على الإسلام، ورضيع فكرهم وإن كان ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا، فأساء إلى الأمة في أعز ما تملك.

حيث تحدث وبلا مواربة عن فاعل التزوير، وحدّده في المسلمين الأوائل رجال القرون الثلاثة الأولى، الذين شهد لهم صاحب الدعوة بأنهم خير الأجيال إلى قيام الساعة، في قوله في الحديث الصحيح: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

فهؤلاء المتهمون هم الذين وضعوا أسس النهضة العلمية في الإسلام، وسار عليها من جاء بعدهم، وهم الذين فسَّروا كتاب الله، وجمعوا أحاديث رسوله ووضعوا علم أصول الفقه، ثم الفقه، وهم الذين جمعوا اللغة العربية واستنبطو قواعدها نحوًا، وصرفًا، وبلاغة، وهم الذين نقَّحوا القول في العقائد، ودافعوا عن الإسلام، وردوا كيد الطاعنين في القرآن، هؤلاء البررة الأطهار هم المتهمون بالكذب والتزوير: والافتراء المتعمد!! فماذا بقي للأمة بعد ذلك، وهل تثق بعد ذلك في شيء مما لديها من الدين أو التراث!!

وأدهى وأمَرّ من ذلك أن يزعم هؤلاء الطاعنون وأذنابهم أن الهدف من هذا التزوير هو أن يستدل علماء الإسلام الأوائل **المزورون** على عروبة القرآن وعروبة الحديث. هكذا يزعمون في غير خجل ولا حياء.

فالمسألة ـ كما تقدم ـ ليست مقصورة على مجرد قضية من قضايا تاريخ الأدب ونقده، بل الهدف منها أبعد من ذلك بكثير، وهي مسألة المقصود منها إصابة الإسلام في مقتل؛ لأنه إذا صح ـ جدلاً ـ أن رجال القرون الثلاثة الأولى، ومن جاء بعدهم، قد زوروا الشعر الجاهلي، فمعنى ذلك أنهم لم يكونوا أمناء في كل ما قالوه، وفي كل ما رووه ودونوه في مؤلفاتهم التي تفوق الحصر، وهذا يفتح أبواب الريب على مصاريعها فيما جمعه أولئك الأبرار من علوم وفنون: فتفسيرهم لكتاب الله يعتريه الشك؟! وجمعهم لحديث رسول الله ﷺ تحيط به الظنون، وما دونوه من كتب السيرة والتاريخ، والأصول، والعقائد، والفقه، واللغة، وكل ذلك يصبح موضع شك وارتياب؛ لأن ما يصدر عن غير الأمين لا ثقة فيه، وهذا هو مقصود هؤلاء الطاعنين وعملائهم. (افتراء المستشرقين على الإسلام، عرض.. ونقد: د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٨٣).

ولعل هذه النتيجة التي انتهوا إليها كانت تستساغ لو أنها صدرت عن نزاهة وصدق في المنهج العلمي الصحيح، بل هي نتيجة سلبية لم تصدر من باحث متمكن من مقومات تراث الأمة العربية والإسلامية،

بل إنهم يرجعون في ذلك إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضته مذاهب الخيال، ولا عهد لهم بأسرار الإلهام التي صار بها الشاعر شاعرًا، ونبغ الكاتب كاتبًا، وما هو إلا ما ترى من خلط

وجوه إبطال الشبهة:

إن الأصل الذي قرَّره علماء اللغة وأخذوا به مصدرًا للأدب العربي رواية الرواة الحفظة لهذا الأدب والذين ينحدرون من قبائل عربية صليبة.

وقد زعم بعض المعاصرين أن بعض المتأخرين في العصرين الأموي والعباسي قد نحلوا الشعر وصاغوه هم بأسلوبهم، ونسبوه إلى العصور السابقة عليهم؛ ليدللوا بذلك - أي الرواة - على عروبة القرآن الكريم، وأنَّ له مستند من لغة

ليس علمًا، وجرأة تكون نقدًا، وتحامل يصبح رأيًا، وتقليد يسميه اجتهادًا. وغض من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إمامًا، وهدم أحق يقول هو البناء وهو التجديد، وما كنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد في رأي هذه الطائفة، حتى رأيناهم يقررون في مواضع كثيرة أنه هو الشك، ومعنى ذلك أنك إذا عجزت عن نص جديد تقرر به شيئًا، فشك في النص القديم، فحسبك ذلك شيئًا تُعرف به، ومذهبًا تجادل فيه؛ لأن للمنطق قاعدتين إحداهما: تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان، والأخرى: إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة. (من كتاب "تحت راية القرآن" للرافعي).

إن ما جاء به هؤلاء من الإفك والافتراء بغير علم، تكذيب للتاريخ، ومناقض لقضايا العقول ولا يمكن قبوله في ضوء قواعد ومناهج البحث العلمي الصحيح، فهي قبائح متعددة تنمُّ عن جهل مركب، ولله الفضل والمنة أنها أتت من قِبَل من لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية.

على عكس هذا الاتجاه من الحاقدين، فهناك فريق من المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والفكر الإسلامي، مثل **توماس كارلايل** صاحب كتاب "محمد المثل الأعلى في كل شيء"، والكونت **هنري دي كاستري** صاحب كتاب "الإسلام خواطر وسوانح"، والمستشرق فرانز روزنثال، والمؤرخ الإنجليزي المستر سميث في كتابه "محمد والدين المحمدي"، وكذلك الفيلسوف الإنجليزي برناردشو الذي يقول ويؤكد أنه في الوقت الحاضر كثيرون من أبناء أوروبا قد دخلوا في دين "محمد" ﷺ أي الإسلام، حتى يمكن أن يقال: إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ، وأحسن ما يقال: إن القرن الحادي والعشرين لن يمضي حتى تكون أوروبا قد اتخذته دينًا لها، وعهدت إليه في حل مشاكلها. (افتراءات المستشرقين على الإسلام، عرض.. نقد: د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ١٨٦).

العرب، ويدلل الزاعمون على زعمهم هذا بقولهم: إن كثيرًا ممن نسب إليهم الشعر القديم لا وجود لهم حقيقة، بل أسماؤهم وهمية مزعومة.

ولنا في الردّ على هذه الشبهة وجوه منها:

١) أن تزوير أدب أمة واحد من المستحيلات التي يرفضها العقل.

٢) القرآن نزل بلسان عربي مبين، وليس في حاجة إلى أن تتوقف عروبته على شعر جاهلي، أو غير جاهلي.

٣) ما استعمله المفسرون والمحدثون من الشعر الجاهلي، قليل جدًّا إذا قُورِن بما للشعراء الجاهليين من تراث شعري.

التفصيل:

أولاً. إنه من المستحيل تزوير أدب أمة فتلك قضية يرفضها العقل، ولا وجه لاحتمال قبولها أبدًا.

فشعر امرئ القيس ـ مثلاً ـ مُوَزَّع على مراحل عمره، ولشعر كل مرحلة منها خصائص فريدة. فمن ـ يا تُرى ـ ذلك العبقري الذي يحسن أن يقول شعرًا متفاوت السمات ثم يدَّعي أنه شعر امرئ القيس؟! وهكذا يقال في جميع الشعراء الجاهليين.

ثانيا. عروبة القرآن قضية يقينية:

القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهو ليس في حاجة إلى أن تتوقف عروبته على شعر جاهلي أو غير جاهلي، فهذا خطأ شنيع وقع فيه هؤلاء، وافتراء وجهل ليس لهما مثيل، ومفسرو القرآن، وشارحو حديث رسول الله ﷺ حين يستشهدون بشيء من الشعر على تفسير آية أو حديث، أو كلمة في آية، أو في حديث لم يكن هدفهم التدليل على عروبة القرآن أو الحديث، بل كان هدفهم

الشرح والإيضاح، أو أن العرب كانوا يقولون ذلك، وهذا على سبيل الاستئناس لا على سبيل الوجوب.

ثالثًا. ما استعمله المفسرون والمحدثون من الشعر الجاهلي قليل جدًّا إذا قورن بما للشعراء الجاهليين من تراث شعري، فالإمام الزمخشري في تفسيره **الكشاف** لم يتجاوز ألف بيت من الشعر مع أن الزمخشري كان معروفًا بأنه أكثر المفسرين استشهادًا بالشعر، ومما يدحض النتيجة التي توصل إليها مثيرو هذه الشبهة - وهي أن تزوير الشعر الجاهلي كان بهدف الاستشهاد على عروبة القرآن الكريم الأمور الآتية:

١. أن الشعر الجاهلي واستعمالاته للغة - إفرادًا وتركيبًا - أوفر بكثير مما جاء في القرآن الكريم.

٢. أن في القرآن الكريم ألفاظًا وتراكيب ليس لها نظير في الشعر الجاهلي.

٣. أن استشهاد المفسرين والمحدثين لم يكن مقصورًا على الشعر الجاهلي بل استشهدوا - كذلك بشعر الإسلاميين في عهدي الأمويين والعباسيين.

٤. كما استشهد المفسرون والمحدثون بالشعر الجاهلي في التفسير وشرح الحديث، استشهد علماء اللغة والبلاغة وغيرهم على القواعد اللغوية بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية.

٥. أن جامعي اللغة ومستنبطي أصولها وقواعدها كانوا يتحرون الدقة في الرواية، فلم يأخذوا اللغة عن كل من هبَّ ودبَّ، بل كانوا يقبلون روايات العرب الأقحاح، والبدو الخُلَّص الذين لم تُلِن ألسنتهم رخاوة الحضارة، ولم تُفسد لهجاتهم مخالطة الشعوب غير العربية.

٦. أن جمع اللغة ـ وبخاصة الشعر ـ بدأ مبكرًا قبل تصدِّي العلماء لتفسير كتاب الله، وجمع سنة رسوله ﷺ ونشير هنا ـ مجرد إشارة ـ إلى كتاب: "**جمهرة أشعار العرب**" لأبي زيد القرشي، وكان من رجال القرن الثاني الهجري في بعض الروايات، وكتاب "**طبقات فحول الشعراء**" لابن سلام الجمحي المتوفَّى في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وهذان الكتابان من أسبق الكتب في جمع أشعار العرب الجاهليين ومن جاء بعدهم في صدر الإسلام، فهل المسبَّب يتقدم على السبب؟! إنهم يقولون: إن سبب تزوير الشعر الجاهلي هو حاجة المفسرين والمحدثين لإثبات عروبة القرآن والحديث، ووجود الشعر الجاهلي مزورًا هو المسبَّب؛ وها نحن قد رأينا وجود الشعر الجاهلي قبل بدء تدوين كتب التفسير والحديث؛ وعلى هذا يلزم منطق هؤلاء المعوج أن: المسبَّب يتقدم على السبب، وهذا باطل في حكم العقل والعلم والواقع والنقل؟!

الشبهة التاسعة والخمسون

دعوى اضطراب القرآن الكريم وخلوه من الإعجاز اللغوي (*)

مضمون الشبهة:

يَدَّعي بعضُ المشكِّكين أن القرآن مشَتَّت في موضوعاته وأخباره مضطرب في مضمونه؛ لاهتمامه بالموسيقا اللفظية على حساب المعنى المراد، من ثَمَّ فهو مليء بالتشبيهات والعبارات الخلَّابة التي تجعله قريبًا من الشعر وأسلوب الكهانة، ويحتوي على كثير من الأبيات الشعرية، وهذه خصائص لا تناسب الذوق العربي، الأمر الذي يبطل القول بأن هذا القرآن كتاب للناس كافَّةً، وإن كان معجزًا كما يقول المسلمون ففي نظمه فقط.

وجوه إبطال الشبهة:

إن القرآن الكريم كتاب معجز أنزله الله ﷻ للناس كافَّةً، وعلى الرغم من أنه جاء على ما اعتاده العرب فى صور البيان، إلا أنه فاقهم تمامًا، ولم يستطيعوا أن يدانوه فى فصاحته وقوته، وعلى الرغم من أنهم كانوا أرباب الفصاحة وصانعى البيان، ومع أن القرآن ممتلىء بالتشبيهات والعبارات الخلابة التى تجعله قريبًا من الشعر، إلا أنه ليس بشعر، وقد شهد بذلك أرباب الفصاحة أنفسهم، ونستطيع دفع هذه الشبهة من وجهين:

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، ١٩٩٨م ـ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية: إدوارد جيبون، جـ٣، ص ٤٢، ٤٣ ـ المستشرقون والقرآن: إسماعيل سالم عبد العال، مصر ١٩٩١م.

١) إن التآخي في المعاني، والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها واضح في كل آيات القرآن لا في آية دون آية، ولا في سورة دون سورة، وهو ليس بشعر ولا أساطير.

٢) لقد تحدى القرآن الكريم العرب بإعجازه اللغوي، فلم يستطيعوا الوقوف أمام هذا التحدي؛ بل إنهم شهدوا بإعجاز القرآن اللغوي، والفضل ما شهدت به الأعداء. هذا فضلاً عن أن الذوق القرآني ناسب الأذواق طرا عربا وعجما.

التفصيل:

أولاً. يقول الشيخ محمد أبو زهرة: إن التأليف ليس فقط في نسق الألفاظ ونَغَمها، بل إنه يشمل التآخي في المعاني كالتآخي في المباني، فلا يكون معنى لفظ نافرًا من المعنى الذي يجاوره، ويتألف من الألفاظ والمعاني وما تُوعزه من أخيلة، وما تثيره من معان متداعية يدعو بعضها بعضًا، ويتألف منها علم زاخر، كثير خصب، وقد عَبَّرَ عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله عن القرآن: "إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق".

ولنذكر لك شاهدًا على ما نقول؛ قصة الأعرابي الذي سمع قوله ﷻ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣٨)، فأخطأ القارئ وقال: غفور رحيم، فقال الأعرابي: إنه يقطع الأيدي نكالاً فلا يتفق القول؛ فراجع القارئ نفسه وأدرك المعنى.

إن التآخي في المعاني، والألفاظ، ونسقها، ونغمها، ومعانيها، واضح في كل آيات القرآن، لا في آية دون أخرى، ولا في سورة دون سورة، فلا تجد في لفظ معنى يوجه الخاطر إلى ناحية، ويليه آخر يوجهه إلى ناحية أخرى، بل تجد النواحي متحدة، إما بالتقابل، وإما بالتَّلاصُق والمجاورة، وفي كلتا الحالتين، تجد معنى كل لفظ يمهد

لمعنى اللفظ الآخر فلا تنافر في المعاني، كما أنه لا تنافر في الألفاظ، وهما في مجموعهما ينسابان في النفس غذاء رطيبًا مريئًا، ونميرًا عذبًا سلسبيلاً"[1].

تلك حال المعنى الواحد الذى تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعيًا، فما ظنك بالمعانى المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والحذق، بل كم من الاقتدار السحرى يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعبة، حتى لا يكون الجمع بينها فى الحديث، كالجمع بين القلم، والحذاء، والمنشار، والماء، بل حتى يكون لها اتجاه واحد، وحتى يُكَوِّن عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.

إنه من أجل عِزَّة هذا الطلب نرى البلغاء ـ وإن أحسنوا وأجادوا إلى حدٍّ ما في أغراضهم ـ كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كُلاًّ أو جُلاًّ، فالشعراء يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عِدّة، أكثر ما يجيئون بها أشتاتًا لا يلوي بعضها على بعض، وقليلًا ما يهتدون إلى حُسْن التَّخلص من غرض إلى غرض، كما في الانتقال من الغزل إلى المدح، والكُتَّاب ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس، كقولهم: إلا، وإن هذا، ولكن، بقى علينا، ولننتقل، نعود، قلنا ،وسنقول ..إلخ.

وفي ذلك معنى بلاغى، وهو أن عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتابين مع ما يتصرَّف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحِكَمٍ وأحكام، وإعْذار وإنْذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف ، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشِيَمٍ رفيعة، وسِيَرٍ مأثورة .

---

١. المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ص ١١٧.

وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور[1].

فإن أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلمَّ إلى النظر في السورة منه؛ حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لنرى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز - بقدر ما يتَّسع به جمال اللغة - قد يجعله أكثر الكلام افتنانًا.؟ نعني أكثر تناولاً لشئون القول وأسرع تنقلاً بينها، من وصف إلى قصص إلى تشريع، إلى جدل، إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئون وشئون.

أولست تعلم أن القرآن - في جُلِّ أمره - ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة؟ بل كان ينزل بها آحادًا متفرقة على حسب الوقائع والدَّواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها، والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعته مستتبعًا لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعًا للتواصل والترابط.

ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام، أو تقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟!

1. إعجاز القرآن، الإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1406هـ/1986م، ص60، 61.

خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضًا متباينة، أو خذ مِنْ كلام مَنْ شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك، وحاول أن تجيء بها سردًا لتجعل منها حديثًا واحدًا، من غير أن تزيد بينها شيئًا أو تُنْقص منها شيئًا، ثم انظر كيف تتناكر معانيها، وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام، وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المُسْتَرْسَل؟.

وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكًا، ووحدتها تمزيقًا، ذلك هو الطريقة التي اتُّبعت في ضمِّ نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم، وإنها لطريقة طريفة، سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني.

إن النبي ﷺ الذي نزل عليه الذِّكر لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولاً، بل لم يتربص بتأليف سورة واحدة منه حتى تمَّت فصولاً، بل كان كلما ألقيت إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة، في حين أن لهذه الآيات والسور في ورودها التنزيلي سببها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي؛ فكم من سورة نزلت جميعًا أو أشتاتًا بين نجوم سورة أخرى. وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولاً وتأخرت ترتيبًا، وكم من آية على عكس ذلك.

نعم، لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها وترتيبها ظاهرتان مختلفتان، وسبيلان قلما يلتقيان، ولقد خلص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني.

فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهّد لها من أسبابها، فرأيت كل نجم رهينًا بنزول حاجة ملحة، أو حدوث سبب عام أو خاص،

إذًا لرأيت في كل واحدٍ منها ذكرًا محدثًا لوقته، وقولاً مرتجلاً عند باعثته، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه، ولرأيت فيه كذلك كُلاً قائمًا بنفسه لا يترسم نظامًا معينًا يجمعه وغيره في نسق واحد.

ثم إذا نظرت في الوقت نفسه إلى ترابط كُلِّ نجم بما قبله وما بعده في نظام دقيق. لوجدت أن هناك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقع النجوم كلها قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها، وأن هذه الخطة كانت محكمة لا تنفصم عراها.

ثم إن الله ﷻ نفى الشعر عن القرآن، وعن النبي ﷺ، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس: ٦٩)، وقال في ذم الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ (الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٥) إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات، وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ (الحاقة: ٤١)، كما أن الفصحاء من العرب حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرًا، ورأوه خارجًا عن أساليب كلامهم لبادروا إلي معارضته؛ لأن الشعر مُسخَّر لهم سهل عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف.

فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عوَّلوا عليه، عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئًا مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمزيدون في هذا الشأن، وعلى الرغم من استدراك المحدثين على فصحاء العرب وبلغائهم فإن ادعائهم أنهم قد ظفروا بشعر في القرآن ادعاء باطل ووهم كاذب.

وكذلك فإن القصص في القرآن الكريم من المواضع التي يحسن فيها الإطناب، بل التكرار أحيانًا، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الإعجاز في ذاته، إنما نذكره من ناحية التكرار فيه، وموضع ذلك من سر الإعجاز، وبلاغة

القرآن، التي لا تساميها بلاغة في الوجود، وإن ذلك التكرار من تصريف القول الذي هو وجه من وجوه البيان القرآني الذي قصد إليه الكتاب العزيز، إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن، ومكانته في البيان العربي، نجد أن التكرار فيه له مغزى، ذلك أن القرآن ليس بكتاب قصص، وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة، إنما قصص القرآن ـ وهو قصص لأمورٍ واقعية ـ يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وبيان ما يُقاوَم به النبيّون، ووراءهم كل الدعاة للحق، فهو قصص للعبرة بين الواقعات، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة؛ ولذلك قال الله ﷻ في آخر قصة نبي الله يوسف ﷺ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)[1].

وعلى هذا يسقط الادعاء بأن القرآن الكريم مُشتَّت في موضوعاته وأخباره، أو أنه مضطرب في أفكاره؛ لأنه قد ثبت إعجاز القرآن، وعظمة سره البياني والبلاغي.

أما الحديث عن سر النِّظام الإيقاعي في لغة القرآن هذا النظام الذي رقّت له القلوب وذرفت له العيون، وما رقَّت القلوب ولا ذرفت العيون قَبْلُ لقول أحدٍ من العالمين كما ذرفت لكلام رب العالمين ورقت له، **ونُجْمل هذا الجانب في النقاط الآتية:**

إن السورة على كثرة نجومها وطولها لا يبدو عليها انفصال النظم، فما ظنك بما دونها من سور المفصل؛ حيث جرى التنجيم في بعض القصار منها، كالضحى، والماعون، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين.

---

[1]. المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة، ص ١٤٩ ـ ١٥٠، باختصار، مرجع سابق.

إن بيان إعجاز القرآن أمرٌ جسيمٌ أرهق العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا، فجفَّت من دونه أقلامهم، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا إليه، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم، ولم تقف به إشاراتهم.

إن أول ما نجده في إعجاز القرآن تأليفه الصوتي، الذي تطرب له الآذان، فلا نسمع فيه جرس الحروف، وإنما تسمع حركاتها وسكناتها، ومَدَّاتُها وغُنَّاتها، واتصلاتها وسكناتها، في نظام مؤتلف متسق يسترعي مِنْ سَمْعِك ما تسترعيه الموسيقا والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقا ولا بأوزان الشعر، فالشعر يُقَسَّم أبياتًا وأشطارًا، وتتكرر بحوره في نغم متصل متكرر، والقطعة الموسيقية تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا، لا يلبث السمع أن يمجّها، والطبع أن يملها، أما القرآن فهو لحنٌ متنوع متجدِّد، لا تصيب النفس منه - على كثرة ترداده - ملالة وسأم، بل كلما كثر تِرْداده كثرت عذوبته على النفس.

ثم إذا ما انتقلنا من الحديث العام عن موسيقا القرآن واقتربنا قليلاً من حروفه نجد عجبًا، نجد لذَّة في رصف الحروف وترتيب أوضاعها فيما بينها، فهذا الحرف يُنْقر وذاك يُصفَرْ، وثالث يُهْمس ورابع يُجهر، وآخر يَنْزلق عليه النَّفس وآخر يَنْحبس عنده النَّفس. وهلمَّ جرًّا، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، فلا هو بالكلام الحضريِّ الفاتر ولا بالبدويِّ الخشن، بل نراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها.

ثانيًا. القرآن الكريم تحدى العرب - وهم أهل اللغة - بإعجازه اللغوي، فلقد تحداهم ﷺ أولاً في الإتيان بمثله، فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، ثم تحداهم

بعشر سور منه وقطع عذرهم بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣)[1]، وإنما قال: (مُفْتَرَيَاتٍ) من أجل أنهم قالوا: لا علم لنا بما فيه من الأخبار الخالية، والقصص البالغة فقيل لهم: " مُفْتَرَيَاتٍ إزاحة لعللهم، وقطعًا لأعذارهم، فعجزوا، فردهم من العشر إلى سورة واحدة من مثله، مبالغة في التعجيز لهم، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة: ٢٣)، أي: يشهدون لكم أنها في نظمه وبلاغته وجزالته، فعجزوا، فقال ﷺ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ مبالغة في التعجيز وإفحامًا لهم ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، وهذه مبالغة في الوعيد، مع أن اللغة لغتهم، والكلام كلامهم، وناهيك بذلك أن الوليد بن المغيرة لعنه الله كان سيد قريش، وأحد فصحائهم لما سمعه أُخرس لسانه، وبلد جنانه، وأُطفئ بيانه، وقطعت حجته، وقُصم ظهره، وظهر عجزه، وذهل عقله، حتى قال: قد عرفنا الشعر كله، هزجه ورجزه وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر! قالت له قريش: فساحر؟ قال: وما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحره، فما هو بنفثه ولا عقده، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعلى، سمعت قولاً يأخذ القلوب، قالوا: مجنون، قال: لا والله ما هو بمجنون فما هو بخنقه، ولا بوسوسته، ولا رعشته، قالوا: كاهن. قال: قد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم[2].

---

[1]. البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج٢، ص ١١٠، ١١٢ ، بتصرف يسير.

[2]. المرجع سابق، ص ١١٠، ١١١.

كما أن القرآن جاء بجوانب إعجازيّة بهرت الناس كافة، منذ نزوله، وحتى لحظة كتابة هذه السطور، وما زالت تنكشف لنا حقائق قد ذكرها القرآن مصداقاً لقوله ﷻ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣]

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن القرآن سبق العلم الحديث بألف وأربعمائة عام في شتى المجالات، سواء منها ما ارتبط بالفلك، أو علوم البحار، أو علوم الأجنة، أو الطب، أو ما يرتبط بالمعادن وثروات الأرض، أو ما يرتبط بعلوم دراسة المايكروبات والجراثيم ...إلخ وغير ذلك كثير.

وعلى هذا فقد ظهرت عظمة القرآن وإعجازه سواء في النظم، أو اللغة، أو البلاغة، أو الأفكار، والأخبار، أو الأسلوب والبيان، وبطل اتهام القرآن بعدم الإعجاز، قال ﷻ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

الشبهة الستون

استنكار التّكرار في القرآن الكريم (*)

مضمون الشبهة:

يستنكر بعض المشككين من التكرار في القرآن الكريم، كما في سورة الرحمن، سورة التكاثر، وكذلك قصص الأنبياء في كثير من السور: مثل: قصة آدم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء.

ويزعم هؤلاء أنه لو تُخفّف من التّكرار في القرآن؛ فلن يتبقى منه الكثير، وأن ثروة القرآن المُعجمية ضئيلة؛ مما أدى إلى ضعف بناء الجملة، واللجوء إلى الحشو، ومزج الخيال بالواقع خاصة في قصة موسى عليه السلام، وهذا مُخالف للعقل والمنطق.

وجوه إبطال الشبهة:

القرآن الكريم هو كلام الله المُعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحِكَمِه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحُجُب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصولٌ، وفي كل فصل منها فروعٌ ترجع

(*) الاستشراق والقرآن العظيم، الدكتور محمد خليفة، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ـ مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

www.islamyat.com - www.ebnmaraym.com

حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، محمود حمدي زقزوق، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م ـ حقائق القرآن وأباطيل خصومه ـ شبهات وردود: عبد العظيم المطعني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ٢٠٠٢م ـ ١٤٢٣هـ.

إلي أصول، وقد تحدّى محمد ﷺ رسول الله النبيّ العربيّ الأُميّ العربَ بإعجازه، وحكى لهم عن ربه القطعَ بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نَبْتته، ونَقَلَ جميع المسلمين هذا التحدّى إلي جميع الأُمم فظهر عجزها أيضًا، وقد نقل بعض أهل التصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة في القول أنهم تصدُّروا لمعارضة القرآن في بلاغته ومحاكاته في الفصاحة دون هدايته، ولكنهم على ضعف رواية الناقلين عنهم لم يأتوا بشيء تقرُّ به أعين الملاحدة والزنادقة فيحفظوه عنهم ويحتجُّوا به لإلحادهم وزندقتهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء : ٨٨).

وقد زعم المشككون في القرآن الكريم أن فيه تكرارًا وحشوًا، واستدلوا على ذلك ببعض سور القرآن وآياته؛ ظنًّا منهم أنها تدعِّم شبهتهم.

وهذا الزعم مردود من وجوه:[1]

١) التكرار في القرآن جاء ليؤدي وظيفتين: دينية، و أدبية.

٢) التكرار في القرآن أتى بصور متعددة، وكل صورة منها تودي وظيفة في زيادة المعنى من ناحية محددة ومن هذه الصور:

- **تكرار أداة** تؤدي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفي الجملة ركنيها.
- **تكرار كلمة** مع أختها لداعٍ؛ بحيث تفيد معنى لا يمكن حصوله بدونها.
- **تكرار فاصلة** في سورة واحدة على نمط واحد.

[1] . حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، أ.د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ٧٦- ٩١، بتصرف يسير.

○ **تكرار قصة في مواضع متعددة مع اختلاف في طرق الصياغة وعرض الفكرة.**

التفصيل:

إن الذي دفع هؤلاء المشككين إلي إثارة هذا الزعم هو جهلهم باللغة العربية وأسرار البيان، فهو السبب الحق الذي ضلَّ بهم وجعلهم يرون القرآن كلامًا من الكلام يُجرون عليه الحُكم الذي يجري على غيره، كما يظن الجاهل الذي ليس في نظره معانٍ عقليةٍ كلَّ صورة ككل صورة وكل حصاة ككل جوهرة، ويذهب يُقيم البرهان علٰى صحة نظره من الخطوط والتقاسيم والألوان والأوصاف....

أَمَا عَلِمَ هؤلاء أن أرباب الفصاحة وعلماء البلاغة قد حاروا في كشف البيان عن وجوه إعجاز القرآن، بعد أن ثبت عندهم بالوجدان والبرهان... فالقرآن في البيان والهداية كالروح في الجسد، والأثير في المادة، والكهرباء في الكون: تُعرف هذه الأشياء بمظاهرها وآثارها، ويعجز العارفون عن بيان كُنْهِها وحقيقتها، وفي وصف ما عرف منها أو عنها لذةٌ عقليةٌ لا يُستغنى عنها، كذلك ما عرف من أسباب عجز العلماء والبلغاء عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن في الهداية والأسلوب، أو حسن البيان، فيه لذاتٌ عقليةٌ وروحيةٌ، وطمأنينةٌ ذوقيةٌ وجدانيةٌ، تتضاءل دونها شُبهات المُلْحِدين، وتنهزم من طريقها تَشْكِيكات الزنادقة والمرتابين.[1]

ويذكر الشيخ محمد عبده أن لكلام الله أسلوبًا خاصًا يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه، أما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ وصور الجمل فأولئك

---

١. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكمتاب العربي، بيروت، لبنان، ص٢٠، بتصرف يسير.

عنه مبعدون... ويقول أيضا: فَهْمُ كتاب الله ﷻ يأتي بمعرفة ذوق اللغة، وذلك بممارسة الكلام البليغ.[1]

أمّا ما ادعاه بعض هؤلاء عن ظاهرة التكرار في القرآن فمردودٌ عليه من الوجوه التالية:

أولاً. التكرار فى القرآن جاء ليؤدى وظيفتين: دينية، وظيفة أدبية.

فمن الناحية الدينية: فإن من أهم ما يؤديه التكرار هو تَقْرِير المكرر وتوكيده، وإظهار العناية به؛ ليكون في السلوك أمثل وللاعتقاد أبين.

ومن الناحية الأدبية: فإن الهدف من التكرار في جميع مواضعه هو تأكيد المعني، وإبرازه في معرض الموضوع وبيانه.

ثانيًا. التكرار في القرآن أتى بصور متعددة منها:

الموضع الأول: تكرار الأداة:

ونضرب لذلك مثالاً بقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النمل: ١١٠).

وقد تكررت إِنَّ في الآية، وكان يمكن - في الظاهر - أن يستغني عنها في نهاية الآية فيقال: **لغفور رحيم** وهو خبر إِنْ الأُولى، فما **سبب التكرار**؟!

السبب هو طول الفصل بين إِنْ الأولى وخبرها، وهذا أمر يُشْعر بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله إِنَّ وهو التوكيد؛ لهذا اقتضت البلاغة إعادتها، لنلحظ النسبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد، هذا علاوة على أن حذفها سيؤدي إلى الاضطراب وعدم التناسق، ومثال ذلك من الشعر:

---

[1]. المرجع السابق، ص٢٠.

وإن امرءًا طالت مواثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم

الموضع الثاني: تكرار الكلمة مع أختها:

ومثاله قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد: ٥)، حيث تكررت كلمة **أولئك** في الآية ثلاث مرات،

فما السر وراء هذا التكرار؟

في هذا التكرار نجد حسنًا وروعة؛ **فالأولى والثانية** تسجلان حكمًا عامًّا على منكرى البعث وهو:كفرهم بربهم وكون الأغلال في أعناقهم، **والثالثة**: بيان لمصيرهم المهين ودخولهم النار ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يَعْقُبه خروج منها، ولو أسقطت **أولئك** في الموضعين الثاني والثالث لاضطرب المعنى، فتصبح الواو الداخلة، على ﴿الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ واو حال، وتصبح الداخلة على: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عاطفة عطفًا يضطرب معه المعنى؛ لذا حَسُنَ التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته.

الموضع الثالث: تكرار الفاصلة:

وسنكتفي هنا بإيراد موضع واحد تكررت فيه (الفاصلة)؛ لنرى ماذا يمثله ذلك التكرار، وهل هو غير مفيد ـ كما زعموا ـ أم هو على العكس من ذلك؟!

التكرار في سورة الرحمن:

لقد تكررت فيها عبارة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة، ويمكن أن يشمل عدة ملاحظات حول هذا التكرار منها:

١ .أن هذا **التكرار** هو أكثر صور التكرار الواردة في القرآن على الإطلاق.

٢.أنه ـ **أي التكرار** ـ قد مُهِّد له تمهيدًا رائعًا، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية متَّحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة "الميزان" ثلاث مرات متتابعة دون نُبُوٍّ أو ملل، وهذا التمهيد قد أتاح مساحة كبيرة، حتى كان بمثابة مقدمة طبيعية؛ لتألَفَ النفس التكرار الذي سيرد بعد ذلك.

٣. إن الطَّابع الغالب على هذه السورة، هو طابَع تِعْداد النِّعم على الثقلين: "**الإنس والجن**"، وبعد كل نعمة يعددها تأتي عبارة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، وعلى هذا يمكن فهم التكرار في هذه السورة: على أنه تَذْكير وتقرير للنعمة، وأنها بمكان فلا يمكن إنكارها.

الموضع الرابع: التكرار في القصص القرآني:

ومن الملاحظ أن القصص القرآني يغلب عليه التكرار، إلا في قصة واحدة، وهي قصة يوسف ﷺ؛ وذلك لأنها تتحدث عن جريمة خُلقية، وهي محاولة امرأة العزيز إغراءه، وفي سبيل صيانة الأعراض اكتفى القرآن بسوقها مرة واحدة، والقصص القرآني في جملته مسوق لغرضين:

أولهما: تَسْلية الرسول ﷺ وتَثْبيت فؤاده، وأنه لم يكن بدعًا من الرسل، فهم خولفوا مثلما خولف، وحق على المخالفين العذاب ويَنصُر الله رسله وجنده.

ثانيهما: تهديد المخالفين وزجرهم، وبيان مصير أمثالهم لعلهم يقلعون عن غيِّهم.

وهذه الدواعي محققة في كل مرة وَرَد فيها التكرار على أنه يمكن أن يلاحظ على تكرار القصص القرآني ما يلي:

١. عدم تَوَحُّد الصِّياغة في كل موضع كُرِّرت فيه القصة؛ وفي هذا إيحاء بأنها جديدة متجددة دائمًا، وليس فيها سآمة أو ملل، بل ترويح وطرافة.

٢. كذلك فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية، لم يكن لمجرد التهديد أو التسلية، بل إن التكرار يحول المكرر إلى معتقد.

٣. ومن عادة العرب إذا اهتمت بشيء أرادت تحقيقه: كررته، وكأنها تقيم التكرار مَقَام المُقْسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء.

٤. إن في التكرار تقريرًا للمعاني في الأنفس، وتثبيتًا لها في الصُّدور، ألا ترى أنه لا سبيل لحفظ العلوم، إلا بترداد ما يُراد حفظه منها، وكلما زاد ترداده: كان أمكن له في القلوب، وأوسع له في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان.

٥. وهناك حقيقة مهمة، وهي أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب؛ بل إن كثيرًا من المستشرقين قد شهدوا بذلك منهم: "جردنبيادم" كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتاب "**الإعجاز القرآني**"، ولا شك أن الفضل ما شهدت به الأعداء.

ولنأخذ مثالاً على ذلك، ولتكن قصة آدم ﷺ لنلحظ فوائد التكرار فيها:

هذه القصة وردت في سبع سور، في سبع مرات، وترتيب السور التي وردت فيها القصة حسب نزولها هي: **في المكي:** (ص، الأعراف، طه، الإسراء، الحجر، الكهف). و **في المدني:** (البقرة).

ومن الواضح أن نصيب العهد المكي من القصة كان وفيرًا بالقياس إلى العهد المدني، ولنأخذ موضعًا واحدًا لنلحظ أثر التكرار فيه:

قال ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥). وفي موضع آخر يقول: ﴿فَكُلَا﴾ (الأعراف:١٩).

لقد جاءت الآيتان بنسق واحد غالبًا إلا في:

١. قوله ﷻ في البقرة: ﴿ وكلا ﴾وفي الأعراف: ﴿فكلا﴾ .

٢. قوله ﷻ في البقرة: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، وعدم وجودها في الأعراف.

ويمكن توجيه الاختلاف، أن السكن في البقرة للإقامة، وفي الأعراف لاتخاذ المسكن، فلما نسب القول إليه ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ ؛ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل؛ ولذلك قال فيه: ﴿رَغَدًا﴾ ، وقال: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ؛ لأنه أَعَمُّ، أمَّا في الأعراف فقد قال ﷻ: ﴿يَا آدَمُ﴾ ؛ فأتى بالفاء الدالة على الترتيب، فالأكل يأتي بعد المسكن الذي أمر باتخاذه، وقوله: ﴿حَيْثُ﴾، لا يعطي عموم من حيث شئتما.

ونلاحظ من خلال الشاهد الذي أوردناه:

١. أن المواضع التي كررت فيها القصة لا تكون غالبًا بنسق واحد في الصياغة.

٢. أن كل موضع يفيد معنى جديدًا لا يستفاد من غيره من المواضع.

ولو ذهبنا نتتبع كل المواضع التي ورد فيها التكرار في القرآن الكريم، لوجدنا أنه يأتي لإفادة معانٍ عظيمة في كل مرة، فضلاً عمّا فيه من التوكيد، فأين موضع التشكيك الذي يتوهمه المتوهمون؟!

ومن البلاغة التي وردت في هذه الآية الكريمة: قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ، فالمنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها "ولا تقربا" القصد منه المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل

بطريق أبلغ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾؛ فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه[1]

وتكرار القصص فى القرآن له حِكَم عديدة، منها:

١. **بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها:** فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتُصاغ فى قالب غير قالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد فى نفسه معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى.

٢. **قوة الإعجاز:** فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى.

٣. **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عِبَرها فى النفس:** إذ التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون؛ لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل ـ فضلاً عن أن القصة لا تُكَرَّرُ فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤. **اختلاف الغاية التى تُساق من أجلها القصة:** فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام، وتُبرز معان أخرى فى سائر المقامات، حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

---

[1] صفوة التفاسير، محمد على الصابونى، مرجع سابق ، جـ١، ص٣٥.

الشبهة الواحدة والستون

التشكيك في إعجاز القرآن عن الإتيان بمثله(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن ليس معجزة لغوية؛ فمن مارس شيئًا من صناعة الشعر أو الكتابة، وآنس من نفسه اقتدارًا في البيان يستطيع أن يأتي بمثل القرآن(**).

---

* النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، ط٤، ١٩٧٧م - ١٣٩٧هـ ـ اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٠م، من قضايا القرآن نظمه، وجمعه، وترتيبه. www.islamyat.com

** ذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله؛ ليس لكونه جامعًا لثمرة كتبه ـ فحسب ـ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩). (مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص ١٥).

و القرآن: اللفظ العربي المعجز الموحَى به إلى محمد ﷺ المتعبد بتلاوته، والواصل إلينا عن طريق التواتر، وإذا تأملنا في هذا التعريف وجدنا فيه قيودًا أربعة، هي: المعجز، الموحَى به، المتعبد بتلاوته، المتواتر.

١. وقد ذكر في تفسير قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾(القيامة): أن قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ،أي: إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فإذا قرأه عليك جبريل، فأنصت لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرك شفتيك أثناء قراءته.

٢. وتفسير قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ،أي: وإذا تُليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر، واسكتوا عند تلاوته؛ إعظامًا للقرآن وإجلالاً. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾،أي: لكي تفوزوا بالرحمة.

٣. ونجد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ،أي: ونزلنا عليك القرآن المنير بيانًا شافيًا بليغًا لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين؛ فلا حجة لهم ولا معذرة، قال ابن مسعود: قد بيَّن

وجوه إبطال الشبهة:

القرآن الكريم كتاب الله الذى أعجز البشر أن يأتوا بمثله، وإعجازه لهم من وجوه عدة: لغته، ومعانيه، وبلاغته، وبيانه، وما فيه من تشريعات سنَّها الله لعباده، وما فيه من حقائق علمية يؤكدها العلم كلما تطورت البشرية.

ويزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم ليس معجزا فى لغته ولا بيانه، ويَّدعون أن من يتمكن من اللغة العربية وفنونها الأدبية شعرًا أو نثرًا، ويدرك قدراتها فى التعبير يستطيع أن يأتى بمثل القرآن الكريم فى نظمه وأسلوبه

لنا في هذا القرآن علم كل شيء. (صفوة التفاسير، د. محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة)

وأما عن معانى ما يُستصعب من الكلمات المتعلقة بمعنى القرآن فنوردها على النحو التالى:

أولاً: المعجز: ويُقصد منه ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان، اللذين أعجزا بلغاء العرب كافة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدي المتكرر.

ثانيًا: المُوحَى به: ومعناه المنزَّل عليه من الله ﷺ بواسطة جبريل، وهذا أهم قيد في تعريف القرآن وتحديد ماهيته.

ثالثًا: المتعَبَّدُ بتلاوته: وتعنى أن من خصائص هذا الكتاب الكريم، أن مجرد قراءتهُ تُكسب القارئ أجرًا ومثوبة من عند الله ﷺ، وأن ذلك يعتبر نوعًا من العبادة المشروعة، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءة شيء منه، ولا يغنى عنه غيره من الأذكار، أو الأدعية، أو الأحاديث.

رابعًا: وصوله عن طريق **التواتر**: معناه أن قرآنية آية من القرآن، لا تثبت حتى تصل إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتفاقها على الكذب، ترويها عن جموع مثلها إلى الناقل الأول لها (سيدنا محمد ﷺ). بعد أن تنزلت عليه وحيًا من الله ﷺ

فإذا تأملنا هذه القيود الأربعة تصورنا حقيقة القرآن خالية عن أي لَبْس بالحديث النبوي، أو القراءات الشاذة، أو الحديث القدسي، أو ترجمة حرفية، أو غير حرفية للقرآن. (من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، سوريا، ص ٢٥)

ولغته، وقد أوقعهم فى هذا الوهم الباطل ما لمسوه فى القرآن الكريم من وضوح ويسر، وسلاسة فى التعبير والبيان.

ويمكننا إبطال هذه الشبهة من وجوه:

١) لقد جاءت كل معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ مادية، وهي في عالم المحسوس "الظاهرة التبعية المعجزة"،أما بالنسبة للنبي محمدﷺ فقد كانت معجزته الخالدة هي القرآن الكريم، الذي لا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بمثله، أو حتى بمثل أصغر سورة منه.

٢) إن في التاريخ لعبرًا تُؤْثَرُ عن أناس حاولوا هذه المحاولة؛ فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن، ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عواره، باقٍ عاره، ولقد سجل التاريخ عجز أهل اللغة أنفسهم عن ذلك في عصر نزول القرآن نفسه، - وما أدراك ما عصر نزول القرآن - وهو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي - وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها؛ حتى أدركت هذه اللغة أشدَّها، وتمَّ لها بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها.

٣) إن التحدِّى الذي ساقه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا لا يزال قائمًا، وعلى الرغم من التقدم الهائل فى شتى المعارف البشرية لا يجرؤ أحدٌ على قبول هذا التحدي.

التفصيل:

أولاً. لقد جاءت كل معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ مادية في عالم المحسوس، أمَّا بالنسبة للنبي ﷺ قد كانت معجزته الخالدة في القرآن الكريم الذي لا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بمثله، أو حتى بأصغر سورة من سوره.

فسيدنا محمد ﷺ كانت معجزته الخالدة هي القرآن نفسه، أي أن القرآن هو التصديق وهو النبوة معًا، ولم تأته النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض، وبما أن محمدًا ﷺ، خاتم الأنبياء، فيجب أن تبقى معجزته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح، ويتضح ذلك في عدة نقاط وهي:

١. نبوة محمد ﷺ التي هي القرآن والسبع المثاني سبق فيها الطرح المعقول عن المدرك من المحسوس بصياغة مشابهة، فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر، أي: مطابقة المدرك من المحسوس مع النص، وهذا ما يصدِّق قول الله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣)، وهذا هو السبب الثاني في أنه سُمِّي قرآنًا من الاستقراء، حيث إن السبب الأول: هو المقارنة، وهو قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ؛ فقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء : ٣٣)، والفلك هو الاستدارة، فكل شيء فى هذا الكون من أصغر الجزيئات إلى أكبرها يتحرك ضمن أفلاك ـ أى حركة منحنية ـ ، هذا ما عرفناه الآن ووصفه القرآن قبل أربعة عشر قرنًا فى عالم المعقولات، والآن أصبح في عالم المحسوسات والمعقولات معًا[1].

٢. لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود، بحيث تُفهم فهما نسبيا حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يحاول فهم القرآن فيه، فقد حوى القرآن الحقيقة

١ . الكتاب والقرآن، الدكتور محمد شحرور، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ص ١٨٦، وما بعدها.

المطلقة، والفهم النسبي لهذه الحقيقة في آن واحد، وهذا ما لا يمكن لإنسان أيًا كان أن يفعله.

٣. أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز فهو: أننا نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللغوية، هما: الصياغة العلمية الموضوعية، كصياغة إسحاق نيوتن، وألبرت أنشتاين، وابن الهيثم لنظرياتهم، وهناك الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية، كصياغة شكسبير، وبوشكين، والمتنبي، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن، وأنشتاين، وابن سينا، وابن الهيثم، صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين، وشكسبير، دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية، ودون أن تكون على حسابها؟

إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة، وهذا هو الوجه الثالث من الإعجاز.

إن كل ما كتب عن إعجاز القرآن عند السلف، إنما يتعلق بالجزء الأدبي من الوجه الثالث للإعجاز. نقول: إنه لو كان الإعجاز فقط أدبيًا، وافترضنا أنه لا يمكن تقليد صياغة القرآن من الناحية الأدبية الفنية، فهذا يعني أن الإعجاز واقع على العرب فقط دون غيرهم؛ لأن الصياغة القرآنية جاءت بلسان العرب.

والحقيقة أن هذا الإعجاز واقع على العرب وعلى غيرهم من الأقوام؛ لأن المطلوب هو إتيان الناس بمثله، كل فى لغته، العربي بالعربية، والفارسي بالفارسية، والإنكليزى بالإنكليزية، وهكذا دواليك. فلو كان المقصود بالإعجاز الصياغة فقط دون المضمون، لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من الناحية الصنعية فقط[1].

١ . الكتاب والقرآن، د. محمد شحرور، مرجع سابق ،ص ١٨٧، ١٨٨، بتصرف يسير.

وعلى ذلك: فإن معجزة القرآن اللغوية خالدة على مر الأزمان، ولا يستطيع أحد من البشر أن يأتى بمثله على الإطلاق.

لقد سجل التاريخ عجز أهل اللغة أنفسهم فى عصر نزول القرآن ـ وما أدراك ما عصر نزول القرآن ـ هو أزهى عصور البيان العربى، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي وهل بلغت الجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية فى ذلك العصر من العناية بلُغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدَّها، وتمّ بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها.

ورغم ذلك التفوق تحدَّاهم القرآن أفرادًا وجماعات، وكرر التحدِّي في صور شتى متهكمًا بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨) وقال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤)، فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم الباتّ المؤبَّد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ،ثم هددهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألدَّاء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طَوْدٍ شامخ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف : ٩٧)، حتى ابتيأسوا من قدرتهم، واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا

أن ركبوا متن الخوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن القلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها، أقوامٌ لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا على هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ (سبأ : ٥٤).

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزًا، وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم، مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائمًا أمامهم من الوجدان والبرهان؛ لا يزال هذا دأب القرآن إلى أن تقوم الساعة[1].

ثانيًا. وإن في التاريخ لعبراً تؤثر أناس حاولوا مثل هذه المحاولة، فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن، ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، بادٍ عوارُه، باقٍ عارُه وشنارُه، فمنهم عاقل استحيَى أن يتم تجربته فحطَّم قلمه وصحيفته[2]، ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن

١ . النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، ط٤، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٢ . لا يأتون بمثله: محمد قطب، دار الشروق، مصر، ص٧.

تروج فيهم سخافة، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين، ومنهم طائش برز بها إلى الناس فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين.

ومن هذه المحاولات ما ظهر منذ فترة على الشبكة الإلكترونية من كلام مسجوع من تأليف عربيٍّ يدين بالإسلام، يعيش في أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآني، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهي بحرف الميم أو النون مسبوقة بمد يائي، أو واوي، وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل كما قال الشاعر:

وَإِنِّـي وَإِنْ كُنْـتُ الأَخِـيرَ زَمَانُـه ... لآتٍ بِمَـا لَـمْ تَسْـتَطِعْهُ الأَوَائِـلُ

كما ظن أنه بعلمه هذا قد أبطل التحدِّي الذي تحدَّى الله به الإنس والجن، حين قال ﷻ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وكأنه يقول: هاأنذا قد أتيت بمثله، وإذًا فقد أبطلت التحدي، وأبطلت دعوى إعجاز القرآن الذي قامت عليه رسالة محمد ﷺ، وإذًا فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمد ﷺ.

ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب، قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن[1].

---

١. من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء فرقتي القاديانية و البهائية ؛لتكون دستورًا دينيًا لهم كالقرآن، وقد لفقوها تلفيقًا ركيكًا من آيات قرآنية وكلمات عامية، وبدلوا فيها أصول الإسلام، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية، ولكن أتباعهم لم يجرأوا أن يذيعوا تلك الكتب، وشمس العلم طالعة، فأخفوها إلى أن يجيء وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب، وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالهم، فلينظروا آخر الدهر.

وكما مرَّ الزمان، وبَطُلت سجعات مسيلمة، سيظل القرآن هكذا يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن حدَّث نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى، فلينظر في تلك العبر، وليأخذ بأحسنها، ومن لم يستح فليصنع ما يشاء.

ومن السابق ذكره يتبين أن العرب ببلاغتهم وفصاحتهم لا يستطيعون أن يأتوا بآية من مثله، مع أن القرآن نزل بلغتهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَمْ

وفي عصرنا هذا برز علينا من يزعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن، فألف هذه السورة - إن جاز التعبير "قل يا أيها الذين آمنوا إن كنتم تؤمنون بالله حقًّا، فآمنوا بي ولا تخافوا، وإن لكم عند الله جنات نزلاً فلاأسبقنكم إلى الله لأعدها لكم، ثم لآتينكم نزلة أخرى، إنكم لتقوموا السبيل إلى قبلتي العليا، فقال لهم توما الحواري: مولانا إنا لا نملك من ذلك علمًا فقال عيسى: أنا هو الصراط إلى الله حقًّا ومن دوني لا تستطيعون إليه سبيلاً، ومن عرفني فكأنما عرف الله، وإنكم منذ الآن تعرفونه وتنصرونه يقينًا".

ولا يخفى على القارئ ما في النص من تلفيق، فضلاً عن ركاكة الأسلوب وفساد العبارة. فأما التلفيق فواضح حيث إننا نقول لصاحب هذا النص المنحل: هل كان النص زمن عيسى ﷺ فإذا كان النص فكيف يتحدى القرآن الناس ولم يخرج هذا الذي يفوق القرآن من أتباع عيسى ﷺ ؟!، وإذا لم يكن، فقد حرنا في فهم هؤلاء، فمرة يقولون: صلب عيسى، فكيف بمن صلب قبل مولد نبينا ﷺ بأكثر من خمسمائة سنة يقول بعده بأكثر من ألف سنة ما يتحداه به، وإذا كان فمن الذي أخذ عن عيسى ﷺ هذا الكلام؟ وكيف بنبي من أولي العزم من الرسل أن يتحدى نبيًا مثله تمنى أن يكون من أتباعه؟!

إنه الآن لا يخفى أن المحاولات التي حاولت أن تأتي بمثل القرآن ساذجة، وليست من المعارضة في شيء؛ لأن المعارضة أن تعمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد، ومن يحاول ذلك في القرآن؛ فإن ذلك محال، والتجربة أصدق شاهد وخير برهان.

يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾(يونس: ١٣).

ومن الآية يتضح التحدِّي العظيم الذي تحدَّاه القرآن لأعدائه.

وعلى غرار ما ذُكر يبرهن القرآن مدى إعجازه، وأنه لا يمكن لأي مغرور أن يأتي بسورة من مثله، ولو أصَّر هذا المغرور بما ملك من ملكات أدبية، وكَبُرَ عليه أن يقرَّ بعجزه وقصوره، دعوناه إلى الميدان ليجرِّب نفسه، ويبرز قوته، قائلين له: أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، غير أننا نعظه بواحدة أخرى: ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الرؤية، ويحكم الموازنة، وحتى يستيقن الإحسان والإجادة فإن فعل ذلك كان أدنى أن يتدراك غلطه، ويواري سوءته، وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع غرَّ أصحابها الغرور؛ فانطلقوا يواجهون هذا التحدِّي، وأُولى هذه الوقائع ما حدث مع الشاعر العربي **لبيد بن ربيعة**، الشهير ببلاغة منطقه، وفصاحة لسانه ورصانة شعره، فعندما سمع بأن محمدًا ﷺ يتحدَّى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردًا على ما سمع وعلَّقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازًا، لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلَّقها إلى جوار أبيات لبيد، ومرَّ لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي، ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ، فأذهلته الآيات القرآنية، حتى أنه صرخ من فوره قائلاً:

"والله ما هذا بشر، وأنا من المسلمين"[1].

وكذلك نجد أن القرآن الكريم تحدَّى الملحدين في بعض من سوره، وفي هذا التحدِّي ينهج القرآن نهجًا تنازليًا مع الملحدين؛ حيث يتنزَّلَ معهم إلى أقل قدر ممكن من التحدِّي، حتى لا تكون لهم حجة، وتثبت عليهم الحجة.

ومن هذا المنطلق، يتحدَّى القرآن كل من تسوَّل له نفسه محاولة الإتيان بمثله، وليستعن على ذلك بمن يستطيع معاونته من البشر.

إن سورة الإسراء تؤكد تلك الحقيقة الناصعة في الإعجاز القرآني، وإن الإنس والجن معًا لو اجتمعوا على قلب رجل واحد منهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلن يأتوا بمثله، وفي ذلك تقول السورة الكريمة: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

ولما عجز المشركون عن الإتيان بمثل القرآن تراه يتنزل معهم إلى الأدنى من مثله، فيتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله.

ثم ها هي سورة هود تعرض لذلك التحدِّي في سخرية ومشاكلة عجيبة تقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود ١٣-١٤].

ومن البديهي أن يعجز الماديون المشركون عن مواجهة ذلك التحدِّي الأدنى، ورغم ذلك يدفعهم العناد والإصرار على المكابرة إلى توالى افتراءاتهم وأكاذيبهم على

1. الإسلام يتحدى، تأليف وحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، مراجعة، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٢٢، سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠١م، ص ١٢٤.

الله، وهنا يتنزل القرآن معهم إلى أقل قدر ممكن يتحقق معه الإعجاز، ومن ثَمَّ يطلب منهم أن ياتوا بسورة من مثله، أيةِ سورة ولو كانت قصيرة.

وذلك تقول سورة يونس: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس : ٣٨).

كما تؤكّد سورة البقرة هذا التحدِّي فتقول: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤)

ثالثًا.يقول ﷻ عن القرآن الكريم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء : ٨٨]

إن التحدِّى الوارد في هذه الآية الكريمة لا يشمل العرب في زمن نزول القرآن وحدهم، إنما يشمل الإنس والجن في كل مكان وزمان، حتى فى وقتنا الحالى وإلى يوم الدين، وهذا التحدى الوارد في الآية والذي يشمل القرآن كله، قد خفَّفه الله تعالى، واكتفى أن يأتى المخالفين بسورة واحدة فقط تماثل سورة القرآن المجيد.

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة٢٣-٢٤)

وفى واقع الأمر إننا نجد أن هذا التحدّي المذكور في هذه الآية يمثل أقل بكثير من ١٪ من القرآن، فالتحدّي لا ينص على ضرورة الإتيان بسورة طويلة، بل يمكن للمعارضين والمتشككين أن يأتوا بسورة تُماثل السورة الصغيرة، وإن أصغر السور

وأقصرها هى سورة الكوثر التي تتكون من عشر كلمات عدا البسملة. ولكن القرآن يؤكد على أن المعارضين والمتشككين لن يستطيعوا أن يأتوا حتى بسورة قصيرة من عشر كلمات تماثل سورة الكوثر القصيرة. فإذا عرفنا أن القرآن بأجمعه يتكون من ٧٧٨٤٥ كلمة، فإن تحدّي المعارضين أن يأتوا ولو بسورة واحدة تتكون من عشر كلمات لهو أمر في غاية السهولة واليسر، إذ إنه يُمثل نسبة ٧٧٨٤٥:١٠، ومع هذا .. فإن الله تعالى يؤكد بكل اليقين على أن الذين فى قلوبهم ريب.. لن يستطيعوا أن يقبلوا هذا التحدّى البسيط في حجمه .. العظيم في مضمونه.[1]

إن هذا هو التحدّي الذى ذكره الله تعالى على لسان رسوله ﷺ الذي لم يكن شاعرًا ولا أديبًا، ولم يحضر ندوات الشعر ولا منتديات الأدب، بل إنه حتى لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة، ومع ذلك تحدّى جميع أبطال العالم من الأدباء والشعراء والعلماء والحكماء.. أن يتكاتفوا سويا ويجمعوا جهدهم ويوحّدوا طاقتهم ليأتوا بسورة قصيرة.. تتكون من عشر كلمات تماثل أقصر سورة من سور القرآن الكريم، ثم يقول لهم بكل جرأة وبأتم يقين: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤)

إن الأمر إذًا ليس مجرّد طفرة بشرية .. وليس بسبب تقدم علمي أو تأخر تقنى، فرغم اختراع القواميس الإلكترونية التي هي في حجم الكتيب الصغير، والتي تستطيع أن تترجم أية كلمة إلى عدة لغات بمجرد الضغط على بعض الأزرار،فإن الإنسان لم ولن يتمكن من أن يؤلف سورة تضارع صغيرة من سور القرآن الكريم.. حتى ولو كانت تتكون من عشركلمات فقط.

ولننظر إلى هذا التحدّى من زاوية مختلفة :

[1] .القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٢١.

إذا افترضنا أن بطل العالم في القفز سجل مترين فى ارتفاع القفز، فيأتى رجل لم يسبق له تعلم أساليب القفز ولا سبق له التمرين عليه، فيقول إن الله تعالى.. بقوة خاصة من عنده ﷻ يمكّنه من أن يقفز مسافة تزيد عن تلك التي يقفزها جميع أبطال العالم فى القفز ٧٧٨٤ ضعفا، ثم يقفز بالفعل في الجو هذه المسافة التي تبلغ (٢ ×٧٧٨٤ = ١٥٥٦٨ مترا) أي: مسافة تزيد عن ١٥كيلو متر. فمن بين البشر يستطيع ذلك؟ من ذا الذي يستطيع أن يقفز مسافة خمسة عشر كيلوا مترا في الهواء إلا إذا كان بالفعل مؤيدا بقوة خاصة من الله تعالى؟

هذا هو تحدي القرآن .. إنه يقف شامخا عاليا .. يَجدع أنوف المكذبين والمعارضين، ولعل من حق بعض الناس أن يتساءل عن سبب هذا العجز البشري أمام عظمة هذا التحدي الإلهي، وقد يعجب الإنسان المعجز ويقول: أية صعوبة في تأليف جملة من عشر كلمات.. لماذا لا أحاول؟ إن وضع عشر كلمات ليعطوا معنى معيّنا ليس بالأمر الصعب ولا المستحيل..فلماذا لا نجرب؟[1]

غير أنه قبل أن نبدأ هذه التجربة المثيرة... لابد لنا من وقفة لتوضيح بعض الأمور حتى لا يُساء فهم ما نرمي إليه. إننا لا نزعم أبدا أننا نستطيع أن نكتب مثل ما أنزل الله ـ وإن زعم غيرنا ذلك ـ ولا نقول بتاتا إن ما نكتبه يُماثل كلام الله وإن قال غيرنا هذا. وإن كل ما نفعله هو أننا نحاول أن نقدم للقارئ المتشكك فى القرآن سورة مفتراة، كما جاء به:﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[هود : ١٣]، وذلك لكى نبين للقارئ البون الشاسع بين سور القرآن الكريم وبين السورة المفتراه.

والآن ... لنبدأ التجربة...

[1] .القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، ص٢٣.

إن سورة الكوثر تتكون من ثلاث آيات ومن عشر كلمات وهي كما يلي بدون البسملة:﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر ١-٣]

والمعنى لهذه الكلمات ليس صعبا، فـ الكوثر كما قال بعض المفسرين هو اسم نهر في الجنة، والنحر هو ذبح الذبائح كما يحدث في موسم الحج ، والشانىء هو العدو، والأبتر هو الذي لا ولد له من الذكور. وبذلك يكون المعنى العام لهذه السورة هو: إنا أعطيناك نهرا في الجنة اسمه نهر الكوثر، فصل لربك واذبح الذبائح، إن عدوّك هو الذى لا ولد له.

حسنا.. فليحاول المتشككون الآن أن يأتوا بسورة تماثل هذه السورة الصغيرة.. تتكون مثلها من عشر كلمات .. ولنخفف عنهم عبء التأليف والافتراء فنُقدم لهم سورة مفتراة، ونسهل لهم الأمر كل تسهيل ونقول: إنه لا مانع من استعمال كلمات مشابهة للكلمات التي جاءت في السورة القرآنية، فإن التحدّي لم يشترط ألا تتشابه الكلمات. وبذلك التخفيف والتسهيل يمكن أن تكون السورة المفتراة على هذا النمط:[1]

" إنا أعطيناك الكوزر، فصل لربك واشكر، إن عدوك هو الأخطر"

هذه عشر كلمات تقابل تماماً الكلمات العشر التي جاءت في سورة الكوثر. ويمكن لمؤلف هذه الكلمات أن يقول: إن كان " الكوثر " اسم نهر في الجنة.. ولكن لم يره أحد بطبيعه الحال.. فإنه يمكن القول بأن " الكوزر " اسم بحر في الجنة .. وهو أيضا لم يره أحد. أمّا بقية السورة المفتراة فهي واضحة المعنى.. سليمة الأسلوب .. رصينة البيان.. ولا شك أنها بلسان عربي مبين...باستثناء كلمة الكوزر التي قد تكون غير عربية، ولكن هذا لا يقدح في بلاغة الجملة ولا في أسلوبها العربي. فإنه يمكن القول بأن " الكوزر " اسم مكان، وأسماء الأماكن لا يُشترط أن تكون عربية حتى تكون الجملة التى تحتويها عربية.

---

[1] . القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٢٤.

وفي حقيقة الأمر.. إن السورة المفتراة... سورة الكوزر التي هى من تـأليف البشـر.. تماثل سورة الكوثر التى جاءت في القرآن الكريم، وإذا كان الأمر مجرد عقـد مقارنـة بـين الكلمات من ناحية البلاغة اللغوية، فإن كلمات سورة الكوزر تماثل تماما كلمـات سـورة الكوثر أسلوبا وتشابهها بلاغة. إذ لا يمكن أن يُنقص مـن بلاغـة الأسـلوب تغـيير اسـم مكان (**نهر الكوثر**) باسم مكان آخر، ولا يحط من سمو الأسلوب تغيير كلمة معينة مثل (**شانئك**) بكلمة مرادفة لها مثل (عدوك)، ولا يؤثر في السياق الأدبي تغيير صفة معينـة هى (**الأبتر**) باستعمال صفة مشابهة لها هي (الأخطر). إن أي منصـف غـير متعصّـب لابد أن يُقرّ بأن سورة الكوزر المفتراه.. تماثل من ناحية الأسلوب العربي والبلاغة الأدبية سورة الكوثر الموحاة. فهل يعني هذا أن التحدّي القرآني لا يقوم على أساس؟[1]

إن بعض الناس يظن أن القرآن معجزة لغوية وحسب؛ ولذلك فإنهم يتصورون أنه لا يمكن الإتيان بما يشابهه من الناحية البلاغية، وهذا ظن خاطئ عـن القـرآن المجيـد. إن الله تعالى لم يصف أبدا القرآن الكريم بأنه معجزة بلاغيـة فحسـب، بـل هـو معجـزة بلاغيـة وأدبية وعلمية وتربوية. إنه معجزة من حيث إنه كتاب سماوي يهدف إلى هداية الإنسـان إلى طريق الله تعالى. نعم إن البلاغة جزء مـن الإعجـاز ولكنهـا ليسـت كـل الإعجـاز، والتحدي القرآني لا يقتصر فقط علـى الأسـلوب البليـغ. إن الأمـر لـيس مجـرد مقارنـة كلمات متماثلة، فالقرآن ليس مجموعة من الكلمات البليغة والأساليب البيانية مرصوصة بدون معنى أو بغير مضمون.

إن القرآن كتاب .. وهو بهذه الصفة يُقدم لنا مضمونا بل مضامين، ويُبرز معنـى بـل معاني، ويتناول بالبحث موضوعًا بل موضوعات. وحين قُسِّم القـرآن إلى سـور.. كمـا يُقسَم الكتاب إلى فصول.. صارت كل سورة تعكس في جوهرها القرآن ككل، فهي أيضا تحتوي على مضامين تهم الإسلام والمسلمين، وتشمل على موضوعات تبحـث في أمـور

[1] . القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٢٥.

المـؤمنين، وتمتلـئ بالمعـانى والأنبـاء عمّـا تـأتى بـه الأيـام في مسـتقبل أتباع هـذا الدين ...فالتماثل الذى يطلبه التحدّي القرآني لـيس فقـط في الأسـلوب البليـغ، بـل في المعاني التى تُبينها آ يات القرآن، وفي النبوءات التي تحتويها تلك الآيات، والتي بتحققها... ولو بعد زمن طويل ... يتبيّن أنها أعظم دليل على أنها فعلا آيـات مـن عنـد الله تعـالى، وليست مجرد كلمات بليغة من قول البشر.[1]

وهكذا الحال عند المقارنة بين سورة الكوزر التى هـى مـن صـنع الإنسـان، وسـورة الكوثر التي هي من صنع الله تعالي. نعم .. إن هناك مشابهة في البلاغـة بـين السـورتين، ولكن كما أوضحنا فيما سبق .. ليسـت البلاغـة وحـدها هـي كـل الإعجـاز في القـرآن الكريم، وإنما البلاغة هى المظهر الخارجى فقط للألفاظ[2].

ولنعد الآن إلى سورة **الكوثر**.. إن الآيـة الأولى فيهـا تقـول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ، **والكوثر** اسم مشتق من الكثرة، وليس **الكوثر** اسما فقط لنهر في الجنة لم يره واحد، ولكـن الكوثر يدل على الكثرة التى قضى الله تعالى أن يعطيها للنبي ﷺ.. الكثـرة مـن المـؤمنين. فهذه "الآية" تتضمن نبأ غيبيًا للرسول ﷺ بأنه سوف يتبعه جمع غفير من الناس، وسـوف يؤمن به كثرة عظيمة من الأتباع، رغم أن الكثرة من الناس كانت تعارضه عند نزول هذه السورة التي نزلت في مكة أثناء عصر الاضطهاد والمعاناة في أول مراحل الدعوة. وإذا كان الكوثر اسما لنهر في الجنة أيضا.. فلا يجوز الاعتراض أو الإيماء بأن أحدًا لم ير ذلك النهر ولا يعرف ما إذا كان هذا الوجود حقيقيا أم لا؛ لأن تحقق النبوءة التى تحتويها الآية عـن نوال الرسول ﷺ للكثرة من الأتباع هو الدليل على وجود ذلك النهر فعلاً في الجنة. فالله سبحانه يقول إن فى هذه الآية تباين من أنباء الغيب.. أحدهما أن الله تعالى قد قضـى أن يهب الرسولﷺ الكثرة من الأتباع والأنصار، والثانى هو أن الله تعالى قد قضى أن يهب

---

[1] المرجع السابق، صـ٢٦.

[2] المرجع السابق، صـ٢٦.

الرسول ﷺ نهرا فى الجنة، ويمكن الاستدلال على تحقيق النبأ الثاني الذى لا يمكن أن يراه أحد الآن.. من تحقق النبأ الأول الذي سوف يرى الناس تحققه في مستقبل الأيام، فالذي حقق النبأ الأول هو الذي سوف يُحقق أيضا النبأ الثانى.

فالأمر إذا ليس مجرد كلمات مرصوصة، وليست هي أسطورة تحتوى على الأنهار أو البحار التي لم يرها أحد ولا هي مجرد وعود بأمور فى الغيب تُساق بغير دليل على تحققها، وإنما هى "آية" من آيات الله تعالى .. آية من آيات القرآن الكريم، آية تحتوي على مضمون وموضوع وأنباء غيبية، آية من صنع الله تعالى وليست مجرد كلمات بليغة مرصوصة من صنع البشر[1].

والآية الثانية: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ تحتوى علي نبأ غيبى بأن الرسولﷺ سوف يتمكن من أداء فريضة الحج، وسوف يُصلى في مكة وينحر الذبائح التي هي منسك من مناسك الحج، الأمر الذي يدل على أن رسول الله ﷺ سوف يكون له الأمر في مكة، وسوف يستتب له الأمن فيها، رغم أنه حين نزول هذه الآية كان يلقى اضطهادا شديدا من أهل مكة.. هو والقلة التى آمنت معه. وقد تحققت كل هذه الأنباء الغيبية في حياة الرسول ﷺ، وشاهد الناس تحققها. بل إن فتح مكة وخضوعها لأمر الرسول كان سببا جعل معظم الناس يصلون إلى اليقين بمصداقيته وبحقيقة دعواه، فإنهم سمعوا منه هذه الأنباء الغيبية في أول الدعوة، وظنوا أنها ليست سوى أحلام وأوهام لا يمكن أن تتحقق أبدًا فلما رأوا تحققها بأعينهم.. أدركوا أنها حقائق و "آيات" من قول الله وليست من قول البشر.

والآية الثالثة..﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ تحتوى أيضا على أنباء غيبية.. فهي تشير إلى أن أعداء الرسول ﷺ سوف يموتون دون أن يكون لهم ولد من الذكور يخلفهم ويخلد

[1] القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٢٨.

ذكراهم، فسوف ينمحى أثرهم ولا يكون لهم نسل يفخر بالانتساب إليهم، بينما يزيد نسل رسول الله ﷺ باعتباره الأب الروحي لكل أمته. كان الوليد بن المغيرة وأبو جهل من ألد أعدائه الذين ماتوا وهم كفار.. وكلاهما كان له ولد من الذكور عندما نزلت هذه السورة. الأول كان ابنه خالد بن الوليد، والثاني كان ابنه عكرمة بن أبى جهل، ولكن كلاهما دخل في الإسلام ، وكلاهما قطع كل الروابط مع أبيه، وصار لا ينتسب إلى أبيه إلا بالاسم فقط، لأنه أصبح ينتسب إلى الإسلام وإلى رسول الإسلام باعتباره رسول الله ﷺ. فالرسول هو أب لكل أمته.. كما يُبين القرآن أن أزواجه أمهات للمؤمنين يقول تعالى:﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[الأحزاب : ٦]

ولقد تحققت كل تلك الأنباء الغيبية، وفي تحققها أبلغ دليل وأقوى برهان علي أن آيات سورة الكوثر إنما هي بحق من عند الله تعالى، وأنها آيات فى كتاب عزيز..﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]

أمّا إذا قارنّا السورة المفتراة .. سورة الكوزر، بالسورة الموحاة... سورة الكوثر، في ضوء هذا البيان، نجد أن سورة الكوزر مثل الأرض الجرداء ، التى لا نبات فيها ولا ماء، ولا زرع فيها ولا شجر، ولا فاكهة فيها ولا ثمر، وإنما هي كلام مصمت مثل الحجر الأصم، أو هي كمثل الزهرة الصناعية، لا تشابه الزهرة الحقيقية إلا في الشكل الخارجى فحسب، ولكن لا وجه للمقارنة بين السورتين، ولا محل للتماثل بين سورة خاوية الوفاض من المعانى والنبوءات .. وسورة تحمل كلماتها القليلة ما لا نهاية له من المعاني ونبوءات الغيب[1].

[1]. القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٣٠.

وهكذا يظهر للعيان كيف أن آيات سورة الكوثر هي فعلاً آيات من عند الله ﷻ، وهى آيات القرآن الكريم التي تتضمن الكثير من أنباء الغيب؛ ولذلك فقد وصفه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(ص:٨٨)

والآن .. إن التحدّى الذى ساقه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا لا يزال قائمًا..

فهل يجرؤ أحد على قبول تحدّى القرآن الكريم؟ وهل يستطيع أحد أن يقدم لنا من كتابه المقدس تحديا مثلما قدم القرآن الكريم؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ١١١)![1]

ولعله يحسن بنا أن نؤكّد أن القرآن ليس مجرد كلام قد يؤتى بمثله، فهو ليس بكلام بشر، بل هو كلام رب البشر، وإن كان يحلو للمتحذلقين أن يدَّعوا أن بإمكانهم الإتيان بمثل القرآن فى نظمه ـ الذى يخيل لهم أنه سهل المنال ـ ،فَعليهم أن يعلموا أن معجزة القرآن فاقت معجزة اللغة ـ وإن كانوا عاجزين عنها وحدها ـ فاقت ذلك إلى معجزة كلامٍ يُستشفى بتلاوته من الأمراض البدنية والنفسية، وإلى معجزة كلام يؤثِّر فى النفوس التى تسمعه، وإن كانت لا تؤمن به، بل ومَن لا يفقهون العربية أصلاً، وإلى معجزة كلام يؤثِّر على الجن والشياطين؛ فلا يستطيعون أن يخترقوا حجبه، ولا أن يصمدوا فى مواجهته، هذا كله فضلاً عن كونه كلام يُنبئ عما يجهله علماء القرن الواحد والعشرين من الأمور العلمية الصرفة، غير ما فيه من الأنباء بالغيب مما مضى ومما يُستقبل من الزمان.

[1] . القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، مرجع سابق، صـ٣٣.

فإن استطاع أحد الزاعمين أن يأتى بمثله ولو فى سورة واحدة ، فقد سلَّمنا له بأن القرآن ليس بمعجزة، وإن لم يستطيعوا ولن يستطيعوا، فحرىٌّ بالمرء أن يعرف قدره، وأن يقف عند حده.

الشبهة الثانية والستون

الزعم أن اختلاف القراءات القرآنية يؤدى إلى اختلاف فى ألفاظ القرآن الكريم (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أنَّ اختلاف القراءات القرآنية يُغيّر ألفاظ القرآن، ويتناقض مع ما فى اللوح المحفوظ من تأكيد الله ﷻ على عدم وجود اختلاف فيه.

وجوه إبطال الشبهة:

القراءات القرآنية توقيفية من عند الله ﷻ، وقد قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منها"، وقد وضع العلماء للقرءات شروطًا وقواعدَ، بحيث تصُبُّ جميعا فى معين واحد.

وقد زعم بعض أصحاب الشبهات أن اختلاف القراءات فى بعض المواطن فى القرآن الكريم يُغيّر المعنى، ويناقض ما فى اللوح المحفوظ، ويتعارض مع تأكيد الله ﷻ أن القرآن لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يتساءلون: كيف يتحقق اتفاق المعنى مع وجود اختلاف فى بعض الألفاظ باختلاف القراءات؟!

وهذا الزعم مردود عليه بما يلى:

١) القراءات القرآنية وحىٌ من عند الله ﷻ، والآية التى تنفى الاختلاف هى كذلك من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، فكيف يَرِدُ التناقض من عنده ﷻ؟ ثم إن

(*) جريدة الوفد.

اختلاف القراءات لا يشمل كلَّ كلمات القرآن، بل يرد في كلمات محددة، بالإضافة إلى أن التغيرّ أغلبه صوتي؛ ومن ثَمَّ فلا أثر على المعنى ولا على الأحكام.

٢) إن الكلمة التي تُقرأ على وجهين أو أكثر، يكون لكل قراءة معنى مقبول يزيد المعنى ويُثريه، فقراءة الكلمة القرآنية على أكثر من وجه نحوي أو صرفي، يساعد على أداء المعنى، ولا يعني تضاد المعاني أو تناقض المدلولات.

٣) للتعدد حِكَمٌ عديدة منها: التيسير على الأمة ذات اللهجات المتعددة والألسنة المتباينة؛ حتى لا يَشقَّ عليها التزام وجه واحد في القراءة.

٤) الاختلاف في القراءات يعني: التنويع في طرق أداء القرآن، كما أنه لا يمسُّ أصلاً، ولا فرعًا من التشريع؛ فالقراءات لم تُحرِّم حلالاً، ولم تُحل حرامًا. أما الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه؛ فهو الذي ينفيه القرآن الكريم.

التفصيل:

أولاً. القراءات[1] القرآنية وحي من الله ﷻ، والأدلة على ذلك كثيرة، حيث تواترت نصوص السنة المطهرة بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف، ومن ذلك:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: "أقرأني جبريل على حرف فراجعتُه، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[2].

١. القراءات: جمع قراءة، وهي مصدر قرأ، أي: نطق باللفظ، فهي بالتلفظ، وتعريفها: صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة والمنسوبة إلى أئمة معينين ناقلين لها؛ كقراءة نافع وأبي عمرو...إلخ. (الموسوعة القرآنية المتخصصة).

٢. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعن أُبيّ بن كعب: "أن النبي ﷺ كان عند أضاة[1] بني غفار، قال: أتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تُطيق ذلك، ثمَّ أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل اللهَ معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تُطيق ذلك، ثم جاء الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تُطيق ذلك، ثم جاء الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا"[2].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أُساوِرُه في الصلاة، فانتظرته حتى سلَّم، ثم لببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئْنِيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعتُه يقرؤها في الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: هكذا أُنزلت، ثم قال رسول الله ﷺ :اقرأ يا عمر،

١. الأضاة: الغدير.
٢. رواه مسلم.

فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت تقريبا كررت إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منها[1].

والمراد بالأحرف السبعة - على أرجح الأقوال - أنها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد[2].

كما أن تعدد القراءات لا يشمل آيات القرآن الكريم كاملاً، بل يختص ببعض الكلمات في بعض الآيات، وقد أحصاها العلماء، وبينوا وجوه القراءات فيها.

وعلى سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)، والشاهد في الآية: كلمة ﴿مَالِكِ﴾ وفيها قراءتان:

- ﴿مَالِكِ﴾: اسم فاعل من ملك، وهي قراءة حفص وآخرين.
- مَلِك: صفة لا اسم فاعل، وهي قراءة: نافع وآخرين.

ومعنى الأولى ﴿مَالِكِ﴾: القاضي المتصرف في شئون يوم الدين، وهو يوم القيامة، أمَّا معنى مَلِك: فهو أعمُّ من معنى ﴿مَالِكِ﴾، أي: من بيده الأمر والنهي، ومقاليد كل شيء، ما ظهر منها وما خفي، وكلا المعنيين لائق بالله تعالى، وهما مدح لله ﷻ[3].

---

١. رواه البخاري ومسلم، وأبو داود والنسائي، والترمذي، وأحمد، وابن جرير.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مكتبة وهبة، ط١٣، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ١٤٨.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود زقزوق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص ٤٢.

ثانيًا. تعدّد القراءات يُثري المعنى؛ حيث إن القراءات القرآنية لا تؤدي إلى خلل في آيات القرآن الكريم، أو في تغير المعنى كما يزعمون.

ونضرب مثالاً على ذلك، قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥)، و قوله تعالى: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ .

وفاعل الفصل في القراءتين واحد هو الله ﷻ، وقد اختلف التعبير عن الفاعل في القراءتين، فهو في القراءة الأولى **يفصل** :ضمير مستتر عائد على الله ﷻ في قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: يفصل هو الآيات، فالفاعل هنا مفرد لعوده على مفرد لفظ الجلالة **الله**.

وفي القراءة الثانية عبَّر عن الفاعل: بضمير الجمع للمتكلم **نُفَصِّل**، أي: نفصل نحن، والله واحد أحد، ولكن النون في **نفصل** لها معنى في اللغة العربية، وهو التعظيم إذ كان المراد منهما فردًا لا جماعة، ووجه التعظيم بلاغةُ تنزيل الفرد منزلة الجماعة؛ تعظيمًا لشأنه، وإجلالاً لقدره.

وفي هاتين الآيتين تكثير للمعنى، وهو وصف ملازمٌ لكل القراءات[1].

ثالثًا. الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف كثيرة ومتنوعة منها:

١. تيسير القراءة والحفظ على أقوام أُمِّيِّين، لكل قَبِيل منهم لسان، ولا عهد لهم بحفظ الشرائع، فضلاً عن أن يكون ذلك مما أَلِفُوه، وهذه الحكمة نصَّت عليها الأحاديث النبوية، ومن ذلك:

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع السابق، ص ٤٩.

عن أُبيّ قال:[1] لَقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء[2]، فقال: إني بُعثتُ إلى أمة أميين، منهم الغلام والخادم والشيخ العاس[3] والعجوز، فقال جبريل: فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف.[4]

٢. المبالغة في إعجاز القرآن بإيجازه، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، وتنوع اللفظ بكلمة يقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها، لم يخف ما كان في ذلك من التطويل.

٣. سهولة حفظه وتيسير نقله، إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه، وأقرب إلى فهمه، وأدعى لقبوله من حفظه جملاً من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات، ولا سيما فيما كان خطه واحدًا؛ فإن ذلك أسهل حفظًا وأيسر لفظًا.

٤. الدلالة على اختلاف الأحكام أو على الجمع بينها، مثال ذلك قراءتا **يطهرن** بالتخفيف والتشديد[5]، من قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**﴾ (البقرة: ٢٢٢)، فإنه ينبغي الجمع بين حكميهما؛ لأن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر، بانقطاع الحيض على قراءة التخفيف، وحتى تغتسل على قراءة التشديد، فلابد من الطُّهرين معًا.

٥. ونُضيف إلى الفوائد السابقة فائدة أخرى وهي:

---

١. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والطبري بإسناد صحيح.

٢. أحجار المراء: موضع بقباء.

٣. عسا الشيخ: كبر وأسن وضعف.

٤. مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مرجع سابق، ص ١٦٠.

٥. قرأها الجمهور بالتخفيف، وقرأ بالتشديد حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل.

أن اختلاف القراءات صار حُجة لأهل اللغة؛ فالكوفيون ـ على سبيل المثال ـ يستدلون على جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، بقراءة **والأرحامِ** بكسر الميم من قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ**﴾ (النساء: ١)[1].

رابعًا. إن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث ـ نعني أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف ـ غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن؛ نقول ذلك لأن أعداء الإسلام يقولون: إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه، إذ يقول: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (النساء: ٨٢)، ويقولون: إن ذلك تناقض، ولا ندري أيهما يكون الصادق؟!

ونجيب عن هذا: أن الاختلاف الذي تُثبته تلك الأحاديث، غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن، وهذا كافٍ في دفع التناقض، فكلاهما صادق.

وبيان ذلك: أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع في طرق أداء القرآن، والنطق بألفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ.

أما القرآن، فينفي الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه، مع ثبوت التنويع في وجوه التلفظ وطرق الأداء.

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف، لا يلزم منه تناقض ولا تخاذل، ولا تضاد ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه، وتعاليمه ومراميه،

---

١. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب ط٢ ، ٢٠٠٠م، ص ٢١.

بعضها مع بعض، بل القرآن كله سلسلة واحدة متصلة الحلقات، محكمة السور والآيات، متآخذة المبادئ والغايات، مهما تعددت طرق قراءاته، ومهما تنوعت فنون أدائه[1].

كما أن الاختلاف في القراءات لا يمسُّ أصلاً من أصول الدين، ولا فرعًا من فروعه؛ حيث إنها لم تُحلَّ حرامًا، ولا حرَّمت حلالاً، ولا تتعلق بالعقائد ولا العبادات، ولا المعاملات، ولم تُثر بين المسلمين حربًا، ولا عدَّها أحد شبهة على الكتاب الإلهي، فكل كلام في هذا الموضوع من قبيل العبث، أو الفهم الخاطئ لطبيعة هذه القراءات والحكمة من تعددها؛ فلا يُقام له وزن عند المسلمين أو عند سواهم.

ونستدل على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمرًا مشروعًا، بأن قرَّاء القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هذه الاختلافات؛ فيكررون بعض الآيات على ضروب شتى، مما يدل على تمكنهم من فنهم، والمسلمون يقابلون ذلك بالتقدير والإعجاب.

فمثلاً: الإمالة: تجد القارئ يستسيغها هنا، ولا يستسيغها هناك، وإذا سألته قال: هناك وردت، وهنا لم ترد، فيدل على أنه متَّبع مُقلِّد، وهذا ينبئ أن يد التحريف لم تنل من هذا الكتاب.

نعم إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لم تنل منه أيدي المحرفين، وهذا ليس بشهادة جموع المسلمين فحسب، بل بشهادة المستشرقين المنصفين، قال المستشرق: **لوبلوا**: "إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد، الذي ليس فيه أي تغيير".

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص ١٥٧.

وصفوة القول:

إن تعدد القراءات وحيٌّ من عند الله ـ تعالى ـ ما كان للنبي ﷺ ولا أمته من بعده أن يخترعوه من تلقاء أنفسهم، بل هو تيسيرٌ ورحمة من الله لعباده، وهي كلها مسموعة من جبريل ﷺ ومنه لعامة المؤمنين، ثم شيوخ القرآن في الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أن تعدد القراءات لا يشمل إلا كلمات محصورة في بعض الآيات التي يعلمها أهل هذا الفن.

كما أنَّ هناك حِكَمٌ جليلة لتعدد القراءات منها وأهمها: التيسير على الأمة ذات اللهجات المتعددة.

ونضيف إلى ما سبق أن تعدُد القراءات لا يعني اختلاف القرآن ولا تحريفه، إنما هو نطق ألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ على وجوه من التصريف، والإعراب، والكيفية الصوتية من تشديد وتخفيض، وفتح وإمالة.

وتعدد القراءات لم يترتب عليه أي اختلاف لا في أصول الدين ولا في فروعه، وإنما هي طرق أداء صوتية، أكثر منها نحوية وصرفية، لم ينتج عنها أي اختلاف في المعاني والألفاظ.

وبهذا البيان يتضح لنا أن مثيري الشبهة جهلوا معنى تعدد القراءات، وجهلوا فوائدها، فجاء زعمهم عن جهل.

الإعجاز البلاغي في تعدد القراءات القرآنية:

لو كان هناك إنصاف لكانت الكلمات القرآنية التي تُقرأ على وجهين أو أكثر، مما يُحمد للقرآن، حيث إن ذلك التعدد يُعدُّ من قبيل ثراء النص القرآني وإعجازه.

وندلِّل على ذلك من خلال بعض الآيات القرآنية التي قُرأت بأكثر من قراءة.

• قوله ﷻ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦) بالنصب والخفض في أرجلكم، وهذا من إعجاز القرآن في إيجازه.

ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ .

وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ ، فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ[1].

• قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥)، و﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ، وفاعل الفصل في القراءتين واحد هو الله ﷻ، وقد اختلف التعبير عن الفاعل في القراءتين، فهو في القراءة الأولى **يُفصِّل**، ضمير مستتر عائد على الله ﷻ في قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فالفاعل هنا مفرد لعوده على مفرد لفظ الجلالة **الله**.

وفي القراءة الثانية عُبِّر عن الفاعل بضمير الجمع للمتكلم **نُفَصِّل** ، أي: نُفصِّل نحن.

والله واحد أحد، ولكن النون في **نُفَصِّل** لها معنى في اللغة العربية، هو التعظيم إذا كان المراد منها فردًا لا جماعة. ووجه التعظيم بلاغة تنزيل الفرد منزلة الجماعة؛ تعظيمًا لشأنه، وإجلالاً لقدره.

---

١. مباحث في علوم القرآن، منّاع خليل القطان، مرجع سابق، صـ ١٧٠، بتصرف يسير.

وللبلاغيين إضافة حسنة في قراءة **نُفصِّل** بعد قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ..﴾ وهـو مـا يسمَّى: التفاتًا، والالتفات هو الانتقال مـن الغيبـة في ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ إلى المـتكلم في **نفصل** ، للإشعار بعظمة التفصيل وروعته[1].

• قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبـة: ١٢٨)، بضـم الفـاء وفتحها في ﴿ أَنْفُسِكُمْ﴾ ، فبضم الفاء: يدل على أنه من العرب، والعرب قومه، وذو رحمه القريبة أو البعيدة، وبفتح الفاء: يدل على أنـه مـن أواسـط القـوم وأعلاهـم، فالقراءتان والكلمة واحدة، تدلان بـالنص علـى معنـيين غـير متضـادين، وكليهمـا صحيح صادق، فالنبي ﷺ كان مـن العـرب، وكـان مـن أنفسـهم، تـرتبط مشـاعره بمشاعرهم، ويحسُّ بما يحسُّون، وهو مندمج فيهم، وقريب منهم، ثـم كـان مـع هـذا القرب النفسي من أعلى العرب منزلة، وأكرمهم[2].

فبلاغة القرآن في هذه الآية هو أن مجموع القراءتين دالٌّ على معنين في لفـظ واحد متلاقيين غير متضادين.

• قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (النازعات: ٣٦)، حيث قُرئت **تَـرى** بالتاء المفتوحة، وقد احتملت القراءة عند ابن جني تقديرين، قال: إن شـئت كانـت التاء في **تـرى** للجحيم، أي: لمن تراه النار، وإن شئت كانت خطابًا للنبي ﷺ ،أي: لمن ترى يا محمد، أي: للناس، فأشار إلى بعضه، وغرضه جنسه وجميعه، كما قال لبيد:

وَلَقَـدْ سَـئِمْتُ مـن الحَيـاةِ وطُولِهَـا … وسُـؤالِ هـذا النـاسِ: كَيْـفَ لَبِيْـدُ؟

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، صـ ٤٩.
٢. المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ص ٤٩، بتصرف يسير.

فأشار إلى جنس الناس في هذا المعنى، ونحن نعلم أنه ليس جميعه مُشاهَدًا حاضر الزمان.

- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، بفتح التاء وكسرها في "خاتم".

فالقراءة بكسر التاء: جاءت على معنى أنه ﷺ قد خَتَمَهم، أي: جاء آخرهم.

أمَّا القراءة بفتح التاء: فمعناها أن الأنبياء والرسل به ﷺ قد خُتِمُوا كالخاتم والطابع، فهي على ذلك تشبيه[1].

- قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧١)، بفتح همزة أنَّ وكسرها.

فقراءة فتح الهمزة تجعل الواو عاطفة، تربط ما بعدها بما قبلها في الحكم والإعراب، وتكون الجملة حينئذ داخلة في حيز ما يستبشر به الشهداء والمؤمنون. أما قراءة كسر الهمزة فتجعل الواو استئنافية، مما يرشح الجملة بعدها لإنشاء معنى جديد[2].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٠)، حيث قرئت "الجُمَّل".

---

١. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد، مرجع سابق، ص ٣٩٢، بتصرف يسير.

٢. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مرجع سابق، ص ٣٧٩.

وعلى القراءة العامة **الجَمَل** ، يكون التركيب تشبيه في غاية الحسن؛ وذلك أن الجمل أعظم حيوان عند العرب، وأكبر جثّة. وسَمُّ الإبرة في غاية الضيق، فلما كان المثل يضرب بعِظَم هذا وكبره، وبضيق ذلك، قيل: لا يدخلون الجنة حتى يَتَقَحَّم أعظم الأشياء وأكبرها عند العرب في أضيق الأشياء وأصغرها، فكأنه: حتى يوجد هذا المستحيل. ومثله في المعنى قول الشاعر:

إذا شابَ الغرابُ أتيتُ أهلِي وصارَ القارُ كاللَّبنِ الحَليبِ

وروي عن ابن عباس **الجُمَّل** وكلها لغات في القلْس[1].

فإذا ما أردنا أن نتبيَّن الفرق بين المدلولين على كلتا القراءتين، وجدنا ثَمَّ مدلولاً يراعي المناسبة، ومدلولاً آخر لا يراعى تلك المناسبة، وإنما تتأتى بلاغته من تلك المفارقة العجيبة التي صوَّر بها استحالة دخول هؤلاء الجنة باستحالة ولوج الجُمَّل في سَمِّ الخياط، ولذلك كانت أوقع تأثيرًا في نفوس المتلقين؛ كما نجد أن التشبيه في الآية على كلتا القراءتين لم يأت على صورته المعهودة، فلا نرى تصريحًا لركنيه، ولكنهما يُلْمَحَان من السياق، ويفهمان من المعنى، وذلك ما اصطلح البلاغيون على تسميته بالتشبيه الضمني[2].

ولعله يحسن أن نختم القول فى هذا الموضوع بقول المستشرق **د. موير**: إن المصحف الذي جمعه عثمان ﷺ، قد تواتر انتقاله من يد ليد، حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حُفظ بعناية شديدة، بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل

١. القلْس: حبل غليظ يجمع من حبال كثيرة، فيفُتل، وهو حبل السفينة، وقيل: الحبل الذي يُصعد به النخل.

٢. التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد، مرجع سابق، صـ٣٩٦، بتصرف يسير.

نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم حجة ودليل على صحة النص المُنزَّل الموجود معنا، والذي يرجع إلى عهد الخليفة عثمان ﷺ الذي مات مقتولاً"[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، فتبارك من هذا كلامه.

١. مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، مرجع سابق.

المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- الأحرف السبعة وأصول القراءات، محمد محمود عبد الله، مطبعة الوراق، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- الأخطاء اللغوية في القرآن، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر.
- أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة، شبكة الإنترنت.
- الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، دار الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، مراجعة، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٢٢، سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠١م.
- أسلوب الالتفات، د. حسن طبل، دار الفكر العربى، القاهرة.
- الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن - دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
- الإعجاز الصرفى في القرآن الكريم، د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٢٨م.
- إعجاز القرآن، الباقلانى، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الإعجاز اللغوى فى القرآن، زكريا بطرس، موقع الكلمة، شبكة الإنترنت.
- إعراب القرآن وبيانه، محى الدين الدرويش، اليمامة، دمشق، ١٩٨٨م(دار بن كثير اليمامة، دمشق - بيروت).

- أوضح المسالك، ابن هشام، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٠م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديثة، الرياض، ١٩٥٤م.
- البرهان على سلامة القرآن، د. أحمد بن منصور آل سبالك، معهد علوم القرآن والحديث، الطبعة الأولى.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، القاهرة، دار التضامن للطباعة، الطبعة الثانية.
- البيان فى دفع التعارض المتوهَّم بين آيات القرآن، محمد أبو النور الحديدى، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة تحقيق السيد: أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.
- التبيان فى إعراب القرآن، العكبرى، مطبعة عيسى الحلبى، مصر، ١٩٧٦م.
- التبيان في علوم القرآن، محمد على الصابوني، مكتبة الغزالى، بيروت.
- تصريف الأسماء، الدكتور عبد الرحمن شاهين، دار النهضة العربية، مصر.
- تعدُّد أوجه الإعراب فى إعراب القرآن حتى نهاية القرن الثامن الهجرى، فوزى عبد الرازق، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٤م
- تفسير البيضاوى، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الجيل، بيروت، ط ١٣٢٩هـ/ ١٩١٢م.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار الجماهيرية الليبية، ليبيا، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (دار سحنون، تونس).
- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطى، جلال الدين المحلّى، شركة ومطبعة الحلبى وأولاده، مصر، ١٩٤١م.
- تفسير الخازن، علاء الدين على بن محمد البغدادى، شركة ومطبعة الحلبى وأولاده، مصر، ١٩٥٥م.

- تفسير الشعرواى، محمد متولى الشعراوى، دار أخبار اليوم ـ قطاع الثقافة، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م (دار الفكر)٠
- تفسير المنار، المسمى بتفسير القرآن الحكيم، محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، مكتبة المجد العربى، ط ١٩٣٤(دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت).
- تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م
- التنوير ٠٠ لا التضليل، مؤمن الهبَّاء،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية، د.أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمانى والخطابى، والجرجانى، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرمانى والخطابى، والجرجانى، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، دار الكتب المصرية، مصر(دار إحياء التراث العربى ـ بيروت، ١٩٨٥)
- حاشية الصبَّان، شرح الأشمونى لألفية بن مالك، مكتبة الإيمان، مصر
- الحجة السبعة، أبو على الفارسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشكّكين، محمود حمدى زقزوق، وزارة الأوقاف، مصر، ٢٠٠٤م

- حقائق القرآن وأباطيل خصومه شبهات وردود، عبد العظيم المطعنى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الخصائص، ابن جنِّى، دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٥٥م
- الدُّر المصون، السمين الحلبى، بهامش البحر المحيط، دار الفكر ، مصر، ١٩٨٣م.
- درة التنزيل، الخطيب الإسكافى، دار الآفاق العربية، بيروت.
- دفاع عن النَّحو والفُصحى، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطى، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت، الطبعة الأولى.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٨٠م
- دور التوابع في الجملة، فهم وتحليل، د. أحمد كشك، دار الهانى للطباعة، القاهرة.
- رَدُّ القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القُمَّص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م
- الرَّدُّ على أخطاء إلهية فى القرآن، مجموعة من العلماء، مجمع البحوث الإسلامية، مصر، ٢٠٠٣م
- رَدُّ مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبى، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م -١٤٠٢هـ.
- رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحى الفرماوى، مكتبة الأزهر، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- روح المعانى، أبو محمد الحسين البغدادى الآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٧م.
- شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، والاستشراق والقرآن العظيم.

- صفوة التفاسير، محمد علي الصابونى، على نفقة حسن عباس زكي، دار الرشيد، سوريا، ١٩٧٩م(المطبعة العربية الحديثة، القاهرة).
- عِصْمة القرآن وجهالات المبشِّرين، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٤م
- الفكر الاستشراق، تاريخه وتقويمه، محمد الدسوقى، دار الوفاء القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط شرعية ١٢، ١٩٨٧م.
- القرآن معجزة الإسلام، مصطفى ثابت، دار الناقدة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م
- القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- قصة الحضارة، وول ديورانت، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، ١٩٩٨م.
- قصص الأنبياء، الإمام الحافظ بن كثير، تحقيق محمد عبد الملك الزغبى، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، محمد متولى الشعراوى، دار القدس، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- الكتاب والقرآن، د. محمد شحرور، الأهالى ـ دمشق .
- الكَشَّاف، الزمخشرى، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٧م.
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوى، دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- لايأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، مصر.
- لباب النقول، أبو الفضل السيوطى، دار إحياء التراث، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م
- مباحث فى علوم القرآن، مناع القطان، دار وهبه، مصر، ١٩٩٠م
- المجاز في اللغة والقرآن، د. عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى.
- مجموعة من التفاسير للبيضاوى، دار الجبل، بيروت، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.
- محاسن التأويل، العلامة محمد جمال الدين القاسمى، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- المديد فى تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبه، على نفقه د/ حسن عباس ذكى، مصر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، مصر، ١٩٩١م.
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوى، دار المعرفة.
- معاني القرآن الكريم، للأخفش، مكتبة النهضة العربية، مصر.
- معانى القرآن للفراء، يحيى بن زياد الفراء، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٨٠م
- معانى القرآن وإعرابه، عبد الجليل عبده شلبى، دار الحديث، مصر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- المعانى في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر، القاهرة، ٢٠٠٢.
- المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، ١٩٩٧م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، دار المعارف، بيروت، لبنان.
- من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوى، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٢م.

- مناقشـات وردود ، محمـد فريـد وجـدى، الـدار المصـرية اللبنانيـة، الطبعـة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- مناهل العرفان، الزُّرقانى، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن. د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، ط ٤ ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول ولاصحابه، إبراهيم عوض، زهراء الشرق.

- **WWW . Ladeeni . net**
- **WWW. alkalema. Us**
- **WWW. arabic radio.Com**
- **WWW. dhr١٢.Com**
- **WWW. ebn Maryam.Com**
- **WWW. geocities.Com**
- **WWW. Islameco. Com**
- **WWW. islameyat. Com**
- **WWW. Marefa. arg**
- **WWW. Mutanasserin. net**
- **WWW. quartes. Arg. Lb**
- **WWW. saaid. Net**